ألكساندر دوما

مذكّرات هُراسيُوس

@ketab_n
Follow Me
12.5.2017

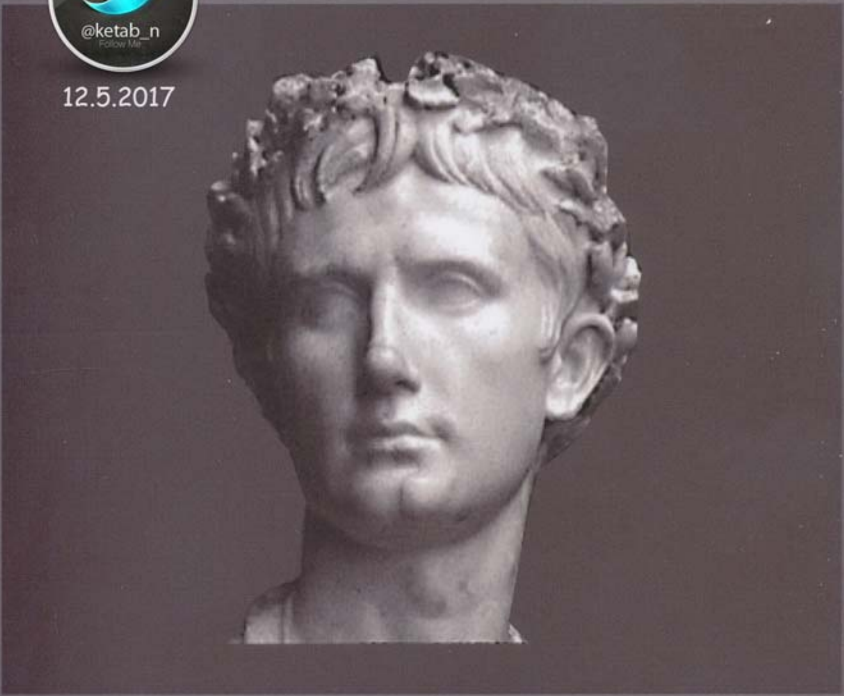

ترجمها عن الفرنسيّة

بطرس الحلاق

مشروع «كلمة»
كلاسيكيات الأدب الفرنسيّ

ألكساندر دوما

مذكّرات هُراسيُوس

ترجمها عن الفرنسيّة
بطرس الحلاق

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1436هـ 2015م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

PQ2227 .M4512 2014
Dumas, Alexandre, 1802-1870
[Mémoire d'Horace]
مذكّرات هُراسيُوس/ تأليف ألكساندر دوما؛ ترجمة بطرس الحلاق؛ مراجعة كاظم جهاد. - أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 583 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Mémoire d'Horace
تدمك: 3-395-17-9948-978
1- كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ- الحلاق، بطرس ب- جهاد، كاظم

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:
Alexandre Dumas
Mémoires d'Horace

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

مذكّرات
هُراسيُوس

Twitter: @ketab_n

المحتوى

ديباجة 7

إشارات 15

الجزء الأوّل 17

الجزء الثاني 153

الجزء الثالث 265

الجزء الرابع 489

كشّاف الأسماء الرومانيّة 579

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ديباجة

لا يشكّل هذا الكتاب مذكّرات وهميّة للشّاعر الرومانيّ هُراسيُوس Horatius (الذي يدعوه بعض الباحثين العرب، متأثّرين بالاختصار الفرنسيّ والإنجليزيّ لاسمه: «هوراس»)، بل مذكّرات موضوعة، «ملفَّقة» بمعنى التأليف وإعادة الابتكار انطلاقاً من سيرة الشاعر وإخباريّات عصره، وضعها ألكساندر دوما Alexandre Dumas في 1860. كانت تلك بالنسبة إلى الروائيّ الفرنسيّ سنة سعيدة أو ظافرة، حافلة بالإبداع، كتب فيها، هو المعروف بغزارته وعنفوانه الدائمين، وفرةً من القصص القصيرة والمسرحيّات وسيَر الكتّاب والروايات. وقد نشر مذكّرات هُراسيوس هذه مسلسلةً في صحيفة «لو سييْكل» *Le Siècle* («القرن»). وخلافاً لبعض كتبه الأخرى التي كان يستعين بمساعدين أدبيّين لتوثيق مادتّها أو لتنمية حبكتها أو بعض تفاصيلها، ليس هناك أيّة إشارة أو قرينة يمكن أن تدلّ على كونه استعان بسواه لتحرير هذا العمل. وكان قد اشترى في ذلك العام، من أجل نزهاته المائيّة، سفينة أوصى على بنائها له في اليونان. ولكنْ أمام شكواه من كلفة جلْبها إلى مرسيليا وتسجيلها وصيانتها أقنعه صديق له، دبلوماسيّ، ببيعها قبل استخدامها، ففعلَ واشترى بدلاً منها سفينة إنجليزية بثمن زهيد. نشرَ دوما فصول هذا الكتاب على أربع دفعات، تمتدّ كلّ دفعة على بضعة أسابيع يتخلّلها انقطاع وجيز، وسمّى كلّ واحدة من دفعاتها «جزءاً»، وهو الترتيب الذي

Twitter: @ketab_n

حافظت عليه طبعته الفرنسيّة وكذلك هذه الترجمة. وقبل إكمال الدفعة الأخيرة قام برحلة عبر إيطاليا على متن سفينته الآنفة الذكر، وكان اسمها إيّما Emma . وهي الفترة نفسها التي ساهم فيها بإبرام صفقة في مرسيليا لشراء بنادق لرجال الثائر الإيطاليّ الشهير غاريبالدي Garibaldi . وفورَ انتصار هذا الأخير في ثورته ضدّ فرديناندو Ferdinando ملك نابولي، صرّح الروائيّ أنّه بات يقدر أن يموت بسلام. وبرفقة غاريبالدي ورجاله الألف أمضى ثلاث سنوات في نابولي، مديراً للمتاحف والحفريّات، وأسّس جريدة بعنوان «المستقلّة» *L'Indipendente* رافق عبرها تجارب النظام الجديد. كان ذلك تعبيراً عن محبّته لحريّة الشعوب، وخصوصاً فعلَ انتقامٍ لأبيه، المحارب الشهير توما ألكساندر دوما Thomas Alexandre Dumas (1762–1806)، الذي ولد لماركيز فرنسيّ مهاجر إلى الدومينيكان (هاييتي حاليّاً) وامرأة سوداء رقيقة الحال من أهل البلاد. لمع الأب في معارك الثورة الفرنسيّة ومن بعدُ في حروب نابوليون بونابارت، وكان أوّل عسكريّ خلاسيّ أو مولَّد يُرقّى في الجيش الفرنسيّ إلى مرتبة جنرال. وقد رافق نابوليون في حملته الشهيرة على مصر، واختلف معه أثناء المسيرة من الإسكندريّة إلى القاهرة، وأدان نزعة الإمبراطور التوسّعية وسعيه إلى تحقيق مجده الشخصيّ على حساب محاربيه الذين كانوا يموتون بالمئات ظمأً ويكتوون بحرارة الشمس في الصحراء، وقفل عائداً إلى فرنسا. الحال أنّه، في طريق عودته، مارّاً بإيطاليا، اعتقله فرديناندو ذاك وأودعه الحبس. بعد سنتين عومل فيهما بفظاظة، غادر أبو الكاتب السجن على أثر انتصار نابوليون في معركة مارينـگو في 1800. غادره مريضاً ومعتلّاً، وفارق الحياة بعد ذلك بستّ سنوات، دون أن ينال أدنى تعويض عن خدمته الطويلة ومآثره الحربيّة في جيش فرنسا.

Twitter: @ketab_n

بصورة تدفع إلى الاستغراب، لم تظهر «مذكّرات هُراسيوس» هذه في كتاب أثناء حياة دوما، مع أنّه امتدّ به العمر عشر سنوات بعد ظهور عمله هذا مسلسلاً. ولم يرَ العمل النور مجموعاً في مجلّد إلّا في عام 2006 في منشورات «ليه بيل ليتر» Les Belles Lettres بباريس.

هُراسيوس (ولنا إلى سيرته وعمله عودة) هو شاعر روما القديمة، الذي يظلّ إلى جانب صديقه الشهير ڤِرجيليوس Vergilius (ڤِرجيليو في الإيطالية المعاصرة، وڤِرجيل عند الفرنسيّين) ألمع شعراء عهد أغسطس قيصر. كان شاعر الفرح ومحبّة العيش والنّهم البريء والغراميّات المتعدّدة. فكان على صورة دوما نفسه، أو أنّ دوما هو على صورته، ينتميان إلى الفئة ذاتها من عشّاق الحياة. فلا غرابة أن يخصّه بهذه السيرة الذاتيّة بشكلِ مذكّرات متخيّلة، على أنّه خيال موثّق، ينمّ عن إعجاب منقطع النظير يقرب من أن يكون تماهياً مع كبير الشعراء اللّاتين.

كان دوما مولعاً بالتاريخ القديم والثقافات القديمة، الإغريقيّة واللّاتينية بخاصّة. يمكن أن نجد شاهداً على هذا الشغف في البرنامج الدراسيّ الذي وضعه لابنه الروائيّ الشهير هو الآخر، ألكساندر دوما الابن Alexandre Dumas fils (1824–1895)، يوم بلغ هذا الأخير سنّ السابعة عشرة. يوصيه في المرتبة الأولى بتعلّم اليونانية ومعرفة تاريخ روما، وخصوصاً بقراءة الشعراء اللّاتين، وعلى رأسهم هُراسيوس وڤِرجيليوس. كما قام دوما، ضمن رحلاته العديدة، بزيارة كلّ من قرطاج (قرطاجنّة القديمة) بتونس وپومپي في إيطاليا، حيث راح يتأمّل ما صارت إليه أعظم المدن القديمة. ثمّ إنّ الثقافة القديمة حاضرة في أغلب كتاباته، كما في روايته «آكتيه» *Acté* (باسم بطلة الرواية) والسيرة غير المكتملة «أُكتاڤيوس أغسطس» *Octave Auguste* ومسرحيّتيه

Twitter: @ketab_n

«وصيّة قيصر» *Le Testament de César* و«كليگولا» *Caligula* .
وفي مقدّمة هذه الأخيرة يدعو إلى ردّ الاعتبار للثقافة القديمة فيما كان معاصروه يشعرون إزاءها بالملال. ولعلّ هذا هو ما دفعه إلى أن يتخيّل، انطلاقاً من معرفة متبحّرة بالتاريخ والأدب الرومانيّين، هذه المذكّرات لهُراسيوس التي تتمتّع في نظرنا بقيمة مزدوجة: فهي تعيد تسطير حياة الشاعر عبر أشعاره ونتف من أخباره، وترسم لنا في الأوان ذاته ما كان عليه عصره المتقلّب الموّار. ولا شكّ أنّ الروائيّ إنّما أراد في هذه المذكّرات التي يُعِيرها للشاعر الرومانيّ العظيم أن يرسم، كما في مرآةٍ، صورة عصره الحافل بالاضطرابات ذاته، أي مجمل الحياة السياسيّة في فرنسا في القرن التاسع عشر، الذي راقبه هو عبر سيرة والده الجنرال الثوريّ والنابوليونيّ من جهة، وعبر انخراطه هو نفسه في حياة مجتمعه من جهة أُخرى. وأبعد من روما هُراسيوس وفرنسا دوما، تشكّل هذه المذكّرات، التي هي في الأوان عينه رواية تاريخيّة، رحلة شائقة وأليمة في عوالم الطغيان والمطامح المتصارعة ومعارك البشر بوجهٍ عامّ.

إلى التبحّر الموسوعيّ، يلاحظ قارئ العمل قدرة فائقة على صهر العناصر والجزئيّات في كلٍّ متناغم ومتسلسلٍ بعذوبة، يتراجع فيه جفاف الوثيقة أمام سلاسة السرد. لا نَقف هنا على وقائعيّة مجرّدة، بل نقابل تبصّراً بالسياسة وأهواء البشر وتقلّبات الجمهور، ونلاقي نفوساً حسّاسة وطموحات مجهضة ولغة مضمّخة بالشعر، وشيئاً من الحكمة المتكتّمة التي لا تسقط في إرادة الوعظ أو تقديم الدروس. هذا كلّه يمنحنا الدليل على أنّ الرواية التاريخيّة، التي فرض دوما نفسه إماماً لها، تكون رائعة فنيّة أو لا تكون.

يسرد دوما الوقائع على لسان الشاعر (ومن هنا العنوان الذي صدّر

Twitter: @ketab_n

به فصول الكتاب: «مذكّرات هُراسيُوس بقلمه، عُثر عليها في مكتبة الڤاتيكان»)، مستخدماً ضمير المتكلّم بصيغة المفرد، جاعلاً منه -وكان كذلك بالفعل- شاهداً على الحروب الأهليّة التي مزّقت شعب روما وقادت إلى انهيار الجمهورية الرومانية وقيام حكم القياصرة. يرينا الكاتب نشأة هُراسيوس، وهو ابن عبدٍ مُعتَق، ودراسته وتعلّمه اللّغات والفلسفة وعلوم البلاغة. ويعرض بعين الفتى مجمل التيّارات الفكرية التي كانت توجّه قادة الحقبة وخطباءها وشعراءها. هو يختار الإبيقوريّة، وسيظلّ وفيّاً لها.

وسرعان ما تقدّم لنا المذكّرات كبار أبطال الحقبة، من شيشرون الخطيب والبلاغيّ والسياسيّ الشهير، إلى كاتون، فيوليوس قيصر، فپُمپيوس، فكْرَسُّس، فبروتُس، فمَرسِلُّس، فأنطونيوس وكلِيوپَترا وأُكتاڤيوس. وخلا الأخير منهم، يموت هؤلاء اغتيالاً، كما حدث في التاريخ الحقيقيّ.

والفصول الأخيرة تمعن، من جهة، في سرد وقائع اقتتال الرفاق الثلاثة، أعضاء الحكم الثلاثيّ الذين اقتسموا فيما بينهم حكومة العالَم: أُكتاڤيوس وأنطونيوس ولِپِدُس، ومن جهة ثانية في إعادة ابتكار غراميّات أنطونيوس وكلِيوپَترا والحصار الرهيب الذي أطبقه في النهاية أُكتاڤيوس على ملكة مصر وعشيقها أنطونيوس، والانهيار المتدرّج الذي يعيشه العشيق تحت وطأة ضربات رفيقه القديم من جهة وسلطان كلِيوپَترا المتعاظم عليه من جهة أخرى. وفي الختام لن ينال أُكتاڤيوس سوى جثّة الملكة الشرقيّة الآسرة، هو الذي كان يحلم بها مسبيّة حيّة يعرضها في مقدّمة موكب ظفره في شوارع روما.

الاغتيالات والمؤامرات والبراعات الخطابيّة والمرافعات الصاخبة

Twitter: @ketab_n

في مجلس الشيوخ وفي الأگورا أو الميدان العامّ، والدهاء البلاغيّ والمكر السياسيّ، هذا كلّه يعيد دوما خلقه عبر ألف نادرة ونادرة تشكّل بمجموعها بانوراما آسرة لذلك العصر وأمثولة بليغة لتصوُّر معيّن للسياسة لا شكّ أنّه ما برح يتسيّد مناطق عديدة في عالمنا. أضف مشاهد باذخة وأخرى بالغة الإيلام، من مصارعات الحيوانات والبشر يقيمها القائد الظافر احتفالاً بعودته، إلى التضحيات الباهظة تدفعها شعوب البلدان المفتوحة، فالنساء يشكّلن نوعاً من عملة تبادليّة وزينة لحياة الأقوياء.

يبقى أن نقدّم بعض التفاصيل عن سيرة هُراسيوس وعمله. ولد كوِنتُس هُراسيوس فلَكُّس (أو فلاكّوس) Quintus Horatius Flaccus في 65 قبل الميلاد وتوفّي في 8 قبل الميلاد. وتغطّي مذكّراته التي وضعها دوما هنا سنيّه ما بين 55 و27 قبل الميلاد، أي سنوات نشأة الشاعر ونضجه وبداية ارتقائه إلى المجد. عن عمدٍ، على الأرجح، أهمل سنوات الهدأة والرضى التي أمضاها الشاعر في كنف القيصر الظافر أغسطس. في ضرب من حيلة فنيّة، يضع على لسان الشاعر وعداً بتتمّة للمذكّرات لن يكتبها.

ربّما كان والد الشّاعر قد عمل، بعد عِتقه، محاسباً أو موظّفاً في البلدية. ما هو معروف، وما تسهب هذه المذكّرات في وصفه، هو كونه حرص على أن يؤمّن لابنه أفضل تربية ممكنة. اصطحبه إلى روما وعهد به إلى معلّم قدير. وفي سنّ العشرين، اتّجه الشاعر الشابّ إلى أثينا ودرس في الأكاَديمية، وكان بين زملائه فيها أبناء بعض أشراف روما وقادتها، كابن شيشرون. ولدى مقتل يوليوس قيصر في 15 مارس 44 ق. م.، انخرط هُراسيوس، الذي كان جمهوريّ الهوى، في قوّات بروتُس، ضدّ أُكتاڤيوس وأنطونيوس وسواهما من ورثة الدّكتاتور المغتال. وعلى الفور نال مرتبة

Twitter: @ketab_n

المدافع عن الجند، أي محاميهم والناطق بطلباتهم وشكاواهم. بعد خسارة الجمهوريّين وهزيمة بروتس ورفيقه كَسيوس في معركة فليبي بمقدونيا، قبلَ الشاعر بالعفو العامّ وعاد إلى روما.

تحمل مختلف أشعار هُراسيوس بمثابة عناوين لها أسماء الأنواع الشعريّة التي تنتمي إليها. قصائده الأولى هي من نوع الـ *ĕpōdos* (بالفرنسية: épodes)، أي «مزدوجات» أو «زوجيّات»، وهي قصائد قريبة من «الدوبيت»، فهي سلسلة من أزواجِ أبياتٍ، بيت طويل يليه بيت أقصر، ممّا يمنح القصيدة من هذا الصِنف حيويّة وتوثّباً يبرّران ترجمة الصديق بطرس الحلاّق مترجم هذا الكتاب اسمَها إلى «قصائد متوثّبة». هي أبيات تُكتب للتسلية وإثبات البراعة في النّظم، ونجد في بعض «إيبودات» هُراسيوس بحثاً عن مصادر أمل ممكن وصرخة احتجاج على التصاعد الجديد للأحقاد. إنّ صداقة مِسينَس، وهو شاعر وصديق لأغسطس قيصر، هي التي صالحت يومذاك هُوراسيوس مع محبّة الحياة، ومع الإمبراطور أغسطس (أُكتافيوس سابقاً)، الذي بدا وكأنّه الأمل الوحيد الباقي للرومان. أشعار هُراسيوس التالية، «الهجائيّات» أو «السخرويّات» *Satura* (بالفرنسيّة: *Les Satires*)، لا تنطوي، رغم دلالة اسمها المتوارثة، على الهجاء دوماً، بل هي مخاطبات فيها دعابة وإرشاد. هي رسائل فلسفيّة أو أخلاقيّة كان يكتبها في أبيات ويرسلها إلى أصدقائه، تصوّر شعب روما ومغنّيه وراقصاته وحواته وفلاسفته الشعبيّين، بلغة قريبة من لغة لوتشيليوس Lucilius (حوالى 180 ق. م.– حوالى 102 ق. م.)، مبتكر هذا الجنس الأدبيّ. وفيها كلّها انهمام أخلاقيّ وصوغ للمثُل الرفيعة ودعوة إلى الرزانة والاعتدال. يتمثّل مجد هُراسيوس الشعريّ في الكتاب الأوّل من هذه «السخرويّات» وفي مجمل أناشيده الغنائية المعنونة

Twitter: @ketab_n

«أناشيد» *Carmina* (مفردها Carmen ، بالفرنسيّة: Ode) التي أعاد فيها إحياء الشعر الغنائيّ الذي كان نجمه قد خبا منذ قرون. هي أناشيد طويلة كالمعلّقات، قصائد احتفاليّة تمجّد فرح العيش والشرب والمتعة المتقاسمة، وتذكّر بضرورة التمتّع بالحاضر وبوجازة العمر. وفي جزئها الحامل عنوان «أناشيد رومانيّة» نلقى تمجيداً لفضائل روما وعظمتها. وهي من حيث جودتها تقارَن بعمل صديقه ڤِرجيليوس «الرعويّات» *Būcŏlĭcus* (بالفرنسيّة: *Les Bucoliques* أو *Les Églogues*). وفي كلّ أشعاره، يبرز هُراسيوس بصياغاته النافذة التي كان لها أكبر الأثر على شعريّة عصر النهضة ونشوء الكلاسيكيّة الأوروبيّة.

فترة المجد الشعريّ هذه، تسبقها فترة الطفولة والتنشئة وعهد الشباب المحارِب والشاهد على الأحداث الكبرى، هي التي يعرضها دوما في عمله هذا. ما يلي ذلك، أي حياة هُراسيوس في ظلّ أغسطس قيصر، الذي جعل منه ومن مِسينَس، المذكور أعلاه، شاعرَي روما ومُنشدَي أفراح الشعب، كانت بالفعل خالية من كلّ حدث كبير. وكما يؤكّد عليه كتّاب سيرة الشاعر الرومانيّ، فإنّ سنيّه تلك، من تكريسه شاعراً وطنيّاً حتّى وفاته، تميّزت بالبحث عن الهدوء والتعلّق بالحريّة في المراس الشعريّ والحياة اليوميّة[1].

كاظم جهاد

محرّر السلسلة

---

(1) أفاد كاتب هذه السطور من بعض المعلومات الخاصّة بولادة هذا الكتاب، الواردة في المقالة المخصّصة له في «معجم الآثار الأدبية» *Dictionnaire des œuvres* في نسخته الإلكترونية، ومن بعض معطيات سيرة دوما في تقديم كلود عزيزة Claude Aziza للطبعة الفرنسيّة من هذا العمل، وأخيراً من بعض عناصر سيرة هُراسيوس في الصفحات المخصّصة له في «موسوعة لاروس» *Encyclopédie Larousse* .

Twitter: @ketab_n

إشارات

- سعياً إلى أكبر قرب ممكن من النطق الأصليّ لأسماء الأعلام، اعتمد المترجم في كتابة هذه الأسماء الحروف الحاملة نقاطاً إضافيّة. فاستخدم الحرف ڤ مقابل الحرف اللاتينيّ V، كما في ڤِرجيليوس Vergilius ؛ والحرف پ مقابل الحرف P، كما في پُمپيوس Pompeius ؛ والحرف گ مقابل الحرف G، كما في أگرِپّا Agrippa. كما أرفق بعض الحروف بحركاتِ تشكيل، من ضمّات وكسرات وما إليها، تقابل حروف العلّة القصيرة باللاّتينيّة وتساهم في تعيين لفظ الأسماء، ولذا يرجى من القارئ أن يوليها انتباهاً خاصّاً.
- جميع الحواشي غير الحاملة لاسم واضعها عائدة إلى ألكساندر دوما. أمّا حواشي الناشر الفرنسيّ والمترجم والمُراجِع فقد ذُيِّلت كلّ منها بإشارة إلى واضعها. عِلماً بأنّ الكثير من المفردات اللّاتينية وأسماء الأماكن والوظائف والرّتَب يأتي تعريفها داخل النصّ، فلم نعرّف بها في أسفله. وإنّ كون المؤلّف قد أثرى كتابه هذا بعدد من الحواشي لَيقف برهاناً دامغاً على بطلان حجّة القائلين بضرورة خلوّ الترجمة من الحواشي التعريفيّة والإيضاحات الضروريّة.
- وفي حال نسيان القارئ دلالة بعض الأسماء الرومانيّة بقدر ما يتقدّم في قراءة النصّ، يمكنه الرّجوع إلى كشّاف الأسماء في آخِر الكتاب، حيث جمعنا في صيَغ موجزة تعريفات بأكثرها تواتراً.

المحرّر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مذكّرات هُراسيُوس، بقلمه
عُثِرَ عليها في مكتبة الفاتيكان

16 فبراير 1860

الفصل الأوّل

مولدي - والدي - أسمائي الثلاثة وأصلها - ڤِنوسيا وضواحيها - سنوات الشباب الأولى - السفر إلى روما - الرحلة- طريق أَپّيوس - دخول روما

ولدت في ڤِنوسيا[1]، وهي مدينة عريقة على تخوم أپوليا ولُكانيا، تقع على السفح الغربي من منحدر ظليل، ينبجس عند أسفله جدول حلو، يصبّ بعد ستة أو سبعة أميال في نهر الأوفيديس[2]، ويشكّل كما أعتقد رافده الأساسيّ.

تنبسط ڤِنوسيا أسفلَ بركان ڤُلتور، تحيط بها جبال تتحكّم بها هي بالطرق المؤدّية إليها، فلم يكن لأبناء رُمُلوس أن يغفلوا عنها. انتزعوها من يد السَمنيّين بعد انتصارهم عليهم حوالى عام 460، ثمّ أرسلوا إليها مجموعة من المستوطنين، وشقّوا إليها طريقاً متفرّعاً من طريق أَپّيوس[3].

ولدت في 8 ديسمبر من عام 689 لتأسيس روما، في عهد قنصليّة[4]

(1) اسمها اليوم Venoza. (جميع الحواشي غير المذيّلة باسم واضعها هي للمؤلّف).

(2) اسمها اليوم Ofanto.

(3) تصل روما ببرُنديزيوم جنوب إيطاليا، بدأ أَپّيوس كلوديوس بشقّها عام 312 ق. م.

(4) لا تتمتّع المفردة «قنصُل» ووظيفته («القنصليّة») في السياق الرومانيّ القديم بمعنى =

Twitter: @ketab_n

أَورِليوس كُتّا ومِنِلوس تُركاتُس، اللذين تعرّضا، في نفس السنة، لاغتيال دبّره كَتِلينا أَوترونيوس وأنسيوس پيزو. ولم تفشل المؤامرة، كما تذكرون، إلّا بسبب تعجل كَتِلينا في الإيعاز بالبدء، قبل أن يلتئم العدد الأكبر من المتآمرين.

وفي هذه السنة بالذات تولّى يوليوس قيصر منصب ناظر المدينة، فنظّم ألعاباً رائعة زجّ فيها بثلاثمائة وعشرين زوجاً من المتصارعين بالسيوف، استمالت إليه أغلبيّة الشعب. فانتهز الفرصة ليعيد نصب تماثيل مَريوس في قصر الكَپِتوليوم ورفع غنائم انتصاراته.

والدي اسمه هُراسيُوس فلَكّوس. فأضيف اسمي الشخصي كونِتُس إلى هذين الإسمين اللّذين أُطلقا على والدي. أمّا أوّل اسمَيه فلم ينجم عن تحدّره من أحد أفراد أسرة هُراسيُوس الشهيرة -كما حاول بعضهم أن يقنعني به حين رأى حظوتي لدى أُغُسطُس- بل عن كونه مولىً من موالي مدينة تهيمن عليها قبيلة هُراسيا التي أعتقته.

يبقى اللقب فلَكّوس - أي رخو، ليّن، جبان أو ذو أذنين طويلتين أو مرتخيتين -الذي لا أدري كيف علِق بنا، والذي سخرت منه كعادتي في مثل تلك الحالة قبل أن يسخر منه الآخرون بقولهم: «هذا إن كان عند فلَكّس شيء من الرجولة»

في تلك الناحية المنعزلة من أپّوليا، قضيت سنوات شبابي الأولى، لا أبتعد عن مسقط رأسي هذا إلّا للتنزّه عبر السهول الخصبة المحيطة بمدينة

= التمثيل الدبلوماسيّ المتعارف عليه في أيّامنا. فالقناصل الرّومان هم قضاة نشأت وظيفتهم في القرن الخامس قبل الميلاد، مع بداية الجمهوريّة، واستمرّت طيلة أكثر من ألف عام. كان الشعب ينتخب كلّ عام قنصلين يضطلعان بالسلطتين المدنية والعسكرية، لا بصورة مطلقة بل يخضعان في ذلك إلى مراقبة مجلس الشيوخ والمُدافعين عن الشعب (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

فِرِنتُم[1] الصغيرة، أو لتنشّق الهواء النديّ اللذيذ المنبعث من أحراش بَنسيا[2]، أو لتسلّق المنحدر حتّى أسوار أَكِرُنسيا[3] القائمة كوكرِ النسر في ذروة شقّ جبليّ، أو للانحناء فوق فوهة بركان فُلتور المنطفئ بكلّ مهابته.

أمّا أعزّ النزهات على قلبي فكانت إلى تلك العين الجميلة **بَندوزيا**، التي أهديتُها أبيات شعر تنوّه بالسعادة التي غمرتني حين عدت إليها بعد غياب طويل[4].

ولعلّ سبب انشدادي القويّ إليها هو أنّي حظيت على ضفّتيها، لأوّل مرّة، بما جعلني أتفاءل بحظوتي لدى ربّة الشعر. فذات يوم - وهذا جلّ ما أستطيع تذكّره، إذ كنت لا أزال صبيّاً يافعاً- غفوت على سفوح الفُلتور المنحدرة باتّجاهه لُكانيا، بعد أن أرهقني اللّعب. وأثناء نومي جاءت حمائم تغطّيني بأوراق الشجر، بحيث أنّ الفلاحين المارّين دهشوا لرؤيتي نائماً في مكان تغشاه الدببة ويعجّ بأفاع سوداء، لا يحميني من شراسة تلك وسمّ هاته إلّا بعض أغصان من الآس والغار.

في غمرة تلك النزهات الصبيانية والعبث الطفوليّ، بلغت الثامنة من عمري، ففكّر والدي بالرغم من فقر حاله بتربيتي. إذ أنّ ذلك الأب الطيّب، حين رُزق صبيّاً، لم يفكّر إلّا بأمر واحد: أن يجعل من ابنه رجلاً. وتمكّن، بفضل اقتصاده في نفقات العيش، من توفير مبلغ قد يكون زهيداً في نظر الآخرين، ولكنّه بالغ الأهميّة بالنسبة إليه.

كان رجل اسمه فلافيوس قد أنشأ مدرسة في فِنوسيا، وكان كبار

---

(1) اسمها اليوم forenza.

(2) اسمها اليوم Banzi .

(3) اسمها اليوم Acerenza .

(4) «أيا نبع بَندوزيا، الأكثر لمعاناً من البلّور، إنك جدير بأن يقدّم لك النبيذ الحلو والأزهار، وغداً سيقدّم لك جدْيٌ».

Twitter: @ketab_n

نبلاء المدينة يعهدون إليه بتعليم أولادهم القراءة والحساب؛ ومع ذلك وبالرغم من أنّ تربيته كانت أرفع قدراً ممّا يحقّ لابن أحد المُعتَقين أن يسمو إليه، لم يتردّد والدي في حسم أمره بإرسالي إلى روما طلباً للعلم، بل قرّر أن يرافقني إليها بنفسه.

وسائل السفر إلى روما كانت واحدة من ثلاث: على الخيل، على متن سفينة أو في عربة مشدودة على بغال. لم يكن عندي من القوّة ما يخوّلني السفر على الخيل؛ وكان البحر -ونحن إذّاك في شهر نوفمبر- قد بدأ يهيج. فلم يبق لوالدي إلّا العربة وسيلة للسفر.

واقتصاداً في النفقات، راح ينتظر اجتماع أربعة مسافرين آخرين إلى روما، بحيث لا تتجاوز أجرة السفر، مقابل ذلك التأخّر، «فيليبيّين» من ذهب.

من المعروف أنّه حتّى توَلّي قيصر منصب «حاكم مطلق الصلاحيّات»[1]، حيث صُكّت قطعة 'فلافيوس' (أي: الذهبيّة) المعادلة لخمسة وعشرين درهماً، كانت 'الفيليبيّة' العملة الذهبيّة الوحيدة، وهي عملة إغريقيّة جُلبت إلى روما بكميّات كبيرة بعد فتح مقدونيا. وكانت العملات الفضيّة آنذاك: بيغا (القرش)، سِستِرس (قرشان ونصف)، خمسيّة، ودرهم.

اجتمع الركاب الأربعة في نهاية الأمر: اثنان من فِنوسيا، واحد من أكِرُنسيا والرابع من فُرِنتُم. بسبب هذا العدد من الركّاب، لم يبق للسائق مقعد، فبقي طوال السفر تارة متمسّكاً بالمِدرجة، وتارة أخرى راكباً أحد البغلين الأماميّين، وطوراً ماشياً قرب العربة.

(1) ترجمة للكلمة اللاتينية dictator التي تُستعمل الآن بمعنى آخر. أمّا في الأصل فتعني: الحاكم المطلق الصلاحيّات المُنتخب لمدة ستّة أشهر فقط (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وأنا أكتب هذه الأسطر في العام 739 لتأسيس روما، أصبحت الطرق التي شقّها قيصر ثمّ أگرِپّا تخترق العالم كلّه بمختلف الاتّجاهات. أمّا في ذلك الحين، أي عام 699، فكنّا نسمّي طريق أپّيوس سيّد الطرقات الطويلة، لأنّه كان فعلاً أطول الطرق المنطلقة من روما: يبدأ من باب كابينا، ويجتاز إيطاليا من غربها إلى شرقها حتّى يبلغ برُنديزيوم، فيكون مجمل طوله ثلاثمائة وثمانين ميلاً.

يخبرني والدي، ولم يكن يخلُ من بعض الاطّلاع، أنّ رقيب المدينة أپّيوس كلاوديوس هو الذي باشر بشقّه عام 442، وأوصله خلال ولايته التي دامت ثمانية عشر شهراً إلى كَپُڤا، وهي حدود أراضي روما حينئذ. فكان طوله 142 ميلاً. ولكن من الذي أكمل شقّه؟ لم يكن والدي يعلم ذلك، وأُقرّ أنّي، في هذه القضيّة، لست بأعلم منه، إذ أنّ ما غلب عليه هو اسم أپّيوس.

إنّ طريق أپّيوس مفروشة بالحصى ما بين برُنديزيوم وكَپُڤا، ومعبّدة بالبلاط ما بين كَپُڤا وروما. فقد اقتضى شقّها جهداً هائلاً؛ ذلك أنّ مقالع البلاط كانت قريبة من روما، ممّا أوجب نقل الحجارة على مسافات هائلة. إن كَيوس گرَكُس هو من بادر لهذه المهمّة وأنجزها. وقبله كانت طريق أپّيوس مفروشة بالحصى، شأنها شأن كلّ الطرق العامّة.

على جانبَي الطريق وبمحاذاته ممرّ من الحجارة المنحوتة، يتراوح ارتفاعه عن الطريق ما بين بوصتين وست بوصات ويبلغ عرضه قدمَين. على هذا الممرّ يسير المشاة عادةً، وتتخلّله، كلّ اثنتي عشرة قدماً، صُوّة (بلاطة) مُثبّتة إزاءه يقف عليها الخيّالة ليتمكّنوا من امتطاء خيلهم بسهولة، وبها يستعين المسافرون للصعود إلى العربات بعد نزولهم منها للراحة.

Twitter: @ketab_n

على مسافة مائة ميل من روما، تُطالع المسافر صوى بارتفاع سبع أقدامٍ أو أكثر، قائمة على ركائز، تدلّ المسافر على المسافة التي تفصله عن روما.

أثناء الحروب الأهليّة، أُهملت هذه الطرق كلّها بحيث أنّ حالتها تدهورت بشكل مريع. وأمّا طرق المدينة فباتت شبْه غيرِ سالكة. وكان أگريّا هو الذي قام بترميمها عام 720 من ماله الخاص. في عام 727، فرض الإمبراطور على بعض الشيوخ، ممّن بدا له أنّ ثروتهم أكبر من أن تكون قد جُمعت بأساليب مشروعة، أن يتكفّلوا بإصلاح الطرق الخارجية. كما تعهّد هو شخصيّاً بإصلاح طريق فلَمينيوس الممتدّة على 222 ميلاً، والتي تصل روما بارِنسينيوم الواقعة في طرف خليج بحر الأدرياتيك.

في ما مضى، كانت الطريق ترسم دورة كبيرة قبل أن تصل تِرّاسينا لتداور صخرة هائلة كانت تمتدّ حتّى عرض البحر. تراجع أپّيوس أمام هذه العقبة فداورها. بعد 126 سنة، تصدّى لها ڤليريوس فلَكّس فاخترقها.

أُقرّ بأنّي شعرت ببعض السعادة عندما علمت أنّ رجلاً، يحمل نفس اللقب الذي أحمله، استطاع أن ينجز، بالرغم من لقبه، هذا الإنجاز الجليل.

حُفر الجبل على مسافة مائة قدم وارتفاع 120 قدم. ففي هذا الموقع، يضيق الطريق بحيث يقتصر عرضه على 15 قدماً بينما يصل إلى 26 قدماً قبل أن يصل إليه ثمّ بعد أن يتجاوزه؛ ولا بأس أن ننوّه بأنّه يناهز الستّين قدماً ما بين فورميس وسِينوِس.

يمتد الطريق ما بين تِرَاسينا وروما بخطّ شبه مستقيم على مسافة ستّين ميلاً، ولا ينعرج إلّا في موقعين: ثلاثة أميال قبل أن يبلغ تِرّاسينا ثمّ بعد أن يخرج من أريسيا.

لم يشأ أپّيوس أن يلتفّ حول مستنقعات بُنتينُس، فبنى عبرها ممرّاً

Twitter: @ketab_n

شاسعاً طوله تسعة عشر ألف ميل، وعرضه 40 قدماً. يقوم هذا الممرّ من حين إلى آخر فوق قناطر تسيل من تحتها مياه المستنقع نحو البحر.

كنّا نقطع في كلّ يوم ما يقارب 30 ميلاً، فننطلق غالباً عند طلوع الشمس، ونتوقّف عند الساعة العاشرة فنرتاح حتّى الساعة الثانية، ثمّ نستأنف المسير حتّى الساعة السادسة أو الثامنة.

وما عدا ذلك، فالنُزُل كانت متوافرة على طول الطريق، يفصل الواحد عن الآخر أربعة أميال.

في سابع يوم من سفرنا، وأنا أسأل والدي عند رؤيتي كلّ مدينة جديدة: «أهذه روما؟»، بلغنا أخيراً ألبانو حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر.

هنا لم أحتج إلى طرح السؤال: «أهذه روما؟»، بل أطلقت صيحة دهشة، لا أكثر.

أمّا والدي، الذي لم يكن قد شاهد روما من قبل، فوقف هو أيضاً مندهشاً مثلي. أمامنا محيط من البيوت تتخلّلها جزر من الخضرة، يسطع في وسطها بياض المعابد والقصور المبنيّة بالمرمر.

وكانت تضيء هذا المشهدَ شمس خريفية رائعة تصبّ أشعّتها في الأفق البعيد الصافي، ما وراء المدينة، فيشعشع البحر التيريني وكأنه سجّادة من لازورد تتناثر فوقها خيوط ذهبيّة.

تنطلق الطريق من ألبانو بخطّ مستقيم حتّى تصل باب كَپينا. غير أنّنا لمحنا، ونحن على مشارف المدينة، حشداً هائلاً بين رائحٍ وغادٍ. فقال لنا سائقنا، وكثيراً ما كان يسافر إلى روما، إنّ طريق أَپيوس هو المتنزه الرائج، وإن كلّ هذا الحشد الذي أمام أعيننا مؤلّف من أكثر الشباب أناقة وأكثر النساء أخذاً بالموضة في روما.

Twitter: @ketab_n

واستمرّينا في المسير. بعد ساعة وجدنا أنفسنا في وسط الحشد.

كان الحشد يملأ وسط طريق أپّيوس، بينما راح المشاهدون على الجانبين يتطلّعون إليه وهم جالسون على مقاعد قائمة فوق المقابر أو على محامل يرفعها عبيد.

كان منظر هذا الحشد مستغرَباً حتّى لدى أهل روما، فكم بالأحرى بالنسبة لمن هو قادم لتوّه من أقاصي أپّوليا!

كان الحشد مؤلّفاً من شبّان ومن أولاء النسوة اللواتي اتّفق لي مراراً، بعد خمس عشرة أو عشرين سنة، أن تغنّيتُ بكثير منهنّ. كان بعض الشبّان يركبون مركبات أنيقة متنوّعة الأشكال، مفروشة بسجّاد ثمين، ومرصّعة من الخارج بالبرُنز والعاج وحتّى بالفضة، تجرّها بغال أو أحصنة موشّحة بالسُّرُج والبرفير[1] والعُدد المذهّبة؛ وبعضهم الآخر في عربات بأربع عجلات وأربعة أحصنة؛ وغيرهم في عربات بعجلتين خفيفة تجرّها ثلاثة بغال، وآخرون في عربات سفر مغطّاة بالكامل يقودونها بأنفسهم وهو جالسون على المقعد، ومنهم أخيراً في عربات بأربع عجلات وبمقعدين. غير أنّ أكثرهم كان يمتطي حصانه ويُسيّر أمامه ليشقّ له مَعبرا بين الحشد جماعة من أهل نوميديا[2] على صهوات خيلهم، أو عدّائين بجلاليب قصيرة، أو كلاباً ضخمة قُرن كلّ اثنين منها معاً بسلاسل فضيّة إلى أطواق من ذهب.

أمّا النساء، فكان أغلبهنّ في محامل مغطّاة أو مكشوفة، مرفوعة على أكتاف أربعة أو ثمانية أو اثني عشر من الرجال.

المحامل المكشوفة، كان يرافقها من الجانبين خادمتان تحمل إحداهما

(1) أي أنسجة مصبوغة بالبرفير وهو اللّون الأرجوانيّ (المُراجِع).

(2) مملكة البربر القديمة، قامت في الفترة بين 202 ق. م. و46 ق. م.، في شمال الجزائر الحالية (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

مروحة من ريش الطاووس والثانية مظلّات. وأمام كلّ منهما، تسير إماء هنديات أو أفريقيات مشدودات الخصر بكتّان من أنعم الكتّان المصري وأكثره بياضاً، وهنّ يبرزن لون جلدتهنّ بأهلّة فضّية معلّقة على صدورهنّ وحلقات فضية في أذرعهنّ. وخلف المحامل يسير عبدان من هِبيرنيا[1] أبداً متأهّبان - ما إن يروق الحسناءَ المتحوّلة الهوى أن توقف محملها- لوضع مدرجة محفورة بأناقة إلى يمين المحمل أو يساره، حتّى لا ترهق نفسها بالإشارة إلى الجهة التي تريد أن تنزل منها.

ومع الزمن اعتدت هذا المشهد؛ أو بالأحرى لم أستطع أن أعتاده، فهربت منه كما يفعل من يكره الضجيج والحشد لكونهما من أفتك الأمور بالقدرة على التفكير. ومع ذلك، فقد أثّر فيّ المشهد آنذاك تأثيراً بالغاً.

فور أن لقينا العربات والفرسان، اضطررنا على المسير بنفسِ الإيقاع. ومن السّهل أن تتصوّر منظر عربتنا التعيسة وسط تلك العربات الأنيقة. راح الناس يتنافسون في إبعاد البغال والسخرية بالناس. وحدث، مرّتين أو ثلاث مرّات، أن أمسك بعضهم بلجام البغلين وشدّه جانباً شدّاً عنيفاً بحيث أنّ عربتنا كادت تنقلب.

حاول سائقنا أن ينحاز إلى صفّ البهيمتين، غير أنّ فاتنةً من كاهنات باخوس[2]، تحمل تاجاً من أغصان الكرم وتتمدّد على جلد نمر، بسطت رمحها آمرةً اثنين من النوبيّين أن يعيدا السائق إلى رشده بسوطين مجدولَين من جلد التمساح، كانا يحتفظان بهما دائماً لينهالا بهما على الرّعاع الذين لا يسرعون إلى إخلاء السبيل أمام كاهنة باخوس الفاتنة. وفي نفس الوقت، راح فارس جميل يحرّض على السائق كلبين قويّين للغرض ذاته. ولم يخرج

(1) هي اليوم إيرلندا.

(2) أي إله الخمرة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

المسكين سليم الرِّجلَين من أنيابهما إلّا بشقّ النفس. ولم ينجُ إلّا باللّجوء إلى عريش عربته حيث بقي عالقاً كالرّاقص على الحبل.

اضطُرّ على مدى ساعة أن يبذل من البراعة، تجنّباً للسقوط، ما لا يبذله مُبحر ما بين غور هائل وغور أشدّ هولاً؛ بعدها عبرنا باب كَبينا فبلغنا المدينة.

كم كانت دهشتي حين وجدت فيها من الخلق ما لا يقلّ عما كان في الشوارع، وسمعت من الغوغاء ما في طريق أپّيوس.

ولم يكن الأمر ذا بال ما دمنا في المنطقة الأولى، أي في الحيّ الراقي، إذ كلّما رحنا نقترب من المنطقة الثالثة عشرة، أي من تلّة أڤَنتينُس، راح الهدير يزداد ليصبح ضرباً من النباح، يمدّه كلّ واحد بصراخه: فمن بائع أعواد الكبريت يسعى إلى مقايضة بضاعته بكؤوس مهشّمة، إلى حوّاء متجّول يعرض أفاعي وحيّات، تلدغه فيزيل فعل سمّها بترياق يعرضه بيعه على الجمهور لقاء قرشين لكلّ باقة؛ ومن فحّام يدفع أمامه حماراً محمّلاً بالفحم إلى بائع لحوم متجوّل يحمل، على حلقة مثبّتة على رأسه ودون أن يفقد توازنه، أمعاء متدلّية ورئات تقطر دماً.

حين وصلنا إلى زاوية السِّركُس[1] الأكبر، حيث يبدأ الطريق بالصعود نحو هضبة أڤَنتينُس، كادت عربتنا تتحطّم من جرّاء اصطدامها بعربة محمّلة بعوارض خشبيّة معدّة لدعم المنازل، التي كانت آنذاك بالغة الارتفاع بحيث أصبحت تشرف على الانهيار، ممّا دفع بالإمبراطور إلى إصدار مرسوم يحدّ ارتفاعها إلى سبعين قدماً. فقد كانت تلك العربة مُثقلة بالأحمال وغير مقرونة بما يكفي من البغال، بحيث أنّه، بالرغم من

(1) هذا المصطلح يشير عند الرومان إلى الملعب الكبير الذي تجري فيه جميع الألعاب والعروض، وهو غير ما يسمّى اليوم بالسيرك الخاصّ بالألعاب البهلوانية وعروض الحيوانات المُروّضة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

جهد عشرة رجال يدفعونها من الخلف وستّ بهائم أو ثمانٍ تشدّها من الأمام، عجزت قوى الإنسان والحيوان مجتمعةً عن توجيهها، فراحت تهبط الشارع على صراخ من تهدّد بسحقهم. وكنّا من هؤلاء. لحسن حظّنا أنّ نجّاراً يحمل عارضة خشبيّة تنبّه إلى رميها في عرض الشارع.

توقّفت العربة حين اصطدمت بذلك الحاجز، ولم ينجم عن الحادث إلّا كسر في فخذ أحدهم ورضّ ثلاثة ضلوع عند آخر.

تركنا سائقنا ينتظر أن ينفتح الممرّ المسدود بالعربة، فقفزنا من عربتنا ومشينا بمحاذاة واجهة السّركُس المسلّط باتجاه جسر سُبليسيوس. إذ كان علينا أن نتوقّف قليلاً في أحد النّزُل التي تشغل الطوابق التحتيّة من البناء الضخم القائم على طول وادي مُرسيا، ما بين هضبتَي أفَنتينُس وبَلَتينُس.

ولم نكن نخشى أن نخطئ النزل، بفضل لافتته: **دُبّ أبوليا**.

وفعلاً، بعد ربع ساعة، توقّف سائقنا على بابه ومعه المسافرون الأربعة الذين لم يشاؤوا أن يغادروا العربية كما فعلنا من قلّة شجاعتنا ونفاد صبرنا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

البّيينا - لافتتها وبسطتها - مأكولها - رأس الخروف المثوَّم - الجمهور الذي يتردّد على البّيينا.

كان نزلنا من تلك النزُل التي يطلق عليها اسم پوپينه، لأنّها تتموّن عادة لدى الپوبيه، أي القيّمين على ذبح الأضاحي، التي يبيعون حصّتهم منها لأصحاب النزُل. وهؤلاء يشترون أيضاً الخنازير البرّية والظبيان والدببة التي يصارعها المنازلون في احتفالات تدعى 'حفلات القنص'.

وكان لكلّ پُيينا، إضافة إلى لافتتها، بسطةٌ يسّمونها «أوكلتر»[1] يُقصَد بها -كما يدلّ اسمها- جلب أنظار المستهلكين. تتكوّن هذه البسطة من جرار مقرونة بسلاسل تحول دون سرقتها، ومن قطع لحم معلّقة بكُلّاب لئلّا تطالها أيدي المارّة أو أنياب الكلاب؛ تتبيّن فيها شقفاً من لحم الماعز، تُعرف من هيئتها وكذلك من غصن آسٍ يغرسه الجزّار فيها بعناية، إشارةً منه إلى أنّ الدابّة تربّت في مراعٍ مزروعة بهذه الشجيرات، وأنّ لحمها بالتالي يتميّز بالطراوة والنكهة معاً.

وإلى جانب تلك القناني وشقف اللّحم النّيء، بعض جوف إناث الخنازير، وهي من المأكولات المحبّبة لدى الشعب، والأكباد والبيض، وكذلك نماذج من الخضار المتوافرة في النزل، من حمّص وفول وجوز

(1) من اللاتينية occulus، عين، والكلمة تعني هنا: ما يجذب النظر (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وفجل وسِلق، في آنية ملأى بالماء، تبدو فيها أضخم من حجمها الطبيعيّ بنسبة الثلث.

ومن ثنايا سقف القاعة الكبرى العموميّة، التي تقوم كذلك مقام المطبخ، تتدلّى قطع اللّحم المجفّف، وحزم الخضر المجفّفة وقطع من الجبن المدوّر تخترقها من الوسط خُصلة وزّال.

في هذه البوبينه، حيث يحجز المسافر مكاناً ليلة تلو أخرى، يأكل العامّة والحرفيّون والعبيد.

أخبرْنا صاحبَ النزل فور دخولنا أنّنا قادمون بتوصية من سائقنا، فاستفسر عن حاجاتنا -وأهمُّها وجبة مناسبة- فأعدّ لنا لتوّه مائدة جهّزها بأسرع من لمح البصر بوجبة بولنتا مصنوعة من طحين ومقانق من لحم وأخرى من فصيد، وكذلك برأس خروف مسلوق بالثوم ومعه شمندر في مرقة من الخمر والفلفل.

كنت جائعاً إلى حدّ كبير، ولكن، لسوء حظّي أو لحسنه، بدأتُ برأس الخروف المثوّم فبلعت منه لقمة دون أن أتذوّقها، وبما أنّني كنت معتاداً على منتجات جبالنا من اللّحم الطازج والكستناء الحلوة والحليب الصافي، ظننت أني ابتلعت سمّاً.

فرُحت أغسل فمي بمشروب أَليكا[1] وآكل التُرمُس والملفوف النيّئ مخلوطاً بالخلّ، لكنّي لم أتخلّص من الرائحة ولا من القرف الذي يرافقها. ذلك كان السبب في كرهي للثوم كرهاً عبّرَتُ عنه بعد خمس وعشرين سنة في قصيدتي التي مطلعها:

«إن خَنق وحشٌ ذات يوم أباه العجوز بيدٍ حانقةٍ، فليُحكَم عليه بأكل الثوم».

---

(1) مشروب مصنوع من الحبوب المختمرة.

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، فإن لم أُشفَ من تسمّمي، فقد تلهّيت عن قرفي بما كان يجري أمامي. كان الليل قد هبط، وكنّا قد تجاوزنا مراحل من النهار -بساعاته الاثنتي عشرة المشمسة والموزّعة حسب القياس المتعارف عليه على ثلاثة أقسام هي: الصباح والظهر والمساء- وصرنا في الساعة الرابعة من المساء، حيث يتوقّف العمل ويخلد الحرفيّون والعبيد إلى الراحة، أو بالأحرى إلى التسلية. فالواقع أنّ تسلية عامّة الشعب في روما أبعد ما تكون عن الراحة.

فجأةً اكتظّ النزل بحشد من الناس، تدلّ ملامحهم على وضعهم الاجتماعي: ملاّحون، بما أنّ نهر التيبَريس قريب؛ وحمّالو ماء، بسبب الحمّامات العامة القريبة؛ صانعوا توابيت هبطوا من هضبة أسكِلينُس؛ كهنة العرّافة كيبيليه القادمون من هضبة پَلَتينُس مع دفوفهم؛ عبيد جباههم مدموغة دمغة الآبقين. وكانوا جميعاً يطلبون رأس الخروف الذي هيّج أحشائي والمقانق التي خرقت حلقي.

صحيح أنّهم كانوا يُخمدون ذلك الحريق بخمرة مطبوخة مصنوعة من عناصر زهيدة الثمن لا يُرى فيها أيّ أثر للعنب.

وكلّما بلغ أحدهم حدّ التخمة راح يلعب بالزهر أو بالكعاب العظميّة. إذ لم يكن يأتي أحد إلّا وقد عقد زهره أو كعوبه العظميّة في طرف ردائه أو ما يقوم مقامه من خرق قماشيّة.

لم أكن أعهد شيئاً من ذلك. والدي، تولّته الرهبة من حديث اللّاعبين، فنوى الانسحاب من المكان، غير أنّه مكث نزولاً عند إلحاحي. ولا شكّ أنّ لغة هؤلاء القوم استغلقت عليّ كلّياً، من شدّة زخرفتها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني (تابع)

ميلي الطبيعيّ إلى محبّة الرقص - غرفة نومنا - ليلة بيضاء - نسدّد الحساب ونغادر البّوبينه - حصلت من والدي على أن نسلك أطول طريق في ذهابنا إلى المعلّم أُربيليوس - هيئة الضفّة اليمنى من نهر التيبَريس- جسر سُبليسيوس.

دخلت النزلَ غانية[1]، ترافقها أو بالأحرى تتقدّمها زنجيّة تعزف على الشبّابة، ثمّ نزعت معطفها فراحت ترقص بردائها الشاشيّ وسط جوّ مشحون بصرخات الفرح وتصفيق الجمهور الحادّ، رقصةً تنبئ، من إيقاعاتها الأولى، بإباحيّة جعلت والدي يأخذني من يدي بحزم وصرامة

(1) شاع في العربيّة الحديثة استخدام المفردة «غانية» وجمعها «غانيات» و«غوانٍ» مقابل البغيّ والمحظيّة والمومس، وهو خطأ شائع أو على الأقلّ تجوّز وتنقيل للمعنى. تقرأ في مادّة «غنا» في «لسان العرب» لابن منظور: «والغانيَةُ من النساء: التي غَنِيَتْ بالزَّوْج ... والغانِيَةُ من النساء: الشابَّة المُتَزَوِّجة، وجمعُها غَوانٍ...؛ والغانية: التي غَنِيَتْ بحُسْنِها وجمالها عن الحَلْي، وقيل: هي التي تُطْلَب ولا تَطْلُب، وقيل: هي التي غَنِيَتْ بِبَيْتِ أَبَوَيْها ولم يَقَعْ عليها سِباءٌ... وقيل: هي الشابَّة العَفيفة، كان لها زَوْجٌ أو لم يكنْ...» والمعاني ذاتها تتكرّر في مادّة «غنيّ» في معجم «مقاييس اللّغة» لابن فارس، وفي مادّة «الغنى» في «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، وفي معاجم أُخرى. في هذا الكتاب تُستخدم المفردة بمعناها التجوّزيّ المُشار إليه أعلاه. وكانت البغايا والمحظيّات عند الرومان يجمعن إلى حرفتهنّ الغناء والرقص، فكنّ أقرب إلى «القِيان» عند العرب (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

ويُجبرني على الخروج.

من السّهل أن تستدلّ من ذلك على انجذابي، فيما بعد، إلى الغناء والرقص انجذاباً يفوق قرفي البالغ من رأس الخروف المسلوق بالثوم.

تقدّمَنا مضيفُنا وفي يده قنديل من الفخار سائراً بنا إلى غرفة سقفها مستدير مثل غطاء فرن.

وسرعان ما أدركنا أنّ الغرفة تشغل أعلى العقد الذي تحتل الدكّان أسفله.

لا بدّ من الاعتراف بأنّي أحسست بقرف شديد من قذارة المكان وأثاثه المحطّم. كان منزل والدي فقيراً ولكنّه ناصع النظافة. ومقارنة بما كنت أراه، بدت لي غرفتي، وهي مطليّة بالكلس ومزينّة من جوانبها بعنصر إغريقيّ بسيط، وكأنّها معبد صغير من معابد الإلهة فِستا. أحسست بقلبي ينقبض.

أدرك مضيفنا ما فعله فينا وكرُه هذا، فقال:

- أعطيتكما أفضل وأجمل ما عندي. أعرف أنْ ليس فيه شيء من الغنى، ولكن ما العمل؟ ستنقضي الليلة بسرعة، فلو كنتما على علم بوضع نزل زملائي لما شكوتما.
- لا أشكو من أيّ أمر على الإطلاق، أجاب والدي، ولكن هل سنسمع طوال الليل هذا الضجيج المرعب؟
- لا، أبداً! فقط حتّى الساعة الثالثة أو الرابعة، لأنّ حيّنا شديد الهدوء مقارنةً بحيّ سيليوس أو أسكِلينُس.

وبهذا الوعد وبذلك التمجيد للمنطقة الثالثة عشرة، انسحب متمنّياً لنا ليلة سعيدة، وأقفل علينا باب الغرفة ليضمن الأمان، لا أماننا بل أمانه هو.

Twitter: @ketab_n

لم يكن ذلك الإحساس المسبق، الذي غشاني وأنا أدخل الغرفة، إحساساً خادعاً. كان فراش السرير الوحيد، المعدّ لي ولوالدي، محشوّاً بحطام القصب لا بالصوف؛ فما أن تمدّدنا عليه حتّى انغرزت آلاف الإبر في أنحاء من جسدي، فأدركت أنّ هناك حشرات كثيرة تحول دون نوم كنت أرجوه من فرط تعبي.

لم تمرّ عليّ ليلة واحدة بمثل ذلك البطء. ثماني ساعات كانت فترة عذاب محض.

ما إن لاح الفجر حتّى هببت واقفا، وأقبلت على والدي أطالبه بالرحيل عن نزل **دُب أبوليا**. دقّ والدي بشدّة على باب غرفتنا، فقدِم مضيفنا يفتح لنا الباب وهو منتفخ العينين -إذ لم يكن قد انقضى على غفوته أكثر ساعة أو ساعتين، حسب تقديري- وراح يسألنا هل طرأ علينا أمر مزعج. فطمأنه والدي بقوله إنّنا لم ننم لحظة واحدة من جرّاء الحشرات الكثيرة التي تمتص دماءنا في هذه الغرفة، وإنّنا نعجّل في مغادرة نزله؛ ورجاه أن يقدّم له الحساب.

بغضّ النظر عن عشائنا السيّئ وعن ليلتنا المزعجة، لا بدّ أن أشيد بمضيفنا من حيث أنّه لم يغلِ أجر غرفته على الإطلاق، فلم ندفع عن العشاء والمنامة معاً سوى اثنتي عشرة سيمِساً.

استدلّ أبي على الطريق، وكان قد استفهم في فِنُزيا عن المعلّم الذي سيأخذني إليه، فذكروا له شخصاً يدعى پُپلُس أُربيليوس، من مواليد بنِقَنت. بعد أن فقد هذا الرجل ابنه ثمّ والديه اللذين ذُبحا أثناء فترة النبذ التي فرضها سِلّا ومَريوس واختلس القتلة ثروتهما -فقد اعتاد القتلة أن يرِثوا ضحاياهم- عمل مُباشراً قضائياً[1] عند أحد مساعدي القضاة في

(1) الشخص المُكلّف بإبلاغ العقود والأحكام القضائية والقيام بتنفيذها.

Twitter: @ketab_n

بلده. وحين بلغ سنّ الالتحاق بالجيش، قاتل في مقدونيا حتّى بلغ رتبة عريف. وما إن أنتهت مدة تطوّعه حتّى ترك الخدمة العسكرية ليكرّس وقته بأكمله لدراسة الأدب.

حين عاد إلى بنِفَنت، افتتح مدرسة، فنال من جرّاء تعليمه شهرة جعلته يأمل بعض الثروة، إذا ما أتيح له أن يفتتح مدرسة عامّة في مدينة عظيمة مثل روما. وعلى هذا، قدِم إلى روما سنة تولّي شيشرون القنصلية عام 692 لتأسيس روما، وأقام فيها للتدريس. ولم يخطئ في حساباته، إذ سرعان ما حظي بإقبال شديد، وتوافد على دروسه أبناء الفرسان والنبلاء. من سوء طالعه أنّه كان فظّاً لاذعاً، فنشر كتاباً بعنوان «أحاديث»، أبرز فيه الضرر اللاحق بالمعلّمين من جرّاء طموح الأهل.

إلى هذا الرجل الذي يهبّ من نومه قبل الفجر، أراد أبي أن يأخذني.

كان المعلّم پُلُّس أُربيليوس يلقي دروسه في دار كبيرة قائمة في الجزء العالي من ڤيلابرُم ما بين البَزِليكُم[1] -أو بالأحرى ما سوف يصبح بَزِليكُم جوليا- ومذابح أُپس وسيرِس، مقابل هضبة پَلَتينُس، على مقربة من باب فيومَنتانا.

للخروج من النزل، مررنا، بعد أن هبطنا سلّم غرفتنا، في جوّ خانق من أبخرة النبيذ والفحم واللّحم، ثمّ بلغنا القاعة الكبيرة حيث تعشّينا في العشية.

كانت مقفلة بعناية ومُرتَجَة من الداخل - ولم يكن ذلك اعتباطاً، إذ أنّ جماعة الأمس طالعتنا عند الباب وهي ترقد كما اتّفق لها، بعضها مستند إلى الجدار وبعضها متمدّد تحت القناطر الخالية- كانت الجماعة مكتملة بما

(1) بناء مربّع بثلاثة أروقة وقبّة في مقدّمته، يستعمله الرومان بمثابة محكمة وبيت للبورصة التجاريّة ومنتزه. اقتبست الكاتدرائية المسيحية شكله المعماريّ (المترجم).

Twitter: @ketab_n

فيها الراقصة وزنجيّتها العازفة على الشبّابة.

سدّد والدي الحساب لمضيفنا، ثمّ استفسره عن الطريق وانطلقنا.

حين بلغنا أسفل معبد هرقل پُمپيوس، لم يعد شيء يحدّ مجال نظري، فشاهدت على الضفة الأخرى من نهر التيبَريس المنطقة الرابعة عشر، أي الجَنِكولُم، التي كانت ترتفع على شكل شبه مسرح من الخضرة المنقّطة من كلّ صوب بالمعابد والصروح.

كان ما رأيناه، لدى خروجنا من جهنّم، لمحة عن الفردوس.

أمامنا، من الجهة الأخرى للنهر، معبد فُسينا مع غابته، حيث قُتل كَيوس گرَكّوس، في عام 633 لتأسيس روما، أي قبل 66 عاماً قبل أن يتراءى أمام ناظريّ فجأة؛ وكذلك مدفن نوما پُميليوس، ذلك النصب العظيم الرائع الذي تغلغل عميقاً إلى فكري عبر عينيّ، بحيث أنّي نظمت بعد عشرين سنة هذا المقطع من نشيدٍ أهديته إلى أغُسطُس:

«طالَعنا التيبَريس، وهو يرتدّ بعنف

من ضفاف إترووريا

بأمواجه المصفرّة، قالباً مدفنَ

ملكِ نوما

ومعبدَ فِستا»

وأمامنا إلى اليسار، على الضفة اليمنى من التيبَريس أيضاً، طريق پُرتيَنسِس، ومن ورائه بساتين رائعة قُيّض لقيصر أن يقدّمها إلى الشعب بعد اثنتي عشرة سنة في وصيّة أبدع مركس أنطونيوس في تأويلها. وإلى اليسار أخيراً جزيرة تيبرين، التي تبدو وكأنّها سفينة عظيمة في مرساها، يصلها بالضفة اليمنى جسر سِسْتِيس، وبالضفة اليسرى جسر فَبريسيوس، ويطلّ عليها معبد أسكولاپيوس.

Twitter: @ketab_n

هكذا تكوّنت لديّ أخيرا فكرة عن أبّهة روما.

فسألت والدي ألا يريد بدل الذهاب مباشرة إلى معلّمنا، أن يعبر النهر فوق الجسر الذي إلى يسارنا لنعود إلى ڤيلابرُم عن طريق الجسر القائم إلى يسارنا.

فحاذينا حينها طريق تريجِمِنا ومررنا أمام معبد هرقل المُظفّر حتّى بلغنا الجسر.

كان عنده عمود خشبيّ يحمل هذه اللافتة:

«هنا على هذا الجسر، عند طرفه الملامس لضفّة النهر اليمنى، أوقف المقدام هُراسيُوس كُكليس بمفرده جيش الطاغية پُرسِنّا، بينما كان رفاقه يهدمون الجسر من ورائه. وبعد أن تمّ هدم الجسر، قفز المقدام هُراسيُوس كُكليس بكامل سلاحه في النهر وبلغ سالماً الضفّة الأخرى، فيما تتهاطل عليه أسهم أعدائه».

فسألت والدي، بعد أن أقرأني اللافتة، إن كان هُراسيُوس كُكليس من أقاربنا. ابتسم والدي، ولأوّل مرّة صرّح لي، ونحن إزاء تلك الشهرة الهائلة التي عبرت القرون لتصل إلينا، عن تفاهة وضعنا الاجتماعيّ.

أُقرّ أنّه اعتراني شيء من الخجل من جرّاء وضاعتنا. ما كان أبعدني عن أن أتصوّر نفسي، وأنا آنذاك طفل يستمع إلى تلك السّيرة الضخمة، ذلك الشاعر الذي سيدّعي لنفسه الحقّ في أن يكتب في خاتمة الكتاب الثالث من «أناشيد»: «لقد رفعتُ نصباً أدوَمَ من النحاس».

عبرنا ذلك الجسر النبيل الذي سيطيح به فيضان التيبَريس بعد ثماني سنوات، قبل أن يعيد بناءه بالحجر رقيب المدينة إِميليوس لِپِدُس، ويزيل الكتابة التي نقشتها عليه الجمهورية فيستبدل باسمه المغمور، إِميليوس لِپِدُس، الاسم التاريخيّ الجليل الذي كان يُطلق عليه حتّى ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

سيتساءل المسافر يوماً في القرون المقبلة من هو أِميليوس ذاك الذي اعتبر أنّ اسمه كافٍ ليقوم مقام اسم له سموّ هُراسيُوس كُكليس.

النسيان وحده هو الجواب على ذلك التساؤل.

أمّا جسر سُبليسيوس[1]، الذي اُشتقّ اسمه من المادْة التي استعملت في تشييده، فقد أقامه أنكُس مارسيوس.

(1) اسم مشتقّ من sublica، أي الخشب.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

نزهة إلى قلعة سرڤيوس تُلّيوس - مشهد روما من جَنِكولُم- عودة إلَى داخل روما - ڤيلابرُم - وصول الغلّة البحر إلى روما - سوق الخضار - بائعو باقات الزهور - يُپيليوس أُربيليوس، أستاذاً - هيأة المدرسة - وصف المعلّم - ارتعابي- تردّد والدي - احتقار أُربيليوس لِكَتُلُّس - إعجابه بليڤيوس أَندرُنيكُس - دخولي تحت طاعة أُربيليوس - دخولي المدرسة.

سرنا والسورَ الذي بناه سرِڤيوس تُلّيوس فبلغنا أسفل القلعة، وهو أعلى موقع في المدينة، إذ يصلُ ارتفاعه إلى 300 قدم.

غالباً ما أتيت، وأنا في سنّ الرجولة، أتأمّل في هذا المكان، حيث كنت أجلس، وأنا صبيّ، دون أن أتنبّه إلى جلالة المشهد المنبسط أمام ناظريّ.

فمِن هنا يستطيع المرء أن يلحظ كيف تكوّنت وكيف توسّعت هذه المدينة التي وعدَتها كواسر رومُلُس الاثنا عشر[1] بعمر مديد على مدى اثني عشر قرناً.

(1) إشارة إلى الحكاية الأسطورية المتناقلة في التراث الروماني عن تأسيس روما على أيدي الشقيقين التوأمين رومُلُس وريمُس. تنازعا لمعرفة من منهما يهب المدينة اسمه وبالتالي يحكمها، فلجآ إلى العيافة. وقف ريمُلُس على جبل الپلاتينم وأخوه على جبل الأڤنتينوس. سبق ريمُس شقيقه إلى رؤية ستّة نسور، لكنّ ريمُلُس تمكّن من رؤية اثني عشر نسراً، وحملت المدينة في خاتمة المطاف اسمه (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

تلّتان لا يتجاوز ارتفاعهما مائة قدم. هما سَتورنيا وپلَتينُسوس -أولاهما قرية من القشّ بناها أيڤَندر، والثانية بركان خامد- يفصل بينهما وادٍ أُتّخذ بمثابة فوروم[1]، أي تلك النقطة التي صارت محطّ أنظار الكون؛ نعم، منهما بسط النسر جناحيه ليغطّي الأرض بظلّه، سابحاً وسط الغمام.

فلا ريب أنّ روما قامت، ومنذ أوّل يوم، رمزاً للجبروت. فقد تسنّى لسرڤيوس تُلّيوس، بعد 175 سنة على تأسيسها، أن يحصي فيها ثمانين ألفَ مواطن قادر على حمل السلاح، وأن يرسم نطاقاً تتّسع مساحته لمائة وستّين ألف شخص.

فهو الذي أجرى التوسيع الرابع لنطاق المدينة الذي أراده رومُلُس نهائياً، قبل أن يُجبر هو نفسه على توسيعه.

وفي أيّامنا هذه، أي بعد 674 عاماً، ها هو سِلّا مضطرّ إلى رسم نطاق جديد، نظراً لأنّ النطاق القديم، الذي شهدتُه وأنا أسير صبيّاً لأوّل مرّة بمحاذاة السور، قد انفجر.

فيما مضى، كان ينبسط داخل **البومِريوم**[2] وخارج منطقةٌ خضراء محظورة على المالج والمحراث، أي لا يحقّ لأحد أن يحرثها أو يبنيها. وأمّا اليوم فتقوم أحياء بكاملها داخل أسوار البومِريوم.

إن اتّفق لي أن آتي إلى هذا المكان أحياناً للتأمّل، فلا بدّ من الاعتراف أنّي غالباً ما أتيت لمجرّد التمتّع بالمنظر الرائع حقّاً. فمِن هنا ترى روما تحتكَ على ثلاثمائة قدم، بحيث أنك تطلّ حتّى على أعلى الأنصاب القائمة على التلال الأخرى. ومن هنا، أرى على يساري قصرَ الكَپِتوليوم، وقبالتي

---

(1) الفوروم: هو ساحة السوق حيث يجتمع الشعب، وكان يشكّل مركز الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة لروما القديمة (المُراجع).

(2) الجدار المدعوّ pomoerium هو في المدن الرومانية سور مقدّس يفصل مركز المدينة، حيث المعابد والمؤسّسات القضائية، عن محيطها، ويُمنع دخول العسكر فيه (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

پَلَتينُس، وإلى يميني تلّة الشعب أي أڤَنتينُس.

وفي أعلى ذروة، ترى وسط ذلك التراكم المدهش من الأبنية جزراً من الخضرة تنكشف عن دور يرتجف مالكوها الأثرياء كلّ مرّة يبرز فيها كَيوس گرَكّوس أو كَتِلينا أو يوليوس قيصر جديد. على يساري تمتدّ حقول مارس[1] -تلك البساتين التي يقوم أگرپا بزرعها اليوم- والمسرح الذي أقامه پُمپيوس وها هو يفرغ من افتتاحه. أغوص في الفوروم حيث ترتفع معابد وتماثيل كثيرة، تزايدت بحيث أصبح بناء أي تمثال أو معبد جديد، أثناء حكم قيصر، يقتضي إذناً خاصّاً.

وأرى نهر التيبَريس يتخلّلها؛ أراه يتلوّى مثل ثعبان هائل؛ وأراه يخرج منها عند آخر منعطف وكأنّه يتردّد في مغادرة ملكة العالَم. وأمامي في الأفق نصف مدرّج مخضوضر من تلال، تبدو أبعدها على صورة ضباب لازورديّ متموّج، وليس على شكل قفا سلسلة جبليّة متجمّد. وبعد أن أترع عينيّ من هذا المشهد، أهبط وقد نسيت كلّ ذكرى لأبحث عن بيت شعر أو أراقب صبية يلعبون بالجوز.

«كنت أسير في الطريق المقدّس، كما اعتدت، وأنا أحلم.

بمَ أحلم؟ ما أدراني! بترّهات أهيم فيها بكلّيتي.»

بدا لي المشهد، حين رأيته لأوّل مرّة في تلك السنّ، مبتذلاً. لكن، بالرغم من قلّة رغبتي في الدخول على المعلّم پُلِّس أُربيليوس، كانت زيارتي لذلك المعلّم الجليل تقرّبني من وقت الغداء -حيث أنّي، كما يذكر القارئ، لم أكن قد شبعت من عشاء الأمس- فبادرت إلى تذكير والدي بأنّ الوقت قد

(1) سُمّيت كذلك باسم مارس، إله الحرب في الميثولوجيا الرومانيّة، وهي عبارة عن سهل يمتدّ بين قلب مدينة روما ونهر التيبَريس، حيث كان يتدرّب الجند الرّومان وتقوم تظاهرات سياسيّة. (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

حان لدخول روما. فهبطنا عندئذ وقد خلّينا إلى يميننا، من الجهة الأخرى للسّور، معبد مَرسيا ومدفن سِسيليوس، وبلغنا ضفّة النهر فحاذيناه حتّى تلّة بَلَتينُس. من هناك عبرنا التيبَرِيس فصرنا في قلب ڤيلابرُم.

ظننت أنّه لن يتاح لنا المرور البتّة.

كانت غلّة البحر تتوافد، وسوق السمك يفصلنا عن بيت أُربيليوس.

ازدحمت طريق أُستيانسِس من جرّاء ذلك، ابتداء من جسر سُبليسيوس وحتّى بوابة فيومَنتانه، بخيلٍ قصيرة القامة قبيحة، محمّلة بالسمك البحريّ المعلّق بسلال على جوانبها، وكذلك بالعوامّ وهم يحملون القفف على ظهورهم. الخيل والعوامّ لا يزالون يركضون منذ انطلاقهم من أُستيا، والرجال يحذّرون المارّة من الدّهم، والخيل تشقّ طريقها دون أن تحفل بشيء.

ولا بأس أن تضيف إلى ذلك كلّه العربات المسرعة وهي تحمل صناديق مترعة بماء البحر، تنقل السمك الراقي القليل المناعة الذي يُخشى عليه من طول الانتظار. وصدف أنّه في نفس اليوم كان موعد سوق الخضار الذي يقام خارج باب كرمَنتاله، ما بين صخرة تَرپييوس[1] والموقع الذي ينتصب فيه اليوم مسرح مَرسِلُّس؛ وكان أن تفاقم الازدحام بحشد من الحمير المحمّلة بالثمار المكدّسة في أكياس خيش كبيرة، يتدلّى بعضها من اليمين وبعضها الآخر من اليسار حتّى تكاد تلامس التراب؛ ومعها عربات ملأى بملفوف أَرِينُم وسِلق أَريسيا ولِفت نُرسيا وسلجَم أمِترنا، وبحزَم الثوم والبصل والخشخاش والبقلة؛ ويعلو ذلك كلّه سبحات من سُمنات سمينة وأرانب معلّقة من قوائمها وصغار الخنازير الغضّة بكلّ

(1) هي صخرة عالية قائمة فوق هضبة من هضاب روما، تَرپييوم، كانوا يرمون من أعلاها المجرمين المحكومين بالإعدام (المترجم).

Twitter: @ketab_n

عدّتها جاهزة لتشوى على الأسياخ.

وكان يسطع وسط هذه الزحمة، مثل الشهب، نساء فاتنات قادمات من غاليا بشعرهنّ الأشقر، يسرن فرحات وهن يغنّين غناء القبّرة صوب الفلاحين ليشترين منهم ما تمتلئ بها أذرعهم من نرجس أبيض، وياقوتيات زرقاء وورد متدرّج الألوان من الأصفر الكامد وحتّى البرفيريّ الفاقع اللّون.

فلا غرابة أن تثير مثل هذه الفوضى دهشة صبيّ لم يكن شهد من قبل إلّا سوقاً من تلك الأسواق التي تقام كلّ أسبوع في مدينة صغيرة من مدن أپوليا.

تمكنّا في نهاية الأمر أن ننسحب من ذلك الحشد ونبلغ **طريق الظفر**. ومنه انسللنا ما بين فوروم أولياريوم ومعبدي ماتوتا وفورتونا. فحاذينا ليكومِيسيوم وبلغنا باباً نقش أعلاه على لوح من المرمر:

پُبِلّس أربيليوس، أستاذاً

وقرعنا -أو بالأحرى قرع والدي- الباب، إذ أنّي لم أقارب معبد العلم ذاك إلّا ببعض الرعشة.

فأتت عجوز، كانت قيّمة على تنظيف التلامذة اليافعين وحتّى الأكبر منهم سنّاً ممّن يتساهون عن القيام بهذا التمرين اليوميّ، وفتحت لنا الباب.

سألنا عن المعلّم پُبِلّس أُربيوليوس، فأجابت العجوز وهي تشير إلى أحد الأبواب: «إنّه في الدرس». وكانت إشارتها نافلة، إذ أنّ الضجة التي كنّا نسمعها من خلال ذلك الباب كانت كافية لتدلّنا على وجود المعلّم وطلّابه هناك.

تراءى لي، من خلال الباب وهو ينفتح، مشهد كفيل بأن يردّني ثلاث

Twitter: @ketab_n

خطوات إلى الخلف، لا أن يدفعني خطوة واحدة إلى الأمام.

بدا لنا المعلّم أُربيليوس بمعطفه الواسع -المسمّى بَلِيوم- الذي يقوم عند الإغريق مقام البُردة لدى الرومان، وبلوحتَيه المتدلّيتين إلى جانبيه، وفي يده عصاً. كان يعاقب تلميذاً لا ريب أنّ أستاذه كان يكنّ له الحب الشديد، هذا إن صحّ المثل الرومانيّ القائل: «من أحّبك قسا عليك بالضرب».

إحساسي بهذا المنظر نمّت عنه علامات لا يمكن أن يخطأ فهمها. وإني لمتأكّد أنه لو لم يستدر الأستاذ فور سماع جلبتنا ونحن نفتح الباب، لأغلق المسكين والدي ذلك الباب بهدوء وذهب باحثاً عن أستاذ آخر، ربّما أقلّ علماً ولكن أبطأ إلى مداعبة السوط.

من سوء حظّنا أنه رآنا.

أشار أُربيليوس لوالدي إن يدخل ويغلق الباب، فانصاع والدي كما لو أنّه هو نفسه تلميذ يدخل

الدرس.

أشار عليه الأستاذ بالاقتراب.

فاقترب والدي.

عندها رأيت تلميذين راكعين في الصفّ وعلى رأسهما قبّعة ذات أذنين طويلتين، تدعى قبّعة الحمير، ينتظران دورهما في العقوبة وهما يتباكيان.

استدار أُربيليوس نحو والدي سائلاً:

– ذا تمليذ تأتي به إليّ؟

فتلعثم والدي أنْ «نعم».

– إذن، فلينظر؛ يحسن به أن يعرف كيف يُعامَل الكسول هنا.

ثمّ ألقى العصا وتناول السوط، وتقدم رافعا أداة التعذيب تلك

Twitter: @ketab_n

صوب التلميذين اللذين راحا، كلّما اقترب منها أُربيليوس الرهيب، ينتقلان من الشكوى إلى الأنين، ومن الأنين إلى الصراخ.

لم يكن أُربيليوس قد مسّهما بعد؛ فمن الواضح أنّها لم تكن هذه أوّل مرّة يتعرفان فيها على سوطه.

وكان للقصاص درجات متفاوتة.

تلقّى أحدهما الضربة على راحة يده.

وأُجبر الثاني أن يجمع أصابعه الخمس على شكل حزمة لتقع الضربة على الأظافر.

فأطلق زعيقا ارتعتُ له، بحيث أنّي سحبت يدي من يد والدي واتّجهت راكضاً صوب الباب.

ولكن، تحسّباً لخروج الطلاب بلا إذن المعلّم، كان الباب ينفتح بنابض لا يعرف موقعه إلّا أُربيليوس. بلغت الباب وسحبته نحوي بأقصى قواي حتّى انقلبت أظافري من شدّة تشبّثي بنتوءاته، لكنّه لم يتحرّك.

- آتني بهذا المهرّج الصغير، قال أُربيليوس موجّهاً الحديث إلى والدي. فردّ والدي:

- تكلّم معه بلين، سيّدي، رحماك. فقد اعتاد المعاملة الليّنة حتّى هذا اليوم.

- إنّها لعادة سيّئة، لعادة سيّئة، سيفقدها في درسي، قال أُربيليوس.

ثمّ تقدّم نحوي وأخذني من ذراعي وقادني، غير عابئ بمقاومتي، إلى مكتبه؛ وأوقفني على الطاولة لأصبح على مستوى طوله، وسألني:

- ومن أين نحن قادمون هكذا، يا صديقي الجميل؟

أجاب والدي عنّي، إذ كان لساني قد التصق بحلقي، فأصبحت عاجزاً عن الإجابة:

Twitter: @ketab_n

- من ڤِنُزيا في أپوليا.

- سيترتّب علينا تصحيح لهجة ريفيّة خفيفة، إن شئنا أن نصبح خطباء -قال المعلّم أُربيليوس- مع أنّ ديمُستينِس كان يتأتئ. وحتّى إن كنّا على تأتأة ديمُستينِس وأكثر، فكن مطمئنّ البال يا صديقي الجميل، سنجعلك، بفضل بعض الحصى وهاتين الأداتين -قالها وهو يبرز العصا والسوط- قادراً على التكلّم بوضوح شأن شيشرون. قال والدي:

- إنّ الصبيّ لا يتأتئ، ولا أعتقد كذلك أنّ له لهجة ريفيّة ظاهرة. فأجاب النحويّ:

- سنتأكّد من هذا. هل تعرف ليڤيوس أَندرُنيكُس، أيّها الفتى؟

كانت هذه أوّل مرّة أسمع فيها أحداً ينطق بهذا الاسم.

فأشرت برأسي أن لا.

- إذن، ستتعرّف إليه، إنّه شاعر مختلف عن هؤلاء الطائشين من قارضي الشعر الذين يتغنّون، في أيّامنا، بدوريّ حسناواتهم ويطلبون من ڤينوس وجنّيات الحبّ أن يبكوا حين تبتلعه القطط. فقلت:

- ماذا! تقصد كَتُلُّس؟

- نعم أقصده. هل تعرف بيت كَتُلُّس، أيّها التعس؟

لم أجرؤ على الجواب.

- هل ستتعلّمه؟ كرّر أُربيليوس وهو يهزّني كما تهزّ شجرة خوخ لإسقاط بعض من ثمارها.

نظرت إليّ والدي، وعيناني تستغيثان به، فأجاب عنّي:

- الذنب ليس ذنبه. إن توجّب عليه أن ينسى محفوظاته القليلة، فسينساها.

Twitter: @ketab_n

- وماذا يعرف إذن؟ سأل أُربيليوس الرهيب.
- يعرف القراءة والكتابة وبعض الحساب.
- فلنرَ.

تناول مُدرجة ورق، قائلاً:

- إقرأ لي أربعة أبيات كما اتّفق.

فقرأت وأنا أرتعد:

«هيّا، أغلق على رجليك هذا الخفّ الأرجوانيّ
وليُعِد زنّارك إلى صدرك ثنايا ثوبك الهاربة
هيّا، فلترنّ جعبتك الملأى بالأسهم على ظهرك
وقُدْ على الدرب حتّى مسكن الدابّة ذلك الكلب الحادّ الشمّ»

- مرحى! صرخ النحويّ، هذا شعر حقّاً، أيّها الفتى. ما يترتّب عليك أن تدرسهم هم ليڤيوس أَندرُنيكُس، ونيڤيوس، وأنيّوس؛ لا أولئك المتأنّقون، أولئك الطائشون، الأنيقون، شأن ذلك الشقيّ كَتُلُّس. أجل، سينتهي آخر شعراء اللغة اللاتينية مع لُكريسيوس. فليس بشاعر، وحقّ جُپّتير!، مَريوس الذي أعاد نظم الإلياذة بأبيات منظومة على تفعيلات 'إيامبيّة'، ولا ڤَرّون الأَتكسي الذي نقل إلى اللاتينية 'ملحمة الأَرگونوت'[1] التي ألّفها أَپُلّونيوس الروديسيّ. ثمّ قال وهو يستدير صوب من بفضله رأيت النور: اطمئنّ أيّها الوالد القلق. لن يتعلّم ابنك عندي إلّا ما يجب تعلّمه. متى نبدأ، قل.

فنظرت إلى والدي نظرة استرحام، فبادر إلى القول:

(1) قصيدة مطوّلة نظمها في القرن الثالث قبل الميلاد أپلّينُس عن مغامرة البحّارة الذين، حسب **الإلياذة**، أبحروا على سفينة أَرگو لينتزعوا 'الجزّة الذهبيّة' (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- وصل الصبيّ البارحة مساءً لا قبل، وسار في سفرته مائتي ميل.
- معك حقّ، يجب أن يرتاح. أتركُه وشأنه حتّى الغد. فليحضر غداً في الساعة الثالثة صباحاً.

تجمّد الدم في عروقي لمجرّد التفكير بأنّي سأكون في الغد من أتباع ذلك النحويّ الرهيب.

أعتقد أنّ والدي، من جهته، كان يودّ أن يترك لي مهلة أكبر. وأضاف:

- يبقى علينا، حضرة المعلّم، أن نتّفق على الشروط.
- إن استطاع الصبيّ أن يشرّف المعلّم، فما يُمنح المعلّم هو أكثر ممّا يستحق. وإن كان الصبيّ غبيّاً، فلن يكفيه أيّ عطاء. سأقول لك بعد شهر ما المبلغ الذي أريده. فإن لم يرضك المبلغ المطلوب، تدفع لي شهري وتذهب بابنك إلى مكان آخر. كفى، إنّك تمنعني من القيام بدرسي.

ثمّ سار بخطى واسعة نحو الباب، وضغط على النابض فانفتح الباب تلقائياً. وبحركة كم كانت جليلة لولا تلك السوط في يده، أشار لنا بالخروج.

فمررتُ تحت السوط كما مرّ سپوريوس پُستوميوس تحت مذاري أعدائه[1].

وفي اليوم التالي، في الساعة الثالثة صباحاً، دخلت عند پُلُّس أُربيليوس، لا بوصفي زائراً، بل بوصفي تمليذاً يحمل تحت إبطه لَفافة محزومة بشريط جلديّ، هي أشعار هوميروس وليڤيوس أَندرُنيكُس، وأوّلهما عند أستاذي إلهٌ وثانيهما نصف إله.

---

(1) غلب السمنيّون (سكان سمنيوم في إيطاليا) أعداءهم الرّومان في 321 ق. م.، فأجبروا الأسرى منهم، بما فيهم قائدهم سپوريوس پُستوميوس ألبينوس، على المرور بين مذاريهم (جمع مذراة) وقد وضعوها متقابلة على هيئة قوس، تنكيلاً بهم، فسارت الواقعة مثلاً (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

استقرارنا في روما - حيّ إقامتنا - اهتمام والدي بأنّ يقيني التعرّض لعدوى العصر - عطلة بمناسبة عودة شيشرون من المنفى - نظرة إلى الوراء - كلوديوس[1] پُلكير - فوجئ في دار قيصر - كتاب شيشرون إلى أتّكُس - كلوديوس وأخواته- ميل كَتُلُّس للمثلّية - شيشرون والإلهة ذات العينين البقريتين - غيرة ترِنسيا، زوجة شيشرون - شيشرون يشهد ضدّ كلوديوس - في غياب كلوديوس - فطنة شيشرون وحساسيّته الزوجية.

بعد شهر، سأل والدي أُربيليوس للمرّة الثانية عن شروطه لاستبقائي عنده، فحدّد أُربيليوس مبلغاً شهرياً قدره مائة سيسترس.

ذلك المبلغ هو المترتِّب على من يتوقّع أن يفخر به من تلامذته.

بفضل زهادة مطْلب معلّمي، استطاع والدي أن يصرف في وجهٍ آخرَ المبلغَ الذي وفّره من تربيتي.

فاتّخذ سكناً له في أسفل تلّة **كابتولين**، خلف معبد سَتورنُس ومعرض ذخائره في حيّ **ارجيتيت**، حيث تباع أكثر الأحذية أناقة في روما.

(1) فرّق بينه وبين كلاوْديوس، الذي سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

كانت تفصله عن مدرسة أُربيليوس مسافة تناهز مائة قدم، ومع ذلك لا أذكر أنّي، خلال السنوات الستّ الأولى من إقامتي في روما، عدت مرّة واحدة إلى البيت أو ذهبت منه لوحدي. بسبب هندامي والعبيد المرافقين لي، كان بوسع الناس أن يظنّوني، وأنا أسير في شوارع روما، ابنَ رجل غنيّ أو سليلَ سلسلة عريقة من الأجداد. بل لم يكن والدي، الساهر على تدبير أموري بنزاهة كليّة، ليغفل عن حركاتي لحظة واحدة، وذلك لإدراكه مبلغ العهر المتفشّي في مجتمع روما. ولو كنتُ فتاة منذورة لعبادة ديانا أو ڤيستا، لما أحاطني باهتمام أشدّ.

لذا أقول بصراحة: إن كان للطبيعة أن تعيد لنا السنوات الهاربة منذ مولدنا، وإن كان لكلّ أحد أن يختار والدين آخرين يناسبان كبرائه، فإنّي أدعُ غيري يختار له نسباً من بين أشهر الأسماء المتلألئة وسط الأضواء وفوق كراسي القضاة العاجيّة، وأبقى ابناً بارّاً للوالدين اللذين وهبتنيهما الآلهة الخالدة، مهما نظر إليّ الناس نظرتهم إلى عديم البصيرة.

كنت أخرج مرّتين في الأسبوع مع هذا الوالد الممتاز، الذي كان، في أيّام العطلة، يبذل قصارى جهده ليسلّيني، فيرافقني إلى بساتين مارس والفوروم وإلى السِّركُس في أوقات العروض.

وكلّما عرضَت فرصة لمشاهدة شيء خارق للعادة، لم يكن يتردّد في مرافقتي دون أن يكون ذلك على حساب أيّام العطلة.

وعلى كلّ حال، كان أُربيليوس راضياً عنّي؛ ومع أنّي أطلقت عليه في رسالتي إلى الإمبراطور أوغسطوس اسم أُربيليوس الضرّاب، فنادراً ما أصابني جلدُ بطانة سوطه أو الشراشيب الجلديّة المتدلّية من عصاه.

في يوم، لم يكن من أيّام العطل المقرّرة في التقويم الذي سيقوم قيصر بإصلاحه لاحقاً، بادر أُربيليوس من نفسه للإعلان عن يوم عطلة في

Twitter: @ketab_n

اليوم التالي.

فأيّ حدث خارق للعادة وقع؟

كان شيشرون يستعدّ للعودة إلى روما بعد ستّة عشر شهراً قضاها في المنفى.

فمن الذي بلغت به القدرة أن يطرد شيشرون من روما، بعد كلّ الخدمات التي قدّمها لروما أثناء فترة قنصليّته؟

إنّه كلوديوس پُلكير.

جميع أهل روما يعرفون اليوم ما أنا مخبِر به، ولكن سيأتي يوم في القادم من الأيّام، يتكاثف فيه الغشاء حول الأحداث الراهنة؛ فإن قُدّر لهذه 'المذكّرات' أن تجتاز العصور، فسيترتّب عليها نفس الأهمّيّة التي قد نوليها نحن اليوم لخبر مقتل لوكريس أو تُلّيوس لو نقله شاهد عيان.

لم أرَ كلوديوس إلّا وهو ممدّد على محرقته في اليوم الرابع من غرّة فبراير من سنة 703 لتأسيس الجمهورية.

يرقى ذلك إلى ستّ وثلاثين سنة، ولكنّ المشهد صدمني بحيث أن جثّته لا تزال نصب عينيّ.

افتُتحت ولاية كلوديوس پُلكير بفضيحة جسيمة.

كانت تقام عند پُمپيا، زوجة قيصر، مراسيم عبادة الإلهة الطيّبة. فدخل كلوديوس پُلكير على پُمپيا، وكان مغرماً بها، متنكّراً بثوب امرأة تعزف الموسيقى.

كان وقتها فتى يافعاً أمرَد ووسيماً، شأنه شأن جميع رجال سلالته التي استحقّت لقب پُلكير[1]، وكان من شدّة طيشه يأمل ألّا يُكشف أمره. غير أنّه تاه في أروقة القصر الشاسعة، فصادفته فتاة اسمها أَورا، من خدم

(1) ومعناها باللاتينية: وسيم، جميل (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أَوريليا، والدة قيصر.

حاول الهرب، غير أنّ أمره انفضح بسبب الذكوريّة البادية على حركاته. فاستجوبته أَورا وأجبرته على الإجابة، وعند سماع صوته الذكوريّ، تبدّدت كلّ شكوكها. صرخت الخادمة، وكانت بعض سيّدات روما قد هرعن حين علمن بالأمر، فأغلقن الأبواب وشرعن في التفتيش كما تفتّش النساء، أي حتّى يعثرن على ضالّتهن. فما كان إلّا أن وجدن كلوديوس مختبئاً في غرفة أمَة شابّة كانت عشيقته. وألفى شيشرون نفسه متورّطاً في هذه القضيّة.

رأيت، فيما بعد بين يدي أتّيكوس، رسالة بخطّ شيشرون، سمح لي أن آخذ نسخة عنها، كانت مصوغة على هذا النحو:

«25 يناير من سنة 693 لتأسيس روما.

وبالمناسبة، أمامنا قضيّة خبيثة، أخشى أن تقودنا أبعد ممّا توحي به للوهلة الأولى (لم يكن الخطيب الشهير على خطأ، فقد آلت القضية إلى نفيه هو وإلى مقتل كلوديوس). أظنّ أنك لا تجهل أنّ رجلا تسلّل، متنكّراً بزيّ امرأة، إلى دار قيصر، وذلك أثناء حفلة تقديم الأضاحي عن الشعب؛ ممّا أجبر كاهنات فيستا على إعادة مراسيم التضحية مرّة ثانية. رفع كُرنيليوس قضيّة التدنيس هذه إلى مجلس الشيوخ. أجل، كُرنيليوس نفسه، هل سمعت؟ إيّاك أن تظنّ أنّ أحداً منّا أخذ المبادرة في هذا الشأن. وها أنّ القضيّة تحال من مجلس الشيوخ على الأحبار القيّمين على المراسيم الدينيّة، ثمّ يعلن هؤلاء أنّ الأمر ينطوي على تدنيس وأنّه، بالتالي، يوجب ملاحقة القضية. يصدر حينئذ قرار عن مجلس الشيوخ، ويطلب القناصل إجراء تحقيق، ويُصدر قيصر مرسوماً بطلاق زوجته».

حين كتب شيشرون هذه الرسالة، أي بعد الحادث ببضعة أيّام، لم

Twitter: @ketab_n

يكن يعلم أنّ الرجل الذي قُبض عليه عند پُمپِيوس هو كلوديوس، أو أنه لم يشأ أن يصرّح عنه، مع علمه به. أثار الحادث ضجّة هائلة في روما.

ولم يكن كلوديوس من المغمورين، فقد استحقّ، في حياة كَتِلينا وقيصر، لقب ملك المجون.

وفي ما سبق، كان قد أُرسل لمنازلة المصارعين الذين قهرهم كْرَسُّس فيما بعد قبل أن يُجهز عليهم پُمپِيوس. وكان الحظّ حليفه آنذلك، لأنّ الآخرين، أقلّه في مثل تلك الظروف، لم يكونوا ليتهرّبوا من القتال. فنُسب النصر إليه وحده.

لم يتسنَّ لحملة كلوديوس نهاية سعيدة؛ ثمّ، حين عمل تحت إمرة صهره لُكُلُّس فيما بعد، حرّض عسكرَ پُمپِيوس على الثورة ضدّه.

فلِمَ خان كلوديوس صهره لصالح قائد غريب، إذن؟

لا بدّ أن نذكر ذلك لنفهم مجرى الأحداث التي تلت، ولا بدّ أن نذكره بشكل خاصّ حتّى ندرك هذه الحقبة، حيث تحكّمت بالأحداث الجليلة أمورٌ تافهة، بل أحياناً أمور خبيثة.

كان لكلوديوس أربع أخوات[1]، كلّهن جميلات يغلي فيهنّ ذلك العرق الحامي الذي جعل من كلوديوس ملك المجون.

إحداهنّ تِرَنسيا التي تزوّجت من مَرسِيوس رِكس.

ثمّ كلوديا، زوجة مِتِلُّس سِلير، المعروفة باسم كوَدرَنتاريا، لأنّ أحد عشّاقها وعدها بصرّة ملؤها ذهب فأرسل لها صرّة ملأى بالكوَدران[2]، وهي أصغر عملة نحاسيّة.

كلوديا هذه هي نفسها التي لقّبها عشيقها كَتُلُّس 'لِسبيا'، ثمّ، بعد أن

---

(1) خطأ من لدن دوما، فلم يكن لكلوديوس في الواقع سوى ثلاث أخوات (الناشر الفرنسيّ).

(2) أي قطَع رُبع السِّستِرس، وهو العملة الرائجة يومذاك (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

سمّمت زوجها، زجّت نفسها في حياة منحلّة كليّاً.

وهي نفسها التي كان شيشرون، في رسائله، يسمّيها بالإلهة ذات العينين البقريّتين، وفق اللقب الذي أطلقه هوميرُس في **الإلياذة** على جونون[1].

أصغر الأخوات تزوّجت لُكُلُّس. وبالرغم من زواجها من ذلك القائد النابغ والمصرفيّ الرائع، ارتأى كلوديوس، بسبب خلاف بينهما، أن يمكر به وينشقّ عنه مع فئة من عسكره ليلتحق بجيش پُمپِيوس.

وأمّا الأخت الرابعة فقد قرّرت ألّا تتزوّج لتبقى حرّة في تصرّفاتها. شيشرون كان مغرماً بها، وزوجة شيشرون شديدة الغيرة تجاهها.

سنرى لاحقاً كيف أنّ غرام شيشرون بها وغيرةَ زوجته تِرَنسيا منها أثّرا على مصير كلوديوس.

سبق أن قلنا أنّ الأحبار صرّحوا أنّ في قضيّة كلوديوس ما يوجب صدور قرار اتّهام.

فوُجّه الاتّهام إلى كلوديوس وأُعدّ ملف الاتّهام لمقاضاته.

كان شيشرون حتّى ذلك الحين على علاقة وثيقة بكلوديوس. وبالرغم من بلوغه الخمسين، بقي يسعى، كما ألمحنا سابقاً، إلى نيل الحظوة لدى أخت كلوديوس.

لهذا السبب، انحاز كلوديوس إلى شيشرون انحيازاً كاملاً أثناء مكيدة كَتِلينا. وحين تعرّض شيشرون للتهديد وأقام أشراف روما حوله حرساً، تطوّع كلوديوس لحراسته واندفع، شاهراً سيفه، في الصفّ الأوّل ممّن هبّوا لقتل قيصر.

واستُدعي شيشرون إلى المحكمة بصفة شاهد.

---

(1) هي في الميثولوجيا اليونانية ملكة الآلهة وحامية النساء والخصوبة والزواج (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

كان كلوديوس مطمئنّاً حيال شيشرون، بحيث أنّه كان آخرَ من يخشى منه الخيانة.

ومع ذلك، فإليك ما حدث أثناء المحاكمة بالتحديد.

قبل المحاكمة، قدِمت كلوديا إلى حيّ پَلَتينُس، حيث سكنت على بعد خطوات من منزل شيشرون.

فأثار انتقالها شكوك تِرَنسيا، تلك الزوجة الشرسة الغيور التي اضطّر زوجها في نهاية الأمر إلى أن يتخلّص منها ليتزوّجها هُرتَنسيوس.

أمّا في ذلك الحين، فكانت لا تزال ملكة البيت، تحمل الصولجان وتستبدّ بالجميع.

وفي نفس الوقت ووفق بعض الإشاعات، كان شيشرون، وقد تعب من استبداد زوجته، مزمعاً على الطلاق منها ليستبدلها بأخت كلوديوس.

قبل انشغال روما بهذه الأحداث بفترة، سافر شيشرون إلى بَيّا؛ وأُشيع كذلك أنّه قصد من سفره لقاء عشيقته في جوّ هادئ.

فأيّ تبرير راح كلوديوس يقدّم دفاعاً عن نفسه؟

راح يقول إنّه كان على بعد مائة ميل من روما في تلك اللحظة التي يدّعون أنّهم فاجأوه فيها في دار قيصر.

كان يستعين بما يسمّى في لغة القضاء - لا شاء جُپِّيتر أن تندسّ بين أبياتي كلمة واحدة من لغة القضاء- كان يستعين إذن بما يسمّى في لغة القضاء ذريعة.

وبطبيعة الحال، كانت تِرينسيا، بسبب بغضها للأخت، تبغض الأخ أيضاً. إذ أنّ معبود فتيات روما كان مكروهاً لدى العجائز.

وشاءت الآلهة أنّه، عشية اليوم الذي فوجئ فيه كلوديوس في دار پُمپِيوس، رأته تِرَنسيا داخلاً على زوجها.

Twitter: @ketab_n

قلبَ ذلك خطّة دفاع كلوديوس بكاملها. فإن كان كلوديوس، عشيّة الاحتفال بالإلهة الطيّبة، داخلاً على شيشرون، يستحيل عليه أن يكون في ثاني يومه على مائة ميل من روما.

وبالتالي صرّحَت لشيشرون، وبما تتميّز به من عزم، أنّها ستصرّح بالحقيقة إن لم يبادر هو إلى ذلك.

رأى شيشرون زوجته تدخل المحكمة -وأيّة محكمة! مجلس الشيوخ إيّاه- وتدلي بشهادة تكذّب شهادته.

فاصيب بالرعب.

كان قد تعرّض إلى منغّصات كثيرة بسبب الأخت، فحزم أمره على التضحية بالأخ للحفاظ على السلم العائليّ.

وراحت الدعوى تكشف كلّ يوم عن فضيحة جديدة. وراح العديد من مواطني روما يتّهمون كلوديوس، بعضهم بالحنث بقسمه، وبعضهم الآخر بالاحتيال وغيرهم بالزنى.

غير أنّ ذلك كلّه كان خارج الموضوع.

إذ بقي كلوديوس مصرّاً على إنكار وجوده في دار قيصر.

وأتى دور شيشرون للإدلاء بشهادته.

فأدلى بأنّ كلوديوس، عشيّة الحدث، وافاه يحدّثه في بعض القضايا.

وقع ذلك على كلوديوس وقوع الصاعقة، وقد تفاقمت حدّتها بفعل المفاجأة.

قرأتُ لاحقاً قصّة هذه الدعوى، إذ أنّهم في حينها لم يشأوا صدم أذنيّ الفتيّتين بتفاصيلها. نوّهتُ سابقاً بتلك الحشمة التي أصرّ والدي على أن يربّيني عليها. فقد قرأت قصّة الدعوى عند شيشرون، وأعتقد أنّه، لو كان مطمئنّ الضمير فعلاً، لما بدر منه بشأن تلك القضيّة مثل هذا البغض.

Twitter: @ketab_n

إليك ما يقوله عن القضاة، أي عن مجلس الشيوخ:

«لم يتسنَّ يوماً لبيت مشين السمعة أن يجمع مثل هؤلاء القوم: شيوخ مدنّسو الأعراض، فرسان يرتدون الأسمال، قضاة قيّمون على خزينة الدولة وهم غارقون في الديون وقد جفاهم كلّ ثراء؛ وبين أيديهم بعض الرجال الشرفاء لم تنل منهم أيّة تهمة، يجلسون، وعلى نظرتهم اسوداد، وفي أنفسهم حداد، وجباههم في احمرار».

ومع ذلك لم يكن يخامر أحداً الشكّ في أنّ هذا المجلس، على دنسه وإدقاعه وفساده، سيقيم الحكم حتماً على كلوديوس. فما أنهى شيشرون إعلانه حتّى راح أصدقاء كلوديوس يستنكرون موقف 'الخائن' مطلقين تهديدهم ومشيرين بما يدلّ على نواياهم العنيفة.

وقف الشيوخ عندئذ وأحاطوا بشيشرون وهم يشيرون، بأصابعهم، إلى رقابهم تنويهاً منهم بأنّهم سيدافعون عنه وإن عرّضوا حياتهم للخطر.

ردّ أحدهم على هؤلاء المشيرين إلى رقابهم بإبراز صرّته.

ذلك الرجل هو كرَسُّس.

«يا آلهة الشعر، صرخ شيشرون، أخبرن الآن كيف اندلع هذا الحريق. إنك تعرف الأقرع، أيّها العزيز أتّكُس، نعم 'الأقرع'، وريث نَنّيوس، مدّاحي الذي ألقى قديماً على شرفي خطاباً ذكرت لك منه بعض عباراته. أجل، ذلك هو الرجل الذي دبّر بيومين جميعَ الأمور، بواسطة عبد لا غير، رقيع حقير خارج من سلك المصارعين، وأمّا القضاة الذين ارتضوا الرشوة بالذهب الصافي فراحوا يطالبون بحرّاس يسهرون على سلامتهم أثناء عودتهم إلى منازلهم.

– «بحقّ جُبِّتير، أتخشون أن يُسرق منكم المال الذي قبضتموه؟» صرخ بهم كتُلُس.

Twitter: @ketab_n

وكان موقف قيصر أكثر محاذرةً من موقف شيشرون.

إذ حين استُدعي قيصر للإدلاء بشهادته ضدّ كلوديوس، الذي ناصبه العداء بعد أن كان صديقه، أجاب أن ليس لديه ما يدلي به.

- ومع ذلك، ومع ذلك طلّقت زوجتك؛ هكذا صرخ به شيشرون الذي كان يأمل أن يدلي الجميع بشهاداتهم ضدّ كلوديوس حتّى يتوزّع غضب الشابّ المخيف على أكبر عدد ممكن من الناس، فتخفّ وطأته على كلّ بمفرده.

- نعم طلّقت زوجتي -أجاب قيصر- لا بسبب ظنّي بها، بل لأنّه لا يجوز لزوجة قيصر أن يلامسها الشكّ من أيّ وجه.

وكان بإمكانه أن يضيف: وكذلك لأنّه كان يأنس من نفسه القدرة على مخاصمة پُمپيوس بطرده أخته من بيته.

مجمل القول أنّ **الظريف**، كما كان شيشرون يسمّيه، بُرّئت ساحته.

ونتج عن تلك التبرئة أمور رهيبة. كما لو أفلتَّ نمراً هائجاً في شوارع روما.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

لانتُلُس وستِيگس يُقتلان خنقاً، دون أيّ اعتبار لقانون سِمپرونيا - شيشرون قائداً ظافراً[1]، قنصلاً ومحامياً - شيشرون، ثالث ملك غريب عن روما - ردّة فعل الشعب لصالح كلوديوس - سرعة بديهة شيشرون - ما تجرّ عليه من أذى - الألقاب الساخرة التي أطلقها على معاصريه - شيشرون يهاجم قيصر وپُمپيوس - قرار استفتاء الشعب - فُنتيوس يتبنّى كلوديوس الذي يُعيّن بفضل ذلك مدافعاً عن الشعب. كلوديوس يهاجم شيشرون - قيصر يعرض على شيشرون منصب نائب القائد في جيشه - پُمپِيوس على هضبة ألبينُس - الدار ذات البابين - شيشرون يغادر روما - كلوديوس يستصدر قراراً بنفيه.

شكّلت هذه التبرئة ثورة اجتماعية.

نعرف كيف تصدّى شيشرون للحزب الديماغوجيّ[2]، في روما، أثناء قنصليّته الشهيرة.

---

(1) لقب يطلقه الرومان على القوّاد الذين أحرزوا نصراً حاسماً على الأعداء (المترجم).

(2) حزب شعبويّ، كما يدلّ عليه اسمه، كان مناوئاً للحزب السيناتوريّ، حزب أعضاء مجلس الشيوخ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

ونعرف أيضاً كيف أُخمدت، بل خُنقت مؤامرة كَتِلينا.

استفاد شيشرون من فترة حماسيّة أثارها بفصاحته وفاقم من حدّتها غياب كَتِلينا، فأوقف لانتُلُس وستِيگُس، ورماهما في سجن مَمِرتينُس وأمر بخنقهما.

لعلّكم تتساءلون: وقانون سِمپرونيا، ألا يضمن ذلك القانون حياة **المواطن الروماني**؟ ألم يكن المنفى أفظع عقاب يمكن أن يصيب **مواطناً رومانيّاً**؟

طبعاً! غير أنّ شيشرون الذي أصبح قنصلاً، بعد أن كان قائداً ظافراً، كان في الآن نفسه محامياً.

توصّل شيشرون إلى حجّة لا تخلو من الحذلقة ولكنّها بمتانة تكفي لتضييق الخناق على رقاب المساجين.

قال شيشرون:

- ممّا لا شكّ فيه أنّ قانون سِمپرونيا يضمن حياة المواطنين؛ غير أنّ عدوّ الوطن يكفّ عن كونه مواطناً.

أثار ذلك استهجاناً بالغاً بحيث أن كَتِلينا مات دون أن يقدر على تقبّله.

يوم اعترف شيشرون بمسؤوليته عن عملية الخنق السرّيّة وغير الشرعيّة، أُصيب بهلع عظيم دفعه إلى الإقدام، بل إلى التهوّر.

فأطلق العنان لنفسه، كما تنطلق العربات في ملاعب السِّركُس عندنا، حتّى أنه تجاوز كلّ حدّ.

أصابه الإعجاب بتهوّره، فراخ يتغنّى بنفسه.

إذ شطّ فهنّأ روما بغبطة رؤية النور في ظلّ قنصليّته[1].

---

(1) «يا لحظّ من وُلد وأنا قنصل روما!».

Twitter: @ketab_n

لا أتردّد في القول إنّ الأبيات التي افتخر بها بنفسه بغيضة للغاية، مهما ظنّ بعضهم أنّ قولي هذا ناجم عن حسد الزميل لزميله.

شيشرون علا كعبه مائة باع؛ شيشرون ظنّ نفسه لحظةً ملكاً.

والواقع أنّه بلغ ذلك المبلغ بفضل غياب پُمپِيوس وانعزال قيصر وسكوت كْرَسُّس. فراح أهل روما يقولون فيه:

- إنّه ثالث ملك غريب يقوم في روما.

أمّا الاثنان الآخران، فهما تاسيوس ونوما وكلاهما من مواليد كُرِيس.

وكان شيشرون من مواليد أرپينيوم.

فثلاثتهم إذن غرباء عن روما.

إذن، بُرّئت ساحة كلوديوس - يا له من صورة طبق الأصل عن كَتِلينا، يا له من قزم سقط من جلد أسد هرقل! - الذي كان يتمتّع، إضافة إلى نفوذه الطبيعيّ، بذلك النفوذ المتأتّي من ظفر حديث العهد.

أمّا شيشرون فقد وقع ذِكره في ذلك الخمول الذي يؤول إليه نصر قديم العهد، ويأتي بعد نصر كاد يغمره الزمان.

غير أنّ شيشرون حظي، شأنه شأن جميع الرجال، بظفرٍ أسمى قدراً من مجرّد نصر.

فلم يكن بوسعه أن يتخيّل نفسه مهزوماً.

عندما اجتمع مجلس الشيوخ في منتصف شهر مايو[1]، تناول الكلام. حسم أمره على ألّا يترك كلوديوس يفلت منه، إذ كان يغلي بذلك الحقد المتوقّد المتولّد عن أذى ألحقناه بالآخر نندم عليه، وفي نفس الوقت نلتمس من الجمهور غفراناً له. توجّه إلى الشيوخ قائلاً:

(1) كلمة ides تشير عند الرومان إلى منتصف الشهر القمريّ، ويقع حسب الشهور في 13 أو 14 أو 15 منه (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- أيّها الآباء الأجلّاء، لا ينبغي لكم أن تتقاعسوا، بسبب جرح ألمّ بكم، أو أن تهجروا مواقعكم؛ لا مكان لإنكار اللطمات ولا لتضخيم الجروح التي تصيبنا. فمن الغباء أن نخلد إلى النوم، ولكن من الجبن أن نصاب بالهلع. ألم نرَ كَتُلُّس يُبرّأ مرتين، وكَتِلينا ثلاث مرات؟ ليس كلوديوس سوى حيوان مسعور، أفلته على الجمهورية قضاة مرتشون.

ثمّ استدار نحو كلوديوس الجالس على كرسيّه العاجيّ[1] قائلاً:

- أجل، إنك على خطأ جسيم يا كلوديوس، إن اعتقدت أن قضاتك برّؤوا ساحتك! يا له من خطأ، يا كلوديوس، أنّهم جعلوا من روما سجناً لك. لم يحفظوا لك صفة المواطن، بل نزعوا عنك حريّة العيش في المنفى. تشجّعوا، أيّها الآباء الأجلّاء، حافظوا على كرامتكم! فأهل الخير في الجمهورية دائماً على كلمة واحدة.

- إذن، أيّها الرجل الطيّب، صرخ به كلوديوس، قل لنا ماذا ذهبت تفعل في بيّا؟

كان كلوديوس أوّل من يعرف أنّ شيشرون ذهب إلى بيّا ليجتمع بأخت كلوديوس.

فتجاهل شيشرون سؤاله، وبما أوتيَ من سرعة بديهة أجابه:

- أوّلاً، لم أذهب إلى بيّا؛ ثمّ، فرضاً أنّي ذهبت، أليس من الممكن الذهاب إلى بيّا لأجل حمّاماتها؟

- لا بأس، ردّ كلوديوس، هل لفلّاحي أرپينيوم علاقة بحمّامات بيّا، أيّا كانت؟

ثمّ تابع موجّهاً حديثه للشيوخ:

---

(1) كرسيّ من عاج (curulus) يختصّ به بعض القضاة في روما (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- أتصوّر تماماً أن تكون حاقداً على قضاتي: فقد أكّدتَ لهم أنّي كنت في روما يوم الاحتفال بالإلهة الطيّبة، ولم يصدّقوا كلامك.

- إنك مخطئ، يا كلوديوس، أجاب شيشرون. خمسة وعشرون منهم صدّقوني؛ أمّا كلامك فلم يصدّقه غير واحد وثلاثين منهم، بما أنّهم قبضوا سلفاً.

والواقع أنّ كلوديوس قد بُرّئ بأغلبيّة واحد وثلاثين صوتاً ضدّ خمسة وعشرين.

حاول كلوديوس أن يجيبه، إلّا أنّ صيحات الاستنكار غطّت صوته، فخرج من مجلس الشيوخ وهو يطلق التهديدات ضدّ شيشرون.

فما الذي راح يشغل كلوديوس منذ ذلك الحين؟ الانتقام من شيشرون الذي كانت كلّ كلمة من الكلمات التي ردّدها في مجلس الشيوخ والفوروم وحقول مارس تدمغه كما لو كانت حديداً محمّى. وكان شيشرون المسكين مصاباً بداء توقّد الذهن، فلو شاء لأمكنه أن يسخر من جُپِّير وآلهة الأولمب الأحد عشر.

حين كانت تلوح له نكتة ولم يجد صديقاً أو اثنين أو ثلاثة أصدقاء يردّدها لهم، كان يمكنه أن يكرّرها لقصب الملك ميداس[1].

ولم يكن ينجو من نكاته لا أقاربه ولا أصدقاؤه ولا حلفاؤه.

- من أَوثق صهري إلى هذا السيف؟ كان يسأل كلّما رأى زوج بنته،

(1) ميداس Midas من ملوك فريجيا القديمة، في الأناضول، نُسجت حوله أسطورة يونانيّة مفادها أنّه فضّل في إحدى المباريات الموسيقية مارسياس على أپولون، فمنحه هذا الأخير، انتقاماً، أذني حمار أخفاهما ميداس تحت قلنسوته لمداراة جرجه، فاكتشفهما أحد خدمه. ولعجزه عن الاحتفاظ بالسرّ حفر الخادم في الرمال حفرة صغيرة وباح لها بالسرّ، فنشأت فيها نبتة قصب جعلت تكرّر العبارة لدى كلّ هبوب ريح. ترمز العبارة المستخلصة منها إلى مَن لا يقدر على الاحتفاظ بمعلومة فيفشيها ولو للجماد (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

الذي لا تتجاوز قامته ثلاث أذرع، يحمل سيفاً بطوله.

وبما أنّ ابن سِلّا قد تعثّرت أحواله الماديّة (تلك كانت شيمة الشباب في ذلك الوقت)، واضطرّ لنشر لائحة ممتلكاته، انبرى له:

- أُفضّل لائحة الابن على لوائح والده.

ذلك أنّ روما كانت لا تزال ترتعد من ذكرى تلك اللوائح الرهيبة المعلّقة على زوايا جدرانها، التي كانت تقضي على رؤوس المواطنين أو على ثرواتهم.

- سأُنهكك بالشتائم؛ قال له يوماً شابّ من النبلاء اتُّهم بتسميم والده بالحلوى.

- فليكن، أجابه شيشرون. أفضل أن أتلقّى منك شتائم لا حلوى.

كان بوليوس كورتا يدّعي العلم بالقانون في حين لم يكن في واقع الأمر يفقه كلمة من قوانيننا.

طُلب للإدلاء بشهادته في قضيّة ما، فردّ بأن لا علم له بشيء.

- حسناً! استدرك شيشرون، لعلّك اعتقدت أنّنا نستجوبك عن القانون.

- من هو والدك؟ سأله يوما مِتِلّوُس نيپُس، قاصداً تحقيره بسبب أصوله الوضيعة.

- بسبب والدتك، يا صديقي المسكين مِتِلّوُس -أجابه ذلك الخطيب اللامع- نعمْ بسبب والدتك، الجواب على هذا السؤال أصعب عليك ممّا هو عليّ.

ولم يكن مِتِلّوُس هذا قطّ طلق اللسان، بينما كانت أصابعه جدّ طليقة. فاتُّهم علناً بأنّه، بفضل طلاقة يديه، استجرّ إلى صرّته أكثر من مرّة مالاً آيلاً إلى صرّة غيره.

Twitter: @ketab_n

حين توفّي مربّيه فِياگر، أقام له مِتِلّوُس مأتماً رائعاً وشيّد له ضريحاً ووضع في أعلاه غراباً.

- لقد أحسنت صنعاً بوضع غراب على قبر مربّيك، بادره شيشرون.

- ولماذا تقول ذلك؟ سأله مِتِلّوُس نيپُس.

- لأنّ مربّيك علّمك أن تتكلّم بطريقة سيّئة، وأن تنهب بخفّة الطائر المحلّق[1].

كان يطلق ألقاباً ساخرة على الجميع، فسمّى أنطونيوس 'الطروادية' وپُمپيوس 'إِپكراتِس'،[2] وكاتون 'پُلِدَماس'[3] وكْرَسُّس 'الأقرع' وقيصر 'الملكة'.

هكذا خلق شيشرون لنفسه أعداء كثيرين، بقوا على صمتهم ما دام شيشرون يمثّل الأكثريّة، وانتصبوا ضدّه عند أوّل كبوة.

كان ثمة وسيلة واحدة للقضاء على شيشرون، مقتبسة من إحدى الخدمات التي كان قد أسداها للجمهورية وكان بها شديد الاعتزاز.

سبق أن ذكرنا أنّه أمر، على مسؤوليته الشخصيّة وبشكل مخالف للقانون، بخنق لانتُلُس وسِتيگس.

أخذ عليه أعداؤه تجاوزه ذلك، هامسين به في بادئ الأمر، ثمّ جهروا به علانيّةً، حين أحسّوا أنّ موقعه بدأ يهتزّ.

ولم يعد اللّوم كافياً؛ فلا بدّ إذن من توجيه التهمة. والحال أنّ مدافعاً عن الشعب[4] كان له وحده الحقّ في توجيه التهمة إلى شيشرون، وليس

(1) يستعمل دوما على سبيل التورية كلمة voler التي تعني: «سرق» كما تعني «طار». فإن كان الطيران للغراب لا يبقى لمِتِلّس إلا السرقة (المترجم).

(2) اسم فيلسوف يوناني شهير، أبيقراطس، وقد يعني كذلك الثعبان (المترجم).

(3) أمير من أمراء طروادة كان، حسب الإلياذة، صديقاً للبطل هكتور (المترجم).

(4) مدافع عن الشعب، حسب العرف الروماني، رجل من عامّة الشعب يعيّنه القنصل ثمّ ينتخبه الشعب (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لأحد أن يصبح مدافعاً عن الشعب إلّا إذا كان متحدّراً من الشعب.

ولم يشأ أحد من المدافعين عن الشعب أن يقوم بتوجيه التهمة.

فانتدب كلوديوس نفسه لهذه المهمّة. حسبه أن يعيّنوه مدافعاً عن الشعب حتّى يقوم بتوجيه التهمة. غير أنّ كلوديوس لم يكن فقط من الأشراف بل أيضاً من الأُسَر العريقة[1].

وحدث أنّ شيشرون نفسه هو الذي مكّنه، لشدّة شره لسانه، أن يتجاوز هذه العقبة.

فحين انبرى يوماً للدفاع عن أنطونيوس، زميله القديم، ضدّ قيصر وپُمپِيوس، هاجم **الثعبان والملكة** (كما كان يدعوهما) على طريقته المعتادة، أي بشراسة. فذهب قيصر وپُمپِيوس إلى القناصل واستصدرا منهم حكماً استفتائياً يعطي الحقّ لأيّ أحد من العوامّ بتبنّي أحد من الأشراف.

يتبنّى واحد من العامّة شريفاً، فيصبح لذاك الشريف الحقّ في أن يصبح مدافعاً عن الشعب.

وعثروا على رجل مغمور من العامّة، يدعى فُنتيئس، قبِلَ بأن يتبنّى كلوديوس.

فجاز لكلوديوس إذّاك أن يعيّن مدافعاً عن الشعب.

دعم قيصر وپُمپِيوس بنفوذهما العسكري والسياسي انتخاب كلوديوس.

ودعمه كْرَسُّس بماله.

سيترشّح كلوديوس للانتخابات المقبلة.

ذاع ذلك الخبر مثل برق، لمح شيشرون من خلاله اقتراب الصاعقة.

(1) تقابل كلمة Patricien: تشير إلى العائلات الأصليّة المتبقّية من روما القديمة، والتي ساهمت في إنشاء الدولة والإمبراطوريّة فأصبح لها نفوذ واسع. وهذه الطبقة غير طبقة الفرسان والأعيان (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس (تابع)

شيشرون يغادر روما - كلوديوس يستصدر بحقّه مرسوماً بالنفي

فكتب شيشرون إلى أتّيكُس قائلاً:

«لا يزال العزيز كلوديوس يهدّدني ويجاهر بمعاداتي. إنّ العاصفة تحوم حول رأسي. فلتدركني من أوّل ضربة.»

لا بدّ من القول إنّ پُمپِيوس طمأنه:

«إنّي أمسك كلوديوس في قبضتي، وأعدك بأنّه لن يبادر إلى أيّ عمل مُعاد لك.»

وصحيح أنّ قيصر، الذي حصل على منصب حاكم بلاد غاليا لمدّة خمس سنوات، اقترح على شيشرون أن يصحبه برتبة نائب قائد.

ولكن ما شأنه وشأن جيش قيصر؟ إن قبِلَ بالمنصب، فستضيع نكاته هباءً: لن يفقه الغاليّون بلسانهم البربريّ شيئاً منها، وبالتالي لن يردّدوها. لا بدّ له أن يبقى في روما. ليس في وسع شيشرون أن يعيش بعيداً عن روما.

غير أنّ الخطر تبدّى لشيشرون، في شهر أغسطُس من عام ٦٩٥، بكلّ فداحته.

فكتب لأتّيكُس إيّاه:

Twitter: @ketab_n

«لم يخفّف أخو الإلهة ذات العينين البقريّتين من تهديداته ضدّي. ينكر نواياه المعادية لي أمام لَپِسِرامُس (لقب ساخر جديد يلبّسه لپُمپيوس)، لكنّه يتباهى بها أمام الآخرين. إنك تحبّني بحنان شديد، أليس كذلك؟ نعم. إذن، إن كنت راقداً فهبّ من سريرك! إن كنت واقفاً، فهيّا، سر! وإن كنت سائراً، فضاعف الخطوة! وإن كنت تعدو، فطِر! ينبغي أن تكون في روما في **تجمّع العامّة**، وإن تعذّر عليك ذلك، فليكن أقصى حدّ لوصولك هو لحظة الإعلان عن تعيين كلوديوس مدافعاً عن الشعب.»

والواقع أنّه خلال عام 696 لتأسيس روما، في ظلّ قنصلية كلپورنيوس پيزون وگَبينيوس، حصل كلوديوس على منصب مدافع عن الشعب.

أوّل مبادرة قام بها بعد تعيينه مدافعاً عن الشعب أنّه اشترى القنصلَين، واستغلّ حقّه في تعيين حكّام الأقاليم، فأعطى پيزون إقليم مقدونيا وگَبينيوس إقليم سوريا.

فلم يعد بمقدور شيشرون الاستعانة بالقنصلين.

ولم يعد قادراً على الدفاع عنه إلّا كْرَسُّس وپُمپِيوس وقيصر.

لم يكن كْرَسُّس مهتمّاً بالموضوع، بسبب مقته لشيشرون، الذي لم يسمّه يوماً باسمه بل تارة **الأقرع**، وتارة أخرى **الميليونير**.

وأمّا پُمپِيوس، فكان منشغلاً بأمور أكثر أهميّة من الدفاع عن شيشرون: كان وهو ابن الخمسين قد تزوّج. وكان وهو الخمسينيّ يعشق زوجته الشابّة جوليا عشقاً جنونيّاً. لذلك كلّما كان الهلع يأخذ بشيشرون، اكتفى بالقول له:

- لا تخشَ مكروهاً، مسؤوليتك عليّ.

وكان له ما يدفعه إلى مثل هذا القول.

فقد جاء كلوديوس إلى پُمپِيوس، وقال له:

Twitter: @ketab_n

- أكّدوا لي أنّ شيشرون مزمع على مغادرة روما. فما السبب؟ فلعلّه يظنّ أنّي أضمر له شرّاً؟ لا، وألف لا. ربّما أضمرته لزوجته، تلك العجوز المتوارعة، نعم. أمّا تجاهه، فلا وحقّ آلهتنا العظام، لا حقد ولا غضب.

لماذا حمّل كلوديوس نفسه عبء الكذب على پُمپِيوس؟

الأمر في غاية البساطة. كان يعلم أنّ شيشرون ذهب إلى قيصر ليعبّر له عن مخاوفه، وأنّ قيصر قدّم له منصب نائب قائد في جيشه. فما إن يقبل شيشرون بالمنصب حتّى يصبح في أمان.

اطمأنّ شيشرون لكلام پُمپِيوس فرفض المنصب المعروض عليه.

- إنّك مخطئ! قال له قيصر.

وظنّ أنّ الأمر بينهما انتهى عند هذا الحدّ.

وذات صباح، وجّه كلوديوس التهمة لشيشرون.

وكان قيصر قد غادر روما، ولا سبيل للوصول إلى قيصر.

هرع شيشرون عند پُمپِيوس.

كان پُمپِيوس، المتهالك في تلك الفترة، يقضي شهر العسل في دارته على هضبة أَلبينُس.

أخبروه بقدوم شيشرون.

ففهم أنّه هو الذي، حين طمأنه، عرّضه للهلاك. أن يصارع كلوديوس معناه أن يتخلّى عن ملذّات الحبّ للنزول إلى حلبة الفوروم.

فهرب پُمپِيوس من باب خلفيّ وهو يصرخ:

- قولوا له إنّي لست هنا.

وأمر بأن يجوّلوا شيشرون في أنحاء الدار، من القبو وحتّى سقيفته ليقتنع بأنّه غائب فعلاً.

لم يُخدع شيشرون بهذه الحيلة، وفهم أنّه هالك لا محالة.

Twitter: @ketab_n

فلبس ثوباً أسود، وأطلق لحيته وشعره وجاب المدينة وهو يتوسّل إلى الشعب.

أمّا كلوديوس فكان من جهته يجوب المدينة شارعاً شارعاً محاطاً بأتباعه، وكلّما التقى شيشرون هزئ به لتبديله هندامه؛ وكان يسحب سيفه من غمده ويروح يسأله إن كان لا يزال على اعتقاده أنّ السلاح تهزمه الجبّة[1].

ولم يكن أصحاب كلوديوس يتوقّفون عند هذا الحدّ، بل كان يرمون شيشرون وأصحابه بكلّ ما يقع بين أيديهم، مؤثرين الحجارة على غيرها، وإلّا فبالطين.

وكان الفرسان أوّل من لجأ إليهم شيشرون. فقال كانت هذه الطبقة الحديثة من الأشراف قد استرأسته في وقت سابق، فعاودتها الذكرى، فلبست جماعتهم بأكلمها ثياب الحداد على شيشرون، وراح خمسة عشر ألف شابّ يجوبون الشوارع، وفي أصابعهم خواتمهم الذهبيّة، يناشدون الشعب.

أمّا مجلس الشيوخ، الشديد الكره لكلوديوس، فاسترسل أكثر من ذلك.

أعلن الحداد العامّ وأمر أن يلبس كلّ مواطن رومانيّ ثوباً أسود.

طوّق كلوديوس مجلس الشيوخ برجاله، أي بالشعب، إذ أنّ الشعب كان قد انحاز إلى مدافع عن الشعب.

فالشعب يستحبّ هؤلاء اللّاعبين المتهوّرين الذين يخاطرون بحياتهم. سبق له أن استحبّ الأخوَين گراك، واستحبّ كَتِلينا، فاستحبّ كلوديوس كما أنّه سيستحبّ قيصر فيما بعد، أو بالأحرى كان يستحبّ

---

(1) أي جبّة القاضي أو المحامي (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قيصر من قبل.

انقضى وقت القتال بالكلمة، وآن وقت القتال بالحديد.

ووقع شيشرون بين رجُلين، تختلف نصيحة أحدهما عن الآخر:

- ابقَ، ابقَ نقاتل معاً، أضمن لك النجاح! يقول له كُلُوس الذي كان يضمر لكلوديوس حقد الزوج المغدور.

- ارحل، فسرعان ما سيتأسّف الشعب عليك بعد أن يتعب من النهب ومن سخط كلوديوس! يقول له كاتون.

وكان لشيشرون من الشجاعة وجهها المدنيّ، ولم يكن له منها وجهها العسكريّ.

فتبع نصيحة كاتون. حمل تمثالاً لِمنرڤا كان يحتفظ به بكثير من التعبّد، وأخذه إلى كَبِتوليوم وسط صخب رهيب، ونذره في موكب من أصدقائه للإلهة بهذه العبارة المنقوشة:

إلى مِنرڤا، حامية روما

وغادر روما حوالى منتصف الليل.

ما إن علم كلوديوس بهربه، حتّى استصدر ضدّه مرسوماً بالنفي، وأذاع مرسوماً يحظر على كلّ مواطن روماني أن يقدّم له الماء والنار[1]، أو أن يأويه تحت سقفه إلى مدى خمسمائة ميل من حدود إيطاليا.

وصار شيشرون في تسالونيكا.

---

(1) فالماء عنصر الحياة والنار العنصر الواقي من الموت برداً (المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

أطوار كلوديوس الجنونيّة - كلوديوس يشتم پُمپِيوس - پُمپِيوس يقترح على مجلس الشيوخ استدعاء شيشرون - مشاجرة بين أَنّيوس ميلو وكلوديوس - قتال بين كلوديوس وپُمپِيوس - كوِنتُس شيشرون يصاب بجروح - مجلس الشيوخ يطلب من إيطاليا برمّتها أن تصوّت لعودة شيشرون أو استمرار نفيه - ثمانمائة ألف شخص يطلبون عودته من المنفى.

كان كاتون مصيباً في رأيه. فما إن أصبح كلوديوس سيّد روما حتّى استسلم لأكثر أطواره الجنونيّة غرابة. كان يقدر أن يفعل ما يريد. لم يحظَ دكتاتور واحد بمثل سلطته المطلقة تلك.

لم يكن أحد ليخالفه.

قيصر يحارب في بلاد غاليا[1].

وكْرَسُّس يطالب بحكم ولاية سورية.

مغرم بابنة قيصر.

كان كاتون في قبرص، منذ عيّنه كلوديوس حاكماً لها.

ولُكُلُّس في دارته في ناپولي.

---

(1) غاليا أو بلاد الغال هو الاسم القديم لفرنسا الحاليّة (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

ومهما بقي پُمپِيوس على صمته ومسالمته، لم يكن له بدّ من أن يستيقظ يوماً. فعقد كلوديوس العزم على ألّا يتركه يستيقظ من نفسه، بل أن يبادر هو إلى إيقاظه.

فلعلّه، لشدّة جهله، كان يحلم بالصلاحيّات المطلقة، ويريد أن يتأكّد من مدى سلطانه.

أمّا پُمپِيوس، الذي قُدّر له أن ينجز النصر على أعداء هُزموا من قبلُ على أيدي آخرين، فقد حقّق النصر على تِـگران، ملك أرمينيا، بعد هزيمته على يد لُكُلُّس.

وفي عام 691 لتأسيس روما، أقام معه معاهدة تلزم تِـگران بأن يدفع ستّة آلاف وزنة من ذهب ويتخلّى له عن سورية وكبّادوكيا وأرمينيا الصغرى.

فيما كان پُمپِيوس يتفاوض مع تِـگران الأب، قبض على تِـگران الابن وقاده إلى روما ليعرضه في موكب ظفره.

أقام تِـگران في السجن بانتظار موعد موكب الظفر.

أمر كلوديوس بفتح باب السجن واستقدم السجين إلى بيته.

پُمپِيوس لم يقل شيئاً، فلعلّه كان قد نسي تِـگران الشابّ.

ثمّ أثار كلوديوس دعاوى قضائيّة على بعض أصدقاء پُمپِيوس وأمر بإدانتهم.

وبقي پُمپِيوس صامتاً، فما له ولأصدقائه، وهو غارق في غرامه!

وذات يوم خطا پُمپِيوس أخيراً خطوة خارج حدائق دارته الساحرة على هضبة أَلبينُس، فإذا به يلتقي كلوديوس في حوالى مائة من صحبه. أذكر أنّي تعرّفت قديماً على هذه الصحبة. ما أشدّ شبههم بلصوص سَمنيوم وكَلَبريا ممّن كنت أراهم وأنا صبيّ يُقادون إلى سجن فِنُزيا! اعتبر

Twitter: @ketab_n

كلوديوس ذلك اللقاء فألاً حسناً: سيعرف أخيراً لماذا عامله پُمپِيوس بكلّ تلك الأناة. كان كلوديوس مقتنعاً في أعماقه أنّ پُمپِيوس كان يخشاه.

اعترضوا طريق پُمپِيوس. وبما أنّ لا شيء يحشد الناس أكثر من الجمع نفسه، ما هي إلّا لحظة حتّى عجّ الشارع بالناس.

فاعتلى كلوديوس صخرة حتّى يعلو برأسه رؤوس الناس، وصرخ:

– من هو القائد الذي لا يفكّر إلّا بالشراب والأكل والغرام؟

– إنه پُمپِيوس! أجاب صحبه بصوت واحد.

– من الذي لم يعد يحكّ رأسه منذ زواجه إلّا بإصبع واحدة خشية أن يشوّش قصّة شعره؟

– إنّه پُمپِيوس!

– من يريد أن يقصد الإسكندريّة ليعيد إلى عرشه ذلك الملك المولع بالعزف على الشبّابة، بطليموس، فيكافَأ على مهمّته أجمل مكافأة؟

– إنّه پُمپِيوس!

واستمرّوا على هذا النحو مدّة ربع ساعة، ثمّ صحبوا كلوديوس إلى بيته وهم يطلقون صيحات الاستنكار ضدّ پُمپِيوس.

الحشد مطواع، طالما صفّق له قديماً، فلا بأس أن يهتف ضدّه قليلاً.

أدرك پُمپِيوس عندها أنّ الوقت قد آن للتخلّص من كلوديوس.

كان پُمپِيوس يشكو من معدته، ولذا كان، مثلَ سائرِ الشاكين من مِعَدهم، كثير التردّد.

استشار أصدقاءه.

فحصل، كما هي العادة بعد كلّ استشارة، على آراء كثيرة.

الرأي الذي استحسنه الجميع هو استدعاء شيشرون.

لا بدّ أنّكم تتذكرون موقف مجلس الشيوخ في هذه القضيّة. لقد انحاز

Twitter: @ketab_n

الشيوخ بكاملهم إلى جانب شيشرون.

لذلك تقبّلوا اقتراح پُمپِيوس.

- قدِّموا اقتراحاً بالاستدعاء، وسأدعم ذلك الاقتراح بقوّة السلاح.

فأصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بأنّ غياب شيشرون خلّى في مجلس الشيوخ فراغاً لا يمكنه معه أن يعالج أية قضيّة من القضايا قبل استدعاء شيشرون.

كان ذلك المرسوم إعلانَ حربٍ صريحاً ضدّ كلوديوس.

وفي ذات اليوم، استلم قنصلان جديدان مهامّهما مكان پِزون وگَبينُس، اللذين لم يكونا يلتفتان إلّا إلى مقدونيا وسوريا، فلم يلمحا أنّ شيشرون منفيّ.

والقنصلان الجديدان هما كُرنيليوس لانتُلُس سپِنتير ومِتِلّس نِپُّس.

لانتُلُس سپنتير أيّد اقتراح مجلس الشيوخ.

أمّا مِتِلّس نِپُّس، ولم يكن قد نسي مزحات شيشرون المؤلمة، فقد التزم الحياد.

وكان قد تبقّى لكلوديوس، بعد أن فقد هو أيضاً منصبه، أصحاب مخلصون، مع أنّه لم يعد مدافعاً عن الشعب.

القاضي الذي حلّ محلّه هو أَنّيوس ميلو.

وكان لپُمپِيوس دور كبير في تعيينه.

بذا أصبح ميلو عدوّاً مضاعفاً لكلوديوس، لأنّه حلّ محلّ كلوديوس ولأنه عُيّن في منصبه بفضل نفوذ پُمپيوس.

كان متزوّجاً من ابنة سِلّا، المدعوّة فاوستا، ويحظى ببعض النفوذ في روما.

أطلعه پُمپِيوس على خفايا نفسه بكلّ صراحة.

Twitter: @ketab_n

ينبغي أن نُريح روما من كلوديوس. لم يُثر الاقتراح أيّ هلع لدى ميلو. واكتفى بالجواب أنّه يضع نفسه تحت تصرف پُمپيوس، وأنه سيعدّ نفسه لذلك بما أنّ كلوديوس لا يزال يجرّ وراءه حوالى مائة مصارع.

– عبّئ إذن مائتين مقابل المائة! ردّ پُمپِيوس.

عمل مائة بالنصيحة وعبّأ مائتين من مصارعي الضواري!

تجابه الفريقان: ولم يأتيا إلّا للمجابهة. تشاتما، تشابكا ثمّ تقاتلا. هرع أصحاب كلوديوس من كلّ صوب. ولم يصدف لأحد أن رأى مثل هذا العدد من اللّصوص في الفوروم في نفس الوقت.

انتصر كلوديوس.

سال الدم بغزارة في المجاري، حتّى طفحت المجارير بالموتى.

ولكي تكون نيران الاحتفال جديرة بالنصر الذي أحرزه، أمر كلوديوس بإشعال النيران بمعبد إلاهات الغاب.

رأى پُمپِيوس أنّ الوقت حان للدخول في المعركة.

فاستدعى كُونِتُس، شقيق شيشرون، ثمّ أخذه من ذراعه ونزل معه من هضبة ألبينُس باتجاه الفوروم.

من نافل القول أن نشير إلى أنّ پُمپِيوس لم يكن ليغامر باستعراض قوّته دون أن يصطحب معه حماية مناسبة.

بادر كلوديوس، من شدّة زهوه بالنصر الذي أحرزه، إلى مهاجمة پُمپِيوس.

لم يكن خصمه في هذه المرّة ميلو، بل الظافر على كَربون وسِرتوريوس ومِترِداتس وتِـگران؛ ولم يكن يجابه مصارعي الضواري بل قدامى المحاربين في إسبانيا وآسيا.

وكان أن هُزم كلوديوس.

Twitter: @ketab_n

وفي المعمعة، أصيب كُونتُس شيشرون بجروح.

عندها أدرك الشعب نفسه أنّه آن الأوان لإيقاف كلوديوس عند حدّه.

وعلى كلّ حال، لم تعد روما تعيش إلّا في جوّ من الهبّات والانتفاضات المتتالية. لم يعد في الكَبِتوليوم مجلس شيوخ، ولا في البَزِليكُم قضاة شعب، ولا في الفوروم مجالس عامّة.

وحزم مجلس الشيوخ أمره على القيام باستعراض قوّة ليدبّ الرعب في قلوب من تبقّى من الحزب الديماغوجيّ.

فأعلن أنّ عودة شيشرون أمر لا يهمّ روما وحدها بل إيطاليا برمّتها؛ وبالتالي أنّ إيطاليا مزمعة على إرسال نوّابها إلى حقول مارس لتحسم النزاع بين كلوديوس وشيشرون.

وفي هيجان شديد، هرع إلى روما كلّ من له حقّ المواطنة بغية التخلّص نهائياً من ذلك الكلب المسعور المدعوّ كلوديوس.

مليون وثمانمائة ألف شخص صوّتوا لصالح عودة شيشرون.

سعياً منه لحضورنا عودة شيشرون، ومشاركتنا الاحتفال الذي أقامه الوطن لذلك الإنسان، قرّر المعلّم پوپلّس أن يمنحنا نحن تلامذته تلك العطلة.

ولم أكن أعرف تماماً آنذاك من هو شيشرون ومن هو كلوديوس.

غير أنّه حصل لي عشرين مرّة، وأنا خارج مع والدي، في السنتين الأخيرتين، أن أسمع الناس تصرخ: «إلى الحجارة!» أو «إلى الهراوات!»، وأرى مأموري سلطة يهربون وآخرين يلاحقونهم، وأن ألقى جرحى محمولين على نقّالات، وأعثر تحت قدميّ على موتى وجوهُهم في الوحل وفي الدماء.

وكلّ مرّة كنت أسمع أبي يقول:

Twitter: @ketab_n

- إنه إيّاه، هذه المرّة أيضاً. ذلك الحقير كلوديوس.

هكذا أصبح كلوديوس عندي، وبشكل طبيعيّ جدّاً، إنساناً حقيراً.

وكان والدي، إلى ذلك، لا ينسى أن يضيف في كلّ مرّة:

- لم تكن الأمور على هذه الحالة في عهد شيشرون النزيه.

وهكذا أصبح كلوديوس عندي رجلاً حقيراً وشيشرون رجلاً نزيهاً.

وإلى ذلك، كان والدي يأمل أن يراني في المستقبل محامياً، ويحدّثني دائماً عن ديمُستينِس وشيشرون بوصفهما النموذجين الوحيدين الواجب عليّ الاقتداء بهما.

ولم أكن أشعر من جهتي بأيّ اشمئزاز من احتراف المحاماة؛ إذ كانت لهجتي الريفيّة الخفيفة قد زالت دون أن اضطرّ إلى استعمال الحصى. ومهما يكن من أمر، فكلّ الناس في روما محامون.

ألم يكن قيصر أوّل من بادر إلى اتّهام دُلابِلّا بالارتشاء؟

هكذا تحقّق ما كان أبي يأمله، فأصبح باستطاعته أن يُريني أعظم خطيب منذ ديمُستينِس.

كنّا نستعلم عن شيشرون، نتنحدّث عن شيشرون؛ كنّا نعرف ما يقوله شيشرون وما يفعله شيشرون.

أنظار الجميع مسلّطة نحو المكان التي سيظهر منه.

سبق لشيشرون أن تلقّى، وهو بعد في تسالونيكا، المرسوم الذي أصدره مجلس الشيوخ في استدعاء الشعب إلى حقول مارس.

بعد تردّد طويل، قرّر شيشرون - وكاد يكون بمثل تردّد پُمپِيوس - أن يذهب إلى دِرّاكيوم.

فتوجّه بعد فترة تردّد إضافيّة إلى بْرُنديزيوم، وذلك في اليوم الذي نشر فيه مرسوم استدعائه.

Twitter: @ketab_n

وصل إلى بْرُنديزيوم حيث لقي فيها بنته تُلّيا - وكان يسمّيها تُلّيولا - التي ندين لوفاتها بتلك الرسالة الرائعة، **رسالة في التعزّي**.

ووقع في نفس اليوم معاً عيد مولدها و**عيد المستوطنة**[1].

ولم يعلم إلّا بعد أن أصبح في بْرُنديزيوم أنّ قانون استدعائه قد صدر بأغلبية صاعقة.

على طول الطريق، أتى الأهالي لملاقاته، وكأنّه إله السلام عائداً إلى روما بعد منفىً مديد.

فلا بدّ أنّ شدّة الخوف من كَتِلينا ومن كلوديوس هو الذي أدّى إلى مثل تلك الحفاوة بشيشرون.

استمدّوا حبّهم له من كراهيتهم لهما.

حين دخل من باب كَپينا، تنبّه إلى ذلك العدد الهائل من الناس الذين راحوا يغطّون المعابد.

ما إن رآه الجمهور وعرفه حتّى راح يدوّي بصيحات الفرح المحتدمة وبالتصفيق الجنونيّ.

وكنّا قد ذهبنا منذ الصباح، أنا وأبي، إلى معبد مِركوريوس - وهو أوّل معبد تلقاه محاذياً لطريق أپّيوس، حين تدخل روما من باب كَپينا حيث اتّخذنا لنا مكاناً في درجاته العليا.

بدت لنا **حلبة رَديكاريا** القائمة أمامنا على وشك الانهيار، أمّا السِّرْكُس فبدا وكأنّه مبنيّ برؤوس البشر.

أمّا الشوارع فقد غصّت بالخلق غصّاً يتعذّر عليك معه أن تدرك كيف اتّسعت البيوت لمثل هذا الجمع.

أكرهوا شيشرون على سلوك 'طريق الظفر' كما يفعل الظافرون.

---

(1) Fête de la colonie.

Twitter: @ketab_n

وتهافت الناس حوله.

وراح أبي يسألني ويكرّر سؤاله:

- هل رأيته على الأقلّ، هل شاهدته؟

مررنا، ونحن نسلك **طريق الظفر**[1]، أمام بيت شيشرون، الذي كان يقابل سابقاً الأبنية الإداريّة؛ وأقول «سابقاً»، لأنّ كلوديوس أمر بهدمها ليقيم مكانها **معبد الحرّية**.

أمّا بيتاه الآخران الواقع أحدهما في توسكُلُم والآخر في فُرمِس، فقد دكّهما عن بكرة أبيهما باعتبارهما ملكاً لأحد أعداء الدولة.

ألقى شيشرون في طريقه نظرة على المعبد الذي انبثق حيث كان يرتفع سابقاً ذلك المسكن الخلاّب، الذي اشتراه من كْرَسُّس بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف سِستيرس، ممّا جعله يكتب إلى سِكستُس بشأنه:

«ها أنا، يا عزيزي سِكستُس وقد تراكمت عليّ الديون، أبحث لي عن جماعة متآمرة تتكرّم باستقبالي.»

كان جميع أصدقائه أمام ذلك المعبد في استقباله.

كانت تُلّيا وتِرنسيا على المدرج وكأنّهما تقولان لشعب روما:

- إنّ الرجل الذي نستقبله اليوم استقبال الظافرين لم يعد له حجر يسند إليه رأسه، لا في روما ولا في إيطاليا.

أدرك الشعب ذلك، فراح، بعد أن انتهى شيشرون من تقبيل زوجته وابنته، يصفّق له تصفيقاً مدوّياً وهو يقوده باتجاه الفوروم.

بدل أن نرافق شيشرون مع الحشد، رحنا أنا وأبي نحاذي ضلع السِركُم من الجهة التي تقوم فيها اليوم صهاريج الماء. حين وصلنا إلى طرفه المَقابل

---

(1) الطريق الذي كان يسلكه القوّاد العائدون من معركة ظافرة وحاسمة ليلقوا استقبالاً شعبياً احتفالياً (المترجم).

Twitter: @ketab_n

للتيبَريس، نحو اليمين، مقابل سبيل الماء الذي أقامه مُسكوزُس، وقطعنا زاوية فوروم بواريوم، ثمّ مررنا بينه وبين معبد جوپتير ستَتور، وتبعنا **طريق تُسكُس** تاركين على يسارنا معبد فِرتُمنُس؛ وبما أنّنا سلكنا نحن طرقاً تكاد تكون منعزلة، بينما كان شيشرون، من جهته، يمرّ بشوارع مزدحمة بالفضوليّين، فقد وصلنا قبله بساعة تقريباً، واستطعنا أن نقف أسفل محكمة القيّمين على العدالة التي يمرّ منها 'الطريق المقدّس'، حتّى يتسنّى لنا أن نراه مرّة أخرى حين يجتاز الفوروم ليصعد نحو الكَپِتوليوم.

صيحات فرح تتقارب شيئاً فشيئاً، وتموّجات شبيهة بتموّج السنابل عند مرور الريح، أحدثها المشاهدون القائمون على البيوت وعلى مدارج الهياكل ومصاطبها، أنبأتنا بوصول بطل الساعة وشيكاً.

وتدفّق الناس نحو الفوروم تدفّقاً لا مثيل له بحيث أصبح من الضروريّ أن يقوم المرافقون للقنصل بإفساح ممرّ إلى الكَپِتوليوم.

وقد رافق الحشد بهتافاته شيشرون حتّى داخل معبد جوپِتير.

كاد شيشرون أن يختنق مرّتين أو ثلاثاً.

أليس من الأفضل له أن يختنق من أن يموت على يد قائد المائة هِرِنّيوس على طريق گايته، أو أن تَثقب لسانه إبرةُ فُلفيا[1] الذهبيّة، ويداه مُسمّرتان إلى يسار المنبر فيما يخطب أنطونيوس بالناس؟

ومهما يكن من أمر، ما أدرانا أنّ أفضل نهاية لحياة سعيدة ليست في منفىً تتعرّض له ظلماً؟

وحدهم الآلهة يمسكون في قبضتهم مصائر الناس.

---

(1) Fulvia زوجة كلوديوس وبعده أنطونيوس، وقد ساهمت في مصرع شيشرون (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

ارتفاع أسعار المواد الغذائيّة - نزولاً عند طلب شيشرون، پُمپيوس يُكلّف بتموين روما - شروط پُمپيوس - موافقة مجلس الشيوخ على الشروط - شيشرون يتلقّى تعويضاً عن هدم بيوته - تجريد الإلهة حريّة من ملكيتها - كلوديوس يثير اضطرابات جديدة - ويحرق بيت كُونتُس - ينهزم أمام أنّيوس ميلو - يختفي - مَغص شيشرون.

لننتهِ في الحال من قضيّة كلوديوس الحقيرة.

في الأيّام التي تلت عودة شيشرون إلى روما، شهدت الأسعار ارتفاعاً هائلاً.

استغلّ كلوديوس هذا الارتفاع الذي يثقل كاهل الفقراء ليثير أعمال شغب.

قرّر مجلس الشيوخ، انطلاقاً من قناعته أنّ هدف المشاغبين غير ما هو معلن، أن يكون في حالة انعقاد دائم.

أدّت عودة شيشرون إلى بروز پُمپِيوس، الذي لعب الدور الأكبر في إنجاحها. نسي الناس پُمپِيوس، لأنّه تناسى نفسه، غير أنّه أصبح، في هذه المسيرة المظفّرة، بطل الساعة الثاني.

Twitter: @ketab_n

همسوا في أذن شيشرون أنّ عليه، تسديداً لدينه تجاه پُمپِيوس، أن يطلب تعيينه مسؤولاً عن تموين المدينة.

وكان منصب القيّم على التموين، في نفس الوقت، صفقة تجاريّة رابحة ومسؤولية سياسية رفيعة.

فحين عاد شيشرون يحتلّ في مجلس الشيوخ المقعد الذي سبق له أن احتلّه قديماً، ارتفعت أصوات كثيرة بالهتاف: پُمپِيوس! پُمپِيوس! پُمپِيوس!

أدرك شيشرون المقصود من الهتاف.

فنهض واستأذن بالكلام.

منذ فترة طويلة، لم يسمع أحد ذلك الصوت البليغ الذي تمكّن شيشرون، بمهارته وبجهده الدؤوب، أن يضفي عليه تناغماً متميّزاً، فساد الصمت كما بفعل ساحر.

تحدّث شيشرون طويلاً وأجاد.

بناءً على اقتراحه، صدر قرار عن مجلس الشيوخ يتمنّى على پُمپِيوس أن يستلم إدارة التموين. قُرئ القرار على الشعب، فعلى التصفيق من كلّ الأطراف بلا استثناء.

قبل پُمپِيوس ولكن بعد فترة تمنّع، أراد من ورائها أن يفرض شروطه.

فأعلن عن قبوله بمسؤولية تموين روما، وطالب بخمسة عشر نائباً.

وعلى أن يكون شيشرون على رأس هؤلاء النوّاب.

وطلب أن تكون مدّة المهمّة خمس سنوات وتشمل **المعمورة** بكاملها.

فكان له ما أراد. وظنّ المجلس أن پُمپِيوس سيكتفي بتلك المطالب. غير أنّ ميليوس، وهو أحد صنائعه، استأذن بالكلام واقترح أن يُمنح

Twitter: @ketab_n

پُمپيوس أيضاً حقّ التصرّف بماليّة الإمبراطوريّة، وقيادة الأساطيل والجيوش، والسلطة على حكّام الأقاليم كافّة.

بدأ شيشرون يهزّ برأسه؛ أدرك ما هو الهدف المقصود. الهدف؟ بكلّ بساطة، منح پُمپيوس الدكتاتوريّة. لشدّ ما كان يخشى أن يُمنح رجل بمفرده مثل هذه السلطة، وأن تتجمّع بين يدي ذلك الذي جعل هو يسمّيه منذ فترة **ذا البابين**.

بسبب الحماس السائد، تمّ قبول الاقتراحات كافّة. راح مجلس الشيوخ، بسبب خوفه من كلوديوس، يسلّم پُمپيوس ليس فقط روما بل إيطاليا برمّتها، وليس فقط إيطاليا بل أقاليمنا مجتمعة موثقة اليدين والرجلين.

إنه من فطرة المجالس السياسيّة ألّا تقدر على التوقّف في المنزلقات.

وعاد مجلس الشيوخ في اليوم الثالث إلى شيشرون. منذ عودته إلى روما، سكن شيشرون عند هُرتَنسيوس مع زوجته وبنته وابنه.

لم يكن الموضوع يدور حول استرداد شيشرون بيوته؛ إذ أنّ تلك البيوت كانت قد دُمّرت عن بكرة أبيها، كما سبق أن ذكرنا، بل استرداده أرض البناء وتعويضه عن المباني المهدمة.

غير أنّ ذلك أثار قضيّة خطيرة.

فقد أُقيم على موقع بيته في روما، كما أسلفنا، معبد **الحريّة**.

ولم يكن بدّ من تجنّب انتهاك حرمة الدين بتجريد إلهة من ملكيّتها.

ولا بدّ من القول إنّ تلك الإلهة كانت من السقم بحيث أن العمليّة كانت أقرب إلى الدفن منها إلى نزع الملكيّة.

وعُرضت القضية على الأحبار[1].

---

(1) الكهنة الذين يقضون في الشؤون الدينية وكان عددهم خمسة عشر (pontifes) (المترجم).

Twitter: @ketab_n

اجتمع هؤلاء ثمّ أصدروا بعد مشاورات طويلة رأياً صيغ على هذا النحو:

«إن لم يكن تصرّف الشخص القائل إنّه نذرَ هذا المكان مطابقاً للقوانين العامّة ولا ناجماً عن تكليف شخصيّ بموجب قانون أو كتاب خطيّ نصّ عليه الاستفتاء، فإنّ استرداد المكان جائز باعتباره غير متطاول على حرمة الدين».

ربّما كان في هذا التمييز شيء من الحذلقة، ولكنّ ذلك من صميم عمل الكهنة.

استأذن كلوديوس بالكلام ليبرهن على أنّ البيت، وفقاً لرأي مجلس الكهنة، لا يجوز إعادته إلى شيشرون، لأنّه كان هو مخوّلاً، بصفته مدافعاً عن الشعب، أن يفعل ما فعل بعد أن حُكم على شيشرون بالنبذ.

غير أنّ مجد كلوديوس كان قد زال، فصدر قرار بأن يعاد لشيشرون بيته، أو أقلّه أرضيّة البيت وأن يمنح مبلغ مليوني سِستِرس من باب التعويض والفوائد.

هذا، في ما يخصّ بيت روما.

وبدأ النقاش حول بيته في توسكُلُم وفي فُرمِيس.

فحصل، تعويضاً عن بيت توسكُلُم، على خمسمائة ألف سيستِرس.

وعن بيت فُرمِيس على مائتين وخمسين ألف سيستِرس.

اعتبر شيشرون ذلك المبلغ زهيداً، وأيّد رأيه كثيرون.

وعلى كلّ حال، أصيب كلوديوس بهزيمة.

قدّم شيشرون الأضاحي تفادياً لغضب الإلهة حرّية بسبب هدم معبدها، وسلّمه للبنّائين.

اختفى المعبد، وبدأت أسس البيت الجديد تبرز للعيان.

Twitter: @ketab_n

في الرابع بعد منتصف نوفمبر، كنت أتناول الغداء في بيت والدي، فسمعنا جلبة ورأينا حشداً هائجاً.

كانت الأحداث الجارية قد استثارت فضولي بشدّة. وكنت أودّ أن أجري مع ذلك الحشد، غير أنّ والدي لم يتركني أخرج، بل أمسكني من ذراعي واكتفى بإرسال أحد خدمنا يستطلع الأمر.

رجع الخادم بعد ساعة وقال إنّ كلوديوس، في جماعة من المشرّدين كان يجرّهم وراءه، هجم على البنّائين والنحّاتين وهم منهمكون في بناء بيت عدوّه.

فوجئ هؤلاء بالهجوم ولم يفهموا ما يجري فغادروا المكان.

اطمأنّ كلوديوس ورجاله إلى النصر الذي أحرزوه، فملأوا معاطفهم بالحجارة وراحوا يحاصرون بيت كْونِتُس.

وبعد لحظات، سمعنا دويّ هتافات: إلى النار!

وراح بيت كْونِتُس يحترق.

فتجمهر الناس وتوجّهوا إلى بيت پُمپِيوس: لم يكن بوسع أحد غيره إخماد الصخب. ومن سوء الطالع أنّ پُمپِيوس كان قد غادر روما عشية ذلك اليوم وذهب يشتري قمحاً.

لا ريب في أنّ كلوديوس انتظر أن يغادر پُمپِيوس ليستأنف اعتداءاته.

وفي اليوم الثالث بعد منتصف نوفمبر، تجدّدت الاضطرابات في روما.

وفيما كان شيشرون ينزل الطريق المقدّس محاطاً بحاشيته وبذلك الموكب من الفرسان الملازمين له على الدوام، هاجمه كلوديوس بفرقة من رجاله المسلّحين بالسيوف والهراوات وبآخرين لم يجدوا سيفاً أو هراوة فاكتفوا بالحجارة.

ولم يكن شيشرون ممّن يرتاحون إلى مثل تلك المجابهة، فتقهقر إلى

Twitter: @ketab_n

الوراء، ولحسن حظّه وجد بيت تِلّيوس مفتوحاً، فلجأ إلى بهوه مع قسم من حاشيته.

تمتروسوا هناك وانتشر خبر الاعتداء، فهرع أصحاب شيشرون إليه واستطاعوا أن يطردوا كلوديوس.

جعل ذلك النصر العسكريّ الخطيب شيشرون -الذي لم يكن له أيّ ضلع في النصر- ينتفخ كبرياءً، فراح يقول:

- كان بوسعي أن آمر بقتله، غير أنّي أنفر من العمل الجراحيّ وأبادر أولاً إلى الحمْية.

سنراه قريباً يلجأ إلى العمل الجراحيّ، ونتعرّف إلى ذلك الجرّاح الصارم الذي سبق أن صادفناه، وهو المسمّى أَنّيوس ميلو.

وعلى كلّ حال، سيتواجهون جميعهم.

بعد أيّام اختفى كلوديوس أثناءها، خرج فجأة من بيت پُبليوس سِلّا مع فرقة من عبيد عبّأها؛ ثمّ راح هو وجماعته المسلّحة بالسيوف والتروس والمشاعل يهاجمون بيت ميلو على هضبة جرمايوس، بقصد إحراقها كما أحرقوا بيت كْوِنتُس شيشرون.

كان ميلو على علم بنواياهم، وكان يملك بيتين في نفس الحيّ.

فتحصّن في أحديهما وترك في الآخر كْوِنتُس فلَكُّس مع حاميته.

هاجم كلوديوس البيت الذي لجأ إليه ميلو؛ وفيما كان مع رجاله منهمكين في الحصار، خرج فلَكُّس مع حاميته وأطبقوا على مؤخّرة فرقة كلوديوس واضطرّوهم إلى الفرار.

ولك أن تحكم على حالة روما حين لم تكن روما مدعومة بحماية واحد من ذانيك السيفين اللذين نسمّيهما قيصر وپُمپيوس.

كلّ ما أسرده هنا جرى في وضح النهار، مقابل مجلس الشيوخ تحت

Twitter: @ketab_n

نظر القناصل والحكّام الشرعيّين والمدافعين عن الشعب وسمْعهم.

استغلّ ميلو نصره لتفتيش بيت پُبليوس سِلّا، حيث أشيع أنّ كلوديوس قد تخبّأ. بحثوا عنه حتّى في مخدّات الأسرّة والسُّفَر[1]. ولو قُدّر لهم أن يقعوا عليه، لما اكتفوا، حسب ظنّي، بحمْية بسيطة.

التأم مجلس الشيوخ في اليوم التالي، على أمل ظهور كلوديوس فيه، غير أنّه حرص على عدم الظهور.

فوقف ميلو بصفته مدافعاً عن الشعب، ووجّه التهمة إلى كلوديوس.

بقي كلوديوس على صمته واختفائه.

إليك سبب صمته واختفائه.

بعد أيّام كانت ستجري الانتخابات الشعبيّة، ويترشّح كلوديوس لمنصب الناظر العامّ للمدينة[2]، وإذا ما انتخب لم يعد خاضعاً للمحاكمة.

وحان موعد انعقاد الانتخابات، وكان ميلو في هذه الأثناء، بوصفه مدافعاً عن الشعب، قد استشار عرّافي الفأل.

فوقف أمام الشعب وأعلن أنّ الفأل غير مؤاتٍ، إذ رفضت الفراخ المقدّسة أن تأكل، مع أنه قُدّم لها ثلاثة أنواع من الحبوب.

لم تُعقد الانتخابات إذاً إلّا في اليوم التالي. وفي اليوم التالي، في الحادي عشر من الشهر، وصل ميلو إلى حقول مارس مع فرقة مسلّحة عاقداً العزم على تصفية قضيّة كلوديوس.

ما كان سيُجرى انتخاب بل كان سينشب القتال. وما كانت حقول مارس ستشكّل سجّادة خضراء يمارس عليها الناس لعبة الانتخابات، بل كانت ستغدو ميدان قتال، حيث تُحسم قضيّة الحياة والموت بين ميلو

(1) جمع «سُفرة» وهي مائدة واطئة كان الرومان يأكلون عليها وهم مضّجعون (المترجم).

(2) مسؤول عن صيانة الأبنية العامّة والطرقات، وعن الشرطة والتموين وتنظيم الألعاب (édile) (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وكلوديوس.

لم يظهر أثر لكلوديوس، كما في الأيّام السابقة.

غير أنّ أحد أصحابه غامر بالظهور بدلاً منه وهو يركض في الساحة. إنه مِتِلّس.

ينبغي ألّا نخلط بينه وبين المصرفيّ مِتِلُّس سيلِر، صهر كلوديوس ومنافس كَتُلُّس.

ولطيشه، ترشّح مِتِلُّس سيلِر ضدّ ابن حميه فتوفّي فجأة.

ما كان سبب موته؟ يجب الاستفهام عن الأمر لدى كلوديا، الإلهة ذات العينين البقريّتين، كما يسمّيها شيشرون.

كما أنّ صهر كلوديوس الثاني، المصرفيّ الثريّ مَرسِيوس رِكس، توفّي هو أيضاً.

إنّ الزواج بأخت كلوديوس لأمر خطير.

لم يبق إلّا لُكُلُّس.

غير أنّ لُكُلُّس يدفع لطبّاخه مبلغ أربع وعشرين ألف سِستِرس. ومن الصعب تسميم إنسان يدفع لطبّاخه مثل هذا الراتب.

فضلاً عن أنّ لديه ذوّاقتَين يذوقان قبله كلّ ما يأكله من أطعمة وما يشربه من خمور.

وإضافة إلى كلّ ذلك، غادر روما وسكن في ناپولي.

ومرّ أحد المسمّين باسم مِتِلُّس، وهو إنسان زهيد القدر بما أنّه صديق لكلوديوس، مرّ راكضاً جرياً في حقول مارس.

فجرى ميلو إثره وأعلن أنّ احتجاجه هو بمثابة إعلان هدنة.

إن قدّر لميلو أن يلتقي بكلوديوس، فكلوديوس لا محالة إنسان ميت.

أراني أتّكوس في أثينا رسالة من شيشرون، يقول فيها حرفيّاً:

Twitter: @ketab_n

«إن وقعت عين ميلو عليه، فسيقتله هو نفسه. أرى ذلك بأُمّ عيني».

ماذا كان شيشرون يفعل خلال ذلك الوقت؟

كان ملازماً فراشه، صريع مغص عنيف - وفق عبارته- دام عشرة أيّام، عزاه شيشرون إلى فطر وملفوف من منتجات بلجيكا، كان قد تناول منه كميّة كبيرة في مأدبة أقامها لانتُلُس لاستطلاع فأله.

وعلى كلّ حال، لم يبق في روما شخص واحد يراهن على بقاء كلوديوس على قيد الحياة. أذكر أنّ والدي قادني يوماً إلى هضبة البالاتينم لمشاهدة البيت الذي ابتاعه ذلك الخطيب الهدّار من سكَورُس. كان بهوه خالياً وقنديل قديم يضيء بنوره المرتجف عدداً من البؤساء يرتدون الأسمال.

كان ذلك كلّ ما تبقّى من جيش كلوديوس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

مجلس الشيوخ يعيّن حاكماً مؤقّتاً - من هو الحاكم المؤقّت - إميليوس لِپِدُس - اغتيال كلوديوس على يد عبيد ميلو - جثّة كلوديوس تُلقى في طريق أپيا، يعثر عليها الشيخ سِكسيوس تِديوس ويعيدها إلى روما - فناء بيت كلوديوس - فُلڤيا.

وأخيراً وافى الحظّ ميلو بهذا اللقاء الذي طالما سعى إليه وتمنّع عليه.

على أثر هذه الاضطرابات، لاحظ مجلس الشيوخ أنّ الأمور لم تنحسم بعد، فعيّن حاكماً مؤقْتاً.

نظراً لأنّ مؤسّساتنا تضمحلّ الواحدة تلو الأخرى، بحيث أنّ الناس قد لا يفهمون بعد خمسين سنة من هو الحاكم المؤقت، فلا بدّ أن نشرح ذلك، لا لمعاصرينا الذين لا يزالون يذكرونه، بل لأحفادنا ومن يأتي بعدهم، وأغلب الظنّ أنهم لن يتذكّروه قطّ.

في حالِ ما إذا تأجّلت مجالس الشعب وطال التأجيل، بسبب نُذُر شؤم أو معارضة أحد المدافعين عن الشعب، فلم يُنتخب القناصل في بدايةَ السنة، ينسحب القناصل القائمون في ذلك اليوم، ويقوم الحكم المؤقّت.

يضمن مجلس الشيوخ استمرار الحكم بتعيين حاكم مؤقّت يختاره بالضرورة من الأعيان.

Twitter: @ketab_n

يعقد هذا الحاكم مجالس الشعب ويرأسها ثمّ يسلّم السلطة إلى القناصل فورَ انتخابهم.

غالباً ما يؤدّي النقاش بين مجلس الشيوخ والشعب إلى تأجيل موعد انعقاد المجالس. وحدث ذات مرّة أن بقيت روما مدّة خمس سنوات متتالية بدون قناصل، يحكمها المدافعون عن الشعب وناظرو المدينة العامّون وهو يعارضون إجراء انتخاب للمناصب العليا في الدولة. ومرّة أخرى، تعاقب أحد عشر حاكماً مؤقّتاً على كرسيّ القنصل وذلك لمدّة خمسة وخمسين يوماً.

إذن، قام مجلس الشيوخ، كما ذكرت آنفاً، بتعيين حاكم مؤقّت.

عُيّن هذا الحاكم، واسمه إميليوس لِبِدُس، في اليوم الثاني عشر من فبراير.

وفي الثالث عشر منه، كان أَنّيوس ميلو ذاهباً إلى لَنوڤيوم، مدينة مستقلّة كان فيها حاكماً مطلق الصلاحيات. وكان جالساً في عربته مع زوجته فَوستا وصديقه مَركُس فوفيوس.

وكان موكبه مؤلّفاً من شلّة كبيرة من العبيد، يتوسّطها حوالى اثني عشر مصارعاً، بينهم اثنان معروفان بقوّتهما وشراستهما.

يسمّيان لُدامُس وبِرّيا.

كانا يسيران وراء الجميع ليشكّلا مؤخّرة موكب أَنّيوس ميلو.

حوالى الساعة التاسعة من ذلك اليوم، أو الثالثة بعد الظهر، قابلَت هذه الفرقة فرقة أخرى تعدّ نصف عددها، فيما كان قائدها، على بعد مائة قدم من الطريق وعلى مقربة من المعبد الصغير والإلهة الطيّبة، يتحدّث مع أعضاء مجلس الأريسيّين. تبادل عبيد الفرقتين بعض الشتائم، فنشب نزاع، استتبع شجاراً.

Twitter: @ketab_n

كانت دواليب العربة وهي تسير على البلاط تثير ضجّة تحول دون سماع أَنّيوس ميلو لما يجري؛ فتابعت العربة طريقها دون أن تقلق لما يجري وراءها، لا بل دون أن تتصوّر حدوثه.

لم يكن الأمر نفسه بالنسبة للفارس الذي يتبادل أطراف الحديث إلى يسار الطريق مع أعضاء مجلس الأريسيّين؛ التفت عند سماعه الضجة ورأى القتال ناشباً، فأدرك أنّ فرقته لا بدّ آيلة إلى الهزيمة، لأنّها بنصف عدد الفرقة الأخرى.

حين لحظ أنّ جماعته تواجه جماعة من العبيد والمصارعين، بدا له أنّ النظام سيستتبّ بمجرّد ظهوره أمامهم، إذ أنّه يندر أن يتصدّى مثل هؤلاء لواحد من الأعيان.

أطلق العنان إذن لفرسه واندفع، برفقة اثنين من أصدقائه ويافع في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، إلى وسط المعمعة.

ما كاد يصل حتّى عرفه الناس، فسرى اسم كلوديوس في صفوف فرقة ميلو.

كانت هذه الفرقة قد انتظرت قدومه في حقول مارس، وبحثت عنه في شوارع روما، وسمعت على مدى ثمانية أيّام قائدها أَنّيوس ميلو يردّد كلّ صباح:

- إن واجهتم كلوديوس، فلا رحمة!

وها هم يقابلون كلوديوس.

وحدث أنّ كلوديوس، حين رفع سوطه ليهوي به على أحد مهاجميه، لم يتراجع المهاجم كما يفعل عادةً، بل ردّ على ضربة السوط بطعنة رمح اخترقت كتف كلوديوس.

أُصيب كلوديوس بجرح بليغ، ولو لم يتلقّه أحد أصدقائه بين ذراعيه

Twitter: @ketab_n

لوقع عن حصانه.

ارتعب العبيد أنفسهم من فعلتهم، فأطلقوا العنان لأحصنتهم والتحقوا بفرقتهم. أمّا الفرسان الثلاثة المرافقون لكلوديوس فكانوا كَنينيوس سكولا -وهو نفسه الذي سبق له أن أكّد، في قضية بيت قيصر الآنفة الذكر، أنّ كلوديوس على بعد مائة ميل من روما- واثنين آخرين من العامّة هما پُمپونيوس وابن أخيه. سندَه هؤلاء الثلاثة، وقادوه إلى نُزل رجل اسمه كَپونيوس، يقع على طريق أپّيا.

ربّما قُدّر لكلوديوس ألّا يموت من جراحه، وأن تنجع فيه عناية أصدقائه الفائقة -وكان أحدهم قد انطلق لاستدعاء طبيب-، لو لم يأت أحد خدم النزل ليقول لهم إنّه يلمح فرقة من الفرسان متّجهةً نحو النزل، تنمّ هيئتهم عن نوايا عدوانيّة.

خاف أصدقاء كلوديوس فهربوا؛ وأمر صاحب النزل بإخفاء الجريح في ما يشبه فرناً صغيراً وكدّسوا حُزم الحطب أمام الباب.

في تلك اللحظة اقتحم الفرسان النزل. وإليك ما حدث:

استطاع أكثر العبيد جرأة أن يبلغ باب عربة أَنّيوس ميلو ليقول له:

- سيّدي، التقينا لتوّنا بكلوديوس، وتصدّى لنا فقام بيننا شجار، تلقّى خلاله طعنة رمح اخترقت كتفه.

- هل قُتل؟ سأل ميلو بانفعال.

- لا، ولكنّ جرحه بليغ؛ أصدقاؤه يقومون بنقله.

- إن كان جرحه بليغاً جدّاً، ردّ أَنّيوس ميلو، فمن باب الرحمة أن يُقضى عليه.

والتفت إلى قائد عبيده قائلاً:

- هيّا! يا فُستينيوس، أخطرُ علينا أن نتركه يعيش من أن نقتله.

Twitter: @ketab_n

لم ينتظر فُستينيوس أن يُكرّر له القول. ورأى كلوديوس يُحمل إلى نزل كَپونيوس، فاصطحب معه حوالى ثلاثين من رجاله، ومعهم لُدامُس وبرّيا اللذان يساويان لا أقلّ من عشرة رجال، وانطلق بأقصى سرعته ينفّذ أوامر سيّده.

تلك هي الفرقة التي كان الخادم قد لمحها آتية من بعيد، وقد أجبرت أصدقاء كلوديوس الثلاثة وموكبه على الهرب.

وقع فُستينيوس على كلوديوس في فرنه وهو بين الحياة والموت فأجهز عليه، وجُرّت جثّته المثخنة بالطعنات ثمّ أُلقيت في طريق أپّيوس. أمّا أَنّيوس ميلو فاستأنف طريقه كما لو أنّ ما حدث لا يعدو كونه حدثاً عاديّاً.

جرى ذلك حوالى الساعة الحادية عشر حيث يبدأ الليل بالهبوط. فأداروا وجه الجثّة نحو التراب، آملين ولا شكّ أن تمرّ فوقه عربة سائرة في تلك الحلكة.

ما حدث شيء آخر. كان أوّل من مرّ في طريق أپّيا بعد الاغتيال أحد الشيوخ -واسمه سيكسيوس تِديوس- راجعاً في مَحمله من ريف روما. ما إن لمح الحمّالون الجثّة حتّى توقّفوا وأخبروه بالأمر؛ فنزل من محمله واستطاع أن يتعرّف، بما تبقّى من بريق النهار، على وجه كلوديوس، وكان قد لفظ آخر رمقه، وفقد دمه بحيث أنّ جثّته أصبحت باردة.

عند مروره من باب كَبينا، صرّح سِكسيوس تِديوس لحرّاس الباب بما رأى، فانتشر لتوّه خبر اغتيال كلوديوس.

فانفجرت غوغاء روما بصراخ هائل، بحيث أنّ المحمل حين بلغ تلّة بَلَتينُس، أي بيت كلوديوس، كان يرافقه موكب يتجاوز الألفي شخص. عند سماع ذلك الحشد الكبير، برزت فُلڤيا على عتبة البيت فيما

Twitter: @ketab_n

كانت العربة تتوقّف عند الباب. كانت فُلڤيا ابنة لأب مُعتَق، وتزوّجها كلوديوس عن عشق، إذ كانت طويلة القامة، رائعة الأسنان والعينين والشعر.

لم تشأ تصديق النبأ المشؤوم، ولم تتيقّن من الأمر إلّا بعد أن رأت الجثّة متمدّدة في المحمل مثخنةً بالطعنات.

عندها حملت الجثّة بين ذراعيها بقوّة رجل فحل ووضعتها في فِناء الدار؛ ثمّ تركتهم يمدّدون كلوديوس على سريره، وبرزت على الباب مدمّاة من أثر الجثّة وهي تصرخ:

- تعالوا، يا ناس، يا أهل الخير، انظروا ما فعله شيشرون وميلو.

نظراً لكوننا جيراناً لكوديوس، كنّا من أوّل من وصلهم النبأ. فأخذني والدي من يدي وقال لي:

- تعالَ يا كوِنتُس، تعالَ لنرى جثّة ذلك الرجل الذي جرّ على روما الدم والنار مدّة سنتين. مسكينة أنت يا روما! ستقضين أيّاماً هادئة، ولن تهبّي من نومك فجأة عند منتصف الليل من بعد، بما أنّ هذا الرجل قد فارق الحياة.

كان من الخطورة بمحلّ أن تفصح وأنت في الشارع عن مثل هذا الرأي. لذا سلكنا **الطريق الجديد** حتّى معبد **النصر**، وسرنا في الشارع الذي اقتبس اسمه من المعبد، وانحدرنا بين بيتي سكانيوس وكَلڤينيوس، فوجدنا أنفسنا في **طريق الظفر**، الذي عليه تطلّ بوّابة بيت كلوديوس، الذي تلامس بساتينه بيت **الفلامين**[1] ذْيال.

لم يكن يفصل بيته عن بيت شيشرون، الذي يعاد بناؤه على موقع معبد

(1) كاهن عضو في الهيئة الكهنوتية العليا المؤلّفة من 15 شخصاً كلّهم من عِلية القوم، من أرستقراطية الأشراف (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الحرية، إلّا البساتين والجدار. ولو لم نكن نعرف موقع بيت القتيل، لدلّنا عليه الحشد وهو يدفعنا إليه.

وكلّما اقتربنا من البيت علا الضجيج وكبر الحشد.

خشي والدي عليّ من الاختناق في وسط هذا الحشد، فعبرنا **طريق الظفر** وسلكنا الشارع الصاعد إلى الكُويليوس بين المقرّات القديمة لهيئات الحكم فبلغنا بهو سوق اللحم، ومنه رحنا نشرف على بهو بيت كلوديوس فنرى كلّ شيء.

كانت الجثة عارية تماماً إلّا عند القدمين المحذيّتين وممدّدة على سرير مغطّى بغطاء أرجوانيّ، يُبرز احمراره الشديد لون الجثّة الباهت. كنّا نرى فُلڤيا، فيما نسمع صراخها ونتبيّن بعض كلامها، تشير إلى جراح الجثّة وتنفض الثياب المدمّاة وتدعوا الشعب للثأر.

وكانت من وقت لآخر تقتلع شعرها وتلوي ذراعيها صارخة: «كلوديوس! أيّها الغالي كلوديوس!»، وتلصق شفتيها بشفتي الميت المتجمّدتين من البرد.

كان وقع هذا المشهد عليّ شديداً، ولكن على غير ما كان والدي يتوقّعه. ما رأيته! جثّة وامرأة تندبه. فأشفق قلبي الفتيّ على ما أشاهد، لا على ما سمعته سابقاً.

عدنا إلى البيت عن طريق غير مباشر. حاذينا معبد **مِينرِفا الأسيرة** الواقع مقابل **الوئام الزوجيّ** وفي الغد علمنا أن عدّة أشخاص اختنقوا من شدّة الازدحام بالرغم من سعة **طريق الظفر**.

Twitter: @ketab_n

24 فبراير 1860

عند بزوغ الفجر، أيقظنا صخب هائل. صعدنا إلى سطح البيت فرأينا الحشد يصبّ في الفوروم، وفي مقدّمته المدافعان عن الشعب، مُناسيوس پلاوكُس وپُمپُنيوس روفُس، وشاهدنا ستّة رجال حاملين أغصان الغار يرفعون الجثّة على محمل. إنّهم أصدقاء كلوديوس يقيمون الشعب ضدّ أَنّيوس ميلو، بعد أن بلغهم، عن طريق العبيد الهاربين وكذلك كَنينيوس سكولا وابن أخيه پُمپُنيوس، أنّه هو قاتل كلوديوس.

وكانت فُلڤيا تسير قرب محمل زوجها مبعثرة الشعر ممزّقة الثياب.

وضع الجثمان على **الرُسترِس**[1]، ومع أنّ النهار كان لا يزال يطلع فإنّ الفوروم كان قد امتلأ بالمحرفين والعمّال وعامّة الشعب والعبيد، يرفعون العصيّ صارخين: «الموت لأَنّيوس ميلو!».

وبتحريض من الكاتب سِكستُس كلوديوس، سرعان ما حمل الشعب الجثمان إلى قاعة **هُستيليا**، على اسم تُلّوس هُستيليوس الذي بناها في المكان الذي تنتصب فيه اليوم قاعة **جوليا**. وبما أنّ مجلس الشيوخ كان ينعقد أحيانا في قاعة **هُستيليا**، فقد جُهّزت بعدد كبير من المقاعد والطاولات. ومن هذه المقاعد والطاولات صنع الشعب محرقة عظيمة، مدّد فوقها جثّة كلوديوس ثمّ أشعلوها بدفاتر الكُتّاب الورّاقين الذين كانت حوانيتهم ملاصقة للقاعة. وما هي لحظة حتّى ارتفعت شعلة هائلة انتقل لهيبها إلى القاعة فأضرمت النار فيها ثمّ انهارت على المحرقة بقصد إقامة مأتم لائق بالميت.

(1) تشير إلى المنابر التي تلقى من عليها الخطب في الاجتماعات العامّة.

Twitter: @ketab_n

بعد أن غادر الشعب الفوروم حيث لم يبق من الجثمان والمحرقة والقاعة إلّا رماد، انقسم إلى فريقين، ذهب أحدهما ينهب بيت أَنّيوس ميلو الذي ارتأى، من باب الحذر، ألّا يعود إلى روما بعد كلّ ما حدث؛ وأمّا الفريق الآخر فراح يحاصر بيت الملك المؤقّت إميليوس لحمله على إجراء انتخابات الشعب، وعلى تعيين صديقَي كلوديوس، هِپسِيوس وسِپيون، قنصلين.

كان لِپدُس يتوقّع مثل هذه المحاولة فجمع فرقة حراسة مسلّحة استقبلت بالسهام أصحاب كلوديوس، الذين تفانوا في اقتحام البيت مدّة ساعتين إلّا أنّهم أُجبروا على الانسحاب بعد خسائر كبيرة في الأرواح. فعادوا إلى الفوروم حيث نزعوا **قصبة السلطان**[1] من السرير الرئاسيّ وحملوها إلى بيت هِپسِيوس وسِپيون.

في هذه الأثناء شاع خبر عودة پُمپِيوس، فانتقل حشد كبير إلى بيته الواقع، كما أسلفنا، عند التقاء **الطريق المقدّس** ودرب سِپريوس. وبدأوا يصيحون به ليعرضوا عليه، بعضهم القنصلية وبعضهم منصب الآمر مطلق الصلاحيات.

إلّا أن پُمپِيوس، أتى أو لم يأت، لم يُبدِ حراكاً.

فانقضّ الشعب مرّة أخرى نحو بيت إميليوس لِپدُس.

استطاع المهاجمون هذه المرّة أن يخلعوا الباب ثمّ، بعد أن دخلوا البيت، قلبوا صور السّلَف، ومزّقوا القطع المنسوجة في الغرف المحيطة وأحرقوا سرير كُرنِيا، زوجة لِپدُس.

ولحسن حظّ لِپدُس أنّهم لم يصلوا إلى هذه النتيجة إلّا بعد يومين من

---

(1) وهي حزمة من أغصان حول مقبض بلطة مشدودة بأوتار جلدية دلالة على السلطان (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الحصار، فقد تمّ إنقاذه، وهو على وشك أن يُذبح، على يد فرقة من أنصار أَنّيوس ميلو، الذي دخل روما بنفسه ليجابه كراهية الشعب ويقاومه بإصرار شديد.

وبفترة قصيرة، تفاقم خطر الاضطرابات بحيث أنّ مرسوماً صادراً عن مجلس الشيوخ أوعز، كما جرت العادة في الأزمات الشديدة، إلى الملك المؤقّت والمدافعين عن الشعب أن **يتدبّروا أمرهم بحيث لا تتعرّض الجمهورية لأيّ ضرر.**

راحت الاضطرابات تتصاعد، ولاح لكثيرين أنّ الوسيلة الوحيدة في إيقافها هي تعيين پُمپيوس حاكماً مطلق الصلاحيات، بموجب مرسوم مشيخيّ اقترحه بِبولُس والملك المؤقّت سِرڤيوس سُلپيسيوس، في الخامس من شهر مارس من عام 703 لتأسيس روما، فعُيّن أخيراً پُمپيوس قنصلاً أوحد.

وما إن أعلن عن تعيين پُمپيوس حتّى ظهر على الملأ.

قبل منصب القنصل الأوحد واستلم المنصب لتوّه.

كسبتُ من هذه الاضطرابات أنّي قضيت ثلاثة أيّام دون أن أذهب إلى مدرسة العلم أُربيليوس، إذ أنّ والدي لم يشأ أن انفصل عنه في مثل تلك الظروف.

تعيّن على پُمپيوس، ليكون على مستوى ثقة الشيوخ به، أن يعيد الهدوء إلى المدينة.

سهّل عليه الأمرَ أن كلوديوس لم يعد حيّاً ليعكّر الهدوء.

وكان عليه ألّا ينحاز إلى أحد.

ومن أُولى دلائل عدم انحيازه أنّه أذنَ لمن يشاء أن يوجّه التهمة إلى أَنّيوس ميلو.

Twitter: @ketab_n

وأُحيل ميلو على المحاكمة بتهمة مزدوجة: العنف ومحاولة الاستيلاء على السلطة.

فاختار بطبيعة الحال شيشرون للدفاع عنه.

اليوم الثالث بعد منتصف أبريل كان يوم عطلة عندي، لأنّ أبي المسكين أخذني إلى الفوروم لأحضر انتصار بطله شيشرون.

منذ صباح أوّل أيّام بدء المرافعة، أُغلقت خمّارات روما كافّةً.

ولم نقطع الحاجز العسكريّ الذي أقامه پُمپِيوس حول الفوروم إلّا بجهد كبير.

وعلى كلّ حال، لم يكن يُرى إلّا لمعان الدروع والسيوف، إذ راح أكثر من عشرة آلاف جنديّ يطوّقون المحكمة ويقفون على أدراج المعابد.

وقف پُمپِيوس ذاته، مع حرسه الخاصّ، في بهو معبد سَتورنُس.

كان ميلو بحكم معرفته بصديقه شيشرون يعلم أنّه لا يتميّز بالشجاعة.

كان قد تعرّض في العشيّة لشتيمة الجمهور الذي نعته بالسارق والقاتل، لا بل ذهب إلى القول إنّه هو الذي نصح بالاغتيال.

أراد ميلو تجنّب حدوث مثل هذا المشهد في اليوم الذي يحتاج فيه محاميه إلى أقصى سرعة بديهته.

فأمر بنقله إلى الفوروم على المحمل.

والواقع أنّه عندما خرج وفوجئ بذلك الطوق المضروب حوله من المسلّحين، ارتعب لهذا المشهد العسكريّ أكثر ممّا لو تراءى له تدريجيّاً ليعتاد عليه.

انتهى دور محامي الاتّهام، وجاء دوره في الكلام.

وقف شيشرون وانتظر بعض الوقت لتهدأ الضوضاء التي أثارها خطاب خصومه؛ ثمّ مسح جبينه بيده، وتنهّد بعمق ليثير شفقة القضاة،

Twitter: @ketab_n

وألقى على الحشد نظرة حزينة متوسلّة، وطقطق أصابعه؛ ثمّ بدأ كلامه، وكأنّه تحت وطأة انفعال شديد، بصوت مرتجف.

ربّما لم يكن ذلك، حتّى ارتجاف صوته، إلّا تمثيليّة ماهرة. غير أنّ أنصار كلوديوس، ما إن لفظ أولى كلماته حتّى راحوا يردّون عليه بالصياح المثقل بالوعيد.

وأحدث الوعيد أثره البالغ.

في هذه الأثناء، أمر پُمپِيوس، الذي أقسم أن يلتزم بعدم الانحياز لأحد حتّى النهاية، أن يُطرد مثيرو الشغب من الفوروم بِعَرضِ السيوف. وحين راح الحشد يشتم الجنود لم يلتزم هؤلاء بأوامر پُمپِيوس، أي بدل أن يكتفوا بالضرب بعَرضِ السيف، ضربوا بحدّه وحتّى بسنّه، ربّما بسبب العادة المتحكّمة فيهم. فتصاعدت صيحات الألم. فجُرح من الشعب سبعة أفراد أو ثمانية، وقتل اثنان.

فكّر شيشرون في ما يمكن أن يحدث له، فارتعد لهذه الفكرة.

استأنف خطابه، غير أنّ المقدور وقع: راح أصحابه ما استطاعوا يصفّقون له ويهتفون قائلين «لقد أحسنتَ! لقد أجدتَ!»، إلّا أنّ خطابه بقي ضعيف الوقع، متباطئاً وأحياناً غير مفهوم.

وبوجيز العبارة، كانت السقطة مرعبة.

ما لفت انتباهي أثناء هذه المحاكمة هو هدوء المتَّهم وثقته بنفسه. عمره ما بين الأربعين والخمس والأربعين. رجل بملامح شديدة البروز تبدو عليه كلّ سمات الحزم. لم يتذلّل قطّ للشعب، لم يبدُ قطّ مستعطفاً قضاته، لم يسبل قطّ لحيته وشعره علامة تواضع، لم يرتد قطّ ثوب الحداد؛ بل لعلّه بدا أكثر عناية من المعتاد بوجهه وبمظهره، مخالفاً بذلك أصدقاءه الذين خضعوا للمراسيم المعتادة.

Twitter: @ketab_n

لم ينفكّ ميلو، طوال فترة حديث شيشرون، ينظر إليه نظرة فيها من الرثاء للمحامي أكثر ممّا فيها من الخشية.

وأخيراً فرغ شيشرون من خطابه، الذي اختصره بسبب إحساسه بضعف مقاله. ثمّ وُزّعت على أعضاء المحكمة ألواح من خشب البقس، طولها أربع أصابع، مطليّة بالشمع. وكان على كلّ قاضٍ أن يرسم عليها أوّل حرف من تصويته: غ في حال «غفران»، إ في حالَ «إدانة»، أو م في حال «ملتبس أو غير واضح»[1].

حرص جميع القضاة أثناء التصويت على إخفاء تصويتهم، لأنّ خشيتهم من التصويت بنعم كانت بقدر خشيتهم من التصويت بلا. واحد لا غير، مصاب بالصلع مع أنّه كان في ريعان الرجولة، معكوف الأنف، متوثّب النظرة، فكّه شديد البروز، وملابسه بسيطة إلى آخر حدّ، صوّت بصوتٍ عالٍ لصالح الغفران.

فسمعت حولي تمتمات:

- إنه كاتون! كاتون! كاتون!

- انظر جيّداً -قال والدي- فلعلّ أمام ناظريك اليوم النّزيه الوحيد بين رجال روما.

نظرت إليه جيّداً، ولا أزال أذكره، مع أنّها كانت المرّة الوحيدة التي رأيته فيها.

لاحقاً، ارتبطتُ وأنا في أثينا بعلاقة صداقة مع ابنه.

تمّ فرز الأصوات.

ثلاثة عشر منها عليها «غ».

(1) العبارات باللاتينية هي بالتوالي: absolvo ثمّ condamno وأخيراً non liquet؛ والعبارة الأخيرة يستعملها من لا يريد أن يجازف برأي واضح.

Twitter: @ketab_n

وثمانية وثلاثون عليها «إ».

بعدها لم يعد جدوى من الاهتمام بالأصوات التي عليها «م».

حينئذ نهض القيّم على الشؤون الماليّة وخلع ثوبه بحزن وبهيبة بذريعة الحداد، وفي صمت عميق تلفّظ بهذه الكلمات:

- يبدو أنّ أَنّيوس ميلو يستحق النفي، وأنّ أملاكه يجب أن تباع. يروق لنا أن نحظر عليه الماء والنار.

تلك هي صيغة الحكم بالنفي.

تلقّى الجمهور الحكم بتصفيق شديد الحدّة، إذ كان ذلك الحكم، كما ألمحنا، أشدّ عقاب ينزل بمواطن رومانيّ.

في مساء اليوم نفسه، سافر ميلو إلى مرسيليا، وهي من كبرى مدن غاليا النربونيّة[1].

لدينا **خطاب الدفاع عن ميلو** بعد مراجعته وتصحيحه والإضافات عليه، لا كما ألقاه شيشرون، بل كما أرسله إلى ميلو في مرسيليا.

يؤكّد البعض أنّ ميلو حين قرأ الخطاب صاح:

- آه، يا شيشرون، لو نطقتَ بها كتبتَ لما أكل ميلو تيناً بهذه الحلاوة في مرسيليا.

أكبر ذكرى احتفظت بها من ذلك النهار هي رؤيتي لپُمپِيوس وسط حرسه، وفي يده عصا القيادة، على درج معبد سَتورنُس.

كانت صورته مطابقة تماماً لتصوّري للإله مارس.

(1) إقليم مدينة نَربون Narbonne الحاليّة يقع في جنوب فرنسا على البحر المتوسّط من جهة جبال البيرينيس (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

تكليف كْرَسُّس بإدارة الحرب ضدّ البَرثيين - تترك هذه الحرب انطباعاً سيّئاً في روما - من كان هؤلاء البَرثيون - كْرَسُّس - بُخله - قصّة القُبعة القشّية - تحت أيّة ذريعة فرض پُمپيوس الفدية على مصر ونهب أقاليم في فلسطين - الأسباب التي دعته إلى إقصاء قيصر - بمَ كان قيصر يفكّر، ربّما، وهو يصيد اللؤلؤ - أعمال شغب ضدّ كْرَسُّس - المدافع عن الشعب أتييوس يصبّ لعناته - ينذر كْرَسُّس وروما وذاته لآلهة الجحيم.

بغية استكمال هذه الفترة من قصّتنا، الدائرة حول شيشرون وكلوديوس وميلو، أغفلت أحداثاً في غاية الأهمّيّة لا بدّ من ذكرها هنا.

نزولاً عند اقتراح المدافع عن الشعب، ترِبونيوس، كان تعيين حكّام أهمّ الأقاليم التابعة لروما لمدّة خمس سنوات وشيكاً:

حكم غاليا يُسند لقيصر،

حكم إسبانيا لپُمپيوس،

وحكم سوريا لكْرَسُّس.

تمّ توزيع هذه المناصب عام 700 لتأسيس روما.

Twitter: @ketab_n

كان قيصر قد عقد لقاءً في لوكا مع پُمپيوس وكْرَسُّس بقصد تجديد مجلس القيادة الثلاثيّ، وكان قد وهب پُمپيوس تلك المرأة الجميلة جوليا التي خلبت لبّ قاهر مِتدرِداتس، ثمّ رجع إلى غاليا.

وكان پُمپيوس قد عاد إلى روما، حيث عُيّن قنصلاً أوحد، ومنها كان يدير شؤون إسبانيا عبر مساعديه.

وأمّا كْرَسُّس فكان ينتظر إعلان الحرب على الپَرثيّين ليذهب إلى سوريا ويستلم زمام الحكم فيها.

أُعلنت الحرب وأُسندت إدارتها إلى كْرَسُّس.

كان وقع هذا الإعلان في روما مدمِّراً.

أثارت الحرب على الپَرثيّين استياءً عامّاً، لأنّ هذا الشعب يثير هلعاً غريزيّاً لدى شعب روما مع أنه لم يكن شعباً متقاعساً.

راح الپَرثيّون يهربون ويهربون؛ إلّا أنّ مثلاً شعبيّاً يقول إنّ الپَرثيّين هم في هروبهم أخطر منهم في هجومهم.

لنُشرْ ببعض الأسطر إلى هذا الشعب الذي كرّر ما لقيه الرومان من هزيمةٍ في سَمنيوم، حيث أُجبِرت كتائبنا أن تتجرّع الأمرَّين.

كان الپَرثيّون – وأصلهم من السّيت- اقتحموا أقاليم جنوب آسيا واستقرّوا في جوار هِركانيا، حيث بقوا مدّة قرن أو قرنين غير معروفين نكرات. أخضعهم الإسكندر في حملته وحكمهم من بعده نوّابه. غير أنّ عبقريّاً اسمه أَرساس وُلد في أحضانهم، ثمّ ثار ضدّ أَگتُكليس، نائب أنطيوكُس؛ وفي سنة 505 لتأسيس روما أسّس مملكة الأرساسيّين، التي أصبح يمثّلها في الحقبة التي نتحدّث عنها، أي في بداية عام 701 لتأسيس روما، أورُدِس الأول، وهو الخليفة الثالث عشر لأرساس.

قام ملوك الپَرثيّين بفتوحات متتالية أدّت إلى توسيع رقعة إمبراطوريتهم بحيث أنّهم أصبحوا مجاورين للإمبراطوريّة الرومانية.

Twitter: @ketab_n

كانت مملكتهم تضمّ خمساً وعشرين مدينة كبرى ومنها هِكَتُنپِلُس، أي المدينة ذات المائة باب.

لم يكن لتلك الحرب ما يبرّرها، لا سيّما وأنّ خسائر روما المتوقّعة منها تربو على مكاسبها.

ولنقل كلمة عن كْرَسُّس من بعدها نحاول أن نتبيّن سبب مراعاة پُمپيوس لزميله السابق تلك المراعاة القاتلة، التي لم يستوضح معالمها ثلاثة أرباع معاصريه.

لكنّ من امتيازاتنا نحن الشعراء، كما هو معروف، أنّنا ندرك أسرار الآلهة؛ ولا شكّ أنّ ذلك ما جعل لغتنا تستعمل كلمة واحدة - هي فاتِس vates - للدلالة على الشّاعر والعرّاف.

كانت سنّ كْرَسُّس -التي لم يعرفها أحد بدقّة- تتراوح ربّما ما بين 55 و58 عاماً.

وكان يتسمّى باسمه الشخصيّ واسمه العائليّ: مَركُس لِنّيوس كْرَسُّس. ولم يكن شيشرون يشير إليه، كما أسلفنا، إلّا بأحد لقبيه **الأصلع** أو **الثري**.

اتّخذه معاصروه رمزاً للبخل، وأظنّ أنّ مستقبله، من هذا المنظور، وريث حاضره. ومن هذا المنظور، حقّق المستحيلَ إذ أنّه محا ذكرى سْترابو، والد پُمپيوس.

حوالى عام 672، وكان أنصار مَريوس أصبحوا يلحظون ثروته، غادر إيطاليا هارباً إلى إسبانيا، ولم يعد إلّا بعد سنتين.

في تلك الأثناء، توفّي مَريوس وظفر سِلّا بالحكم.

كان سِنّا ومَريوس الابن يدفعان كْرَسُّس للتقرّب من سِلّا ويوصيان هذا بذاك. ولم يرَ سِلّا، وكان حاكماً مطلق الصلاحيات، إلّا أن يرسله ليعبّئ مرتزقة من المَرسيّين.

Twitter: @ketab_n

وكان المَرسيّون في ذلك الوقت يُعرفون بشجاعة بقوا يحافظون عليها.

مَن بوسعه الانتصار على المَرسيّين، حسب المثل الرومانيّ المعروف؟

كان على كْرَسُّس أن يعبر خمس فئات معادية أو ستّاً قبل أن يصل إلى المكان المقصود.

- أيّة فرقة حراسة ترسلها لمرافقتي؟

- أطيافُ والدك وأخيك وأقاربك وأصدقائك ممّن اغتالهم مَريوس!

أجابه كْرَسُّس بإيجازِ غير المهتّم.

بلغ كْرَسُّس بلاد المَرسيّين.

بعد أن جمع مرتزقته من المَرسيّين، أراد أن يختبرهم، فذهب بهم يجتاح مدينة من مدن أُمبريا وينهبها.

أضاف ذلك النهب لثروة كْرَسُّس ستّة ملايين أو سبعة.

غير أنّه فقد حظوته لدى سِلّا.

والحال أنّ سِلّا لم يكن ليعبأ كثيراً بالملايين المنهوبة؛ إلّا أنّه بسببها أصبح يفضّل بُمپيوس على كْرَسُّس.

ومنذ تلك اللحظة أصبح بُمپيوس وكْرَسُّس عدوَّين لم تقم من بعدُ بينهما مصالحة صادقة.

غير أنّ كْرَسُّس لن يفتأ أن يؤدّي لسِلّا، برفقة مرتزقيهم من المرسيّين، خدمة جلّى لم يكن بدّ معها لسُلّا إلّا أن يغفر له.

فقد كان السمنيّون على أبواب روما، بعد أن طاف بهم قائدهم تِلِسينُس في إيطاليا مخلّفين وراءهم سيلاً من الدم والنار. حاول سِلّا أن يصدّهم، غير أنّ جناحه الأيمن تلاشى من أوّل صدمة له مع أولئك الرعاة الرهيبين.

تقهقر نحو پرِنست، ظانّاً أنّ نهايته قريبة، حين أُنبئ بوصول بريد من

Twitter: @ketab_n

كْرَسُّس.

وهو يستعدّ لصبّ غضبه على هذا الرجل، أخبره الرسول، وكأنّ خبره عاديّ للغاية، أنّ كْرَسُّس وجماعته المَرسيّين صادفوا على طريقهم جيشاً من السَمنيّين، فأوقعوا بهم، وفي غمرة نصرهم قتلوا تِلِسينُس، وأسروا نائبيه أيدُكتُس وسَنسورينُس، وها هم الآن يطاردون الجيش المهزوم باتّجاه أُمسِنّا.

لو أنّ صاعقة دمّرت قادة الجيش أو أنّ زلزالاً ابتلع الجيش بأكمله، لما كان ذلك أعجوبة أشدّ وقعاً ممّا حدث.

انتهى أمر هؤلاء السمنيّين الآتين لوضع روما وسلّا على حافّة الهلاك.

إثرَ ذلك النصر، حصل كْرَسُّس على منصب المُشْرف على العدالة ونائب القنصل في قيادة الجيش، ثمّ أوكِل إليه قيادة الحرب ضدّ سپَرتَكُس. وقد أنجز ذلك على أفضل ما يرام، بحيث أنّ پُمپيوس الذي أُرسل لمساندته وصل حين كاد كلّ شيء ينتهي.

علّق پُمپيوس على الحدث بقوله:

- انتصرَ كْرَسُّس على المتمرّدين، أمّا أنا فقد قضيت على التمرّد.

وبالتالي، لم يحصل كْرَسُّس إلّا على التصفيق، بينما نال پُمپيوس الظفر؛ لم يؤدّ ذلك لتحسين علاقته بكْرَسُّس.

كلّ أهل روما كانوا يعرفون أمر تلك القبّعة من القشّ المعلّقة في حجرة انتظار كْرَسُّس التي لم يكن، وهو الأصلع، يستخدمها هو نفسه بل الناظم البليغ ألكساندر.

كان ألكساندر هذا محظيّاً لدى كْرَسُّس الذي كان غالباً ما يصطحبه للطعام في الريف ليسلّيه في سفره وعلى مائدته.

في تلك المناسبة كان يعيره القبّعة المذكورة ذهاباً وإياباً.

Twitter: @ketab_n

وعند عودتهما كان يسترجع القبّعة ويعلّقها إلى مسمار.

ولذا كان شيشرون يقول عنه بشأن هذه النبذة الطريفة:

- إنّ أمثال هذا الرجل، ولو كانوا أغنى ممّا هم عليه بعشرة أضعاف، لن يصبحوا يوماً أسياد العالم.

ولكن هاكَ! ذات يوم فتح كْرَسُّس خزينته حين لم يكن أحد يتوقّع ذلك.

فعل ذلك ليقرض قيصر ثلاثين مليون سِسترس، وكان دائنون إذّاك قد أوقفوه في شارع سُبَرّا، فتعذّر عليه أن يستلم منصب المشرف على العدالة ونائب القنصل في إسبانيا.

واضح أنّ كْرَسُّس كان يعلم ماذا يعني هذا المنصب.

إنه ذلك المكان المبتذل حيث يواعد فيه الشخص دائنيه ويدفع لهم مالاً مسلوباً لتوّه من الخاضعين لإدارته.

هل كان كْرَسُّس، حين قرّر أن ينقذ قيصر من ورطته، قد أدرك عبقريةِ قيصر التي لم يكن أحد قد تنبّه إليها بعد؟

مثل هذا القول يسبغ على كْرَسُّس فطنة لا يستحقّها.

أليس من الأحرى القول، كما شاع، إنّ زوجة كْرَسُّس كانت تملك مفتاح خزينته، مثلما كان قيصر يملك مفتاح غرفة زوجة كْرَسُّس؟

وعلى كلّ حال، كان كْرَسُّس في بعض الظروف لا يساوم.

لقد كلّفته تبرئة كلوديوس تقريباً مقدار ما كلّفه منصب قيصر.

غير أنّ ذلك، ربّما عن خشية أو سهو أو استحالة، لم يحمل كلوديوس على منحه قيادة الحرب ضدّ البِرثيّين التي طالما طمح إليها.

كان لا بدّ لذلك من موافقة پُمپيوس وهو حاكم مطلق الصلاحيات.

كيف رضي پُمپيوس أن يقترف مثل هذا الخطأ؟

Twitter: @ketab_n

السبب هو أنّ پُمپيوس، في هذا المجال، لم يكن فوق الشبهات.

لنذكر ما حدث قبل ذلك بقليل ما بين پُمپيوس ومصر بشأن بطليموس عازف الناي.

كان لبطليموس أُليتِس، أو عازف الناي، الابن غير الشرعيّ لبطليموس سوتِر الثاني بعض المشاكل مع رعيّته.

وكانت روما في ذلك الوقت، كما لا تزال اليوم أيضاً، محكمة الأمم.

فإن شكى ملك من شعبه أو شكى شعب من ملكه، رفع دعواه إلى روما.

وكانت روما تقضي بينهم، ولم يكن لحكمها مردّ.

إذن، جاء الملك بطليموس إلى روما.

ووضع نفسه في روما تحت حماية پُمپيوس.

بعد ذلك بسنتين، أعاد گَبينيوس، نائب پُمپيوس، بطليموس إلى منصبه في مملكته.

وكان گَبينيوس قد أرسل الملايين لپُمپيوس وعاد هو نفسه حاملاً الملايين.

وكانت تلك الملايين تمنع النوم عن كْرَسُّس.

كان گَبينيوس قد نهب مصر، كان گَبينيوس قد نهب أقاليم في فلسطين، وكان يرغب في الذهاب إلى سلوقيا وستيزيفون لينهبهما. غير أنّ فرسانه الحانقين على گَبينيوس لأنّه لم يترك شيئاً لمن يخْلفه حيث كان، كاتبوا شيشرون.

فقام شيشرون، المسرع دائماً إلى الاتّهام، باتّهام گَبينيوس.

غير أنّه وراء گَبينيوس لاقى پُمپيوس. وكما سبق أن ذكرت أعلاه، لم يكن گَبينيوس السارق الوحيد.

Twitter: @ketab_n

تنبّه شيشرون إلى أنّه أخطأ المسلك، فذهب إلى پُمپيوس واعتذر إليه. ولم يكتفِ پُمپيوس بالاعتذار.

لم يكتف بأنّه أقنع شيشرون بأنّ گَبينيوس لم يسرق، بل برهن له أنّه أنزه الناس على وجه الأرض.

بفضل تلك البراهين، لم يبق لشيشرون أيّ مبرّر ليحجم عن الدفاع عن گَبينيوس بدل أن يتّهمه.

لكنّ ذلك في نهاية المطاف جعله يغتمّ، فكتب في ذلك الشأن إلى أتّكُس، وقد أبرز أتّكُس لي ولابن كاتون ذات يوم الرسالة التي كتبها له بهذا الخصوص الخطيب العظيم.

ممّا قرأت فيها جملة حفظتها عن ظهر القلب: «إنّها لمحزنة وبائسة المهنة التي أمارسها. ولكن ما همّ! فالمعدة تتمرّس بالصعوبات».

والحال أنّ تلك المنطقة من العالم التي، كما أسلفنا، خرجت من حوزة گَبينيوس، كانت موضع أطماع كْرَسُّس.

وأتت الصدفة في وقتها. لم يكن يُحزن پُمپيوس، وهو القنصل الأوحد حينئذ، أن يرى كْرَسُّس في طرف العالم حين كان قيصر في الطرف الآخر منه.

يتسنّى له إذّاك أن يجد طريقة ليمارس حكماً بمطلق الصلاحيات، وحتّى أن يقيم ملكيّة.

وما همّه أن يُقتل كْرَسُّس في سوريا! بل على العكس يقلّ عدد منافسيه واحداً.

وعسى قيصر يحذو حذوه في غاليا. ذلك ما كاد يحصل له حين راق له أن يذهب لصيد اللؤلؤ على شواطئ بريطانيا العظمى لإهدائه إلى سِرُفيليا.

Twitter: @ketab_n

لم يعارض پُمپيوس قطّ إعلان الحرب على الپَرثيّين.

وكان كْرَسُّس في أوج سعادته، مع أنّه لم يكن يتناسى أنّ لهذه الحرب مخاطرها.

فطلب من قيصر أن يرسل إليه ابنه پوبليوس كْرَسُّس ليخدم تحت إمرته.

فلم يرسل له قيصر ابنه فقط بل أرسل معه ألف فارس وكتيبة من الغاليّين من حرسه الخاصّ.

كان قيصر يقول إنّ هؤلاء الغاليّين هم أفضل الجنود بعد الرّومان، قبل أن يضيف: وربّما قبل الرّومان أنفسهم.

ولعلّ قيصر نفسه لم يكن يحزنه أن يلقى كْرَسُّس حتفه في مكان ما من العالم.

وكان على رأس اهتمامات كْرَسُّس أن يخرج من روما، ولم يكن الخروج من روما بالأمر اليسير.

ولم يكن من يعترض طريقه بضعة دائنين يطالبون بدينهم كما كانت الحال بالنسبة لقيصر، بل الشعب بأكمله.

كان كاتون، وهو نذير هذا الشعب وصوت آلهته، قد تنكّر كليّاً للحرب على الپَرثيّين ويقول:

- بأيّ داعٍ تسعى روما لمحاربة قوم لم يلحقوا بها أيّ ضرر، وتربطهم بها معاهدات التزموا بها بكلّ أمانة؟

كما أنّ أتيّيوس، المدافع عن الشعب، كان قد صرّح أنه لن يدع كْرَسُّس

Twitter: @ketab_n

يخرج من روما.

انتاب كْرَسُّس الخوف، إذ اشتمّ من ذلك أحداث شغب قد يُنهَب فيها بيته؛ وذاك ما تنتهي إليه عادةً أحداث الشغب، وهو تصرّف روّج له كلوديوس.

فذهب إلى پُمپيوس ورجاه أن يرافقه إلى المدينة. فوعده پُمپيوس، وكم كان يتمنّى أن يراه خارج المدينة، أن يأتيه في اليوم المناسب ليخرجا معاً.

والتزم بوعده. غادر كْرَسُّس بيته في شارع فوروم مارس، وحين بلغ **الطريق المقدّس**، وجد الشعب محتشداً بشكل لا يدع له مجالاً للمرور.

ومع ذلك بلغ **طريق الظفر**، إذ كان ينبغي الخروج من باب كَپينا، ليسلك كْرَسُّس طريق أپّيا ذاهباً إلى بْرُنديزيوم ليستقلّ السفينة.

كان الشعب قد قدم ليعترض طريق كْرَسُّس، ويشتمه بل ويعامله بعنف. غير أنّ پُمپيوس كان يسير أمامه ويوجّه حديثه بصوت رزين هادئ للمستائين داعياً إيّاهم للانسحاب.

فمن لم ينسحب أفسح الطريق لكي يمرّ منها پُمپيوس ومن ورائه كْرَسُّس.

على مدخل **طريق الظفر**، لاقى كْرَسُّس المدافعَ عن الشعب، أَتيبوس، في وسط الطريق.

تقدّم أتيبوس خطوتين باتّجاه كْرَسُّس آمراً إيّاه باسم الشعب أن يتوقّف عن السير، وباسم الشعب احتجّ على الحرب. إلّا أنّ كْرَسُّس ظنّ أنه لن يخشى شيئاً ما دام بمعيّة پُمپيوس واستأنف سيره.

فأمر أتيبوس مُباشرَه القضائيّ أن يوقفه. وكان من شأن سلطة المدافعين عن الشعب أنّه أمكن لمدافع عن الشعب أن يضع يده على كتف

Twitter: @ketab_n

حاكم إقليم رومانيّ محظوراً عليه أن يقوم بخطوة واحدة.

ولم يكن مفرّ لكْرَسُّس من أن يتوقّف عن السير.

غير أنّ مدافعين آخرين عن الشعب سارعوا، وحين رأوه في حماية پُمپيوس وبمعيّته، خالفوا سلوك زميلهم وسمحوا لكْرَسُّس أن يتابع طريقه.

عندئذ استبق أتييوس الأحداث وجرى إلى باب كَپينا وأقام فيه منقلاً ملأه بجمر ملتهب؛ وحين لاح كْرَسُّس سكب العطور على الجمر وسكب عليه الخمر ناذراً كْرَسُّس لآلهة الجحيم.

بلغت الأمور حدودها القصوى؛ ولذا أثار ذلك الحدث وقعاً عظيماً في روما.

لم يرد أيّ مثال عن رجل منذور على هذا النحو نجا من الموت أثناء السنوات الثلاث التي تلت النَّذْر. لا بدّ من القول أنّ المنذور وهو يهوي غالباً ما يجرّ معه إلى القبر من استفزّه بغير فطنة مستصرخاً عليه آلهة الجحيم المرعبة.

والواقع أنّ أتييوس لم ينذر لآلهة الجحيم كْرَسُّس وهو نفسه معه، بل تجاوز ذلك إلى أن ينذر الجيش بكامله.

لا بل نذر حتّى روما، المدينة المقدّسة.

وأتت اللعنات أُكلَها. فقد بقي ثلاثون ألف رومانيّ مطروحين في أرض المعركة في كَرّيس، ولا يزال رأسا كْرَسُّس وابنه قائمَين شارتَي ظفر بين يدي خلفاء أُرودِس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

*استئنافي للدّروس - موت لُكريسيوس - بعض تفاصيل وفاته - رأي في قصيدته **في طبيعة الأشياء** - لُكريسيوس شاعر لاتينيّ حقيقيّ - دراسة عن الشعر والشعراء في القديم - الإخوة أرڤالِس - الأناشيد السَبيتيّة[1] - تنبؤات مَرسيوس - ليڤيوس أندْرُنيكُس - نيڤيوس - أتيوس - آتّا - لُسيليوس - پلوتُس - تِرنسيوس - لماذا يختفي الشعراء أثناء الحروب الأهليّة ثمّ يظهرون من جديد في السلم.*

بموت كلوديوس، عاد من الهدوء نصفه؛ وبنفي ميلو، استقرّ الهدوء كليّاً.

فاستأنفتُ دراستي عند المعلّم أُربيليوس وثابرت عليها.

كان للمربّي تطلّعات إيجابية بشأني: أن يجعل مني ركيزة الشعر الرومانيّ القديم.

كانت إيطاليا قد أُصيبت لتوّها بخسارة فادحة في هذا الميدان، هي وفاة لُكريسيوس عن ستّة وأربعين عاماً.

سَرَت إشاعات كثيرة عن موت لُكريسيوس، لا تحيل أيّة إشاعة منها

(1) أغانٍ رعَوية من أغاني منطقة sabina الريفيّة الواقعة قرب روما إلى شمالها الشرقي.

Twitter: @ketab_n

إلى موت طبيعيّ. قال الأساتذة ومعلّمو الأخلاق والمتشائمون إنّه أقدم على قتل نفسه لأنّه لم يعد قادراً على تحمّل مشهد الفساد في روما.

إن ثبت الأمر، فإنه لم يُوفّق في اختيار التوقيت.

إذ أنّه، بموت كلوديوس ونفي ميلو وغياب قيصر وعودة شيشرون، نشأ ما يشبه الصحوة الأخلاقية. حصل قبل ذلك أنّ گبينيوس نهب مناطق في فلسطين نهباً تامّاً لصالحه وصالح پُمپيوس إلى حدّ ما؛ وأنّ كْرَسُّس تمكّن من أن ينتزع تكليفاً بإدارة الحرب على البَرثيّين ليتسنّى له نهب سلوقيا وستيزيفون؛ وأنّ أتييوس أقام فعلاً، أثناء مغادرة كْرَسُّس لروما، منْقلاً ممتلئاً بالجمر المتوهّج لينذر لآلهة الجحيم ذلك القائد السمسار الذي وضع روما في متناول سهام البَرثيّين. غير أنّ ذلك كله لم يكن ليبرّر لشاعرنا، صاحب قصيدة **في طبيعة الأشياء** والفيلسوف الإپيقوري، تلميذ زينون وفيدرُس، أن يهجر الدنيا بالانتحار.

كلّا، الاحتمال الوارد حسب بعضهم أنّه اختنق، وحسب بعضهم الآخر أنّه تسمّم، وهو في حالة جنون ناجمة عن داء الصرع الذي أصابه من جرّاء شراب سقته إيّاه عشيقته(1).

كان ذلك الزمان زمان شراب العشق، إذ درجت حينئذ، في روما، تلك الطريقة في إثارة العشق عند الآخرين: ففي نظرهم أنّها أيسر من معاملة الناس بالودّ، وأسهل من السعي إلى نيل الجمال الجسديّ.

دعنا نقول إنّ من كنّ يلجأن إلى هذه الوسيلة كنّ غالباً من النساء اللواتي بلغن سنّاً معيّنة دون العثور على عشيق حتّى بأسعار خياليّة.

ففي أبياتي في الساحرة كَنيدي -وسأذكر لاحقاً اسمها الحقيقيّ-

(1) نجم جنون كليگولا عن نفس السبب، لكنّ وقعه كان أشدّ خطراً. أمّا قيصر فكانت عادته قتل الآخرين لا قتل نفسه.

Twitter: @ketab_n

أطلقت الحُرم ضدّ من يستعمل شراب العشق وضدّ الساحرات.

وممّا دفعني إلى صبّ تلك اللعنات ذكرى موت لُكريسيوس، التي بقيت حيّة بين ذكريات طفولتي.

لنعد إلى قصيدة **في طبيعة الأشياء**، التي طالما حظيتْ بإعجاب أُرپيليوس والتي تسطع فعلاً بأروع ملامح الجمال.

تصدر هذه القصيدة عن أخلاقية إپيقوريّة وملحدة. فالشاعر يقرّ بمبدأ مفاده أنّ الآلهة، إن وُجدت، لا تعير أيّ اهتمام ولا تتدّخل في أيّ أمر ممّا يخصّ هذه المنملة البشريّة التي تغلي على تلك الكتلة من الذرّات المسمّاة الأرض.

ليس لي أيّ اعتراض على مضمون القصيدة، بما أنّي طالما رأيت رأي لُكريسيوس. غير أنّ صوتاً راعداً في سماء صافية قد هداني، بحيث أنّي صرت اليوم أرفع البخور بكلّ تقوى إلى الآلهة أيّاً كانت.

لا بدّ من القول إنّ هذه القصيدة أثّرت تأثيراً بالغاً في شبيبة روما، بل دفعت إلى الشكّ حتّى ڤِرجيليوس المتديّن، الذي كان يتوجّه إلى لُكريسيوس بقوله:

– طوبى لمن يقدر على معرفة الأسباب الحقيقيّة! طوبى لمن قدر أن يطأ تحت قدمه الخرافات والقدر الذي لا يرحم وإرهاب أشيرون[1] البخيل.

لاحقاً، في حديثي عن أُغسطُس، الذي ردّ الاعتبار لآلهة اللّاتين (ولا بدّ من التمييز بينها وبين آلهة الإغريق)، سأعود إلى مختلف الاعتقادات التي تشكّل باقات من المغالطات، يأمر زعيما التّشكيك، أي پِرّون وأنِزيدِمُس، تلامذتهما أن يرفعوها وهم يسيرون أمامهما.

(1) نهر في اليونان، لكنّه يقصد هنا نهر الأشيرون الذي هو في الميثولوجيا اليونانية من أنهار الجحيم، يحمل شارون (أو كارون) في قاربه على مياهه أرواح الموتى المبعوثين إلى الجحيم، شاقاً طريقه بين كتل من الصخر ضخمة (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

لقد تحدّثنا عن المضمون الأساسيّ لقصيدة لُكريسيوس.

أمّا شكل القصيدة فيفوق بشكل صريح ما سبقها من قصائد من أمثال: **الطاعون في أثينا، دعاء إلى ڤينوس، مديح إبِقور، وذبيحة إفيجينيا،** مع أنّها من روائع الشعر والنظم، ومن الروائع أيضاً مطلع كلّ نشيد من أناشيدها.

قد يكون آخِر نشيد أضعف بقليل من غيره. ولا بدّ أن نذكر في هذا الصدد أنّ لُكريسيوس توفّي في السادسة والأربعين، ويا له من موت! أُذكّر أنّ ذلك الجنون القاتل الذي سبّبه شراب لوسيليا راح يتفاقم يوماً بعد يوم حتّى أدّى إلى انتحاره. فلعلّ لُكريسيوس لم يسعْه الوقت ليصحّح نشيده السادس. ألم يأمر ڤرجيليوس في وصيّته، ڤرجيليوس الذي لا يُضاهى، بحرق الكتب الستّة الأخيرة من **الإنيادة**؟

من أعظم أفضال لُكريسيوس، برأيي، هو أنّه سعى ليكون ما أسعى أنا لأكونه، أي شاعراً لاتينيّاً. إذ كان بوسعه، وهو أصغر سنّاً بقليل من شيشرون وقيصر، وأكبر بقليل من سَلوست، ومتحدّراً من عائلة لُكريسيا الشريفة، ولم تكن تعوزه لا العبقريّة ولا الفصاحة، أن يشارك في الاضطرابات الأهلية الناشبة آنذاك؛ إلّا أنّه فضّل راحة الدرس على الطموح إلى المجد الذي صرّحت أشعاره عن بطلانه. فالمجد إذن لِلُكريسيوس لأنّه من تلك القلّة التي عرفت كيف تناغم ليس فقط بين حياتها وكتاباتها، بل كذلك بين موتها واعتقاداتها، حتّى الخاطئة منها.

كان من الممكن أن يُنقش على قبره: «لعدم إيمانه بخلود النفس، قتل لُكريسيوس جسده ظنّاً منه أنه في الكفّ عن الحياة يكفّ أيضاً عن التألّم».

لنعدْ إلى أُربيليوس وللدراسات التي كان يفرضها على تلامذته. لكي ندرك كنه التربية التي كانت شبيبة روما تتلقّاها، لا بدّ من إلقاء نظرة على

Twitter: @ketab_n

آداب روما الوطنيّة وما كانت عليه قبل إقحام العامل اليوناني في التربية اللاتينيّة.

في أوّل رسالة من كتابي الثاني، الموجّهة إلى الإمبراطور أغسطس، هزئت من هوَس نقد عصرنا الذي كان، وسيبقى حسب توجّسي، هوس النقد أو بالأحرى المنظومة النقدية في مُجمل العصور، أي الحطّ باستمرار من شأن الأحياء لإعلاء شأن الأموات. إنّ هذا الحطّ شائع خاصّة في أيّامنا شيوعاً مطلقاً. ولكلّ منّا مطرقته التي يحاول الناس بها القضاء عليه. ومن منّا بدّل في صيغة كتاباته نالت منه مطرقتان بدل المطرقة الواحدة. فعندما كان ڤِرجيليوس شاعر الطبيعة، أُجهز عليه باستخدام تيوقريطُس. وعندما صار ڤِرجيليوس شاعراً ملحميّاً، أُجهز عليه بذريعة هوميروس.

إنّي على قناعة كاملة بأمر واحد، وهو أنّ حقول مارس موجودة، إمّا في زاوية مجهولة من كرتنا الأرضية، وإمّا في إحدى النجوم المتألّقة فوق رؤوسنا، وأنّ أشباح العظماء تعود إلى الحياة لتتكلّم وتعمل تحت الظلال الوارفة أو على ضفاف أنهار ريّانة، كما يقول الشعراء وكما أقوله أنا بنفسي، علماً بأنّي لا أغالي في إيماني بوجوده؛ إنّي أعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ عزيزي ڤرجيليوس يتنزّه ما بين هوميروس الذي يدعوه بابنه، وتيوقريطُس الذي يدعوه بالأخ الشقيق، وأنّهما كليهما يعبّران له عن أسفهما للغمّ الذي لحقه به من جرّائهما.

وعودةً إلى رسالتي إلى أغسطس.

أقول في هذه الرسالة:

«إذا كانت القصائد تتحسّن، شأنها شأن الخمرة، بالتعتيق، فإنّي أودّ فقط أن أعرف ما هو عدد السنين الذي يمنحها هذه القيمة. هل يجوز

Twitter: @ketab_n

للشاعر المتوفّى منذ مائة عام أن يوضع في مرتبة الأقدمين الذين بلغوا غاية من الكمال، أو أن يُلقى به بين المحدثين الجديرين بكلّ احتقار؟ تعالوا نضع حدّاً لكلّ نقاش ممكن. قولوا لي هل يصبح الشاعر بعد مائة عام من الأقدمين وجديراً باحترامنا؟ وإنْ نقصه شهر واحد، أو سنة واحدة، ففي أيّ مرتبة نضعه؟ أفي مرتبة هؤلاء الأقدمين الذين يلقون إعجابنا أم بين المحدثين الذين لا يستحقّون سوى احتقار جيلنا والأجيال اللاحقة؟ إذ يسعنا، في نهاية المطاف وكما يبدو لي، أن نصنّف بين الأقدمين، دون أن نجانب العدل، من لا ينقصه ليصبح في عدادهم إلّا فترة شهر أو حتّى فترة سنة كاملة.

والحقّ أنّي أسمح لنفسي بذلك؛ وكما لو كنت أنزع شعرات ذيل حصان واحدة بعد أخرى، أحذف سنة ثمّ سنة أخرى، وعندئذ تشهدون انهيار ذلك الهيكل النحيل من حجج هذا الناقد الذي يحمل في يده تلك الروائع، ويقيس جدارة كلّ شاعر بعدد السنين دون أن يثير إعجابه شيء ممّا كرّسه لِبيتان.

إنّ أنيّوس الحكيم، السامي القدر؛ نعم، أنيّوس، هوميروس الثاني كما يسمّيه نقّادنا، لا يقيم كبير اعتبار لما تفرضه تلك الأحلام الپِثاگورية. وأشعار نيڤيوس لم تعد في متناول أحد؛ لا، ولكنّها في ذاكرة الجميع كما لو كُتبت البارحة، إذ لا أقدسَ من قصيدة قديمة. وإن شئنا أن نعرف من هو الأوّل بينهم، فلنا أن نمتدح غزارة علم پَكوڤيوس، وعمق أَكسيوس. كما أنّ بُردة أَفرانُس الملكيّة تليق بمينَندِر. وپلوتُس في مسيرته لن يتخلّف عن إِپِلاريوس الصقلّيّ. فلدى سِسيايوس قدر أكبر من الرزانة، ولدى تيرَنسيوس قدر أكبر من الفنّ. هؤلاء هم من تستظهر روما القديرة أشعارهم. هؤلاء هم من يتزاحم من أجلهم الأولاد في المسارح الضيّقة.

Twitter: @ketab_n

إنّهم الوحيدون الجديرون بالاعتبار منذ عصر لِفِيرِس.

ومع هذا فإنّ عامّة الشعب قد تصيب الحكم أحياناً، ولكنّها قد تخطئه أحياناً أخرى. فإن أعجبت بالشعراء الأقدمين ومدحتهم إلى درجة أنّها لم تعد تُقرّ بأنّ لهم معلّمين أو منافسين، فإنّها تخطئ سواء السبيل. أمّا إذا أقرّت بأنّه تجوز مؤاخذتهم على صيغة بائدة، أو إذا اعترفت بأنّ أبياتهم غالباً ما تكون قاسية أو رخوة، فإنها إذّاك على حقّ، تفكّر كما أفكّر وحكمُها صائب في هذه الحالة.

إلّا أنّي لا أودّ أن أستنكر أشعار ليڤيوس التي كان أُربيليوس يمليها عليّ. أمّا أن نعتبرها منمّقة، رائعة، تبلغ حدّ الكمال، فذلك ما يثير حنقي. أن تجد فيها صدفة عبارة تشدّك، بيتاً أو بيتين أجمل إيقاعاً من بقيّة القصيدة، فذلك لا يبرّر تقريظ القصيدة بكاملها وكأنّها من أعاجيب الدهر. أعترف بأنّني أمتلئ سخطاً حين أسمع بعضهم يذمّون تركيباً ما، لا بسبب قبحه أو عدم جماله، بل بدعوى أنّه جديد؛ وكذلك الأمر حين أرى بعضهم يطالبوننا لا بالتسامح مع الأقدمين بل بمنحهم غار الظافرين والتثمين الكامل.

«إن امتدح أحدهم أبيات نوما السَليوسيّة[1] وتظاهر بأنّه يفهم وحده ما لم يفهمه أكثر منّي، فإنّه في الواقع لا يعجب إلّا بالأموات ولا يصفّق إلّا لهم. والحقّ أنّه يشتم الأحياء، ذلك كلّ ما في الأمر، فيطاردنا بحقده الغيور، نحن وكتاباتنا. لو عامل اليونان المؤلّفين الجدد بالاحتقار الذي نعاملهم به، فمَن مِن المعاصرين يُقدّر له أن يصبح من الأقدمين؟ وأيّ كاتب نقرأ من بعد، ومن أيّ مصدر نمتح الشوق إلى المعرفة؟»

صدرت تلك الملاحظة السريعة عن مزيج من الألم والضجر: الألم

(1) أغانٍ باللغة اللاتينية القديمة ينشدها كهنة الإله مارس (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بسبب ما أجبرني أُربيليوس على الإعجاب به، والضجر الذي يلمّ بي من هذا النقد البائس الذي لا ينفكّ يذمّ الحاضر ليرفع من شأن الماضي.

فلنلقِ معاً نظرة إلى الوراء على ذلك الأدب البدائيّ الذي لا ننفكّ نُجلّه ونجابهه بالأدب الذي يمثّل اليومَ، من زاوية شعريّة وأدبيّة، ما سيُطلق عليه يوماً اسم عصر أُغسطُس.

فلنتناول الأعمال والأشخاص حسب الترتيب الزمنيّ ولنبدأ بالأبيات السَليوسيّة الشهيرة، التي تُعدّ أفضلها لمجرّد أنّها ترقى إلى الملك نوما، أي إلى سنة 70 أو 80 لتأسيس روما، فيكون لها من العمر 600 سنة.

ولماذا لا نعود رأساً إلى أناشيد الإخوة أَرڤاليس؟ إذ يزيد عمرها عمّا سبق بنصف قرن، بما أنّها ترقى إلى رومُلُس.

الواقع أنّنا لا نكاد نعرف، في عصرنا الحالي، من هم الإخوة أرڤاليس. فلنشرح إذن ذلك للمعاصرين ولمن يأتي بعدنا.

كان الإخوة أرڤاليس، أقلّه في حدود معرفتنا الحالية، من مجلس الكهنة الذي أقامه رومُلُس، وكانوا اثني عشر.

كانوا في كلّ عام عند عودة الربيع يسيرون في موكب عبر الريف - اسمهم مشتقّ من arvum أي الأرض المحروثة- ليستدرّوا مزيداً من الوفرة في المواسم.

كانوا يسوقون أمامهم أنثى خنزير ملأى، رمزاً للخصب، ويرتّلون صلاة مؤلفة من خمس جمل وكلمة تعجّب.

وكانت كلّ من تلك الجمل تُكرّر ثلاث مرّات وكلمة التعجّب خمس مرّات.

الجملة الأولى، وهي الوحيدة التي لا نزال نفهمها حتّى اليوم، تعني: يا لارس، يا إله المنزل، كن في عوننا!

Twitter: @ketab_n

وكلمة التعجّب هي: ظفر!

أمّا الجمل الأربع الأخرى فمستغلقة كلّياً عليّ وعلى غيري.

استنفذ پُلّيو وترِنسيوس ڤارون قواهما ليفهماها، وقد اعترف لي كلاهما بجهلهما مغزاها.

كل ما نستشفّه هو أنّ هذه النبذة مؤلّفة من أبيات على النمط السَتورنيّ القديم[1] غير محدّدة الطول، تتعذّر ترجمتها، بل يتعذّر أيضاً ضبط وزنها.

أبدوا إعجابكم، أيّها السادة العلماء، فدونكم مجال شاسع للإعجاب.

ولنتناول الآن الأناشيد الرعويّة.

كان ينشدها كهنة الإله مارس، الذين أقامهم الملك نوما وكلّفهم بالسهر على الدروع المقدّسة.

كان هؤلاء الكهنة يُسمَّون بالساليّين -ذلك ما نعرفه تماماً- بسبب القفزة الهائلة التي كانوا يقومون بها[2]، حين كانوا، وهم في بُرداتهم الأرجوانيّة بحمّالاتها النحاسيّة العريضة، معتمرين خوذاتهم النحاسية، يسلكون شوارع روما في موكب كبير وهم حاملون الدروع المقدسة يضربونها بِعَرض سيوفهم.

يتعذّر علينا أن ندرك الغرض من هذه الصلوات، كما تعذّر أيضاً على شيشرون وعلى ڤارو أن يفقها أي شيء منها، ما عدا بعض الإيقاع التي تتضمّنه كلماتها. فما هي طبيعة هذا الإيقاع؟ هذا ما لم يغامر أيّ منهما بشرحه.

أمرّ مرور الكرام على القوانين الواردة في اللوحات الاثنتي عشرة،

---

(1) قصائد قديمة لها وزن خاصّ مختلف عن العروض اليونانيّة الكلاسيكيّة (المترجم).

(2) اسمهم («القفّازون») آتٍ من المفردة اللاتينية: salire (ومنها أتت الفرنسيّة: sauter)، وتعني فعل القفز، وذلك بباعث من الوثبات التي كان يقوم عليها رقصهم الطقوسيّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

وعلى منقوشات سِپيون ذي اللحية الجنائزية، وتنبّؤات مَريوس التي أدحض صحّتها ولا سيّما ما يتعلّق منها بمعركة كَنّا[1]، وكذلك على الأناشيد 'الفِسّينيّة' التي تكلمت عنها شخصياً في الكتاب الثاني من **الرسائل**، وعلى الهجائيّات التي كان ينشدها الجنود وراء عربة الظافرين والتي استمرّت حتّى أيّامنا هذه. اسألوا عن ذلك قيصر **الأصلع الظريف** وعن ملكة 'بِتينيا'.

أصل الآن إلى ليڤيوس أَندرنيكوس الشهير الذي لم يخمّن وهو يكتب تراجيدياته أنّه، بعد مأتي سنة، سيرمي في اليأس شاعراً يافعاً مسكيناً هو هُراسيوس.

آه! هذا والله أعرفه جيّداً بفضل أُربيليوس. إنّه يونانيّ من تَرَنتم وقع في العبودية ثمّ أعتقه ليڤيوس سَليتَتور فتسمّى باسمه. وبدأ يكتب سنةً واحدة قبل مولد أنيّوس، أي حوالى 150 سنة بعد موت سُفوكلِس و52 سنة بعد موت مينَندِر.

كان ليڤيوس أَندرُنيكُس، بصفته يونانيّاً من تَرَنتم، يفهم يونانية أهل أثينا. لذا لم تكن مسرحياته أكثر من تراجيديّات وهزليّات مترجمة عن اليونانية. وأكثر ما عانى منه، حسب رأيي، ليس كتابة المسرحيات بل العثور على أشخاص يمثّلونها. استحال عليه أن يجدهم بين الشبان الأحرار بالنشأة، فاختارهم من بين المُعتَقين والعبيد. من هنا احتقارنا لما يتعلّق عندنا بمهنة الممثّل الشعبيّ بالإيماء.

---

(1) لا يورد هُراسيوس هذه النبوءة المعروفة لدى جميع أهل روما، تقول: «أيّها الروماني، يا ابن طروادة، تجنّب نهر كَنّا. احترس من أن يحملك الأغراب على شنّ معركة في حقل ذْيودِم. غير أنّك لن تصدّقني حتّى تروي بدمك الأرياف!... حتّى يُقضى على الآلاف من أهلك فيدحرجهم النهر حتّى البحر؛ حتّى يصبح لحمك فريسة لأسماك البحر وطيور السماء وحيوانات البرّ المفترسة.».

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، كان من السهل على ليڤيوس أَندرُنيكُس أن يرضي الرّومان المعاصرين. فقد كان هو أيضاً ممثّلاً يرهق صوته بتمثيل مسرحياته. فقد نجح في أن يُسيّر أمام كلّ عازف على الناي عبداً فتيّاً يغنّي ويعزف بدلاً منه، فيما يكتفي العازف بالإيماءات المناسبة.

أشكّ في أن يكون الرّومان في أيّامنا هذه متساهلين كما كانوا أيّام أتّكُس ريـگُلُس وكلوديوس پُلكير، وقت كان يمثّل أمامهم ليڤيوس أَندرُنيكُس.

على هذا النحو، مثّل ليڤيوس أَندرُنيكُس عدّة تراجيديات يونانية قام بترجمتها: **أجاكس، هيلينا، إيجِست، هِرمِيُنّا پِرسه، إيو، آخيلوس، حصان طروادة**. وملهاة عنوانها **الخنجر**، وفيها نجد هذا البيت الذي كان يصاب كلوديوس بالوجد من قراءته:

«يا منبع البراغيث والقمل والبقّ، أجبني!»

كما أنّه حاول أن يترجم **أوديسّة** هوميرُس. ولا بدّ لي من التنويه بالجهد الذي بذله ليبقى أميناً للنصّ الأصليّ، مستعيناً بالوزن السَتورنيّ الذي برع في اختياره لسهولة تكيّفه مع البيت **السداسيّ الوزن**.

ولم يكن شيشرون قطّ ليحتقر الكاتب التراجيديّ القديم، وعنه كان يقول: «يبدو لي، حين أقرأه، أنّي أشاهد أحد تماثيل الآلهة والأبطال التي نحتها دِدالُس، والتي على رغم قصورها في التعبير عن الحياة وفي رسمها، تتّسم بشخصية ذاتية وبجلالٍ سام».

لكن، وحقّ الآلهة، ما أبعدها عن أبيات صديقي الطيّب ڤِرجيليوس وعن تراجيديات عزيزي ڤاريوس.

وأذكر خاصّةً كتابه **تيِست**، الذي نسبوه عن مكابرة إلى ڤِرجيليوس، لأنّه أبدع في جعل ابن پِلُپس ينطق بلغة شجيّة النغم.

Twitter: @ketab_n

أمّا نيڤيوس فشأنه آخر، وفي ما قلته عنه بعض الصدق: «لم يبق نيڤيوس بين أيدينا، ولكنّه بقي في ذاكرتنا».

وعسى للهزء أن يتحوّل إلى مديح، وفق مشيئة القارئ، لأنّ نيڤيوس ليس بمترجم؛ إنّه شاعر روماني من أسرة الشعراء الحقيقيّين. فقد كان، شأنه شأن تيرتِه، شاعراً وجنديّاً. وقد تغنّى برِگولُس حين كان في الجيش تحت إمرته.

وهو في المقام الأوّل شاعر هجائيّات ملتزم كليّاً بخدمة الشعب.

كان ينعى على آل مِتِلُّس عجزهم، وينعتهم بالانتهازية ويصرّح أنهم آفات الوطن، فيقول:

«وحده القدر جعل آل مِتِلُّس قناصلة روما»

رد آل مِتِلُّس ببيت لا التباس في هجوميّته:

«سيجازي آلُ مِتِلُّس الشاّعرَ نيڤيوس شرّاً بشرّ»

لم يخلف هؤلاء القوم الطيّبون بوعدهم. ساقوه إلى المحكمة بسبب أناشيده القدحية، فحُكم عليه بسجن شديد الوطأة. يرسمه لنا پلوتُس وهو في سجنه سانداً رأسه إلى ذقنه، محاطاً بحارسين يلازمانه ليل نهار؛ ولم يخرج من سجنه إلّا ليعاود هجومه.

وفي هذه المرّة، نُفي إلى أوتِكا حيث اعتزل المجتمع إلى أن توفّي، تماماً كما مات سِپيون في ليترنا.

مات سِپيون وهو يقول: «أيّها الوطن العاقّ، لن تحظى بعظامي».

ومات نيڤيوس وهو يكتب: «لو قُدّر للفانين أن يبكوا الخالدين، لبَكتِ الشاعرَ عرائسُ الشعر. أجل، منذ أن أُقفل عليه في خزينة المقتّر أُركُس، لم يعد أحد في روما يحسن التحدّث باللغة اللاتينيّة».

لا ننسَ أن نيڤيوس هو الذي أدخل إلى التراجيديا والملهاة البيت

Twitter: @ketab_n

الدراميّ، والبيت الثلاثيّ الوزن أو 'السِنير'، والبيت المفطور على الفعل، وأنا أوّل من قال ذلك، لأوفي نيڤيوس حقّه.

اكتفى ليڤيوس بنقل الملهاة اليونانية إلى المسرح الروماني، وأمّا نيڤيوس فقد ابتكر الملهاة اللاتينية.

لا بدّ أنّنا نذكر أنّ المهازل الفجّة، المسمّاة 'أَلّيتانت'، ترقى إلى الإترورييّن[1].

لم تكن ملهاة ليڤيوس إلّا ملهاةً بمعطف.

أمّا ملهاة نيڤيوس فملهاة ببُردة ملكية.

---

(1) نسبة إلى إتروريا، الاسم القديم للمنطقة الممتدّة في وسط شبه الجزيرة الإيطالية، وتشمل اليوم توسكانيا ومحيط روما (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

لقد قال شيشرون عن العصر الذي كتب فيه نيڤيوس: «إنّه العصر الذي كنّا نتكلم فيه اللاتينية بحقّ».

يسمّي الخطيب العظيم پلوتُس ونيڤيوس ويقول عن اللغة التي يتحدّثان بها: «إنّها نطق المدينة، إنّها اللاتينية من منبعها، إنّها اللغة الوطنية الخاصّة».

بعده أتى أِنّيوس. اكتشفه كاتون في سردينيا، فبحث عنه في صفوف الجيش الخلفيّة وقاده إلى روما ليجعل منه مواطناً رومانيّاً. وأِنّيوس هو الذي كتب تلك الجملة المنقوشة على ضريح سِپيون، وهي أقلّ شهرة من التي أوردناها سابقاً عن سِپيون نفسه: «هنا يرقد رجل لم يقوَ أحد، مواطناً كان أم عدوّاً، أن يفيه حقّه من التكريم اعترافاً بمآثره».

وهو أيضاً من قال في أبيات سداسيّة الوزن، ملحقة كلّها بأبيات ثُمانية الوزن، بصدد سِپيون إيّاه: «من ذلك المكان الذي تشرق منه الشمس ما وراء مستقنعات 'مِيوتيدِس'، لا يقوى أحد أن يساوي مآثره بمآثري. وإن قُدّر لأيّ إنسان فانٍ أن يصعد إلى أقاليم سكنى الآلهة، فلي وحدي يُشرع باب السماء فسيحاً».

من الجنون أن نحاجج في جلال هذه الأبيات وعظمتها. لذلك تَزاحم آل سِپيون في ضريحهم ليفسحوا مكاناً لأنيّوس، إقراراً منهم بجميله.

كان أنيّوس، مثل ليڤيوس أَندرُنيكُس، من العرق الإغريقي، من أهل روديا في كلابريا. هذا ما يصرّح به: «إنّي روماني، أنا الذي كنت مرّة روديّاً».

Twitter: @ketab_n

كان عمره خمساً وثلاثين سنة، أي كان وقتها شاعراً، حين التقى كاتون. وتوفّي في روما عام 585، وسعد بأنّه تمتّع في حياته بشهرة هائلة لم يجادل بشأنها أحد في زمنه، ولكنّ من المشروع، من منظوره هو، أن نجادل بها الآن. كان يدين بالپيتاغورية، ويزعم أنّه ورث روح هوميروس. ويا له من إرث ثقيل، يقتضي من الوارث **الياذةً** جديدة و**أوديسة** ثانية.

بما أنّ أنيّوس لم يدّعِ أنّ له روحَ هوميروس، وبما أنّ النقاد خاصة يعرفون كما أعرف أنّ ذَلك الأمر لم يحدث قطّ فلم يردّدوه، أكتفي إذن بموقف الإعجاب من أنيّوس. ولكن إن حدث لهم أن قارنوه بأعظم ما في العالم، فإنّي أحاجج. وإن رفعوه ليلقوه على رؤوسنا نحن، أي ڤرجيليوس وڤاريوس وأنا، فإنّي أفتح ذراعيّ مثل پُلِدامَس لأرفع الثقل الذي يريدون أن يسحقونا تحت وطأته.

إنّه يرى أنْ لا وجود لا لليڤيوس ولا لنيڤيوس. إذ لا أحد قبله -ذاك ما يقوله- استطاع أن يعبر صخور عرائس الشعر، لا أحد جدّ مثله في البحث عن أسلوب جديد.

قال شيشرون عنه: «كان أنيّوس، في نهاية حياته، وهو في السبعين من عمره، يتجشّم عبء أمرين يعتبرهما الناس شديدي الثقل، الشيخوخة والفقر. ولكأنّه كان سعيداً بذلك.

لا شكّ أنّه كان سعيداً. يسعد الإنسان كثيراً حين يعتقد أنّه سما إلى درجة تفوّق معها على جميع الأموات من الشعراء، وأنّه ليس لشاعر من الآتين بعده أن يتفوّق عليه.

بشيخوخته وفقره، سعيد ذلك الإنسان الذي أبدع في التغنّي بأمجاد آبائكم. لا يكرّمْني أحد بالدموع، ولا ينح في جنازتي. ولماذا؟ لأنّي أحلّق بين البشر حيّاً من فم إلى آخر.

Twitter: @ketab_n

والواقع أنّ شيشرون من أشدّ المعجبين بأنيّوس، فنثره بأكمله مسكون -لا أجد كلمة أصدق للتعبير عن فكرتي- بأبيات الشاعر القديم؛ ولنشرْ بسرعة إلى أنّه لم يعرف أيّاً من شعرائنا المعاصرين، باستثناء كَتُلُّس ولُكريسيوس. لم يعرف لا ڤرجيليوس ولا ڤاريوس ولا أنا من بعدهم، إن جاز لي القول.

قال لُكريسيوس عن مؤلّف **أندروماك، وميديه، وهِكوب**، أو بالأحرى عن مترجم هذه الأعمال: «كان أنيّوس أوّل من حمل معه من هيلِكُن في جبال بُويسيا الساطعة إكليلاً لن تذبل أغصانه أبد الدهر. غير أنّه لم يعرف هو أيضاً، وقد توفيّ بعد أن اكتسى ڤرجيليوس ثوب الرجولة بسنتين، لا، لم يعرف شعراء حكم أُغسطس».

أمّا ڤرجيليوس الذي كان يُلام لتقليده من بسطَ عليه كاتون حمايته، فنعرف جوابه: «إنّي التقط من الذهب ما أعثر عليه في مزبلة أنيّوس».

لم يكن أنيّوس، على عكس نيڤيوس وبالرغم ممّا قيل فيه، شاعراً لاتينياً بل مقلّداً للشعراء اليونان، بما أنّ تراجيديّاته جميعاً، وقد مرّ بنا منها أكثر من عشرين، مقتبسة من التراجيديّين اليونان وخاصّة من يوربِيدُس. الاقتباس واضح عنده بحيث لا يمكن اعتباره تقليداً بل ترجمة. والواقع أن أنيّوس، ولا بدّ لنا من الاعتراف بذلك، كان أفضل من مترجم عاديّ. فبيته 'الإيامبيّ'[1] والثلاثي الوزن واضح المعالم وحسن المقطع. يبدو فيه يوربِيدوس وإسخيلوس، على مسرحنا المعاصر، يتكلّمان بلغة لا ينكرانها هما نفسهما. وبسبب ذلك نستحسن قبل كلّ شيء عند أنيّوس الشكل، الوزن الشعريّ، البيت، أي بوجيز العبارة ما يختصّ به أنيّوس.

فلماذا امتدحوه لنا إلى هذه الدرجة؟ ولولاهم لامتدحناه بأنفسنا، ولما

---

(1) على تفعيلة اسمها iambique مؤلّفة من مقطعين: قصير فطويل.

Twitter: @ketab_n

خسر شيئاً بالمقابل.

أمّا الهجائيّات فمن الخطأ ما قيل عن نشوئها على يد أنيّوس.

فما هي 'الأتلانتِس' إن لم تكن الهجائيّات؟ غير أنّ أنيّوس وسمَه بِسمة خاصة، أي بشكل أتقن صنعةً وأدقّ تحديداً. ولا يخفى أنّه من هذه الزاوية أيضاً لم يكن رضاه عن نفسه أقلّ منه في باب التراجيديا والملهاة. وقد قال مخاطباً نفسه:

«أحيّيك، أُحيّيك أيّها الشاعر أنيّوس، أنت الذي أطلقت في وجه الفانين أبياتك الملتهبة التي اخترقت عظامهم حتّى نخاعها الشوكيّ».

بعد هؤلاء الشعراء التمثيليّين والغنائيّين والهجائيّين، يأتي شعراء الملهاة المحض. فثمّة پلوتُس وسِسيليوس وترَنسيوس، ولا شأن لهم معنا؛ ثمّ ڤِرجيليوس وأنا، لذا نترك صديقنا لوكيوس ڤاريوس يجابههما، إذ أنّه قادر على التصدّي لهما.

لي فقط كلمة في أتّا. كان عليّ أن أغفله تماماً، غير أنّي لم أفعل: فعليّ إذن تقع تبعات ذلك.

قلت عنه: «إن بدوتُ على شكّ في كون مسرح أتّا يسير أو لا في الطريق السويّ، ما بين الأزهار والزعفران...». ولعلّ الأقدمين يصرخون: يا لها من وقاحة! ما له! أيحقّر من شأن ما يمثّله إيزُپّوس الوقور ورُسّيوس العالم؟ فعندهم، لا حسن إلّا ما استحسنه الناس قديماً؛ وقد يخجلون من أن ينَسوا في شيخوختهم ما تعلّموه ولمّا تنبت لهم لحية بعد.

ينبغي ألّا نولي هذه الأبيات أكثر ممّا تستحق من الأهميّة. فكلمة أتّا تعني في اللاتينية القديمة **الأعرج**، والواقع أن أتّا كان يعرج فعلاً. استسلمتُ هنا لمتعة التلاعب السهل بالكلمات، تماماً كما فعلت في حديثي عن نفسي، بصدد فلَكُّس.

Twitter: @ketab_n

أرجو المعذرة. واحسرتاه! سأقول ما كنت أقوله للمعلّم أُربيليوس حين كان يهدّدني بسوطه وبعصاه عند اقترافي ذنباً ما:

- لن أعود إلى مثل هذا من بعد.

أمّا لُسيليوس، فقد قلت عنه في **هجائيّاتي** كلّ ما عندي، وليس ما يدعوني إلى الرجوع عن حكمي.

والآن، لماذا نلمس ذلك الفراغ الكبير بين الشعراء بعد أنيّوس؟

لَمَ انهارت التراجيديات وعظُم شأن الملهاة على هذا النحو؟

ما السبب في تقريظ ترَنسيوس المتوفّى عامَ 596 لتأسيس روما، بغضّ النظر عن أفضاله؟

ألأنّه نظم ربّما أجمل بيت قُدّر له أن يُنظم:

«إنّي إنسان، فليس أيّ شأن إنسانيّ بغريبٍ عنّي.»

لا، السبب هو أنّ من خلَف الشعراء همُ الناشطون في المجال العامّ. فها تِبيريوس گرَكُّس يُنتخب مدافعاً عن الشعب، بعد وفاة أنيّوس بستّ سنوات؛ وها، بعد وفاته بسنتين، يولد مَريوس؛ وها، بعد تسع عشرة سنة من مولد مَريوس، يولد سِلّا.

وعندها تُفتح تلك الحقبة الطويلة من الحروب الأهليّة، حيث يحلّ الطامحون والخطباء والمغامرون محلّ الشعراء.

فمن يخلف أنيّوس وپلوتُس وترَنسيوس -وسبق أن ذكرنا غيرهم آخرين- هم تِبيريوس گركُّس، كَيوس گركُّس، مَريوس، سِلّا، پُمپيوس، كَتِلينا، قيصر، كاتون، شيشرون وأنطونيوس: أعني أولئك الشعراء الرهيبين الذين يخطّون في الساحات العامّة وفي ميادين القتال ملحمة السيف المدمّاة، فيثيرون في قلوب معاصريهم قدراً كبيراً من الانفعالات الواقعية فتنتزع منها طعم الانفعالات المصطنعة.

Twitter: @ketab_n

هكذا شهدنا خلال ما يقارب القرن بروز شاعرين:
لُكريسيوس المولود عام ستّمائة وثمانية وخمسين لتأسيس روما،
وكَتُلُّس المولود عام ستّمائة وثمانية وستّين لتأسيس روما.

وهناك أيضاً أمر يجب أن تلاحظه: ما إن أغلق أُغسطُس معبد جانوس حتّى برز الشعراء من جديد. وعندها نشهد مولد ڤرجيليوس، ڤاريوس، أوڤِديوس، تِبُلُّس، پروپِرسيوس - وأنا نفسي.

دون أن ننسى موڤيوس وباڤيوس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

پُمپيوس وزوجته - الاهتمام الذي توليه روما لصحّة جوليا - پُمپيوس يعد بإقامة ألعاب متذرّعاً بڤينوس الظافرة - أسباب الألعاب الحقيقيّة - أدخل في التّسباق لأحصل على مكان في السّرْكُس - أولى أشعاري باللاتينية - يعلنني أُربيليوس المتقدّم الأوّل في مدرسته - تطواف الألعاب - موقعي في هذا التطواف - السّرْكُس العظيم - دخول پُمپيوس وجوليا - لماذا تهتمّ روما اهتماماً شديداً بجوليا.

لقد وصفتُ شدّة حنان پُمپيوس - وقد صار يُطلق عليه لقب «الكبير»- على زوجته الشابّة، ابنة قيصر، بالرغم من بلوغه خمسين سنة.

وكانت جوليا من ناحيتها، بالرغم من سنواتها العشرين، تحبّ زوجها حبّاً جمّاً. ولذلك مبرّراته: فقد بلغني من الغانية فلورا، التي كانت تعرف پُمپيوس، أنّ وقار ذلك القائد العظيم لم تكن تغشاه أيّة صرامة، بل على العكس من ذلك كان حديثه يتّسم بسحر خاصّ.

ذكرنا أنّه عُيّن قنصلاً أوحد واضطرّ أن يجوب إيطاليا بكاملها لتأمين المؤونة، فاصطحب معه زوجته وأبرزها للناس على أنّها إلهة السلام.

ثمّ إنّها تعرّضت لحادث كاد يكلّفها حياتها، فأصبحت غالية على قلبه

Twitter: @ketab_n

أكثر ممّا كانت.

ففي الهجوم الذي شنّه عليه كلوديوس فيما كان يغيث كُونتُس، والذي في أثنائه جُرح شيشرون، تلطّخ معطف بُمپيوس كليّاً بدم صديقه.

عاد إلى بيته دون أن يفكّر بتبديل معطفه. رأته زوجته الشابّة داميا، فظنّت أنّه جريح وأُغمي عليها.

اطمأنّ بُمپيوس لما عادت إلى وعيها، غير أنّ المحذور كان قد وقع ليس لها شخصيّاً، بل للجنين التي كانت حاملاً به.

أجهضت جوليا حملها.

ومع أنّ كان لها آنذاك ابنان، عمر أحدهما ستّ وعشرون سنة وعمر الآخر أربع وعشرون سنة، لم يخفّف ذلك من الألم الذي أصابه بسبب فقدان الجنين، الذي إن لم يكن هو يعتبره ابن شيخوخته، كان أقلّه ينسيه أنّه أصبح في سنّ الشيخوخة.

ومن غريب الأمر أنّ روما، وهي في خضّم حروبها الأهليّة وفي فسادها المتفشّي، شاركته مأساته العائلية اليسيرة.

وتبدّل الحداد فرحاً، حين حمل بُمپيوس إلى مناصريه في هضبة ألبينُس أنّ جوليا حاملٌ من جديد.

وفي نفس الوقت أعلن أنّه سيقيم ألعاباً.

فأعلمنا مربّينا پُلِّس أُربيليوس مباشرةً أنّه حصل من الناظر المسؤول عن تنظيم الألعاب على حجز ثلاثة عشر مقعداً، يحقّ له أن يوزّعها على من يرضيه عملهم من تلامذته.

كلّفَنا المعلّم بموضوع شيّق: هو وداع أندروماك لهِكتور نترجمه إلى اللّاتينيّة. ولقد لاح لي أن أترجمه إلى اللاتينية شعراً لا نثراً.

وكانت تلك أولى الأبيات التي خطّها قلمي، ولعلّ النجاح الذي

Twitter: @ketab_n

لاقته هو الذي قرّر مصيري كشاعر.

بفضل ترجمتي الشعرية، صُنّفت ليس فقط بين الاثني عشر المتميّزين، بل عدّني المعلّم أُربيليوس على رأس الاثني عشر.

قدّم پُمپيوس هذا العرض بمناسبة عيد ڤينوس الظافرة.

قامت الألعاب على قنص الحيوانات وكان من المقرّر أن تجري في السِّركُس الكبير.

يقع السِّركُس الكبير في وادي مورسيا، الممتدّ ما بين هضبتي أَڤنتينُس وپَلَتينُس، وهو الذي يحدّ حقول مارس.

قديماً كانت هذه البقعة، التي أُطلق عليها مذّاك بقعة فلامِنّيان، مجرّد مرج واسع لتربية الخيول، سُمّي **حقول مارس** بسبب التمارين التي يمارسها شباب روما. وحين تصدّع حزام روما الجداريّ من وطأة السكّان، بقي ذلك الحقل **المقدّس** على حاله، وحوالى عام 425 لتأسيس روما، راحت الصروح تتكاثر فيه؛ وتزايد عددها في القرن السادس، وأصبح في القرن السابع حيّاً رائعاً يتجمّل يوماً عن يوم.

عودةً إلى السِّركُس الكبير.

ارتفع هذا الصرح الرائع في نفس الساحة التي حوّطها تَركينُس الأوّل بحواجز خشبيّة بنيّة إجراء الألعاب فيها لاحقاً. وكان هذا الصرح من الحجر، ولم يستطع أنبغ علماء الآثار أن يحدّدوا زمن إنشائه. ثمّ رفعه قيصر طابقاً حين أقام فيه الألعاب احتفالاً بتعيينه ناظراً للمدينة. وفي أيّامنا جعل منه الإمبراطور أحد أروع صروح روما.

طوله 2500 قدم وعرضه 300 قدم.

طرفه الشرقيّ على شكل نصف دائرة؛ ويحدّه غرباً، أي باتجاه مرتفع جَنيكولُم، جدار. تتكوّن جدرانه من أروقة متراكبة. وذكرنا سابقاً أنّ

Twitter: @ketab_n

الأروقة السفلى استُعملت حانات وپوپينات، ودكاكين حلاقة وغيرها.

اتُّخذت بعض الأروقة بمثابة مداخل إلى البناء، الذي كان يتّسع لثلاثمائة ألف شخص.

يقسم السِّركُس، على مدى ثُلثيه، جدار من آجُرّ عرضه اثنتا عشرة قدماً وارتفاعه أربع أقدام.

ينتصب في طرفه ثلاثة أعمدة على قاعدة واحدة، كان يتعيّن على الأحصنة والعربات أن تداورها بعناية بالغة. كانت بمثابة حدود، أو ميتَيه.

كان خطّ أبيض يشير إلى نقطة نهاية السباق. ذلك ما حملني، في آخر بيت من رسالتي السادسة عشرة إلى كونكسيوس:

«سأموت، فالموت أقصى حدّ للأشياء.»

وحين قُرّر أن يحوَّل السِّركُس إلى ميدان ليس فقط لسباق الخيل بل كذلك للمصارعة ولقنص الحيوانات، حُفر فيه «أوريپ»، أي قناة ماء جارية يبلغ عرضها وعمقها عشر أقدام. كانت هذه القناة تفصل الميدان عن المدرّج، لتحمي المتفرّجين من الحوادث التي قد تتسبّب بها الحيوانات الهلعة أو الهائجة.

وكانت تنتصب فوقها شباك حديديّة ذات حراب حادّة.

وعلى 'السپينا' التي تشكّل العمود الفقريّ للصرح -وقد سميّت كذلك بسبب الشبَه[1]- نُصبت تماثيل من النحاس المذهّب تمثّل آلهة وإلاهات أمامهم مذابح. في الحقبة التي أتحدّث عنها، كانت هذه التماثيل

(1) تعني المفردة اللاتينية spina حرفيّاً «شوكة»، ومنها أتت الفرنسيّة épine، وهي تدخل خصوصاً في تسمية «العمود الفقريّ» (باللاتينية: *spina dorsualis*، وبالفرنسية: épine dorsale، ما يعني حرفيّاً: شوكة الظهر أو سلسلته). فكأنّ هذا الجدار الذي يتوسّط المبنى هو عموده الفقريّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

قائمة؛ ما لم يكن حينئذ قائماً هو المسلّة الرائعة، المنحوتة بأكملها من كتلة صوّان شرقيّ ارتفاعها 120 قدماً، جُلبت بأمر الإمبراطور المعظّم من هِوليُپولِس، وتسطع في أعلاها شعلة ذهبيّة، هي صورة عن الشمس التي نُذرت لها.

الصرح بأكمله مشيّد من حجر تيبور الذي مال لونه مع الزمن إلى لون بنيّ أصهب.

أفضل مقاعد السِّركُس هي التي باتّجاه هضبة أَڤَنتينُس، لسببين: أوّلهما أنّ شمس الظهيرة لا تَجْبه العين، وثانيهما أنّنا نلمح وراء الصرح بيوتاً رائعة تنتصب وخلفها صروح هضبة پَلَتينُس البهيّة.

كان رومُلُس أوّل من ابتكر الألعاب الرومانية، ليتسنّى له أن يختطف السبينيّات[1].

تُفتتح الألعاب الرومانية (ومنها طبعاً حفلات القنص) دائماً بتطواف مقدّس.

حين يحين يوم الألعاب، ينطلق التطواف - ينضمّ إليه تلامذة أُربيليوس الاثنا عشر، وسأذكر سبب ذلك لاحقاً- من الكَپتوليوم، فتجتاز الفوروم على طوله، وتمرّ أمام بَزِليكُم جوليا، ثمّ تدخل تُسكُس ڤِيوس، وتحاذي فوروم بُواريوم إلى أن تبلغ السِّركُس الكبير، منعطفةً يساراً لسلوك طريق **الظفر**.

ومع أنّ المسافة تُقطع في الأوقات العاديّة بربع ساعة، غير أنّ التطواف يستغرق حوالى ثلاث ساعات. فيغصّ الفوروم والشوارع بالمشاهدين. ولكنّ ما أخّر التطواف هذه المرّة أنّ أحد الأحصنة التي تجر عربة مينرڤا

(1) بنات منطقة سَبينا في وسط إيطاليا، يروى أنّ رومُلُس، مؤسّس روما، اختطفهنّ بعد إقامة المدينة بفترة، لنقص النساء فيها. وفيما بعد ساهمت نساء سَبينا في إيقاف الحرب بين الرومان والسَّبينيّين، ممّا قاد إلى توحّد الشعبين المتجاورين (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

توقّفت عن الجرّ، فاستلم السائق الرسن باليد اليسرى.

اعتُبِر هذا التصرّف نذير شؤم، فعاد التطواف، الذي كان قد بلغ الفوروم، إلى الكَپتوليوم، حيث أُقيمت من جديد المراسيم التي كانت قد تمّت من قبل.

اعتُبِرت قلّة الفطنة التي أبداها السائق نذير سوء بالنسبة للأمّ وابنها اللذين أُقيمت الألعاب على شرفهما. والحال أنّ جوليا والولد الذي كانت تحمله توفّيا كلاهما بعد ستّة أشهر.

كان التطواف رائعاً.

كان حوالى مائة من اليافعين البالغين من العمر خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة، وكلّهم من أبناء الفرسان، يمتطون خيلهم منتظمين في عدّة سريّات؛ يتبعهم مائة من اليافعين يمشون كلّ في فرقته وفي صفّه. ثمّ يأتي ناظر المدينة الرئيس مرتدياً بردة أرجوانيّة مرصّعة بالذهب يُلفّعها رداء مطرّز، وراكباً عربة تجرّها أربع أحصنة بيضاء مقرونة جنباً إلى جنب. ويليه القضاة والشيوخ؛ يسير في أثرهم موسيقيّون من العازفين على النايات القصيرة، أو على القيثارات العاجيّة ذات السبعة أوتار، ومن الضاربين على العود.

وكان لكلّ جوقة مشرف يعطي إشارة البدء ويقود الراقصين في الخطو والإيقاع، والموسيقيّين في ضبط الإيقاع.

كان الراقصون يتوزّعون على ثلاث فرق: تتألّف الأولى من رجال بالغين، والثانية من يافعين لمّا يبلغوا سنّ الرجولة، والثالثة من الأولاد. كان كلّ منهم يرتدي ثوباً أرجوانيّاً مشدوداً من وسطه بزنّار نحاسيّ، وسيفه إلى جنبه وفي يده حربة صغيرة؛ وكلّهم يعتمرون خوذة من النحاس المزيّن بالريش.

Twitter: @ketab_n

يبدأ الراقصون بسلاحهم - إذ أنّ الرقص كان لا يزال عندنا في ذلك الوقت حربيّاً- ثمّ تليهم جوقة تنجز رقصة تدعى «الرقصة الهِلّينيّة». أمّا زيّهم فيقتصر على جلدِ فحلِ ماعز وسروال؛ يغطون رؤوسهم بأعراف منتفجة. وفي وسطهم تجري، وأقول تجرى لا تمشي، كائنات خرافية ضخمة تلبس أردية من وبر طويل ومعاطف من ورد.

جميع هؤلاء يؤدّون رقصات غريبة، بينما يروح مهرّج يوجّه إلى المشاهدين، أيّاً كانوا، عبارات الاستهزاء وحتّى الشتائم، محتمياً بزيّه لئلّا يحاسَب على أقواله.

ووراء تلك الكائنات الخرافية والعجائبية، تمشي مجموعة أخرى من العازفين على القانون وعلى الناي؛ يليهم جمهور الكهنة من خَدَمة الآلهة كافّةً، يحملون بين أيديهم عُلباً تُلقى فيها التقْدمات ومباخر ذهبيّة وفضيّة يتصاعد منها عبق البخور والأعشاب المعطّرة.

وحينئذ في وسط عبق البخور والعطور، تبرز تماثيل الآلهة، تواكبها مجالس الأحبار الأربعة. إضافة إلى كبار الآلهة الاثني عشر، ثمّة آلهة وإلاهات أخرى متحدّرة من نسلهم. وفي قلب هذا الموكب من الخالدين، كنّا نتبيّن جُپِتير وجونون ومِينِرڤا محمولين على عربات مرصّعة بالفضّة والعاج، مشدودة إلى أربعة أحصنة. الأحصنة يقودها «الپَتريم»، أي شبيبة الأرستقراطية العريقة. يرتدون بردات مصبوغة ويعتمرون أكاليل من أغصان السنديان مرَصّعة باللؤلؤ.

أمّا الآلهة الأخرى فمرفوعة فوق محامل مغلقة أو على نقّالات بسيطة تُحمل على الأكتاف.

دخل التطواف إلى السِّركُس من بابه الغربيّ، أي من جهة الماء ودار حول 'السپينا'.

Twitter: @ketab_n

ما عدا المقاعد المحجوزة التي لا تتجاوز الألف، كان السِّركُس قد ازدحم بالبشر. بمجرّد دخولنا استقرّ الهدوء بعد توقّف ذلك الصخب الهائل؛ ولم نعد نسمع، في خضمّ الأمواج المتناغمة الهادرة في وادي مُرسيا وكأنّها رافد من روافد نهر التيبَريس، إلّا تصفيقاً متقطّعاً يوجّهه أصحاب الحِرَف بأنواعها إلى الآلهة الساهرة على حرَفهم، حين تمرّ تلك الآلهة من أمامهم. اختصّت إلهة **الظفر** وحدها، بجناحيها المنبسطين بغيةَ الانطلاق من روما إلى أرجاء العالم، بتصفيق جميع الحاضرين.

عندما فرغوا من الدوران حول السِّركُس، صفّوا تماثيل كبار الآلهة أمام السرير الاحتفاليّ الذي ينتصب وراء الصفّ الثاني من مُدرّج اليسار. أمّا تماثيل باقي الآلهة فتوضع على 'السپينا'. بعد ذلك اتّخذ كلٌّ المقعدَ المخصّصَ له، بدءً بناظر المدينة الذي يرأس الألعاب، والكهنة والقناصل والشيوخ، ثمّ أتى دورنا.

كان الناس يترقّبون انطلاق ألعاب القنص. ثمّ نُفخ في البوق بمثابة إشارة لكي يتمّ إخراج الحيوانات السجينة في الإصطبلات، أي حيث توضع عادةً العربات والخيل، استعداداً للسباق.

إنّ حفلات القنص، التي درجت الآن بعد أن غُلبت أفريقيا فأصبحت تمدّ الغالبين بكلّ أصناف الحيوانات المفترسةِ الشراسة، لا ترقى شأن الألعاب الكبرى إلى عهد رومُلُس، بل نشأت بالصدفة، بسبب حادث.

حوالى عام 500 لتأسيس روما، وفي خضمّ الحرب بين روما وقرطاجة، انتزعنا من القرطاجيّين مائة واثني وأربعين فيلاً.

كانت روما في ذلك الوقت فقيرة، فبدا لها أنّه من غير المجدي الاحتفاظ بهذا العدد الكبير من المِعَد التي لا بدّ من ملئها؛ فحكمت

Twitter: @ketab_n

بالموت على مائة واثنين وأربعين حيواناً، وعقد ناظرو المدينة العزم على أن يحوّلوا قتلها إلى استعراض كبير أمام الشعب.

سيقت الفيلة إلى السِّركُس الكبير وماتت تحت ضربات السهام والحراب.

استمرأ أهل روما هذا المشهد، إذ راح الآباء يخبرون أبناءهم بما رأوا، والأجداد أحفادهم.

قرّر سِپيون نَسيكا ولِنتولُس أن يقيما احتفالاً شبيهاً بذلك الاحتفال الذي طالما تأسّف الشعب لعدم تكراره؛ فدفعا إلى الحلبة بثلاثة وستّين فهداً أفريقياً وأربعين حيواناً آخر ما بين دُبّ وفيل.

يُقال إنّ فهدين، ذكراً وأنثى، هربا من الحلبة وعاثا دماراً حولهما؛ ذلك ما يشير إليه مرسوم مشيخيّ صدر بعد تلك الحقبة بقليل يحظر إدخال الفهود إلى إيطاليا؛ وقد بقي المرسوم نافذ المفعول مدّة قرن ونصف.

حوالى عام 670، طرح كنِيوس أوفيديس[1] على الشعب قضية سحب هذا المرسوم المشيخيّ، فقرّر الشعب إلغاءه.

كان القصد من ذلك مجرّد التغيير.

حين أقام سكَورُس الألعاب بمناسبة تسلّمه منصب ناظر المدينة، استقدم إلى روما برنيقاً وخمسة تماسيح، وحفر خصّيصاً لأجلها حوضاً ملأه بالماء.

ثمّ ألغى المرسوم المتعلّق بالفهود، وأقام ألعاباً أخرى ذُبح فيها مائة وخمسون فهداً.

وكان كلوديوس پُلكير، وهو أحد أجداد كلوديوس الذي أخبرتُ عن جنونه وموته، أوّل من أمر ليس بقتل الفيلة بل بإنزالها إلى حلبة

(1) فرّق بينه وبين الشاعر أوڤيديوس، صاحب «التحوّلات» (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

المصارعة في السِّركُس.

بعد عشرين سنة، أطلق لوكيوس ومَركُس لوكُلُّس خمسين ثوراً بين الفيلة.

وحين أصبح سِلّا مشرفاً على العدالة أقام حفلات قنص شارك فيها مائة وعشرون أسداً من ذوات اللُّبد.

وقد نال مواطن بسيط اسمه پ. سِرڤيليوس شهرة واسعة، إثر عرضٍ من هذا القبيل صرع فيه ثلاثمائة دبٍّ ونفس العدد من الفهود والنمور.

عندما قيل لي إنّ ثمانية عشر فيلاً وستّة وحيدي القرن ومائة فهد ومائتي أسد من ذوات اللُّبد سيلقون مصرعهم، أثناء حفلات القنص التي سأشهدها، كان أوّل سؤال طرحته هو كيف تمكّنوا من اقتناء ذلك العدد من الحيوانات؟

وجاءني جواب بمنتهى البساطة: عن طريق ضريبة عينيّة فرضتها حكومة روما على حكّام الأقاليم النائية. فراح هؤلاء يفرضون على مرؤوسيهم القيام بحملات خطيرة للغاية في سبيل أسر الحيوانات، ممّا يقتضي من القنّاصين عدم استعمال الأسلحة بل الشِّباك والغرابيل. فما همّهم إن سال دم الناس، طالما بقي دم البهائم محظوراً! فلا بدّ أنّ البشر باقون بأعداد فائضة عن اللزوم، بينما لن يبقى من الحيوانات ما يكفيهم.

وكانت الحيوانات التي تؤسر في تلك الحملات تُرسل إلى روما في أقفاص حديديّة.

اليوم، جميع الناس على علم بالأمر. فإذا ما قُدّر لما أكتبه الآن أن يستمرّ بعد حقبتنا هذه ويعبر العصور، فسيأتي يوم يطرح فيه الناس عن روما المعاصرة أسئلة تجيب عليها التفاصيل التي أوردتها لتوّي.

ما إن نُفخ في البوق حتّى بدا پُمپيوس على المنصّة المعدّة له فوق

Twitter: @ketab_n

الإصطبلات. كان يمسك بيد زوجته الشابّة جوليا، التي ينبغي تمييزها عن أسرة جوليا، والتي كانت تدلّ عيناها الجميلتان الملتهبتان وبشرتها البيضاء الناعمة بنعومة الحرير الهنديّ على أنّها ابنة قيصر.

وكان في رفقة پُمپيوس كثير من أتباعه، جلس المحظيّون منهم على منصّته وجلس الآخرون حولها.

ما إن أطلّ، وخاصةً ما إن أطلّت جوليا، حتّى انفجر التصفيق من كلّ جانب.

والواقع أنّ الناس لم يكن يبلغ عندهم الاهتمام بأمر قيصر أشدّه إلّا وهو بعيد عن روما؛ ذلك أنّ الأخبار القادمة من بلاد غاليا كانت، كلّما وفدت، تنبئ بمأثرة جلّى كتلك التي أَنجزها أبطال العصور الغابرة: انتصاراتٌ على البلجيكيّين الذين لم يستسلموا من قبل قطّ لعدوّ، غزوةٌ على بريطانيا التي كانت شبه مجهولة حتّى ذلك الحين، سيرٌ حثيث على الأقدام يقطع فيه قيصر مع جنوده حتّى مائة ميل في اليوم الواحد، مجابهةٌ ينازل فيها العدوّ بنفسه باعتباره لا أكثر من جنديّ، ظفَرٌ يُخضع فيه عشرة شعوب بمعركة واحدة. وراح ذلك كلّه، وقد لفّه سحاب من آفاق تنفتح وأبخرة آتية من بعيد، يمحو من الأنظار صورة پُمپيوس الفعليّة في أعين الناس لتحلّ محلّها صورة أخرى، تماماً كما أنّ القمر لا يبدو أكبر ولا أكثر احمراراً وهو يبرز من الأفق البعيد إلّا حين يبلغ سَمْت دورته، فيطلّ بكلّ عظمته من فوق رؤوسنا.

نهاية الجزء الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني[1]

وصف حفلة قنص - أيل وظبيّ وكلاب حراسة - وحيدات القرن والأسود - فيلة، فهود ونمور - صراع عشرين فيلاً ضدّ عشرين محكوماً عليهم بالإعدام ومائتي مصارع أفريقي - الوحوش المفترسة التي كان پُمپيوس وقيصر يستهلكانها بكمّيّة كبيرة - عدد الحيوانات التي قتلها الإمبراطور أغسطس في حياته.

بسبب التصفيق الشديد الذي أثاره وصول پُمپيوس وجولي، توقّفت جوقة البوّاقين عن العزف. ثمّ استأنفته بعد الانتهاء من التصفيق.

كان أوّل الداخلين إلى الحلبة اثنا عشر أيلاً واثنا عشر ظبياً. اندفعت هذه الحيوانات إلى المكان المُخلى لها مرتعبةً. غير أنّ الصراخ، الذي أطلقته ثلاثمائة ألف حنجرة لاستقبالها، جعلها تتسمّر في مكانها مرتجفة، تنظر إلى ما حولها، وتدير رؤوسها ذات القرون الرائعة الجمال على نحو جذّاب.

كنّا، في تلك الأثناء، نسمع نباح حوالى مائة من كلاب الحراسة الضخمة يتصاعد من أكنانها الملاصقة للأقفاص. وكلّما تصاعد النباح راحت الظبيان والأيائل ترتعد، وكأنّها فهمت من ذلك النباح حقيقة

(1) الفصل الأوّل لم نجد له أثراً في جريدة «القرن — Siècle» بتاريخ 27 و28 فبراير. وقد استنتجنا من السياق أنّ هذا الفصل هو مطلع الجزء الثاني، وأنّه ما من فصل أوّل (الناشر الفرنسي).

Twitter: @ketab_n

خصومها.

فُتحت الأكنان فظهر ذلك الرهط المتضوّر جوعاً، مدمّى العينين، مقلوب المشافر، مسلّماً خيشومه للريح.

وكأنّ الكلاب تشكّكت للحظة في أن تكون تلك الفريسة الرائعة مُعدّة لها. ولكنّها، فجأة وبمجموعها، وثبت وثبة واحدة وراحت تطارد الظبيان والأيائل.

كم كان رائعاً مشهد تلك الحيوانات الجميلة المروّعة التي، بعد أن استراحت وتغذّت على مدى عدّة أيّام، راحت تندفع بكلّ قوّتها ومرونتها، وتتواثب محاولةً الإفلات من خصومها.

بدا لها أنّ فساحة المسرح تخوّلها الإفلات من الخطر الداهم. كانت المجموعة، وهي تهرب، تكاد لا تترك أيّ أثر على الرمال المفروشة في الحلبة، من خفّة وقع أقدامها. أمّا مطاردة الكلاب فلم تكن، على بطئها، لتتعثّر لحظةً واحدة. فلما انقضى ربع ساعة، على هروب الأيائل والظبيان بقفزاتها الشاسعة والشديدة المرونة، حتّى بدأت تتباطأ.

أمّا الكلاب فقد لاحظت، بغريزتها العجيبة، أنّها إن اكتفت بمطاردة تلك الحيوانات الدائرة بمحاذاة 'السپينا' حول معالم الميدان، كما تفعل عجلات السباق، فقد تدوم مطاردتها سحابة النهار. فالذي تحلّى منها بالفطنة، ترك سربه يستمرّ في المطاردة، وقفز فوق السپينا، ومنها انقضّ وسط سرب الأيائل والظباء الذي ظنّ أنّ المسافة التي قطعها تحميه من الكلاب.

عندئذ ضربت الفوضى أطنابها في ذلك السرب المسكين. فبعضه استمرّ في الركض، وبعضه الآخر عاد أدراجه، وكأنّه ينوي الارتماء في شدق الكلاب؛ ومنه ما اندفع هاوياً في الخندق المحيط بالسركُس،

Twitter: @ketab_n

محاولاً القفز من فوق الشباك. غير أنّ الرعب داهمه حين راح المتفرّجون يلوّحون له ببرداتهم؛ وبدأت المجزرة.

عندئذ تبيّن للجميع أنّ الطبيعة فطرت الحيوان والإنسان على طباع مختلفة. لذا، لم يعد هذا يفكّر إلّا بالهرب، وذاك إلّا بالدفاع عن نفسه.

لجأت غالبيّة الحيوانات إلى الجدول المحيط بالسِّركُس.

وبعد نصف ساعة، كانت جثث الأيائل والظبيان تتناثر فوق الحلبة، تتوسّطها بعض الكلاب الميتة متجمّدةَ الحراك، وبعضها الآخر دابّاً على الأرض وهو يجرجر أحشاءه، بينما مياه الخندق تغلي بالصراع النهائيّ بين الأيائل والظباء اللاجئة إليه وبين خصومها.

رُفعت جثث الأيائل والظباء على مزاحف، يجري في أثرها ما تبقّى من كلاب حيّة لا تزال قادرة على التحرّك وهي تعوي في سعيها إلى الحصول على حصّتها من القنص.

وبرز في الميدان دفعة واحدة مائة من العبيد، مرّوا بمجارفهم على الرمل، الذي سرعان ما استعاد لونه، ما عدا بعض بقع من الدم، وعاد إلى سويّته.

ما كاد العبيد يغادون السِّركُس حتّى أُفلت في الميدان حوالى اثني عشر أرنباً بريّاً وأربعة أسود.

إنّ الشعب الروماني يستحلي ذلك التناقض بين القوّة والضعف، بين الرهبة والشجاعة.

دخلت الأسود متواثبة، غير أنّ أحدها أقعى وفغر شدقيه وراح يطلق زئيراً، جعل بعض من يبتسم عادةً لقصف الرعد يرتعش رهبة من شدّته.

لم تحتج الأسود إلى مطاردة الأرانب البريّة، لأنّ هذه توقّفت مرتعدة الفرائص. أمّا الأسود فاكتفت بالعبث بها، باعتبارها فريسة غير جديرة

Twitter: @ketab_n

بها، كما يتلاعب القطّ بالفئران.

في خضمّ الألعاب، أُدخل إلى الحلبة أربعة من وحيدات القرن بلون خشب البقس، تلتحف بثنايا جلدها الثخين كما لو بدرع بكثافة درع السلحفاة وصلابته.

بدت تلك الحيوانات، لأوّل وهلة، شديدة البلادة: لم تشفع لها لدى المتفرّجين لا قوائمها القصيرة، ولا بطونها المتجرجرة على الأرض ولا نظراتها المنطفئة. فراحوا يزعقون استنكاراً، زعيقاً لم تعره الحيوانات أيّ اهتمام.

حين راحت الأسود تزأر لمرآها، وبدأت وحيدات القرن تغبّ الهواء غبّاً لاستشمامها الأسود، تبدّل شكل تلك الكتل الثقيلة بشكل ملحوظ.

رفعت وحيدات القرن رؤوسها وأطلقت صرخة مدوّية، وكأنّها أبواق نحاسيّة تحدث صوتاً معدنيّاً حادّاً شديد الرتابة، فيما قوائمها الأماميّة تثير الغبار من حولها.

في تلك الأثناء بدت الأسود وكأنّها تستحثّ بعضها في سبيل الصراع، تجلد جنوبها بذيولها وتطلق هديراً لا يشبه أيّ صوت بشريّ.

أدرك الجمهور أنّ ذلك الزئير المنطلق في صمت مطلق يقول للخلاء المحيط: «إنّي ملكك».

فجأة، استدار أحد وحيدات القرن قافزاً قفزة لم يكن لأحد أن يتوقّعها من مثل تلك الكتلة الضخمة، وراح يحرث الأرض بقرنه قبل أن ينقضّ على الأسد.

كان هذا الأسد الذي انقضّ عليه وحيد القرن هو نفسه الذي كان قد أقعى وأطلق من شدقيه الفاغرين زئيراً مرعباً. فبدا وكأنّه يبغي، قبل البدء بالمعركة، أن يتعرّف على العدوّ الذي ينازله. ترك وحيدَ القرن

Twitter: @ketab_n

يقترب منه، ثمّ وضع قائمته على رأسه واستند إليه ليقفز بخفّة عجيبة فوق جسمه ساقطاً أمامه على مسافة خمس عشرة قدماً.

لم يدرك وحيد القرن ما حصل لخصمه، فاستدار باحثاً عنه، فوجده في انتظاره يترصّده في موقف دفاعيّ. اندفع نحوه من جديد.

قفز الأسد بخفّة القطّ على السپينا، وما كاد يلمسها حتّى قفز قفزة ثانية منقضّاً على وحيد القرن، وحطّ على ظهره وهو يغرز مخالبه وأسنانه في عمق معطفه الجلديّ الثخين، الذي استحال إلى درع عديم الفائدة.

عبثاً حاول وحيد القرن أن ينفض عنه خصمه، فخطا بضع خطوات بغية الهرب، إلّا أنّ الأسد بقي متشبّثاً بفريسته. فلجأ وحيد القرن إلى آخر وسيلة متوافرة لديه: تهاوى وراح يتدحرج شأن الحمار حين يتعابث.

سُمعت قرقعة عظام الأسد تحت ذلك الثقل الهائل. انسحق صدره من وطأة وحيد القرن. غير أنّ المنتصر خارت قواه حين أراد أن ينهض. كانت مخالب الأسد وأسنانه قد نفذت إلى مصدر الحياة لديه، فبقي المتصارعان متمدّدين أرضاً جنباً إلى جنب.

بعد عشر دقائق، كان الثلاثة المتبقّون من وحيدات القرن قد قضوا، وأصبح الأسدان الآخران مبقورَي البطنين.

لم يبقَ إلّا أسد جريح، خطورته على قدر جراحه.

دخل الحلبة عندئذ أحد مصارعي الوحوش، غاليّ له قامة جبّار، كان قد امتهن بمحض إرادته هذه المهنة الخطرة. كان عاري الرأس لا يرتدي سوى رداء خفيف معقود على وركَيه، مسلّحاً بسيف قصير وترس مستدير، ومحتذياً جزمة لا تغطّي أسفل قدميه.

حين رأى الأسد المتمدّد الرجلَ متّجهاً نحوه استقام. فرأينا دمه يسيل من جرح بليغ في صدره الذي غرز فيه وحيد القرن قرنَه؛ لكنّا كنّا

Twitter: @ketab_n

نستشعر فيه من الحياة والقوة المتبقّيتين ما يكفيه ليحطّم، الواحدة تلو الآخرى، تلك الذرّات العشر المتبقّية التي لا تحتاج إلى غير ضربة من ذيله لتتهاوى.

ولكنّ للأسد من القوّة بقدر ما للرجل من المهارة. أجبر الأسدُ، بضربة من قائمته العريضة المجابهة للترس النحاسيّ، الرجل على الركوع على إحدى ركبتيه. غير أنّ هذا استطاع، وهو يهوي، أن يغرس سيفه في صدر الأسد. انعكس الضوء على شفرة السيف محدثاً بريقاً خاطفاً يكاد لا يُرى: كان السيف القصير قد اختفى بأكمله في قلب الأسد.

فغر الأسد شدقه المفعم بالدم، واستقام على قائمتيه الخلفيّتين، ثمّ قفز قفزة جانبيّة يسيرة، وأطلق زأرة قبل أن ينهار ميتاً.

نهض مصارع الوحوش. لقد أصابه طرف مخلب الأسد في كتفه بجرح بالغ ومؤلم لكنّه غير قاتل.

أقبل على الأسد فوضع رجله فوق قلبه وبقي لحظة، تحت تصفيق السِّركُس بكامله، واقفاً وقفة هرقل الظافر.

ثمّ رأيناه، على كلّ بطشه وشجاعته، يشحب شيئاً فشيئاً ويترنّح على الجانبين. هرع العبيد إليه وأخرجوا الجريح مستنداً إلى واحد منهم، بينما راح الآخرون يشدّون جثث الحيوانات النافقة إلى قُرن الأحصنة، فراحت تجرّها مرتجفة؛ ذلك أنّ رائحة الأسد، حتّى وهو ميت، كانت كافية لتجعلها تنتصب على قوائمها من شدّة روعها.

بعد أن أخلوا السِّركُس ونظّفوه، فتحوا أحد الأقفاص، فاندفعت منها نحو الحلبة حوالى ثلاثين فهداً ونمراً، وكأنّها هررة ضخمة.

تركوها في بداية الأمر تسلّي المتفرّجين بوثباتها وقفزاتها التي لم تكن تحدث أيّ صوت، من فرط خفّتها. وكانت وثباتها وقفزاتها تترافق مع

Twitter: @ketab_n

نوع من المُواء يضاعف وجه الشبه بينها وبين تلك الحيوانات الأليفة بفعل تشابه الشكل والوبر، خاصّة بالنسبة لمن يشاهدها من بعيد.

بعد لحظة، رأينا أربعة أفيال تدخل من مداخل السِّركُس الأربعة، وكلّ واحد منها يحمل برجاً فيه ستّة رجال يرتدون ملابس فارسيّة رائعة.

كان اثنان من هؤلاء الرجال مسلّحين بأقواس ومزنّرين بكنانة تحوي أربعة وعشرين سهماً، والاثنان الآخران مسلّحينَ بحراب صيد مُذهبّة الأسنان، مجاراةً لعادة البذخ الطارئة على الألعاب. وقد استزاد قيصر من ذلك البذخ حين سلّح المصارعين ومصارعي الوحوش بحراب صيد من الفضّة الخالصة.

أمّا الاثنان الباقيان فكانا يحملان رمحاً وحربتَين. وكانت الحربتان مشدودتين إلى البرج.

حين شاهدت النمور والفهود هذه الكتل الجبارة، انزوت وكأنّها تسعى إلى الاختفاء عن نظر هؤلاء الرجال وتلك الحيوانات. كانت هياكلها متسمّرة كلياً، غير أنّ عيونها كانت تقذف لهباً وأذيالها تمسح الرمل.

فجأة صدرت عن أحد الفهود صرخة ألم شديد وقفز. كان سهم قد اخترق حلقَه.

بتلك الإشارة، راح الرُماة يرمون الفهود والنمور بوابلٍ من سهامهم. عندها بدأ الصراع الحقيقيّ.

لحظ الفهود والنمور الجهة التي ينطلق منها الهجوم، فراحت تجابه الخطر بالوثوب على الفيلة، باعتبارها أنّها تشكّل، مع الأعداء الذين كانوا فوق ظهورها، كتلة واحدة متراصّة.

أصبح الدفاع في هذه الحال يعتمد على عنصرين: ذكاء الإنسان وقوّة

Twitter: @ketab_n

الحيوان.

في بادئ الأمر، كانت الفهود والنمور تنقضّ على الفيلة من أيّ جهة تأتّى لها. وراحت تخترق بمخالبها الأربعة وأسنانها جسد ذلك الجبّار، فإن وقعت في متناول خرطومه، فإنّه كان يغلّفها به وينزعها من جسده، ثمّ يلوّح بها في الهواء لحظةً قبل أن يقذف بها على الأرض.

فإن لم يمت الفهد على الفور، راح الفيل يطأ رأسه بقدمه ويسحقه.

وحدث أنّ أحد الفيلة قذف فهداً بعنف شديد، فسقط الفهد منه في وسط المتفرّجين. ولحسن الحظّ أنّه كان قد اختنق من شدّة انضغاطه في خرطوم الفيل.

فإن هاجم الفهود والنمود الفيلة من الخلف أو من الجانبين، راح الرجال المحتمون فوق الأبراج يمزّقون أجساد الحيوانات المهاجمة بوابل من السهام والرماح والحراب.

أُصيبت النمور والفهود بعضها عن قرب وبعضها الآخر من بعيد، غير أنّها استُؤصلت عن بكرتها من أوّلها إلى آخرها.

أُخليت الحلبة ممّن بقي منها على قيد الحياة، واختفت الجثث عن الأنظار بعد أن جرّتها الأحصنة إلى الخارج.

أثناء المعركة، كنّا نسمع صراخاً هائلا يتصادى مع صراخ الفيلة المتصارعة؛ ففهمنا مصدر ذلك الصراخ حين فُتح القفص الأوسط، وخرجت منه مجموعة من الفيلة.

راح المشاهدون يعدّونها بفرح، فوجدوها أنّ عددها عشرون فيلاً.

راح عشرون من المحكومين بالإعدام يتقدّمون، من الجهة المقابلة، بتروسهم المستديرة ورماحهم الطويلة. وبرز من ورائهم فريق من المصارعين الأفريقيّين على صهوات أحصنتهم مسلّحين بالحراب

Twitter: @ketab_n

والسهام.

موسيقى مرعبة سبقت دخول هؤلاء واستمرّت أثناءه، فلاحظنا ما أحدثه صخب الموسيقى الحربية من وقع على الفيلة.

أدركت الفيلة أنّ خطراً شديداً يتهدّدها وأنّ الرجال يتقدّمون صوبها ليهاجموها، فبدأت تحثّ بعضها البعض استعداداً للقتال.

من استعجل الموت من المحكومين بالإعدام، مشى رأساً باتّجاه الفيلة وأنشب رمحه في تلك الكتل اللحمية التي كانت تبدو مسمّرة في مكانها تحت وطأة ثقلها، بينما كان المصارعون الأفريقيّون يرمونها من بعيد بوابل من سهامهم.

أدركت الفيلة، من السهام التي أصابتها قبل أن تلمسها الرماح، أنّ أعداءها الحقيقيّين ليسوا من كانوا الأقرب إليها. فهرولت مندفعة بأسرع من خببِ أسرعِ حصان، واقتحمت خطّ المحكومين بالإعدام، فتطيح ببعضهم أرضاً وتسحق بعضهم الآخر؛ ثمّ راحت تطارد المصارعين الأفريقيّين محدثةً هديراً كهدير الصاعقة وارتجاجاً أرضيّاً كأنّه الزلزال.

أمطرها هؤلاء بدفعة أخرى من السهام ضاعفت من هيجانها. غير أنّ الأحصنة ارتعبت هولاً من أولئك الخصوم، وانتصبت على قوائمها صاهلةً من الرعب؛ ثمّ استدارت هاربة، غير عابئة بجهود الفرسان في ثنيها عن ذلك.

وبلمحة بصر، راح الفيلة والأحصنة والمصارعون الأفريقيّون والمحكومون بالإعدام يشكّلون معمعة رهيبة، ينقذف منها من لحظة إلى أخرى حصان بدون فارسه، وقد جُنّ من الهلع، ثمّ يذهب مزبداً يرتمي في الخندق أو يحطّم جبهته على أسوار الحلبة.

لم تكن الفيلة هذه المرّة ترفع بطرف خراطيمها النمور والفهود

Twitter: @ketab_n

وحدها وتلوّح بها بالهواء قبل أن تلقيها على الأرض تتحطّم، بل كانت ترفع الرجال والأحصنة أيضاً.

استحال علينا للحظة أن نميّز في تلك المعمعة الرهيبة التي تسودها، وكأنّها أمواج عاتية، تلك الكتل الجبّارة التي تحوّلت من الدفاع إلى الهجوم. ولكن، من وقت إلى آخر، كانت إحدى الكتل تتهاوى وتختفي تحت الغمر المتموّج، وكأنّها أمواج هادرة تعود إلى عرض البحر.

ورأينا أخيراً أحد الفيلة، وقد أصابه رمح في عينه، يزعق من الألم والهول زعقة تفسّرها سائر الكتل الحيّة لا على أنّها إشعار بالتقهقر بل علامة هلع. انسحبت ثمانٍ أو عشرٌ من تلك الكتل الحيّة من المعمعة وهربت قاصدةً جسر السِّركُس الذي دخلت منه، وهي تستند إلى السور وترفع خراطيمها في الهواء كما لو أنّها تستجدي الرحمة أو تستسلم لعدوّها.

لم تشهد ساحة معركة يوماً، ما عدا ربّما ساحة هيراكله، مشهداً يضارع مشهد السِّركُس في تلك اللحظة.

راحت الرجال والأحصنة تتحطّم وتنسحق، وقد انحفرت في جسمها جراح مرعبة. أمّا الفيلة الصريعة فكانت، وهي مشكوكة بالسهام والحراب، تضارع عدد الدبابيس المشكوكة في الكُبب التي تستعملها سيّدات روما للتبرّج.

من بقي من الرجال قادراً على حمل رمح أو تصويب سهم، تجمّع ومشى لمهاجمة تلك الحيوانات الضخمة، التي أُصيب بعضها بجروح مهلكة فراح يستند إلى السور لتجنّب السقوط.

عندئذ وقف، على بعد خمسين متراً منها، رماة راحوا يفرغون كناناتهم فيها دون أيّ تصويب. فتصرخ الفيلة إذّاك صرخة لها رنين مختلف عن

Twitter: @ketab_n

ذلك الإيقاع الرهيب الذي كانت تحثّ به بعضها البعض على القتال أثناء هجومها الأوّل؛ هي صرخة نواح وشكوى وتوسّل، صريحة المعنى، كما لو نطق بها لسان بشر. وأدهى ما في الأمر -إن شئنا الإمعان في وجه الشبه- أنّ بعض الفيلة التي خارت عزيمتها فلم تعد قادرة على الوقوف على قوائمها، راحت تركع أرضاً وكأنّها تتوسل من المتفرّجين بعض الشفقة.

علت الصرخات مطالبة بـ «الرحمة».

لعلّه كان من المتوقّع، كما يجري للمتصارعين بالسيوف، أن تُستشار الكاهنات ليحكمن في القضيّة. لكن سرعان ما اندفع أحد الفيلة خارج صفوف زملائه، ربّما من تكاثر جراحه، وانقضّ من جديد على المحكومين بالإعدام والأحصنة والمصارعين الأفريقيّين.

بلغ بسرعة البرق وسط الحلبة، وهو يسحق بقدميه ويطعن بأنيابه، خائرا خواراً هائلاً بمثابة ردّ على صرخات خصومه الداعية عليه بالموت؛ فبلغ الحنق من الرماة والمحكومين بالإعدام مبلغاً جعلهم ينقضّون على الفيلة، فاستسلمت للذبح كما لو أنّها تخلّت عن حقّها بالدفاع عن نفسها بعد أن استسلمت لعدوّها.

انتهى النهار بهذه المقتلة، بهذه المذبحة، بهذه المجزرة. بقي مصروعاً على التراب خمسة وعشرون رجلاً وأربعون حصاناً. ولم يسلم ولا واحد من الفيلة.

استمرّت الألعاب على مدى يومين آخرين.

فقُتل من المجرمين والجنود ومصارعي الوحوش مائة وعشرة رجال. أمّا من الحيوانات، فقد كان عدد الصرعى: خمسين أيّلاً أو ظبياً، ستّين فهداً أو نمراً، أربعة من وحيدات القرن، ثلاثين فيلاً ومائتين وخمسين

Twitter: @ketab_n

أسداً من ذوات اللُّبد.

قد يعتقد بعضهم أنّ الألعاب بلغت ذروتها بذلك العدد من الهالكين؛ إلّا أنّ قيصر، حين عُيّن حاكماً مطلق الصلاحيّات، أقام حفلات قنص شارك فيها أربعمائة أسد. وقد أكّد لي الإمبراطور منذ أيّام، حين كنت أحدّثه عن ذكرياتي، أنّه سلّم للموت أثناء حياته، في مختلف سركُسات روما وغيرها من حلبات اللّعب التي أمر بإقامتها، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة حيوان، منها ألف أسدٍ بأقلّ تقدير.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

توجّهي في الدراسة - إعجابي بهوميرُس - أتابع دروس سِرونُس - أتعرّف على ڤاريوس وڤِرجيليوس - انتشار اللَغة في إيطاليا - يوم جبّة الرجولة - شهرة قيصر الواسعة - لماذا هاجمتُ كاتون - غرابة كاتون، عاداته، طريقته في السفر، جنازة أخيه - يُغربل رماده لئلّا يضيع منه ذهب القماش - كاتون أثناء مؤامرة كَتلِينا.

بلغت آنذاك الرابعة عشر من عمري، وبفضل ميلي الطبيعي إلى الشعراء اليونان أكثر ممّا إلى سوط أُربيليوس وعصاه، بدأت أتحصّل على معرفة شبه كاملة بالأدب اليوناني.

قلت في رسالتي إلى أغسطس إنّ أقدم كتّاب اليونان كانوا أيضاً أفضلهم؛ وكان ذلك رأي كلّ من افتتح مثلي دروسه بقراءة هوميرُس. كان هوميرُس أكبر شاعر عندي، ولذا كتبت من پرينِستا إلى لُلّيوس، بعد عشرين سنة من مغادرتي المدرسة:

«عزيزي لُلّيوس، بينما أنتم تتدرّبون على الفصاحة في روما،
كنت وأنا في پرينِستا أعيد قراءة من تغنّى بحربِ طروادة.»

Twitter: @ketab_n

غير أنّ إعجابي بأبي الشعراء لم يكن حصريّاً، إذ أنّي درست مِننَدروس، طليعة الملهاة اليونانية الحديثة[1]، ومعه أوبُلس، كرَتينُس وأرِستُفانيس، وكذلك الشعراء الغنائيّين الذي حاول كَتُلُّس أن يقلّدهم أحياناً، أي: ألسِيوس، سافو، ستِزيكور وأنكرِيون. وإلى ذلك كنت أتابع لوحدي دروس فيلسوف إپّيقوري يدعى سيرونُس؛ وعنده تعرّفت على فتَيَين أصبحا، حين صارا في سنّ الرجولة، صديقَي عمري: لوكيوس ڤاريوس وڤرجيليوس مارو.

لم يحفلا بي في بداية الأمر، فقد كنت صبيّاً بالنسبة إليهما، على وشك أن أبلغ سنتي الخامسة عشرة، بينما كان لوكيوس ڤاريوس، وهو في الثانية والعشرين، مشهوراً بمقاطع من تراجيديّته تِيست؛ وكان وڤرجيليوس، وهو في الحادية والعشرين، قد نظم بعض القصائد الخفيفة.

ارتبطا بصداقة دامت مدى الحياة.

كان كَتُلُّس، وقد أصبح إذّاك شيخاً، يحبّ ڤاريوس ويمتدحه.

كان سِرونُس يلقي محاضراته باليونانية، بما أنّها أصبحت في تلك الأيّام اللغة الأنيقة في روما، وشاع استعمالها في سائر أنحاء الشرق؛ ولم يكن لشبيبتنا ما يربطها ببرابرة الغرب سوى الحرب. أمر واحد يجعلك تدرك بأيّة سرعة شاع تذوّق هذه اللغة لدى الرومان بحيث أصبحت اللغة العالمية. قبل عشرين سنة، طرد دوميسيوس إنوبَربُس ولوكيوس لوسينيوس، رقيبا المدينة، النحويّين والفلاسفة اليونان من روما، لزعمهما أنّهم يفسدون الشبيبة بفنّي الفصاحة والحِجاج المشؤومين. أتى إلى روما آنذاك ميلو الرودوسيّ الشهير، الذي درس عليه قيصر، ليطالب باسم مواطنيه باسترداد الأموال التي سلّفوها عند شنّ الحرب على مِترِداتِس.

(1) «فليُقل للوكيوس إنّ الجبة تليق بمِننَدروس».

Twitter: @ketab_n

والواقع أنّ هذا الخطيب لم يكن يفقه كلمة واحدة من اللاتينيّة. فما فعل مجلس الشيوخ حين أتى يرافع أمامهم؟

أذن له المجلس بأن يُرافع باليونانية ورضي الجميع كامل الرضى.

تلك هي الفائدة التي جنيناها من تشدّد دوميسيوس إنوبَرْبُس ولوكيوس لوسينيوس.

وفيما كنت أدرس على يدي سيرونُس، حان وقت ارتدائي ثوب الرجولة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث (تابع)

لا يُحتفل بثوب الرجولة أو بالأحرى بجبّة الرجولة إلّا مرّة في السنة، في السادس عشر من فاتح أبريل[1]. في هذا اليوم يقوم الصبيّ البالغ سنّ الرجولة بنزع 'الكرة'[2] من عنقه ليعلّقها في رقبة الإله لارس، الإله حامي المنزل العائليّ[3]، ثمّ ينزع ثوبه المطرّز بالأرجوان الشبيه بثوب أعضاء مجلس الشيوخ – وهو امتياز يحقّ للصبيان، تأكيداً على أنّ الطفولة تستوجب احتراماً لا يقلّ عن احترام أكبر سلطة في المدينة.

يقدّم جبّةَ الرجولة للصبيّ أبوه أو أحد أقربائه بتوكيل من أبيه، كما في العائلات التي يحتلّ أربابها مناصب رفيعة في الدولة.

لم يكن لدينا أقارب، بل بضعة أصدقاء. فدعا والدي أُربيليوس وبعض رفاق المدرسة ممّن كانت تربطني بهم علاقة خاصّة؛ ودعوت أنا شخصيّاً ڤاريوس وڤرجيليوس، فقبلا دعوتي، ورحت أتأهّب لذلك الاحتفال الكبير.

منذ عشيّة اليوم ارتديت ثوباً كامل البياض، يدعى 'ريجِلا'، ثوباً

(1) الموافق ليوم 17 أبريل.

(2) كان صبيان روما الأحرار يعلّقون في عنقهم كرة حتّى بلوغهم الخامسة عشرة، أي سنّ الرجولة (المترجم).

(3) هذا الإله Lar، من الإترووريّة لارس Lars، يحمي المنزل العائليّ ويمثل أرواح الأجداد. يوضع تمثاله بقرب الموقد. وهناك أيضاً اللّارات، مجموعة إلهات حاميات للمنزل (المترجم).

Twitter: @ketab_n

خفيفاً بلون الزعفران مصنوعاً من خيوط معقودة؛ ورقدت بهندامي هذا من باب التفاؤل.

في الساعة الثالثة صباحاً، اجتمع المدعوّون جميعهم عند والدي، وتناولنا وجبة خفيفة بانتظار الغداء المُعدّ لحين عودتنا من الكَپِتوليوم.

تتلوّن روما في ذلك اليوم، الموافق لعيد الـ 'ليبِريال'، أي عيد باخوس، بلون خاصّ. ففي كلّ خطوة تخطوها في الشارع وفي الساحات وفي زوايا مفارق الطرق، تجد عجائز جالسات أمام بيوتهنّ متوّجات باللبلاب، وأمامهنّ مساخن لصنع حلويات يفرشن عليها العسل الأبيض؛ يبعن حلوياتهنّ للمارّة وهن ينادين على بضاعتهن ليستجلبن عليها حماية الإله باخوس.

وكلّ عائلة تمرّ أثناء الطواف من أمامهنّ تشتري من تلك الحلويات المعسّلة، فتأكل بعضها وتقدّم المتبقّي منها للإله.

تسمّى الجبّة جبّة الرجولة والجبّة الحرّة. ما هو مصدر هذا اللقب؟ أمن الحرية التي تمنح لمن يرتديها؟ أم من اللقب الذي يطلق على باخوس باخوس الحرّ؟

انتهينا من تناول وجبتنا الخفيفة وانطلقنا. كنت أتقدّم المجموعة، والدي على يميني، وأُربيليوس إلى يساري، وڤِرجيليوس وڤاريوس وراءنا مباشرة، يحيط بهما أو يسير خلفهما باقي أصدقاء والدي ورفاقي.

صعدنا إلى الكَپِتوليوم حيث نُزع عنّي ردائي ولبست الجبّة النقيّة.

وبينما أنا أبدّل هندامي، راحوا يقدّمون للآلهة الذبائح وأناشيد الشكر.

انتهت الحفلة، فنزلنا إلى الفوروم، حيث كان جمهور كبير من الشعب في انتظارنا. يعني هذا الاحتفال أنّ الصبيّ ما إن يرتدي الجبّة حتّى يصبح عضواً من أعضاء المدينة العظمى.

Twitter: @ketab_n

وانقضى ما تبقّى من النهار ونحن نتسلّى بأمور شتّى، من أفضلها وجبات الطعام. وقد نظم ڤِرجيليوس بعض الأبيات احتفاءاً بهذا النهار العظيم.

كان هو نفسه قد ارتدى جبّة الرجولة في مدينة مَنتوا قبل ستّ سنوات، حوالى عام 700 لتأسيس روما، وهو العام الذي تمّ فيه تجديد حكومة الثلاثة لكرَسُّس وپُمپِيوس وقيصر في لُكّس.

وبعده بسنة واحدة، ارتدى ڤاريوس الجبّة ذاتها.

يقسّم الرومان عمر الإنسان إلى خمسة أعمار: الصبا الذي ينتهي في الخامسة عشر، والمراهقة التي تنتهي في الثلاثين، والشباب الذي ينتهي في الخامسة والأربعين، والنضج الذي ينتهي في الستّين، ثمّ الشيخوخة التي تنتهي بانقضاء الحياة.

إذا كانت السنة التي ارتدى فيها ڤرجيليوس جُبّة الرجولة قد امتازت بحدث عظيم، فإنّ السنة التي تمّ فيها الاحتفال بي كانت تنبئ بأحداث ليست بأقلّ أهميّة.

سبق لي أن ذكرت كيف فقدت حكومة الثلاثة أحد أعضائها، كْرَسُّس.

وقلت سابقاً كيف أُقيم، أثناء الألعاب التي أمر بها پُمپِيوس، استقبال رائع لجوليا، لا بوصفها زوجة پُمپِيوس، بل لأنّها ابنة قيصر.

كما أنّي ذكرت كذلك كيف أنّ قيصر، بالرغم من غيابه، كان له حضور في روما أكثر من پُمپِيوس الحاضر جسديّاً.

هناك رجل كان القلق ينتابه بشكل خاصّ من جرّاء شهرة قيصر. هذا الرجل هو كاتون.

أخذوا عليّ في حياتي، وسيأخذون عليّ ولا بدّ بعد موتي، ما قلته في

Twitter: @ketab_n

نشيدي الموجّه إلى أزينيوس پُلّيون[1].

لن أتذرّع بضرورة شعرية فرضت عليّ صفة وحشيّ. بل أصرّح بكلّ بساطة بأنّي أحببت بروتُس وأعجبت به؛ إلّا أنّي أعجبت بكاتون دون أن أقوى يوماً على محبّته.

ذلك أنّ الحبّ عندي يتولّد من الحبّ؛ وبرأيي أنّ كاتون لم يحبّ يوماً شيئاً، ولا حتّى الجمهوريّة نفسها، ولم يحبب يوماً شخصاً حتّى أخاه بالذات.

بالمقابل كان قلب بروتُس هوّة لا قعر لها من الحنان.

لعلّه كان لكاتون من الفضيلة أكثر ممّا ينبغي لعصرنا، كما كان لأرِستيديس من العدل أكثر ممّا ينبغي لعصره. فإن صحّ هذا، فإنّي أقرّ بكلّ تواضع أنّه لم يكن لديّ من الفضيلة ما يكفي لأدرك قيمة كاتون.

دعوني أذكر كيف بدا لي هذا الإنسان الرواقيّ.

لم يكن كاتون يتصرّف في أيّ أمر كما يتصرّف الآخرون.

يخرج الناس عادةً، في روما، بأحذيتهم وأرديتهم.

وكان كاتون يخرج بدون حذاء ولا رداء.

وكان الفاقع من الأرجوانيّ هو الدارج إذّاك. ولا يكون الأرجوان أرجواناً إلّا هكذا.

أمّا كاتون فكان يرتدي الأرجوانيّ القمحيّ اللون، وكأنّه يسعى إلى أن يتعرّف الناس عليه، حين يرونه من الأمام أو الخلف، من قريب أو من بعيد، ويصرخون: «إنّه كاتون!».

صحيح أنّه حين كان الجميع يُقرضون بفائدة قانونية، أي اثني عشر بالمائة (أستثني منهم بالطبع من يقرض بفائدة مائة بالمائة)، كان هو، على

---

(1) «أرى الكون برمّته خانعاً باستثناء روح كاتون الوحشيّة».

Twitter: @ketab_n

بخله المدقع، يقرض بدون فائدة؛ وأنّه حين لم يكن لديه مال، كان يخدم الصديق وحتّى الغريب بمنحه أرضه أو بيته ليرهنه لدى الخزينة.

نشبت حرب العبيد، وكان سِپيون، أخو كاتون - وهو الإنسان الوحيد الذي أحبّه كاتون إن كان لكاتون أن يحبّ - أقول كان سِپيون، أخو كاتون، يقود فرقة من ألف جنديّ تحت إمرة جِلّيوس.

فتطوّع كاتون باعتباره جندياً بسيطاً والتحق بأخيه.

وقد أبلى في القتال بحيث أنّ جِلّيوس طلب أن يُمنح أوسمة الشرف العسكريّة.

غير أنّ كاتون رفض ذلك قائلاً إنّه لم يقم بما يستحقّ مثل هذا التكريم. فكان أنّ الآخرين، بسبب رفض كاتون تلقّي أوسمته، لم يجرؤوا على القبول بها.

كلّنا نعلم مدى الخدمات التي يقدّمها القائمون على التعيينات للمرشّحين المتقدّمين لمنصب ما، والوجهاء للمترشّحين للانتخابات.

يدعى هؤلاء الناس نومِنكلاتور[1].

والحال أنّه صدر قانون يحظر على المترشّحين أن يلجأوا إلى نومِنكلاتور. فلم يعد معنى للترشّح. فمن يستطيع أن يتبيّن مائة ألف مواطن روماني من هيآتهم أو أسمائهم أو سِيَرهم، ليحادثهم ويتملّقهم على مدى الأيّام الخمسة أو الستّة التي تسبق الانتخابات؟

ترشّح كاتون لمنصب المدافع عن الجند.

وكانت النتيجة أنّ كاتون وحده عفّر بالتراب منافسيه كافّةً، بتقيّده كليّاً بالقانون الجديد.

ومن كان له ما لكاتون من ذاكرة؟ وعلى كلّ حال، الذاكرة موهبة

(1) بالفرنسية nomenclateurs (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من لدن الآلهة ليس لأحد أن يعتزّ بها، كما ليس لأحد أن يعتزّ بجماله أمام قبيح الشكل، ولا بكماله الجسمانيّ أمام الأحدب أو الأعرج.

كان لكاتون عرقوب بطلٍ رياضيّ. ففي طفولته كان يكتسح جوائز السباقات كافّةً. وفي رجولته لم يسافر يوماً إلّا ماشياً، حتّى في أسفاره الرسميّة بصفته مسؤولاً أو على حساب الدولة.

كان أصدقاؤه وخدمه وكلّ من يرافقه لغرض من الأغراض يمتطون أحصنة، وكان هو يتبعهم أيّاً كانت سرعة مطياهم، مكتفياً بإسناد يده إلى حارك حصان الشخص الذي يتكلّم معه.

كان ذلك يعطي البرابرة فكرة غريبة عن عظمة الشعب الروماني: يرون كاتون ممثّل هذا الشعب يتجوّل في بلادهم، كما يتجوّل أي عامل حدّاد أو مساعد بنّاء يبحث عن عمل.

وإليكم الطريقة التي كان يلجأ إليها في تجواله.

يبعث منذ الصباح بطبّاخه وخبّازه على الخيل إلى مكان استراحته المسائية. فإن كان له في المدينة أو القرية صديق أو معارف، آثر أن يذهب إليه لئلّا يزعج المسؤولين؛ بل كان يؤثر، في حالٍ ما إذا لم يكن له هناك صديق أو معارف، أن يذهب إلى الفندق.

في بعض الأماكن، لم يكن لكاتون لا صديق ولا معارف ولا فندق يلجأ إليه. فيتعيّن عليه أن يذهب عند المسؤولين، بما أنّهم ملزمون باستقباله، مقابل 'بطاقات سكن'.

واتّفق غالباً أنّ المسؤولين لم يصدّقوا الرسل الذين أوفدهم كاتون ليعلنوا عن قدومه، فعاملوهم باحتقار بسبب تأدّبهم في الحديث، بما أنّ كاتون يحظر عليهم اللجوء إلى الصراخ أو التهديد.

في تلك الحال، كان رسل كاتون ينسحبون دون أيّ اعتراض.

Twitter: @ketab_n

كان عدم إصرارهم وانسحابهم على هذا النحو يؤدّيان إلى أنّ كاتون لم يكن، حين وصوله، يجد الأمور جاهزة. في هذه الحالات، كان يتوقّف عند مدخل المدينة حيث ينتظره رسله، ويجلس على أمتعته قائلاً لهم:

- أرسلوا من يحضر المسؤولين أمامي.

غالباً ما كان المسؤولون يرفضون المجيء، غير مصدّقين أنّ مشرفاً على العدالة أو حاكم إقليم يمكن أن يعاملهم بهذه الدماثة. حينئذ كان يذهب هو بنفسه إليهم ويعرّفهم بشخصه.

عندما يتأكّد المسؤولون أنّهم أمام كاتون، يأخذون يعتذرون ويلحّون في الاعتذار. فيكتفي بأن يردّ عليهم بقوله:

- يا لكم من بؤساء! تخلّوا عن هذه الأساليب القاسية في معاملة الأجانب، لأنّ كاتون لن يكون دائماً من يتوجّب عليكم استقباله. حاولوا إذن أن تخفّفوا، بلباقتكم، من حدّة سلطة الذين يسعون إلى تجريدكم بالقوّة ممّا لم تجودوا به عليهم بخاطركم.

ومرّة لم تكن الوحيدة، رأى كاتون بنفسه، من خلال المعاملة التي يلقاها رجل بسيط من المُعتَقين، كم كان سلوكه هو غريباً على عادات زمنه.

كان كاتون يدخل سوريا ماشياً كعادته وسط أصدقائه وخدمه، حين لقي في ضواحي أنطاكية جمهوراً واقفاً في صفّين على جانبي الطريق: من جانبٍ، صبيان يرتدون أزهى الثياب، ومن الجانب الآخر شبّان يرتدون جبّاتٍ طويلة. وكان على رأسهم رجال في ثياب بيضاء يعتمرون التيجان.

خمّن كاتون أنّ أحدهم أفشى نبأ وصوله للمسؤولين والأهالي في أنطاكية، فأعدّوا له هذا الاستقبال.

قبل بما أزمعوا عليه من تكريم، معزّياً نفسه بأنّه لم يحرّض أحداً على

Twitter: @ketab_n

القيام به، وتقدّم نحو المجموعة.

فتقدّم منه رجل في يده قضيب وعلى رأسه تاج وتوجّه إليه بهذا القول:

- يا هذا! ألم تلتقِ في طريقك بالمحترم الذائع الصيت ديميتريوس؟ وهل تستطيع أن تقول لنا إن كان قريباً من هنا أم لا يزال بعيداً؟

كان كاتون يجهل تمام الجهل من هو ذلك المحترم الذائع الصيت ديميتريوس؛ فاعترف بجهله.

عندئذ صرخ الرجل صاحب القضيب وهو في منتهى الدهشة:

- المحترم ديميتريوس! المحترم ديميتريوس! إنّه مُعتَق پُمپِيوس العظيم.

فطأطأ كاتون رأسه وتابع طريقه.

إلى مثل تلك الإهانات كان كاتون يعرّض جلالة روما، من خلال ممثّلها، حين يتظاهر بذلك التواضع.

يعرف الجميع كيف عبّر كاتون عن ألمه على الملأ، لمّا فقد أخاه سِپيون. كان في تسالونيكا حين عرف بمرض أخيه. فلم يعبأ بالعاصفة المرعبة الهائجة في عرض البحر، بل ارتمى في زورق صغير؛ واستطاع، بفضل حسن طالعه الشبيه بطالع قيصر، أن يبلغ إينُس لحظة وفاة أخيه، مع أنّ زورقه كان فريسة للأقدار فأشرف على الغرق عشرين مرّة.

ولنُقرّ لكاتون بأنّ الرواقيّ فيه اختفى ليفسح المجال للأخ.

بالرغم من بخله الشديد، صرف الأموال في جنازة أخيه، وكأنّ رفاته ليس رفات مجرّد ممثّل بسيط للجمهورية بل رفات ملك من ملوك آسيا. أشعل المحرقة بأبدع الأقمشة المطرّزة بالذهب، وأقام له في ساحة إينُس نصباً من رخام پاروس كلّفه ثماني وزنات من ذهب.

كيف لرجل بسيط في حياته الشخصيّة أن يثير مثل هذا الصخب لمأتم

Twitter: @ketab_n

أخٍ لم يحتلّ أيّ منصب رفيع في الدولة، ويصرف مثل تلك الأموال؟

صحيح أنّ قيصر زعم في كتابه في نقد كاتون أنّ هذا غربل رماد رفات أخيه ليسترجع ذهب الأقمشة الثمينة المُذاب في النار.

وحين عُيّن مديراً للشؤون الماليّة، لاحق المرتشين بضراوة لا مثيل لها بحيث أنّ أنزه المواطنين اعتبر أنّه يغالي في تزمّته.

بهذه الطريقة، أعاد لخزينة الدولة ما يحقّ لها من الأموال واستطاع أن يفي بكامل دَين الجمهورية؛ ممّا آذى كلّ الذين كانوا يعتاشون من هذه التجاوزات، التي شاعت إلى درجة أنّ الناس صاروا يعتبرونها ضرورية. فأثار لنفسه أعداء كثيرين.

تجرّأ على أكثر من ذلك؛ تجرّأ على مهاجمة ذابحي سِلّا، وذلك بعد أن نجوا من العقاب مدّة خمس عشرة سنة أو يزيد.

كان الناس قد نسوا كلّ شيء، حتّى مصدر ثروة مثل هؤلاء القوم، وقد عادوا من جديدٍ مواطنين شأنهم شأن سائر المواطنين. لم تعد أسماؤهم تُهمس همساً، ولا أحد يشير إليهم بالبنان: فإن لم يلقَوا التكريم، فإنّهم، أقلّه، يعيشون مطمئنّين.

لكنّ كاتون جرّهم الواحد تلو الآخر أمام المحاكم، وكما يُجبر العلق على تقيّؤ الدم الذي مصّه، جعلهم يتقيّؤون ذهب العار الذي جمّعوه من مجارير الحرب الأهليّة.

كلّ ما فعله صدر عن فضيلة، سوى أنّها من تلك الفضائل الخشنة المتسرّعة التي لا تروق لأحد في روما.

والنتيجة أنّ الناس كانوا يقدّروه كاتون تقديراً عظيماً، دون أن يحبّوه.

بسبب حرصه الشديد بل القلِق على المصلحة العامّة، كان كاتون – كما ذكرنا– ينظر بريبة إلى اتّساع شهرة قيصر، وخاصّة إلى ازدياد شعبيّته.

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، لم يكن بغضه قيصر حديث العهد، بل يرقى إلى مؤامرة كَتِلينا. وكان قيصر، كما نعلم، ضالعاً فيها.

كما ضلع فيها جميع الأنيقين، وجميع الخلعاء، وجميع الأشراف الذين افتقروا، جميع الأنيقين ذوي الأردية الأرجوانية، جميع المقامرين، جميع السكارى، وجميع من أهلكتهم الديون.

كما ضلع بها أيضاً الشعب المتضوّر من الجوع.

ولذا لم تكن كلمة مؤامرة هي الكلمة المناسبة: لم تكن مؤامرة، بل حرباً.

إنّها حرب الفقير ضدّ الغنيّ؛ ألم يقل عنها الإمبراطور أغسطس إنّها حرب اجتماعية؟

وقف ضدّ كَتِلينا والضالعين معه المتملّكون والمرابون والمضاربون والمصرفيّون والفرسان، أي كلّ المتموّلين.

رفعوا شيشرون، ذلك الوجه الجديد وهو ابن قصّارٍ أو حسب بعضهم ابن مزارع، إلى مرتبة قنصل، ولكن بشرط اشترطوه.

والشرط: أن يسحق شيشرون كَتِلينا.

ومنذ أوّل خطاب لشيشرون في مجلس الشيوخ، أدرك كَتِلينا ما ينتظره.

اصطفّ مجلس الشيوخ بأكمله مع شيشرون، فصرخ كَتِلينا:

- عجباً! إنّكم تشعلون في وجهي حريقاً. فليكن! سأخمده بالدم وتحت الأنقاض!

راح شيشرون منذ اليوم التالي يندّد بكَتلينا. كان ذلك المحامي يتقن فنّ معالجة القضايا الجنائيّة.

«أنقاض ودم، لقد اعترف كَتِلينا بكلّ شيء.

سَنتُلُس، شريكه في المؤامرة، مزمع أن يحرق روما؛

Twitter: @ketab_n

سِتيـگُس، شريكه في المؤامرة، مزمع أن يذبح أعضاء مجلس الشيوخ؛ وهناك من لن نذكر اسمه مزمع أن يضع مصارعيه تحت تصرف المتآمرين؛

إنّهم متأهّبون، لا ينتظرون سوى إشارة الانطلاق»

ذلك الشخص الذي لم يذكر اسمه هو قيصر نفسه.

ارتقى كاتون المنبر بدوره.

كاتون، إنّه الإنسان الإيجابيّ.

يدرك أنّ زمن المناشدة بالتقيّد بالمواطنة قد انقضى: فلو ناشدهم بآلهة أجدادهم الأوّلين، وقد أصبحوا نسياً منسيّاً في أيّامنا، لهزئوا به.

أجل، من هذا المنظور، كان كاتون ابن عصره.

وإليكم ما قاله كاتون:

- أناشدكم، باسم الآلهة الخالدة، أنتم الذين، منذ كنتم، تثمّنون بيوتكم وتماثيلكم وأراضيكم ولوحاتكم أكثر ممّا تثمّنون الجمهوريّة. إن شئتم أن تحافظوا على ممتلكاتكم، التي تحرصون عليها بحنان، أيّاً كانت؛ إن شئتم أن توفّروا لملذّاتكم الوقت اللازم، فعليكم أن تتنبّهوا من غفلتكم، أن تأخذوا المصلحة العامّة على عاتقكم!

أثار خطاب كاتون الترحيب لدى الأغنياء كافّة.

غير أنّ الشعب راح يهزّ رأسه ويتأهّب للالتحاق بكَتِلينا.

فماذا فعل كاتون؟ أمر بتوزيع القمح على الشعب بما يعادل ثمَنه ثمانية وعشرين مليون سِستِرس. لم يفعل ذلك باسمه الشخصيّ -لم يكن كاتون من يتوجّب انقاذه- بل باسم مجلس الشيوخ.

فانحاز الشعب إلى مجلس الشيوخ.

ما إن رأى كَتِلينا ذلك حتّى غادر روما.

Twitter: @ketab_n

عندها خسر كَتِلينا المعركة. فضاعف هرب كَتِلينا من شجاعة شيشرون.

فدفع إلى المقدّمة أحد رجاله، سيلانُس.

وجّه سيلانُس الاتّهام إلى كَتِلينا، وإلى المتواطئين معه، وارتأى أن يُنزل بهم أقسى عقاب ممكن.

غير أنّ قيصر استلم الحديث وألقى خطاباً بغاية المهارة حول ضرورة الأخذ بالرحمة. دبّ الرعب في قلب سيلانُس من جرّاء الشطط الذي وقع فيه، فاستدرك قائلاً إنّ 'أقسى عقاب ممكن' يقصده هو النفي، بما أنّه لا يجوز معاقبة مواطن روماني بالموت.

استنكر كاتون الضعف البادي في ذلك القول.

فوقف داحضاً كلام قيصر.

إثر خطاب كاتون، أمر شيشرون، بعد أن حظي بتأييد مجلس الشيوخ له بالإجماع، بخنق لَنتُلُس وسِتيـگس، متجاوزاً بذلك جميع القوانين.

أدرك قيصر بوضوح، حين عرف بمصرعهما، مدى الخطر الذي يتهدّده شخصيّاً. فنهض وقفز إلى الباب، وارتمى في الشارع واضعاً نفسه تحت حماية الشعب.

وقبل أن يصل إلى موقع الشعب، أوشك أن يقضي ذبحاً على يد الفرسان، أي على يد مناصري شيشرون.

غير أنّه لم يكن بوسع الشعب الذي احتمى به قيصر أن يحول دون اتّهامه.

ثلاثة أصوات ارتفعت ضدّه:

صوت مدير الشؤون الماليّة نُڤيوس نِـگرو، وصوت المدافع عن الشعب ڤِلّيوس، وصوت الشيخ كوريوس.

Twitter: @ketab_n

وكان كوريوس أوّل من أخبر عن المؤامرة، وذكر اسم قيصر بصفته من عداد المتآمرين.

ذهب كوريوس أبعد من ذلك، فاتّهم قيصر بالضلوع بالمؤامرة ليس فقط بأقواله بل بكتاباته أيضاً.

فأطلق قيصر الشعب عليهما، كما تطلِق سرباً من الوحوش الكاسرة.

فُسجن نُقيوس بحجة أنّه حكم على مسؤول أعلى منه رتبةً.

أمّا فِلّيوس فقد اقتحم الشعب بيته ونهبه، وحطّم أثاثه رامياً حطامه من النوافذ؛ وبالكاد نجا هو نفسه من المصير الذي صار إليه أثاث بيته.

عمّ الهيجان روما. فاقترح مِتِلُّس، بعد أن عُيّن لتوّه مدافعاً عن الشعب بهدف إخماد الاضطرابات، أن يُستدعى پُمپِيوس إلى روما ليتسلّم زمام الأمور.

وأيّد قيصر اقتراح مِتِلُّس، ليستميل إليه پُمپِيوس.

صرخ الشعب برمّته: «پُمپِيوس! پُمپِيوس!»

عارض كاتون تعيين قيصر حاكماً مطلق الصلاحيات، عارض على طريقته، أي بأسلوب فولاذيّ.

اتّفق مِتِلُّس مع قيصر، بقوله:

– مُر مصارعيك بدخول روما، وأنا آتي بعبيدي.

وكان لقيصر مقرّ في كاپو يقيم فيه مصارعيه تحت تصرّفه وبأجر مضمون. وحين شغل منصب ناظر المدينة دفع بستّمائة منهم إلى الحلبة.

وبما أنّ قيصر كان، بدافع من شعوره الإنسانيّ، يعالج مصارعيه حين يصابون بجراح كما يُعالَج الإنسان، كان مصارعوه يعبدونه كما لو كان إلهاً.

ولنذكّر، بكلمة عابرة، بأنّه كان لكلّ شريف من الشرفاء في ذلك

Twitter: @ketab_n

الزمن عدد من المصارعين المأجورين. غير أنّ مجلس الشيوخ، نظراً للمشاجرات الدموية التي يجرّ إليها هذا الترف باستمرار، أصدر قانوناً يمنع أيّ شخص كان من أن يحتفظ بأكثر من مائة وعشرين مصارعاً داخل روما.

لذا كان مصارعو قيصر الخمسمائة أو الستّمائة يقيمون في كاپو.

عشيّة اليوم الذي كان على مِتِلُّس وقيصر أن يقترحا فيه تعيين پُمپيوس حاكماً كامل الصلاحيّات، رقد كاتون في وقته المعتاد وغرق في نومه، بالرغم من إدراكه كلّ الإدراك الخطر المحدق به.

كان لا يزال غارقاً في نومه، حين جاء أحد زملائه في المحكمة، مِنوسيوس تيرمُس، ليوقظه في الصباح.

ذهبا معاً إلى الفوروم بدون سلاح، وفي طريقهما عبّآ دزينة من الأصحاب.

بدا الفوروم يومها بمشهده المخيف، أين منه مشهده يوم حُكم على ميلو! كان يعجّ بعبيد مسلّحين بالعصيّ وبمصارعين يحملون سيوف القتال.

شقّ كاتون الحشد وهو يقول لئلّا يشكّ أحد أنّه هو المتقدّم: «أفسحوا المجال لكاتون!». حين بلغ معبد كَستور وپُلّوكْس، حيث كان يجلس مِتِلُّس وقيصر في أعلى درجاته، صرخ بهما:

- يا للشجاعة والجبن حين يجتمعان! حشدتما ضدّ رجل عارٍ أعزل هذا العدد من المسلّحين والمتدرّعين. هيّا! أفسحا المكان!

ثمّ صعد الدرجات بمفرده، وهو يشقّ طريقه بين الناس، الذين تركوه يمرّ وحده، وجلس ما بين مِتِلُّس وقيصر.

لا شكّ أن مِتِلُّس وقيصر كانا على وشك الإيعاز إلى مصارعيهما

Twitter: @ketab_n

وعبيدهما بأن يخلّصوهما من كاتون؛ ولكنّ الأصوات ارتفعت من كلّ الأرجاء صارخةً:

- مرحى لك يا كاتون! لا تتزعزع، يا كاتون! نحن معك! اثبت في موقفك!

أشار مِتِلُّس وقيصر إلى كاتب المحكمة، فنهض كاتب المحكمة وباشر في قراءة القانون.

ما كاد ينتهي من قراءة أوّل سطر حتّى انتزع كاتون الورقة من يديه؛ فانتزعها مِتِلُّس بدوره من يدي كاتون؛ ومن شدّة عناده، عاد كاتون فانتزعها من يديه ومزّقها.

كان مِتِلُّس قد استظهرها بما أنّه هو الذي كتبها.

فأخذ يقرؤها أمام الشعب؛ غير أنّ مِنوسيوس تيرمُس تسلّل إلى أعلى درجات المعبد بعد أن مُنع من مرافقة كاتون، ووقف خلف مِتِلُّس.

ثمّ وضع يده على فمه ليمنعه من الكلام.

صرخ قيصر مستنكراً هذا الموقف العنيف. رفع العبيد عصيّهم واستلّ المصارعون سيوفهم.

ارتمى قيصر ومِتِلُّس إلى الوراء، ليتركا كاتون وحيداً وسط العبيد والمصارعين.

غير أنّ مورنا، الذي تبع مِنوسيوس تيرمُس، غطّى كاتون بجبّته، وأخذه بكلتا يديه وجرّه، بالرغم من مقاومته، إلى داخل الهيكل.

بعد أن تخلّص قيصر ومِتِلُّس من كاتون، راحا يعملان على استصدار القانون.

ولكن ما إن بدأ مِتِلُّس يلفظ أولى كلماته حتّى قوطع بصياح لم يقوَ أحد على إسكاته:

Twitter: @ketab_n

- فليسقط مِتِلُّس! فليسقط المدافع عن الشعب!

وها أصحاب كاتون يتجمّعون ويعيدون الكرّة.

في تلك الأثناء، كان كاتون، وهو مغتاظ لاهث، يتملّص من بين يدي مورِنا ويخرج من الهيكل ويجلس مجدّداً بين قيصر ومِتِلُّس.

في نفس اللحظة، رأينا الشيوخ ينزلون من الكَپيتول قادمين كتلةً واحدة لإغاثة كاتون.

أدرك قيصر عندئذ أنْ ليس في وسعه شيء، فاختفى عن الأنظار.

وكذلك فعل مِتِلُّس، إذ غادر روما والتحق بپُمپيوس في آسيا.

فاقترح مجلس الشيوخ عندها أن يوسَم مِتِلُّس بالعار.

رجل واحد عارض الاقتراح: هو كاتون؛ قال:

- لا، لا يجوز لكم أن تعاملوا رجلاً متميّزاً مثل مِتِلُّس بهذه المعاملة.

بفضل كاتون، لم يوسَم مِتِلُّس بالعار.

فكيف لك ألّا تحبّ رجلاً مثل كاتون، يتصرّف بعكس الناس كافّةً!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

قيصر في أقاصي بلاد غاليا - ما يفعله هناك - المعجزات التي حقّقها قيصر - ما يقال عنه - حصار أليزيا - ڤِرسِنجيتُرِكس - وفاة جوليا- پُمپِيوس يطمع بمنصب حاكم مطلق الصلاحيّات - معارضة كاتون له - پُمپِيوس عاشقاً - پُمپِيوس يُعيَّن قنصلاً أوحد ويحقّ له الاستعانة بمجلس - شيشرون يرث منصباً في مجلس القيّمين على تأويل النُّذُر[1] - تعيين شيشرون قائداً ظافراً - الثلاثة الذين كانوا في وجه قيصر.

مهما يكن من أمر، لا بدّ من التنويه بأنّ قلق كاتون من اتّساع شهرة قيصر لم يأتِ اعتباطاً.

لا جدال في أنّ قيصر، وهو في أقاصي بلاد غاليا، كان يُصوّب نظره على إيطاليا.

إذ أنّه يتمتّع بتلك الصفة الفريدة في نظر الطموحين: يحسن الانتظار.

في ما سبق، ترقّب أن يتعب الناس من شيشرون؛ وترقّب أن يتعب الناس من كلوديوس؛ فراح الآن يترقّب أن يتعب الناس من پُمپِيوس.

(1) كان الرومان، شأنهم شأن شعوب أُخرى، كثيري الاكتراث بالتنبُّؤات وأمارات الفأل (أو الفؤول) وعلامات الطالع. وهي تكون، كما هو معروف، بشائر خيرٍ أو نُذُر شرّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

كان قيصر يعيش تلك الفترة من السعادة حيث كلّ ما يؤول ببعضهم إلى الفشل فيُخرجهم من المسرح، يفضي إلى نجاح آخرين فيظهرون على المسرح.

رأينا سابقاً كيف عوقب كْرَسُّس لمهاجمته البَرثيّين وهم في حالة سلم مع روما.

كان في الطرف الآخر من العالم أمّة لا تقلّ عن البَرثيّين إثارةً للهلع، سبق لها أن عاملت ڤاريوس وفيالقه كما عامل البَرثيّون كْرَسُّس وفيالق الجمهورية: هم الجرمان.

والحال أنّه بعد انتشار نبأ هزيمة كْرَسُّس وموته بردهة من الزمن في روما، بلغها نبأ هجوم قيصر على الجرمان، وكانوا على سلم مع روما كما هاجم كْرَسُّس البَرثيّين. الفرق هو أنّ كْرَسُّس انهزم أمام البَرثيّين مُخلّفاً ثلاثين ألف رجل على أرض المعركة، بينما انتصر قيصر على الجرمان وقتل منهم ثلاثمائة ألف رجل، في معارك مختلفة.

حين ذاع نبأ ذلك الانتصار، الذي عوّض هزيمة كْرَسُّس وزاد، أطلق الشعب تهاليل الفرح وطالب أن تُقدّم للآلهة مراسيم الشكر.

غير أنّ كاتون، كما أشرنا، لم يكن يرى إلى شيء كما يرى الآخرون، ولا يفعل أمراً كما يفعل الآخرون. فطالب بتوقيف قيصر وتسليمه للجرمان لأنّه هاجم شعباً في حالة سلم مع روما؛ على أن يُدَع الجرمان يفعلون بقيصر، حين يُسلّم إليهم، ما يحلو لهم.

رُفض اقتراح كاتون، وأدرك قيصر، وهو في أقاصي بلاد غاليا، مدى النوايا الحسنة التي يضمرها له كاتون.

لنرَ الآن ما الذي يبرّر حماس الشعب لقيصر. ماذا كان قيصر يفعل، فيما شيشرون يذهب في خطبه شططاً، وكلوديوس يستثير الثورات،

Twitter: @ketab_n

وأنيّوس ميلو يغتال، وبُمبِيوس يعيد الاستقرار ويعشق ويقيم الألعاب ويفقد زوجته، وكْرَسُّس ينهزم ويُقتل ويُقطع رأسه ...؟

منذ تسع سنوات لم يرجع إلى روما.

أثناء تلك السنوات التسع، انتقل من سنّ التاسعة والثلاثين إلى سنّ الثامنة والأربعين، من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج وفق المعايير الرومانية، من سنّ الحماقات إلى سنّ الطموح.

أثناء تلك السنوات، أنجز المعجزات.

أخذ عنوة ثمانمائة مدينة، وأخضع ثلاثمائة من مختلف الأمم، وقاتل ثلاثة ملايين من الأعداء فقتل منهم مليوناً وأسر مليوناً وأجبر مليوناً على الفرار.

حقّق ذلك كلّه بخمسين ألف رجل.

ويا له من جيش! جيش كوّنه بيده، عجنه بيده، نظّمه بيده حتّى في تفاصيله الزهيدة. جيش يعبث بالآخرين عبث الفيل، يثب وثبة الأسد، ينساب انسياب الأفعى، وذلك بمجرّد أمر، بمجرّد كلمة، بمجرّد إشارة من قيصر.

لم يكن قيصر مجرّد قائد لهذا الجيش، أو مجرّد سيّد هذا الجيش، بل كان أبا هذا الجيش.

كان قيصر شديد الحزم في أمرين: العصيان والخيانة؛ أمّا في ما عداهما من أمور فكان متسامحاً. في الجيوش الأخرى، الخوف يقتضي العقاب، الجنود الذين استسلموا للخوف يُعاقبون.

قيصر يقول: «الفيلق الفلانيّ فرّ من المعركة اليوم، فلا بدّ أن يتصرّف بشجاعة في يوم آخر، فأشدّ الرجال قوّة تدركهم فترات ضعف».

أمّا بعد النصر، فكلّ شيء محلّل، كلّ شيء موهوب، كلّ شيء مبذول

Twitter: @ketab_n

لجنود قيصر.

يأذن لهم بالراحة، بالرفاهية وبالمتعة؛ يعطيهم أسلحة من ذهب وفضّة؛ يقدّم لهم العطور والعبيد.

«جنود قيصر قادرون على الانتصار، حتّى وهم مُعطّرون»، - يردّد قيصر.

سوى أنّ هذا الجيش ملزم بأن يكون دائماً في حالة الأهبة، أن يهبّ من عمق نومه، أن يبادر إلى المسير وهو في عزّ راحته، أن يذهب إلى حيث لا يدري، أن يتوقّف دون أن يقلق لموقعه، أن يقاتل دون أن يدري ضدّ من يقاتل.

بدون أيّ سبب يستدعي التوقّف، كان قيصر يتوقّف؛ بدون أيّ سبب يستدعي الانطلاق، كان قيصر ينطلق. الأسباب كلّها في قلب قيصر. ليس لقيصر أن يُسأل أمام أحد، حتّى عن حياة من ينتزع حياتهم.

على حين غرّة، ينطلق مع فيلق، يغيب مع فرقة مائة مشيراً إلى الطريق التي ينبغي سلوكها. ماذا حدث له؟ أين يتوجّه؟ متى يظهر من جديد؟ لا أحد يعرف من ذاك شيئاً.

حين يغادرهم، ينفخ نفحة من روحه في قلب كلّ رجل من رجاله، فتحيا هذه النفحة فيهم، تحييهم، تهمزهم، تقودهم.

عند ساعة الخطر، في الساعة الحاسمة، حين يسألون: «وأين قيصر إذن؟»، سيجيب قيصر: «ها أنذا!». ذلك معلوم لدى الجميع.

هؤلاء الرجال هم مجرّد بشر مع أيّ قائد آخر، وأمّا مع قيصر فأبطال: يحبّونه لأنّهم يشعرون بمحبّته لهم. لا يدْعوهم جنوداً، كما يفعل سِلّا؛ لا يدعوهم مواطنين، كما يفعل پُمپيوس. يدعوهم رفاقاً. لذا، لا يبقى الجنديّ جنديّ روما، ولا مواطن الجمهوريّة: يصبح الجنديّ رفيق قيصر.

Twitter: @ketab_n

يُقال عن قيصر إنّه مُخنّث، يُقال عن قيصر إنّه ضعيف، يُقال عن قيصر إنّه يُصاب بالصرع.

فليسألوا جنوده.

صحيح أنّه يحمل في أمتعته خيماً من أرجوان، ولوحات فسيفساء، وأواني من ذهب وفضّة.

لكنّنا شهدناه يمزّق خيمه الأرجوانية ليتّخذ منها لُحفاً لجنوده، ويحرق لوحاته الفسيفسائية ليشعل النار، ويُذيب أوانيه الذهبيّة والفضّية ليدفع رواتب جنوده.

صحيح أنّنا رأيناه محمولاً على المحامل كالنسوة، يأمر عبيده أن يروّحوا له بالمراوح أثناء الحرّ، ويتدثّر بالفرو أثناء البرد.

ولكنّه، عند الضرورة، قطع في اليوم الواحد مائة ميل على حصانه، في عربته وحتّى مشياً. مشى في صفوف جيشه عاري الرأس تحت الشمس الحامية. أزاح بدرعه وبصدره الثلج في أُقِرنيا.

يُصاب بالصرع!

إله هو الذي يتملّكه آنذاك، فيصارعه ويقاتله وفي النهاية يهزمه أو يصرعه أرضاً.

وأسألكم: حين يكون في مواجهة العدوّ، هل يتخنّث أو يحسّ بالحرّ أو بالقرّ، وهل يصاب بالصرع؟ كلّا. يقاتل وهو على حصانه أو مترجّلاً، كما يتّفق له، مسلّحاً أو أعزل، حسب الظروف.

ثمّ إنّه، حين يقتضي منه الأمر مطاردة العدوّ بعد المعركة، يستقدم حصاناً غريب الأطوار، يكاد يكون عجائبياً كالكائنات الخرافية، فيه من الإنسان والحصان ما في المينوتوروس من الإنسان والثور، له بدل الحوافر قدمان، سمعناه يحادث سيّده ليلاً، ثمّ يبكي شأن أحصنة آخيلوس حين

Twitter: @ketab_n

يتعرّض سيّده لخطر الاغتيال.

كلّ هذه الأحداث، كلّ هذه الأعمال، كلّ هذه الانتصارات ترتدّ إلى روما يضخّمها الصدى ويكبّرها البُعد.

يقال إنّه حين سافر، حثّ في السير بحيث أنّه في ثمانية أيّام -وذلك ما يتعذّر على العقل تصديقه- بلغ ضفاف نهر الرون، فكان أنّ حَمَلة البريد، الذين أرسلهم قبله بيومين ليخبروا جنوده بوصوله، لم يصلوا إلّا يومين بعده.

يقال إنّ قيصر بكى أحد فيالقه التي لقيت مصرعها، مثلما بكى پُمپِيوس زوجته، فأطلق لحيته حداداً ولم يحلقها إلّا بعدما انتقم له.

يقال إنّه أنشأ، إضافة إلى فيالقه الاثني عشر، فيلقاً آخر عبّأه من صفوف الشعب الذي أخضعه، من الغاليّين، وإنّه أطلق عليه اسم القبّرة، نظراً إلى أنّ له جناحَيها في قطع المسافات الطويلة، وله نشيدها ليطرب به في مسيره وفي معاركه. ورأينا ألفاً من هؤلاء الجنود الشقر يجتازون روما، بلحاهم الذهبيّة وعيونهم الزرق وأسلحتهم المتلألئة؛ وحين ترعد السماء يسدّدون سهامهم نحو العاصفة، وحين يفيض المحيط يصدّون أمواجه بدروعهم؛ وحين يُسألون عمّا يخيفهم يجيبون: أمراً واحداً، هو أن تسقط السماء على رؤوسهم.

ولا نزال نذكر أنّ هؤلاء الرجال هم الذين أزالوا سلطان الإتروريّين، وأسّسوا بلاد غاليا ما قبل جبال الألپ، وافتتحوا روما، وافتتحوا دِلفيا، وذهبوا، بأمر من قيصر، يموتون في الشرق دفاعاً عن كْرَسُّس.

هؤلاء الرجال، قيصر هو الذي هزمهم ثمّ أخضعهم للنظام ودرّبهم، بجهد عظيم، وأيّ جهد!

فأيّ إنسان، إذن، صنع أو هو صانعٌ ما صنعه قيصر؟

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، بلغه أنّ البلجيكيّين، وهم من أقوى أهل غاليا وأعسرهم على الترويض، ثاروا ضدّه وعبّأوا مائة ألف رجل، فهرع إليهم مع من استطاع أن يتبعه، فيلق القبّرة والفيلق العاشر، فوقع عليهم وهم يظنّون أنّه على بعد مائة وخمسين ميلاً منهم؛ فهاجمهم وهزمهم ومزّقهم إرباً وقتل منهم عدداً هائلاً، بحيث أنّ جنوده الساعين وراء الفارّين كانوا يعبرون المستنقعات والأنهار على جسر من جثث القتلى.

وصدف لقيصر أن يُفاجأ بدل أن يفاجئ. وقع عليه النِرفيّون يوماً بستّين ألف رجل، بينما كان يتحصّن غير مستعدّ للقتال. عند الصدمة الأولى، اندحرت الخيّالة، فحاصر النِرفيون الفيلقين الثاني عشر والسابع من كلّ الجهات وأجهزوا عليهما. انتزع قيصر آنذاك درعاً من يد جنديّ وخاض في وسط المعمعة صارخاً «أفسحوا الطريق لقيصر!»، فبلغ المقدّمة والمعركة مستعرة، فوجد نفسه لحظةً محاطاً من كلّ الجهات.

لحسن طالعه، رأى الفيلق السادس المتمركز على تلّ ما كان يجري أمامه، فهرع كما تنهار الثلوج يتدحرج من الجبل إلى أسفل الوادي، وهو يقلب كلّ ما يلقاه في طريقه، ثمّ وصل إلى قيصر ففكّ عنه الحصار، مفسحاً المجال للجيش لكي يتقدّم ويهاجم العدوّ.

جيشه بأكمله، أي ثلاثون ألف رومانيّ، مقابل ستّين ألف من النِرفيّين.

كلّ جنديّ من جيش قيصر يقتل اثنين من الأعداء. فبقي النِرفيون الستّون ألفاً مطروحين على أرض المعركة، ولم ينجُ منهم إلّا خمسمائة.

قُتل من شيوخهم الأربعمائة ثلاثمائة وسبع وتسعون شيخاً.

وحدث أيضاً أنّ بقايا الشعب احتمت مع ملكها في أليزيا. وكانت أليزيا في أعلى الجبل منيعة عصيّة على الاقتحام، إذ كان ارتفاع أسوارها ثلاثون ذراعاً.

Twitter: @ketab_n

لكنّ قيصر حاصر المدينة وفتَحها.

فجمع الملك خيّالته وكلّفهم أن يجوبوا بلاد غاليا ليُعلموا الناس أنّ ما لديه من المؤونة يكفيه ثلاثين يوماً، وأن يعودوا لنجدته مع كلّ من يقدر على حمل السلاح.

رجعت الخيّالة بثلاثمائة ألف رجل، فأصبح قيصر مع ستّين ألف من جنده محاصراً بين ستّين ألف رجل من المحاصَرين في المدينة والثلاثمائة ألف الآتين لنجدتهم.

كان قيصر عالماً بمغادرة الخيّالة وخمّن سبب ذلك، فضاعف من تحصيناته: وفي وجه الذين يحاصِرهم، وفي وجه الذين يحاصرونه.

أمر بحفر ثلاثة خنادق بعرض عشرين قدماً وعمق خمس عشرة قدماً، وببناء سور ارتفاعه اثنتا عشرة قدماً، وخطّ ثمانية صفوف من خنادق صغيرة وضع في قعرها أوتاداً وأحاطها بسياج.

ذلك كلّه في محيط ميلين.

ذات يوم، ترك قيصر في المعسكر ما يلزم من الجند لا أكثر للحيلولة دون خروج المحاصرين من المدينة؛ ورمى بالأربعين ألف المتبقّين في مواجهة الثلاثمائة ألف محاصِر.

بعد ساعتين، راح صراخ نساء أليزيا ونحيبهنّ يخبر الجنود الباقين في المعسكر بانتصار قيصر. فهؤلاء الجنود ليس في وسعهم أن يروا شيئاً من معسكرهم، أمّا النساء اللواتي في أعلى السور فيشاهدن المنتصرين وهم يرجعون ومعهم دروع الغاليّين المؤطّرة بالذهب والفضّة وكذلك أوانيهم وخيمهم.

بهزيمة الثلاثمائة ألف جنديّ المحاصِرين لقيصر وتشتّتهم، كان لا بدّ للمحاصَرين الستّين ألفاً من أن يستسلموا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع (تابع)

ثمّ إنّ المدافعين عن أليزيا لم يستسلموا لقيصر إلّا وهم يموتون جوعاً وبعد أن اقترحوا قتل الأولاد ليأكلوهم.

أُعلم قيصر أنّهم يريدون الاستسلام. فأمر بإقامة محكمة وراح ينتظر مندوبيهم.

فحمل الملك، الذي كان لولب هذه الحرب، أجمل سلاحه وخرج من المدينة على حصان مسرج بشكل بديع، وترك فرسه يلتفّ حول قيصر، ثمّ قفز أرضاً رامياً عند قدمي المنتصر سيفه ورماحه وخوذته والقوس والسهام؛ ثمّ بعد أن جُرّد من سلاحه وأصبح نصف عارٍ، أتى يجلس على درجات المحكمة.

فقدّمه قيصر لجنوده مشيراً إليه بإصبعه، قائلاً:

- الشاهد على ظفري.

هذا كلّه، يُحكى في روما ويُكرّر.

ولكلّ أحد أن يضيف إليه من فِلّذات فكره، ومن عجائب مخيّلته، بحيث أنّ الألسنة، في غياب قيصر، لم تكن تلهج إلّا بقيصر.

أنجز قيصر أكثر ممّا أنجزه آل مِتِلُّس الذين هزموا القرطاجيّين وجعلوا من مقدونيا مقاطعة رومانية وتغلّبوا على جوگُرتا الذي لم يهزمه أحد قبلهم. بل أنجز أكثر من آل سِپيون الذين افتتحوا سردينيا وهزموا القرطاجيّين، قهروا پَنُرما واستولوا على مائتي سفينة، أخضعوا

Twitter: @ketab_n

جزءاً من إسبانيا وانتصروا في معركة بِتُلّا وزاما، أكرهوا قرطاجة على القبول بالسلم وهزموا أنطيوكُس الأكبر، انتصروا على البوسيّين وقتلوا تِبيريوس گركّوس، محوا آثار قرطاجة وخرّبوا نومانسا. أنجز أكثر من مَريوس الذي أسر جوگُرتا وأباد التوتُنيّين في إكس، وقضى على السِمبريّين في ڤِرسيي. بل أنجز أكثر من سِلّا الذي أعاد أريوبرزان إلى عرش كپَدوكيا واستولى على ستابيا وپُمپيا، أخضع سَمنيوم وانتزع أثينا، وانتصر على أُركومين وشيرونيه. أنجز أكثر من لُكُلُّس الذي انتصر على هِملقار في معركتين بحريّتين وهزم ميتيدات، أخضع تِـگران وأدخل إلى روما أوّل شجرة كرز أتى بها من سِرَسُنتا، انتصر على بلاد غاليا ما قبل جبال الألپ، واستولى على صقلّية من جديد بعد أن خرجت عن سلطة روما، هزم دوميسيوس إنوبَربُس وافتتح بلاد نَربونا، قطع دابر القراصنة وسحق العبيد، أجبر تِـگران على طلب الصلح وانتزع من أنطوخيوس مملكته، وأحلّ هِركان محلّ أرِستُبولُس.

والواقع أنّنا حين نقارن قيصر بسابقيه، وانتصاراته بانتصاراتهم، نرى أنّه تفوّق على أحدهم بسبب وعورة ميدان المعركة، وعلى الآخر بشساعة البلدان التي أخضعها؛ تفوّق على هذا نظراً لمن هزمهم من أعداء ذوي عدد وعدّة، وعلى ذلك نظراً لمكر الأمم التي أخضعها؛ وأنّه فاق الجميع بعدد المعارك التي خاضها وبالحشد الهائل من الناس الذين قتلهم.

ولذلك أصاب روما العجب -من شدّة رعبها من الافتراضات المطروحة- حين قيل إنّ مجلس الشيوخ يقترح، بطلب من پُمپيوس، أن يُعيِّن خلَف لقيصر بعد فرض الاستقرار في بلاد غاليا؛ وحين أعلن كاتون على الملأ أنّه سيقدّم قيصر للمحاكمة ما إن يسرّح قيصر جيشه.

ومتى سيسرّح قيصر جيشه؟ لم يكن ذلك في علم أحد.

Twitter: @ketab_n

ليسمح لي القارئ الآن، بغية إدراك الوقائع بشكل كامل، أن أرمي نظرة إلى الوراء على روما وعلى الشخصيات الرئيسة التي لا بدّ لنا أن نتابعها خلال الأحداث التي كان الجميع، كما أسلفت، يتوجّسها خشيةً.

لا يزال الأشخاص والأحداث، بعد ثلاثين سنة، حاضرين في ذهني. فالذاكرة، عندما تكون فتيّة، تتلقّى وتحفظ بسهولة آثار ما شهدته من أحداث.

ولنبدأ بپُمپيوس.

انفكّ الرابط بين پُمپيوس وقيصر بوفاة جوليا.

وفّر ذلك سبباً إضافياً لپُمپيوس في سعيه إلى تبوّؤ منصب حاكم كامل الصلاحيات. لم يعد يكتفي بكونه القنصل الأوحد.

انخرط جميع مناصريه في حملة واسعة، فراحوا يخبرون عن غزوات قيصر دون أن يدركوا أنّهم بفعلهم هذا يوسّعون من شعبيّة قيصر.

ثمّ يهمسون:

- إنّه لمن المحزن الاعتراف بأنّه لا بدّ لروما من حاكم كامل الصلاحيات.

استقرّ ذلك في عقول الناس بحيث أنّنا رحنا، نحن التلامذة، نلهو بلعبة الحاكم كامل الصلاحيات.

غير أنّ أعوان پُمپيوس كانوا يضيفون:

- ومن يحقّ له أن يُعيّن حاكماً مطلق الصلاحيات غير پُمپيوس؟

وكان الجميع يجيب:

- الواقع ليس لغير پُمپيوس أن يصبح حاكماً مطلق الصلاحيات.

عندما أقول إنّ الجميع يجيب، فإنّي أرتكب خطأً. كان ثمّة رجل يقول العكس:

Twitter: @ketab_n

- كلّا! لا ينبغي أن يقوم حاكم مطلق الصلاحيات؛ لا پُمپِيوس ولا غيره.

ذلك الرجل هو كاتون.

قرّ القرار على تجاوز رأي كاتون، ظنّاً منهم أنّ كاتون سيبقى صامتاً.

ووجدوا رجلاً، هو المدافع عن الشعب لوسِليوس، تكلّف بالتعبير عن رغبة الرومان.

فاقترح على الملأ أن يتمّ انتخاب پُمپِيوس حاكماً مطلق الصلاحيات.

وفي خضمّ الهتافات الحماسيّة والتصفيق والترحيب، صعد كاتون المنبر.

سدٌّ تدفّقت مياهه على حريق.

لم يكتفِ بمعارضة انتخاب پُمپِيوس حاكماً مطلق الصلاحيات، بل هاجم أيضاً لوسِليوس مهاجمة كاد معها يفقد منصبه كمدافع عن الشعب.

وأصاب السهم پُمپِيوس.

لذا راح أصحاب پُمپِيوس في اليوم التالي يقولون في مجلس الشيوخ إنّه لو عُرض منصب حاكم مطلق الصلاحيات على پُمپِيوس لرفضه، فصرخ فيهم كاتون:

- هل تتكلّمون باسم پُمپِيوس أو باسمكم الشخصيّ؟ قالوا:

- إنّنا نتكلّم باسم پُمپِيوس! فردّ كاتون:

- إذن، هناك وسيلة بمنتهى السهولة للتدليل على ما تقولونه باسمه.

- وما هي؟

- أن يعيد الشرعيّة إلى روما بمساهمته في تعيين قنصلين.

ولم يكن له بدّ من التراجع.

Twitter: @ketab_n

نزل پُمپِيوس إلى الفوروم في اليوم التالي، وصرّح:

- أيّها المواطنون، طوال عمري حصلت على مناصب لم أكن قد طالبت بها. واليوم يرغب كاتون في أن أستعمل نفوذي في سبيل انتخاب قنصلين. لذا فإنّي أحدّد موعد انعقاد المجلس الشعبيّ العامّ بعد شهر واحد، وأصرّح أنّ المواطنين الأحرار كافّةً يحقّ لهم الترشّح، شرط أن يستكملوا ما تقتضيه القنصليّة من شروط. وأعد بأن تتمّ الانتخابات بدون قلاقل، وإن وقعت قلاقل فإنّي أتكفّل بقمعها.

فانتُخب بعد شهرين دوميسيوس ومِسَّلا دون أن يحصل أيّ اضطراب.

إثر انتخابهما، استقال پُمپِيوس من منصبه.

فما الذي جعل پُمپِيوس يتساهل إلى هذا الحدّ؟

كان پُمپِيوس عاشقاً.

مرّةً أخرى؟

أجل، وبالرغم من بلوغه الثانية والخمسين، ومع أنّه لم يكن قد انقضى عام على وفاة حبيبته جوليا.

ومن تلك التي كان يعشقها؟

امرأة فاتنة ومن ذلك النوع الشديد الرواج في روما في تلك الفترة.

إنّها ابنة مِتِلُّس سِپيون، أرملة پوبلِيوس كْرَسُّس الذي قتل مع والده في الحرب ضدّ الپَرثيّين.

إنّها كُرنيليا الجميلة والمثقّفة.

أقول «الجميلة والمثقّفة»، إذ أنّها كانت واسعة الاطّلاع على الآداب اليونانية واللاتينية، وإضافة إلى ذلك عازفة ممتازة، تحسن العزف على القيثارة مثل أُريون ونظم الشعر مثل سافو.

Twitter: @ketab_n

وكانت إلى ذلك تقرأ الفلاسفة دون أن تتثاءب وتدرس الهندسة دون أن تنعس.

وذات صباح، أُعلن عن زواج پُمپِيوس بأرملة پوبلِيوس كْرَسُّس، فأصبحت زوجته الخامسة أو السادسة. كانت في التاسعة عشرة وتماماً بسنّ الزواج من أصغر ابنَي پُمپِيوس، سِكستُس.

انعكف پُمپِيوس على حياته الخاصّة، وانتُخب القنصلان بدون قلاقل، حسب ما وعد به پُمپِيوس. فما علّنا نطلب من پُمپِيوس أكثر من ذلك؟

الواقع أنّه بعد انتخاب القنصلين استُئنفت القلاقل، كما في ذروة أيّام كلوديوس وميلو.

الخطأ إذن يقع على كاتون. فلمَ لا يُبقون على پُمپِيوس قنصلاً أوحد؟ فكلّ شيء كان على ما يرام في ظلّ قنصلية پُمپِيوس!

ولذا قبل أن يُتمّ دوميسيوس ومِسَّلا سنتهما الأولى، عاد بعضهم إلى اللازمة المعهودة:

- واضح أنّه لا بدّ لروما من حاكم مطلق الصلاحيات، وهذا الحاكم لا يمكن أن يكون إلّا پُمپِيوس.

وفي أحد الأيّام، استعرت القلاقل، فصعد بِبولُس، صهر كاتون، المنبر مُجدِّداً اقتراح لوسِليوس.

أي تعيين پُمپِيوس حاكماً مطلق الصلاحيات.

توقّع الناس أن يعارض كاتون اقتراح صهره، كما عارض قبل سنة اقتراح ذلك المدافع عن الشعب التعس الحظّ فكاد يقضي عليه بالرجم.

ولكنّ ذلك لم يقع، إذ أنّ كاتون ردّ قائلاً:

لم أكن يوماً لأدلي بمثل الرأي الذي سمعتم به للتوّ. ولكن، نظراً لأنّه

Twitter: @ketab_n

يصدر عن شخص غيري، فلنأخذ به فنجرّب پُمپِيوس. إنّي أفضّل أي حكم قانونيّ على الفوضى، أيّاً كان نوعها.

عيّن مجلس الشيوخ عندئذ پُمپِيوس لا حاكماً مطلق الصلاحيات بل قنصلاً أوحد له الحقّ في تنصيب قنصل آخر.

ذلك كان وضع پُمپِيوس حين كان مجلس الشيوخ يتناقش في أمر خلافة قيصر، وكاتون يهدّد بإحالته إلى المحاكمة.

بينما كان پُمپِيوس يرث زوجة بوبليوس كْرَسُّس الابن، راح شيشرون -وهو الذي كان يصرّح علانية أنّه لا يفهم كيف لاثنين من القيّمين على تأويل النُّذُر ألّا يضحكا حين يلتقيان- راح يرث منصباً في مجلس القيّمين على تأويل النُّذُر.

ثمّ كان نصيبه، عند توزيع الأقاليم بالقرعة، أن يتولّى قِليقيا وجيشاً من اثني عشر ألفاً من المشاة وألفين وستّمائة من الخيّالة، فتبدّل من محامٍ إلى قائد ظافر وأبحر إلى ولايته.

أصبح شيشرون في قِليقيا منشغلاً بإخضاع كبّدوكيا للملك أريُبَرزان، واستمرّ على علاقات حسنة مع پُمپِيوس محاولاً جهده ألّا يُمعن في إفساد علاقاته بقيصر.

بعد إخضاع كبّدوكيا، عاد إلى روما، فبلغها في فترة بدأت فيها الأمور تتشوّش بين قيصر وپُمپِيوس.

وقرّ القرار أن يُمنح لقب الظافر.

غير أنّ أشدّ ما كان شيشرون يخشاه هو أن يتسثير بظفره عدوّين في آن: قيصر وپُمپِيوس.

فأجاب أنّه يستحسن السير في موكب عربة قيصر بعد تصالحه مع پُمپِيوس وإرضائه الجمهوريّة، على أن يُمنح لقب الظافر.

Twitter: @ketab_n

هكذا كانت الأمور في عام 705 لتأسيس روما بين الرجال الثلاثة الرئيسيّين في الجمهورية، الذين كان على قيصر أن يواجههم إن هو حاول القيام بمقامرة:

پُمپِيوس وكاتون وشيشرون.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

قيصر يوفّي ديون كوريون ويضمن ولاء مَركُس أنطونيوس بالمال- من هو مَركُس أنطونيوس الإنسان - أبوه أنطونيوس الكريتيّ - أمّه جوليا - زوجته فُلڤيا - أسباب بغضه لشيشرون - يقود طليعة جيش گَبينيوس - يمنع تنفيذ الإعدام بَبطليمُس - تعيين مركُس أنطونيوس مدافعاً عن الشعب وفي مجلس القيّمين على تأويل النُّذُر - قيصر يقرض إميليوس پاولُس، القنصل المنتهية ولايته، خمسة وعشرين مليون سِستِرس - المطالبة بتعيين قيصر قنصلاً - شعبيّة قيصر - الصراع بين كوريون ومَرسِلُّس - المفاوضات بين قيصر وپُمپيوس - فرار مركُس أنطونيوس وكوريون وكْونِتُس كَسّيوس.

كيف كان قيصر يشغل وقته في تلك الأثناء؟

كان مثل الملاكم الذي يفرك جسده بالزيت استعداداً للمعركة.

ولكنّه، وهو يفرك جسده بالزيت، كان يفرك الآخرين بالذهب.

منذ تسع سنوات وهو يرسل إلى روما مبالغ ضخمة.

وهب مالاً لأكثر من عشرين ألف جنديّ من جنوده، ومنحهم

Twitter: @ketab_n

إجازات عن العمل.

أرسل إلى پُمپيوس الفيلقين الذين طلبهما منه، ومنح كلّ جنديّ من الجنود المنضوين تحت لوائهما مائة وخمسين درهماً.

وفّى عن كوريون، المدافع عن الشعب، ديونه المقدّرة ما بين خمسين وستّين مليون سِستِرس.

وبما أنّ مَركُس أنطونيوس كان قد كفل ديون صديقه كوريون، فحرّره قيصر من كفالته، فقد اصطاد قيصر عصفورَين بحجر واحد، خاطباً وِدّ مَركُس أنطونيوس وكوريون في نفس الوقت.

إلّا أنّه كان يودّ أن يقدّم لمَركُس أنطونيوس أكثر من إعفائه من ديون كوريون.

بعث إليه بصديق مشترك يُعلمه أنّه مستعدّ لخدمته وهو في هذه الحال من الضيق.

فأجابه مَركُس أنطونيوس، عن طريق الصديق، أنّه يقبل منه بطيب خاطر بضعة ملايين سِستِرس بمثابة قرض.

كلّما جرى تحت ريشتي اسم جديد اكتسَب أو سيكتسب لاحقاً أهمّيّة بالغة، ولذا فلا يسعني إلّا أن أتوقّف عن السرد لأذكر، لا لمن يعاصرني بل لمن يخْلفني، من هو الإنسان المشار إليه بهذا الاسم.

ذاك ما سأقوم به في معرض حديثي عن مَركُس أنطونيوس الذي ذكرت اسمه من قليل.

ولد مَركُس أنطونيوس سنة 669 لتأسيس روما، حسب بعضهم، أو سنة 672 حسب آخرين؛ فكان عمره في الفترة التي بلغناها، أي عام 705، بين ثلاثين واثنين وثلاثين عاماً.

وكان هو نفسه، شأنه شأن أجداده، على قدر من الأهمّيّة.

Twitter: @ketab_n

كريماً كان قيصر؛ ولم يكن مبذّراً.

وما كان له أن يرمي بثلاثين مليون سِستِرس في هاوية لا قعر لها.

فلا بدّ أن يكون مَن اقترَض منه هذا المبلغ قادراً على تسديده، إن لم يكن عيناً ففوائد متنوّعة، وإن لم يكن مالاً فنفوذاً.

جدُّ مَركُس أنطونيوس هو أنطونيوس أوراتور أو الخطيب[1]، ذلك الذي أمر مَركُس نفسه بقتله، بسبب انحيازه إلى سِلّا. وأبوه هو أنطونيوس، وهو من باشر بفتح جزيرة كريت فأُطلق عليه، وعلى مِتِلُّس الذي استكمل فتح الجزيرة، لقب «الكريتيّ».

كان لأنطونيوس الكريتيّ هذا قلبٌ رحب ويد منبسطة ممدودة، ممّا أدّى به، في أحيان كثيرة، إلى وضعٍ لم يكن يملك فيه أكثر من خمسين سِستِرساً.

ذات يوم، أتاه أحد أصدقائه يقترض منه بضع فيليپيات ذهبيّة: ما يعادل تقريباً ألف سِستِرس.

حتّى هذا المبلغ الزهيد، لم يكن قطّ في حوزة أنطونيوس الكريتيّ.

فنادى أحد عبيده وأمره أن يأتيه بطبق من الفضّة فيه قليل من الماء الفاتر، متذرّعاً بتشذيب لحيته.

امتثل العبد.

أعلمه أنطونيوس الكريتيّ بأنّه سيشذّب لحيته بنفسه، وأنّ بوسعه هو أن ينسحب.

خرج العبد.

---

(1) أضفنا في الصفحات التالية لقب الجدّ، ومن بعده لقب الأب، تمييزاً لهما عن مركس أنطونيوس، حفيد الأوّل وابن الثاني، الذي تدور حوله هذه الصفحات وصفحات أخرى كثيرة من هذا الكتاب، والذي يسمّيه المؤلّف تارةً مركُس أنطونيوس وطوراً أنطونيوس وكفى (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

فدَسّ أنطونيوس الكريتيّ الطبق الفضيّ المُعدّ لتشذيب اللّحى تحت معطف صديقه، قائلاً:

- خذه، حتّى لا يقال يوماً إنّ صديقاً طلب من أنطونيوس الكريتيّ خدمة ولم يُلبّها.

في اليوم التالي أو ما تلاه، سمع أنطونيوس الكريتيّ ضجّة كبيرة صادرة من صوب المطبخ: كانت زوجته جوليا تطالب عبيده بصوت صاخب أن يعثروا في الحال على الطبق الفضّي، وتهدّدهم بأنّها ستعذّب الحلّاق، إن لم يعثر على الطبق.

أخذها أنطونيوس الكريتيّ من ذراعها، وجرّها إلى إحدى الزوايا معترفاً لها بكلّ شيء.

جوليا كانت من تلك النسوة اللواتي يمكن الاعتراف لهنّ بمثل هذه الأمور، فهي متحدّرة من أسرة جوليا العظيمة، وهي إحدى بنات عمّ والدة قيصر، ممّا يجعل أنطونيوس الكريتيّ وقيصر مرتبطين بالنسب نوعاً ما عن طريق النساء.

توفّي والد مركُس أنطونيوس شابّاً، وبقيت جوليا تربّي ابنها الذي كانت تحبّه حتّى العبادة. لذا اتّصف مَركُس أنطونيوس بكلّ صفات من تربّوا على أيدي النساء: كان ضعيفاً، ملتهب العاطفة، صلب الإرادة، عنيداً وطيّباً.

تزوّجت أمّه للمرّة الثانية من لَنتُلُس، وهو نفسه الذي أمر شيشرون بخنقه مع سِتيـگُس في سجن مامِرتين، خلال مؤامرة كتيلينا.

ستفهمون بعد قليل سبب البغض الشديد الذي يكنّه مركُس أنطونيوس لشيشرون.

قبل الفترة التي نتناولها بقليل، تزوّج مَركُس أنطونيوس -وهو كما

Twitter: @ketab_n

ذكرنا ربيب لانتُلُس (ابن زوجته) الذي خُنق بأمر من شيشرون- من فُلڤيا، أرملة كلوديوس الذي حرّض شيشرون على قتله هو أيضاً.

كان مَركُس أنطونيوس في العشرين من عمره وفي ذروة الجمال، فكأنّه باخوس الهندي، الذي كثيرا ما شبّهه به متملّقوه.

وكان له من القوّة الجسديّة ما جعله يتغاضى عمّا يلحقه بأجداده لأمّه من إجحاف ويترك الناس يشيعون أنّ في عروقه بعض قطرات من دم هرقل.

وكان لِمَركُس أنطونيوس صديقان حميمان، كوريون وكلوديوس، هما أشدّ الناس تهتّكاً في روما.

كان كلوديوس، حين قُتل، يستكمل تربيته في أثينا.

إيطاليا في ذلك الوقت كانت تضمر الشرّ لأصدقاء كلوديوس. فليس من الغريب أن يبحث أنطونيوس عن عمل له في مكان آخر.

ذهب گبينيوس إلى مصر ممثّلاً عن پُمپِيوس ليحسم القضيّة الشهيرة التي جئت على ذكرها: إعادة العرش إلى بَطليمُس، عازف الناي.

فها بَطليمُس يهدي گبينيوس -إقرأوا «رسالة إلى پُمپِيوس»- عشرة آلاف وزنة، ما يعادل مائتي مليون سِستِرس.

مبلغ لطيف يغري گبينيوس، فلم يتأخّر عن الإقبال على قطعة الحلوى بشهيّة عالية.

ولكنّ المشروع ينطوي على مخاطر عظيمة.

عرض گبينيوس على الشابّ أنطونيوس، وكان قد عرفه أثناء حملته ضدّ أرِستُبولُس، قيادة طليعة جيشه.

وقبل أنطونيوس[1] العرض.

(1) يدلّ أنطونيوس ومركُس أنطونيوس على الشخص ذاته، إلّا إذا وردت إشارة مخالفة

Twitter: @ketab_n

أوّل مدينة استولى عليها أنطونيوس في مصر، باسم بَطليمُس، هي بِلوزا.

وصل بَطليمُس إلى بِلوزا في اليوم الثاني من سقوط المدينة في يد أنطونيوس.

أراد الملك المعزول العائد إلى مملكته أن يلقّن الناس درساً.

قرّر أن يفتك بسكان بِلوزا.

غير أنّ مَركُس أنطونيوس، كما ذكرنا، يحبّ الخمر والنساء: ومن يتّصف بهاتين الرذيلتين -فرضاً أنّهما رذيلتان، وذلك ما أُنكره وسأُنكره على الدوام- لا يكون دمويّاً. فرفض تنفيذ أمر بَطليمُس بقوله إن كان يطليموس يريد أن يتصرّف على هذا النحو، فعليه أن يستعيد مملكته بنفسه؛ وطالما كان هو المكلّف باستعادة تلك المدن نيابة عن الملك، فلن تسقط شعرة واحدة من رؤوس سكّانها.

لجأ بَطليمُس عندها إلى حامية المدينة.

غير أنّ مَركُس أنطونيوس صرّح أنّ ذلك لن يكون أبداً، نظراً لأنّه أمّن الحامية على أرواحها.

لم يعد ثمّة أية وسيلة لإسقاط رأس واحد من رؤوس أهل بِلوزا وأهل المدن الأخرى، طالما كان أنطونيوس في منصبه.

نُقِل عنه أمر آخر يدلّ على إنسانيته: استضافه يوماً مصريّ يدعى أَركِلايوس فصادقه. ثمّ، كما يحدث في الحروب الأهلية، تحوّل أَركِلايوس من صديق إلى عدوّ، وتقاتلا في معسكرين متعاديين، فقُتل أَركِلايوس في إحدى المعارك.

سمع مَركُس أنطونيوس بموته، فأمر بالبحث عن جثمانه في ساحة

(المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

المعركة وأقام له مأتماً رائعاً.

عمل التقوى هذا أكسبه شرفاً رفيعاً لدى أصدقائه وأعدائه على السواء، فعاد النقيب الشابّ إلى روما محفوفاً ببعض الشهرة.

ذاك هو الإنسان الشهير الذي ضمّه قيصر إلى صفوفه لقاء ثلاثين مليون سِسترس.

ثمّ إنّ قسماً من المبلغ، المبذول بسخاء شديد لكورين وأنطونيوس، عاد بالفائدة على قيصر.

إذ سعى قيصر إلى تعيين أنطونيوس مدافعاً عن الشعب، وعُيّن أنطونيوس في ذلك المنصب. ثمّ أُلحق بعد فترة من تعيينه بمجلس القيّمين على تأويل النُّذُر.

بذا ضمن قيصر أن يتناغم صوت الشعب مع صوت الآلهة لصالحه.

لم يبق من العظماء إلّا رجل واحد، هو القنصل إميليوس پاولُس المنهمك في تشييد بَزِليكُم رائعة بدل الكوريا - مقرّ مجلس الشيوخ- التي أُحرقت خلال مأتم كلوديوس. وكان إميليوس پاولُس في ضيق ماليّ بسبب تكاليف المشروع.

فبعث له قيصر بخمسة وعشرين مليون سِسترِس.

أبلغ إميليوس پاولُس إذّاك قيصر أن بوسعه الاعتماد عليه.

نظراً لأنّ قنصلية پاولُس تنتهي عام 705 لتأسيس روما، اقترح كوريون أن يعيَّن قيصر قنصلاً لعام 706.

فَعلا صراخ أنصار پُمپيوس.

كان لا بدّ لقيصر من القدوم إلى روما ليقدّم ترشيحه، إذ لا يتمّ الترشّح للقنصلية إلّا في روما بالذات.

بإشارة من يده، طلب كوريون إلى الشيوخ أن يستمعوا إليه، وراح

Twitter: @ketab_n

يقول:

- إن قيصر مستعدّ للقدوم إلى روما وحده وبدون جيش، شرط أن يُسرّح پُمپِيوس عساكره ويبقى في روما هو أيضاً وحده بدون جيش. فإن احتفظ پُمپِيوس بجيشه، فإنّ قيصر قادم إلى روما بجيشه.

ردّ القنصل مَرسِلُّس -الذي كان منذ سنتين شريكاً لپُمپِيوس- على كوريون متّهماً قيصر باللصوصيّة، قائلاً:

- إن رفض قيصر أن يتخلّى عن سلاحه، فلا بدّ من اعتباره عدوّاً للشعب.

انضمّ پاولُس ومَركُس أنطونيوس إلى كوريون.

ثمّ طلب كوريون أن يتمّ التصويت بطريقة علنيّة لا سرّية. كما طلب من الشيوخ، القائلين بأنّ على قيصر وحده أن يرمي السلاح لتبقى القيادة بيد پُمپِيوس، أن ينتقلوا إلى جهة من القاعة، ثمّ طلب من القائلين بأنّ على كلٍّ من قيصر وپُمپِيوس إلقاء السلاح وألّا يحتفظ أيّ منهما بجيشه الانتقال إلى الجهة المقابلة من القاعة.

فلم يبقَ من الشيوخ المؤيّدين لپُمپِيوس إلّا اثنان وعشرون شيخاً.

فيما كان الانتخاب جارياً، نزل مَركُس أنطونيوس إلى الفوروم ليخطب في الشعب.

ونزل كوريون من الكَپِتوليوم راكضاً ليخبر الناس بفوز قيصر.

فاقتلع الشعب الزهور من البساتين وأغصان الغار من أسيجة البيوت ورموها على كوريون وأنطونيوس.

على القارئ ألّا ينسى أنّنا كنّا، نحن، نشاهد كلّ ما يجري في الفوروم من فوق سطح بيت أُربيليوس، وذلك بحكم موقعه الجغرافيّ.

Twitter: @ketab_n

عندئذ صعد أنطونيوس مجدّداً إلى مجلس الشيوخ ووراءه الشعب، مطالباً بقراءة رسالة وافدة من قيصر.

غير أنّ اتّجاه الريح كان قد تغيّر، إذ استطاع مَرسِلُّس أن يعيد الأغلبية إلى معسكر پُمپِيوس.

فعارض قراءة رسالة قيصر.

بلغ ذلك سمع أحد الضبّاط ممّن أرسلهم قيصر إلى روما، وهو قائد مائة كان واقفاً على الباب، فقال وهو يلامس مقبض سيفه:

- لا بأس! ليرفضوا لقيصر طلبه؛ فذلك ما سيمنح قيصر كلّ ما رفضوه ومنعوه عنه.

نزل أنطونيوس إلى الفوروم من جديد، وفي الفوروم قرأ الرسالة التي لم يشأ مجلس الشيوخ أن يسمعها.

اقترح قيصر في رسالته أن يتخلّى عن كلّ شيء لقاء احتفاظه بحكم بلاد غاليا التي ما قبل جبال الألپ[1] ومنطقة إلّيريا والاحتفاظ بفيلقين من جيشه، بانتظار تنصيبه قنصلاً في وقت لاحق.

اعتبر الشعب هذا الطلب محقّاً، فأصدر مرسومين بدون الرجوع إلى أحد.

يقضي المرسوم الأوّل بإرسال الجيش الخاضع لإمرة پُمپِيوس إلى سوريا لكي يساند بِبُلُس في حربه على البَرثيّين.

ويقضي الثاني بحظر الانخراط في جيش پُمپِيوس على كلّ مواطن روماني.

حين تبلّغ مجلس الشيوخ هذين المرسومين الصادرين عن الشعب، صرخ لانتُلُس:

(1) من جهة إيطاليا، أي لومبارديا والبيمونتي (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- أيّها المواطنون، لم يعد لكم إلّا ارتداء ثياب الحداد!

فقرّر مجلس الشيوخ أن تدخل روما في فترة حداد.

اغتاظ شيشرون غيظاً شديداً، علماً بأنّه كان السلم ذاته، فذهب إلى بُمپِيوس.

وتوسّل إليه أن ينزل عند طلب قيصر باستبقاء فيلقين.

رفض بُمپِيوس طلب شيشرون، فأجابه شيشرون:

- خذ حذَرك! بفعلك ذا ستُخرج قيصر عن طوره. فأجابه:

- ذلك كلّ ما أصبو إليه، ينبغي لنا أن ننتهي من أمر قيصر.

- ولكن ماذا تفعل بالمرسومين الصادرين عن الشعب، القاضيين بإرسال جيشك إلى سوريا، وبمرسوم الشعب الذي يحظر على المواطنين الرومان الانخراط في جيشك؟ بدون جيش، كيف تحارب قيصر؟ فأجاب:

- أَخبط الأرض بقدمي، فينبثق منها الجنود.

رأى شيشرون أنّه لن يحصل من بُمپِيوس على شيء، فاستعان ببعض أصدقائه. راح هؤلاء إلى بُمپِيوس يترجّونه بجهد بالغ، حتّى انتزعوا منه أن ينزل عند رغبة قيصر، في حالِ ما إذا قدّم تنازلاً آخر.

ثمّ توجّهوا إلى أنطونيوس.

أجابهم أنطونيوس إنّ قيصر يرضى بنصف فيلق بدل الفيلقين، أي بستّة آلاف رجل بدل أربعة وعشرين ألفاً. قال إذّاك شيشرون للناطق باسم قيصر:

- اقترحوا الأمر بسرعة على قيصر!

فهرع أنطونيوس وكوريون إلى مجلس الشيوخ وأبلغاه بالتنازل الجديد الذي قدّمه قيصر.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ لانتُلُس رفض رفضاً قاطعاً اقتراح قيصر وطرد أنطونيوس وكوريون من المجلس.

رجع مَركُس أنطونيوس إلى بيته، وتنكّر بزيّ عبد، وأقنع زميليه كْوِنتُس كَسّيوس وكوريون، المدافعين عن الشعب، بأن يحذوا حذوه، ثمّ خرجوا ثلاثتهم من روما في عربة أجرة، لابسين أردية قصيرة بدون معاطف، قاصدين قيصر ليعلموه أنّه آن الأوان ليغامر بكلّ ما لديه في سبيل بغيته.

4 مارس 1860

الفصل السادس

قيصر في رَقِنّا - وصول المدافعين عن الشعب - قيصر يحسم أمره - مغادرته ليلاً - وصوله إلى ضفاف نهر الرُبِكون - عبوره الرُبِكون - صاحب الناي - كيف كان هُراسيوس من أنصار پُمپِيوس في بادئ الأمر- قيصر يزحف على روما - هلع الأرستقراطيّين - پُمپِيوس يفقد رشده، شيشرون يفرّ، كاتون يفرّ، مجلس الشيوخ يفرّ، ولانتُلُس يفرّ دون أن يجد الوقت لإقفال باب الخزينة العامّة - سخاء قيصر - رسالة قيصر إلى شيشرون - رسالة پُمپِيوس إلى شيشرون - روما تستعيد استقرارها - النزهاء من الناس يرفضون الربا.

Twitter: @ketab_n

ندرك كم كان أثر فرار المدافعين عن الشعب بالغاً. استيقظنا صباحاً على صراخ عظيم، فإذا الفوروم مكتظّ بحشد كبير يطالب بعودة أنطونيوس وكْوِنتُس كسّيوس.

وكان مجلس الشيوخ قد عجّل في أثرهم فرساناً بأسلحة خفيفة، ولكنّهم لم يدركوهما، ولعلّهم تدبّروا أمرهم لكي لا يدركوهما.

أصبح كلّ من يحمل سيفاً ودرعاً مناصراً لقيصر. واصطفّ الفرسان والأشراف إلى جانب پُمپيوس، أو بالأحرى إلى جانب مَصالحهم.

قيصر في رَفِنّا، أو فلنقل إنّ آخر رسالة استلمها أنطونيوس منه مؤرّخة من هناك.

لذا توجّه الهاربون إلى رَفِنّا.

وما إن لمحوا من بعيد جنود قيصر حتّى صرخوا:

- أيّها الجند، أخبروا قائدكم. إنّنا نحن المدافعون عن الشعب، المطرودون من روما بأمر من مجلس الشيوخ. الفوضى تعمّ روما، ولم يعد للمدافعين عن الشعب الحريّة في الكلام. طُردنا لأنّنا التزمنا بالعدالة، فها نحن! ها نحن!

فهرع الجند إلى قيصر يصيحون: «المدافعون عن الشعب!». لم يفهم قيصر قصدهم. وحين شرحوا له مقصدهم، لم يشأ أن يصدّق قولهم. لم يتخيّل أن يؤاتيه الحظّ إلى هذه الدرجة. كان يمتلك القدرة، وها هم يقدّمون له الشرعيّة.

ولذا استقبل الهاربين الثلاثة بأجمل ترحيب.

فسلّمهم في الحال قيادة الفِرق.

منذ فترة طويلة، كان مجلس الشيوخ والقنصلان قد بدأوا يشتمون قيصر ليُخرجوه عن طوره، حسب تعبير پُمپِيوس.

Twitter: @ketab_n

فحين انتُخب القنصلان مَرسِلُّس ولانتُلُس عام 705 لتأسيس روما، ألغيا، وبدون أيّ سبب، حقّ أهل تِيكوما بأن يُعتبروا سكّان مدينة، مع أنّ قيصر منح ذلك الحقّ لبلاد غاليا.

وقبل ذلك بستّة أشهر، حكما على أحد الشيوخ بالجلد؛ وحين استفسر عن سبب ما لحقه من إذلال، أرسل مَرسِلُّس من يقول له إنّ السبب الوحيد هو مشيئته، فإن لم يرضَ بالحكم فما عليه إلّا أن يشكو أمره إلى قيصر.

وها قد بات النجاح مرهوناً بسرعة التصرّف، والمهمّ ألّا تضيع ساعة واحدة.

لم يكن مع قيصر إلّا خمسة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الخيل، إنّما كان له في روما عشرون ألف جنديّ يقضون عطلهم، ومنهم قائد المائة الذي ذكرناه وهو يضرب على سيفه ضرباً شديداً.

كان إلى جانبه كذلك الفيلقان اللّذان أرسلهما إلى پُمپِيوس، ومنح كلّ جنديّ فيهما مائة وخمسين درهماً.

إضافة إلى ذلك كان يملك ثروة تتزايد بينما ثروة پُمپيوس في تضاؤل.

أمّا خطّته فهي أن ينطلق الجميع في نفس اليوم وأن يتمّ الاستلاء أوّلاً على مدينة أرِمينيوم.

ولا بدّ أن يتمّ الاستلاء بغتةً، فيداهمها الجنود والقادة الموكلون بالأمر بسيوفهم لا غير.

وأمّا قيصر فلم يغيّر شيئاً في نمط حياته: يوكل قيادة جيشه سرّاً إلى هُرتَنسيوس، يقضي يومه في أشغاله المعتادة، يراقب المتصارعين بالسيوف وهم يتدرّبون، يستحمّ قبل هبوط الليل بقليل، وبعد الحمّام يدخل غرفة الطعام، حيث يمكث بعض الوقت مع مدعوّيه إلى العشاء. بعد ساعة

Twitter: @ketab_n

يقوم عن العشاء متمنيّاً على الجميع أن يأكلوا بشهيّة ويعِدهم أن يرجع إليهم عاجلاً، ثمّ يخرج. يندفع على عربة أجرة مُعدّة له سلفاً، سالكاً طريقاً عرضيّاً، فيضلّ الطريق ويهيم طوال الليل، ثمّ يهتدي إليه عند انبثاق الفجر، فيلتحق بجنوده وقادته في المكان الذي حدّده لهم، ثمّ ينعطف صوب أَرِمينيوم ليصبح في مواجهة الرُبِكون.

لم يكن الرُبِكون، بالرغم من صيته الذائع في أيّامنا، سوى خيط مائيّ رفيع يفصل بلاد غاليا ما قبل الألپ عن إيطاليا، أي الأراضي الأجنبية عن الأراضي الرومانية.

وعلى طوله، تقوم بين الفترة والأخرى عواميد تحمل إيعازاً بأنّ: «ما وراء نهر الرُبِكون، لا يجوز لأحد أن يمرّر لا راية ولا سلاحاً ولا جنداً». ومن يتجاوز هذا الأمر يعتبر متمرّداً.

يُحكى، كما أكّده لي أَسِنيوس پُلّيون الشهير الذي كان آنذاك مرافقاً لفاتح بلاد غاليا، يحكى أنّ قيصر توقّف عند ضفّة تلك الساقية صافناً.

وهل غير تلك الفيالق الرومانية يستطيع أن يقول لنا كم من الأفكار راحت تقطع عليه الطريق!

نادى أصدقاءه وقال وهو يضع يده على كتف أَسِنيوس پُلّيون الذي كان أقربهم إليه:

- يا أصدقائي، آن الأوان للبقاء على هذه الضفّة من الساقية لتكتمل تعاستي، أو للعبور إلى الضفّة الأخرى لتكتمل تعاسة العالم.

ثمّ راح يعرض، بصفاء ذهن مدهش، ما سيكون إن هو بقي في هذه الجهة من الرُبِكون، وما سيكون إن هو عبره إلى الضفّة الأخرى.

ورفع صوته مستجوباً الأجيال الآتية عن الحكم الذي ستُصدره بحقّه، وكأنّه يُجيز لنفسه أن يحاسب المستقبل مسبقاً عن حكمه.

Twitter: @ketab_n

عندها، حصلت معجزة، قد تكون مُعدّة سلفاً وقد تكون محض صدفة، معجزة وضعت حدّاً لكلّ شكوكه.

حين رأى أصدقاءه متردّدين خُرساً أمام سؤال كهذا، راح يناشد جنوده أن يشيروا عليه بما يفعل، قائلاً لهم:

- أيّها الرفاق، لم يفُت الوقت بعد: بوسعنا أن نتراجع، ولكن إذا ما عبرنا هذا النهر، فلا يبقى إلّا السيف قاضياً.

فإذا براعٍ ذي قامة خارقة، أشبه بالعملاق، يظهر على ضفّة النهر وهو يعزف على النّاي.

أحاط به الجنود، وكان مع أحدهم بوق.

أخذ الراعي البوق من يده، دون أن يوجّه إليه أيّة كلمة، ورفعه إلى فمه وارتمى في النهر وهو يعزف بكلّ قواه. عندها قال قيصر:

- هيّا إلى حيث يدعونا صوت الآلهة وظلم البشر! مضيفاً باليونانية:

- حُسم الأمر والباقي على القدر[1].

بحثت طويلا في **مذكرات قيصر**[2] لأرى كيف يروي هو نفسه هذا المشهد. لكنّ قيصر لم يأتِ حتّى على ذكر اسم الرُبِكون.

ما أرويه هنا، أنقله عن شهود عيان اعتادوا، وهم في بلاط الإمبراطور أو على مائدته، أن يوردوا تلك الجملة البالغة الأهميّة في حياة عمّ الإمبراطور.

الواقع أنّه لم يُقل شيئاً في روما من هذا القبيل بشكل صريح. فقد كان

---

(1) أو «رُمي الزهر»، حسب العبارة اليونانية kubos anerriphto التي أصبحت في اللاتينية: alea iacta est كما وردت عند پلوتارك.

(2) هي أخبار حروبه في بلاد غاليا، وتقابل بالفرنسية شروحات قيصر *Les commentaires de César* (المترجم).

Twitter: @ketab_n

والدي وأُربيليوس من أنصار پُمپيوس؛ فنشأت على بغض قيصر أكثر ممّا نشأت على خشيته؛ وفي ذلك ما يفسّر علاقتي بقاتليه وصداقتي مع مِسَّلا وكاتون الابن وشيشرون الابن.

كان لا بدّ لي أن أبلغ سنّ الرجولة وأحكم بنفسي على الأمور حتّى تتضّح لي حقيقة الأمر، لا من جهة العدل أو عدمه، بل من جهة خيره أو شرّه.

وعلى الأخصّ، كان لا بدّ لي أن أختبر ذلك السلم الراسخ الذي منحه للدنيا ذلك الإمبراطور المُبجّل، والذي عقَب، لحسن حظّنا ووفرة سعادتنا، أزمنة القتل والنبذ والاضطرابات التي دمغت مختلف عهود الحرب الأهلية.

عذراً على هذا الاستطراد السريع؛ لكنّي أعتقد أنّه ضروريّ لفهم الوجهين المتناقضين في حياتي. وعلى كلّ حال، لم أكن أنا من ذهب إلى الإمبراطور أغُسطُس - كما سنرى لاحقاً- بل الإمبراطور أغُسطُس هو الذي أتى إليّ.

لنعد إلى قيصر الزاحف على الكون بخمسة آلاف من جنوده وثلاثمائة من خيله.

أصبح في اليوم التالي قبل الفجر سيّد أرِمينيوم.

بلغَنا ذلك النبأ كما على جناح نسر ونحن في روما.

قيصر عبَر الرُبِكون، قيصر استولى على أرِمينيوم، قيصر يزحف على روما.

تلك كانت تلك الصرخة الرهيبة التي طالما تردّدت على أسماعنا في الحروب الأهلية:

مَريوس يزحف على روما!

Twitter: @ketab_n

سِلّا يزحف على روما!

فماذا كانت تعني تلك الصرخة؟ لوائح منبوذين ملصقة على الجدران كافّةً، الموت يداهم البيوت بلا استثناء، والدم يُسفك في كلّ شارع.

ولماذا تختلف الأمور هذه المرّة عن سابقاتها؟

فهل أُهين قيصر أقلّ ممّا أهين مَريوس أو سِلّا؟

على العكس، لم يتعرّض أحد لما تعرّض له قيصر من تحقير وقدح وكراهية.

ولذا لم تشهد روما يوماً مثل الإرهاب الذي شهدته وقتها. كلّ من كان يسكن على طريق قيصر، اندفع خارج بيته، فتغطّت الطرق بالهاربين المذعورين، برجال ونساء هائمين يجرّون خلفهم أولادهم، بعضهم في العربات يحملون ما استطاعوا من أمتعتهم النفيسة، وبعضهم الآخر على ظهور خيلهم، أو دابّين على الأقدام لا يحفلون إلّا بإنقاذ رؤوسهم صارخين:

- قيصر يجري إثرنا، ها قيصر قادم، ها هو أمامكم.

ومن كان يستطيع التكهّن بأنّ قيصر سيتصرّف برحمة؟

كان جميع هؤلاء الهاربين عَبر الطرق الرئيسية والدروب والحقول متوجّهين نحو روما.

وعمَّ عساهم يبحثون في روما؟ عن رجل يأملون منه أن يجابه قيصر: پُمپِيوس!

لكنّ الجنون قد عمّ بحيث أنّه، لسوء الحظّ، أصاب پُمپِيوس نفسه؛ فقد رمى مجلس الشيوخ عليه وزر ما حدث.

- أنت الذي عظّمت من قدر قيصر على حساب قدرك وعلى حساب الجمهورية؛ قال كاتون.

Twitter: @ketab_n

- لماذا رفضت كلّ عروض قيصر؟ قال شيشرون.
- أين جنودك يا پُمپِيوس؟ قال له فَفْورِنيوس وهو يستوقفه في الفوروم.
- ترى جيّداً أنْ لا جنود لديّ، أجابه پُمپِيوس هلِعاً.
- اخبِط الأرض بقدمك إذن، بما أنّك بخبطة قدم كنت تريد أن تنبثق لك الفيالق من الأرض.

والواقع أنّ پُمپِيوس كان يشعر أنّ الشعب كلّه مقبل نحو قيصر، وأنّ الأرض تنسحب من تحت قدميه، إلّا في حالة الفرار.

أمّا مجلس الشيوخ الذي كان پُمپِيوس أمله الوحيد، فراح يصيح حين رأى پُمپيوس يفقد حتّى أمله بالنجاة: «الفرار، الفرار!».

غير أنّه وَصم بالخيانة كلّ من لا يفرّ معه.

فرّ شيشرون مصطحباً ابنه وتاركاً زوجته وابنته في حماية دُلابِلّا، صهره الذي كان صديقاً ومناصراً لقيصر.

وفرّ كاتون وهو يُقسم أنّه لن يقصّ لحيته وشعره، ولن يضع تاجاً على رأسه، قبل أن ينال قيصر عقابه وتنجو الجمهورية من الخطر.

لَبيانُس، نائب قيصر الذي نال شهرة واسعة بفضل مُذكّرات قيصر، ذلك الإنسان الذي غامر قيصر بحياته في سبيله، والذي نقل ولاءه من قيصر إلى پُمپِيوس؛ لَبيانُس هذا فرّ.

لانتُلُس، ذلك القنصل وعدوّ قيصر الشرس، والذي طرد مَركُس أنطونيوس وكْوِنتُس كَسّيوس وشيشرون من مجلس الشيوخ، كان منشغلاً بسحب الأموال من الخزينة السرّية المودعة في هيكل سَتورنُس؛ وحين سمع من يقول: «ها هو قيصر! ها قيصر داخل روما من بوابة فلَمينيا»، فرّ هو أيضاً على وجه السرعة، بحيث أنّه نسي أن يغلق باب

Twitter: @ketab_n

هيكل سَتورنُس.

الجميع لجأوا إلى الفرار. ولو أتيح لإنسان أن يراقب إيطاليا من الجوّ، لظنّ أنّ الناس يفرّون من وجه حريق، أو فيضان أو وباء.

لن أنسى ما عشت منظر روما خلال تلك الأيّام الرهيبة. إنّك، بكلّ تأكيد، لتشعر بالأمان وأنت على ظهر سفينة بلا ربّان تخوض غمار بحر ينبئ بعواصف شديدة، أكثر ممّا تشعر به في روما المترعة بالإرهاب والهلع.

تساءل والدي لحظةً إن لم يكن علينا أن نفرّ مع الآخرين، أن نلتحق بهذا السيل الهادر في اتّجاه بْرُنديزيوم، ليعبر البحر فلا يتوقّف إلّا في اليونان.

لو لم نبع بيتنا في فِنُسيا للجأنا دون أيّ شك إلى بلدنا القديم سَمنِيوم. كان أبي لا يزال متردّداً، حين علمنا أنّ قيصر عدلَ عن سلوك الطريق إلى روما ليلاحق پُمپيوس.

سار بحذاء شاطئ بحر الأدرياتيك.

ثمّ سمعنا بأمور خارقة لا يمكن تصديقها.

قيل إنّه بعث إلى لَبيانُس، نائبه العاقّ، وصديقه العديم الوفاء، بأمواله وأمتعته.

قيل إنّ فرقة عسكرية أُرسلت لمحاربته فانضمّت إليه بدل أن تقاتله وسلّمته قائدها لوكيوس پُپيوس؛ وإنّ قيصر أطلق سراح لوكيوس پُپيوس، بدل أن يقتله، دون أن يلحق به أيّ أذى.

وقيل إنّ دوميسيوس إينوبَربُس، عدوّه اللدود، حين رأى أنّه على وشك الوقوع بين يديه في كُرفينيوم، طلب سُمّاً وجرعه، لشدّة تيقّنه من أنّ قيصر لن يغفر له؛ ومع ذلك فقد غفر قيصر له.

أمّا السمّ، فإنّ الموكل بإعداده أعطى دوميسيوس بدلاً منه شراباً غير

Twitter: @ketab_n

مؤذٍ، لاطمئنانه إلى عفو قيصر.

بل قيل أكثر من ذلك: إنّه أعاد لدوميسيوس مائة وستّين ألف فليبيّة من ذهب كان قد أودعها عند القضاة، مع علمه أنّ تلك الأموال لم تكن لدوميسيوس بل أموالاً مخصّصة لرواتب الجنود المرسلين لمحاربته.

وأخيراً كانت تسري في روما نسخة من رسالة كتبها قيصر وأرسلها إلى شيشرون عن طريق بَلبوس. وهذا نصّ هذه الرسالة التي يتضح من أسلوبها أنّها رسميّة:

«من قيصر القائد الظافر إلى شيشرون القائد الظافر، سلام.

لا، لم تخطئ قطّ، إنّك تعرفني تمام المعرفة حين قلت: «إنّ قيصر هو الرقّة مجسّدة، قيصر عاجز عن إراقة الدماء، ولا شيء أغرب على قيصر من الضراوة. إنّي سعيد وفخور -وأقرّ بذلك- أن يكون هذا رأيك بي. فقد قالوا إنّ بعض من أطلقتُ سراحهم آمنين سيستغلّون حريّتهم ليشهروا سلاحهم مجدّداً في وجهي. فليكن! فليفعلوا! ليكونوا كما هم، سأبقى كما أنا. ولكن عليك بأمر، افعل اللازم لكي ألقاك في أقرب وقت ممكن في روما، حتّى يتسنّى لي أن ألجأ إلى نصائحك، حسب عادتي، وأستفيد منك في شؤوني كافّةً. ولا أعزّ لديّ من عزيزك دُلابِلّا، فلا يخامِرْك أي شكّ في ذلك. سأدين له بنعمة أخرى، نعمة الاحتفاظ بك بقربي. يحدوني إلى ذلك إنسانيّته وحنوّه وسداد رأيه».

وفي نفس الوقت قيل إنّ الأخبار مُلفّقة، وقيل إنّ الرسالة منحولة.

كيف لقيصر، وهو الذي يُمثّل فئة من الناس عديمي الأخلاق ولصوصاً نهّابين، فئة المناصرين لِـگراكِس ومَريوس، فئة العوامّ، أن يعفو، بينما كان پُمپِيوس، وهو ممثّل الفئة الشريفة من الناس، پُمپِيوس رجل النظام والأخلاق والقانون، يعلن أنّ كلّ من لا يتبعه يُعتبر عدوّاً

Twitter: @ketab_n

له، ويصرّح بأنّه سيحكم على أنصار قيصر بالنبذ والجلد والشنق؟
وكيف تصدّق بعد ذلك كلّه قول قيصر:
- كلّ من لا يصرّح بمعاداتي أعتبره صديقاً لي؟
ومن جهة أخرى كانت تسري بين الناس، بموازاة رسالة قيصر، هذه الرسالة التي كتبها پُمپيوس.
كانت موجّهة إلى شيشرون، تماماً مثل رسالة قيصر. وإليك نصّها:
«من كْنِيوس الأكبر الوالي والقنصل الأسبق[1] إلى شيشرون القائد الظافر.
استلمت رسالتك؛ صحّتك على ما يرام، إنّي أهنّئك على ذلك. لقد لمست في ما تقوله لي إخلاصك الأصيل للجمهورية. القناصل التحقوا بجيشي الذي في أَپوليا. أُناشدك باسم هذه الوطنية الرائعة التي لم تتزعزع يوماً أن تأتي وتلتحق بنا، لكي نتشاور معاً حول أفضل التدابير التي يجب اتّخاذها في الوضع المؤسي الذي تشهده الجمهورية.
خذ طريق أپّيوس، وأدركنا في بْرُنديزيوم بأسرع ما تستطيع».
يتّضح من ذلك أمر واحد على الأقلّ، وهو أنّ پُمپيوس في بْرُنديزيوم.
وبعد ثمانية أيّام، عرف الناس أنّ قيصر يحاصر بْرُنديزيوم بستّة فيالق.
ثمّ بلغَنا ذات صباح أنّ پُمپِيوس غادر إيطاليا وأنّه في دِرّاكيوم.
راح قيصر ينظر من شاطئ البحر إلى السفن التي يستقلّها پُمپِيوس في فراره، دون أن يقدر على ملاحقته، لافتقاره إلى أسطول.
ثمّ قال وهو يستدير صوب إسبانيا:
- هيّا معي نحارب جيشاً بدون قائد، ثمّ نعود لمحاربة قائد بدون

(1) لقب pronconsul يُعطى للقنصل المنتهية ولايته والمُكلّف بمهمّة عسكريّة أو بإدارة أحد الأقاليم (المترجم).

Twitter: @ketab_n

جيش.

وحين غادر قيصر بْرُنديزيوم كان متوجّهاً في تلك اللحظة عينها نحو روما. في السادس من فاتح أبريل قضى ليلته في سِرنيِس، وفي الثامن منه في بِنِفِنتا.

وعلى كلّ حال، لم يعد كلّ ما قيل عن حلم قيصر موضع شكّ عند أحد.

لم يعد أحد يخشى على حياته أو حياة ذويه ولا على أمواله.

هدأت الأمور في روما، حين دخلها قيصر، بحيث أنّ شيشرون راح يقول إنّ الشرفاء من الناس عاودوا التعامل بالربا.

والواقع أنّ الشرفاء من الناس حين يعاودون التعامل بالربا، فالدنيا بخير.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

دخول قيصر إلى روما - أعاين قيصر؛ أوصافه - انتصاره - يغادر إلى إسبانيا - رسالة أنطونيوس إلى شيشرون - إخضاع إسبانبا، عودة قيصر إلى روما - إفلاس بنسبة خمسة وعشرين بالمائة - فرحة الدائنين - استياء المَدينين - مَركُس بروتُس ينضمّ إلى پُمپِيوس- قوّات پُمپِيوس - پُمپِيوس في معسكر دِرّاكيوم - قيصر في بْرُنديزيوم - يعبر الأدرياتيك وينزل في أَپّلونيا - وشوَشات جند قيصر - تألّمهم حين أدركوا أنّ قيصر قد غادر.

عند المساء، دخل قيصر روما بدون أيّ مظهر من مظاهر الأبّهة، وذهب للإقامة في بيته في طريق الظفر، وهو البيت الذي استملكه في فترة حبَريّته.

أنزل جيشه المؤلف من أربعين ألف جنديّ في معسكر في ضواحي المدينة، ودخلها بما لا يربو على خمسمائة رجل.

عرفَت روما بقدومه من أمر وجّهه إلى مجلس الشيوخ للانعقاد.

في اليوم التالي خرج من بيته على حصانه، غير أنّه وجد في الشارع حشداً هائلاً من الناس في انتظاره، اضطُرّ معه إلى تسليم حصانه إلى

Twitter: @ketab_n

السائس والذهاب إلى مجلس الشيوخ مشياً. وكان أبي قد أتى ليصطحبني، فذهبنا باكراً نتّخذ مكاناً على درجات هيكل آلهة المنزل، لعلمنا بأنّ قيصر سيمرّ أمامه بضرورة الحال.

أصرّ أبي على أن يُريني قيصر، بالرغم من أنّه من أنصار پُمپيوس.

كان قيصر قد تجاوز الخمسين، طويل القامة نحيفاً، ولكنّه قويّ البنية. بشرته بشرة امرأة من حيث بياض الجلد ورقّته. له عينان رائعتان تشعرانك بثباتهما وبعمقهما عمقَ نظرة النسر، وأنف مستقيم صلب، وفكّان بارزا المعالم يشبهان فكّي الكواسر والفاتحين. يقال إنّ صلعاً يعلو قمّة رأسه، لكنّي لم أستطع التأكّد من ذلك بسبب خوذة خفيفة بدون ريشة ولا عُفرة تغطّي رأسه. يحمل على جنبه سيفاً قصيراً، ويرتدي رداءً أبيض ذا حواشٍ ذهبية ومعطفاً من الأرجوان.

ليس في مظهره أيّ كِبَر أو خنوع. يمدّ يده للجميع، سوى أنّ أكثرهم لم يجرؤ أن يحظى بلمسها مكتفياً بملامسة ردائه أو تقبيل معطفه.

على طول الطريق الذي سلكه، من مخرج بيته وحتّى مدخل مجلس الشيوخ، كانت أغصان الغار تغطّي الطريق المقدّس، فلم تطأ قدمه قطّ، وأيم الحقّ، بلاط الشارع.

كان هتاف «يحيا قيصر!» على جميع الأفواه؛ ولو لم أشعر بيدِ والدي ترتعد غضباً، لاستسلمت للتيّار وهتفت معهم «يحيا قيصر!».

وقف قيصر أمام الشيوخ بتلك البساطة التي تظاهر بها وهو يمرّ أمامنا. لم تبدُ عليه إمارات التسلّط ولا إمارات التوسّل.

كان مظهره مظهر المتيقّن من صحّة مطلبه.

لم ينحُ قيصر في خطابه منحى المفتخر بنفسه، ولا منحى الساعي إلى تبرير موقفه. اكتفى بسرد الوقائع كما هي وببساطة، وذكّر الشيوخ بأنّه لم

Twitter: @ketab_n

يطمح إلى أيّ منصب لا يُتاح للمواطن الروماني، وأنّه انتظر انقضاء المدّة التي تفرضها القوانين للترشّح للقنصلية مرّة أخرى. كما ذكّر بكلّ ما فعله ليتوصّل إلى حلّ مُرضٍ مع پُمپيوس. أشار إلى الفرق بين سلوكه وسلوك أعدائه؛ وأكّد أنْ ليس للمواطنين، أيّاً كانت مواقفهم، أن يخشوا اضطهاده لأحد؛ ثمّ رجا مجلس الشيوخ أن يرعى معه مصلحة الجمهورية، مضيفاً أنّه، في حال امتناع المجلس عن مساندته، سيتدبّر الأمر وحده، وأردف مبتسماً أنّه أقدر على الاستغناء عن مجلس الشيوخ من هذا المجلس على الاستغناء عنه.

ثمّ عاد إلى منزله محفوفاً بهتافات التأييد التي رافقته عند خروجه منه.

سبق أن قلنا إنّ قيصر لم يعد إلى روما ليبقى فيها؛ فقد كان على وشك مهاجمة پُمپيوس في إسبانيا.

تذكُرون ولا بدّ أنّ إسبانيا سُلّمت إلى پُمپِيوس بعد التوافق الذي تمّ أثناء 'حكومة الثلاثة'، وأنّ بلاد الغال أعطيت في نفس الوقت لقيصر وسوريا لكْرَسُّس.

إسبانيا هي اغلى أقاليم روما على قلب پُمپِيوس، ففيها أفضل نوّابه: أفرانيوس، پِترِيوس وتِرَنسيوس ڤارو.

كان قيصر يحتاج إلى المال، فلاحت له فكرة لاحت من قبلُ للقنصل لانتُلُس: أن يأخذه من الخزينة العامّة، أي من هيكل سَتُرُنس.

غير أنّ دماثته التي لم تُفهم على حقيقتها أتت أُكلها: إذ ظنّ الكثيرون أنّ رحمته ناجمة عن خوف، ممّا جعلهم يتجرّؤون على الوقوف في وجهه.

نجم عن ذلك أنّ قيصر وجد، وهو أمام باب هيكل سَتُرُنس، المدافع عن الشعب مِتِلُّس يوعز إليه بعدم المساس بالذهب المودع فيه. فسأله قيصر:

Twitter: @ketab_n

- ولماذا إذن؟ فردّ مِتِلُّس:

- لأنّ القوانين تحظره.

فأجاب قيصر وهو يهزّ كتفيه:

- أيّها المدافع عن الشعب، ينبغي لك أن تعرف أنّ هيكل السلاح هو قطعاً غير هيكل القانون.

ثمّ حين رأى أن مِتِلُّس لم يُبدِ استعداداً للرضوخ، أضاف قيصر:

- خذ حذرك! لأسهلُ عليّ أن آمر بقتلك من أن أقول لك إنّي سأفعل ذلك.

أخلى مِتِلُّس الطريق له، فدخل قيصر هيكل سَتُرْنُس ووجد الخزينة مفتوحة ولكن على حالها.

تناول منها ثلاثة آلاف ليرة ذهبيّة.

حين أخذوا عليه لاحقاً أنّه فتح أبواب الخزينة عنوةً، أجاب:

- قسماً بجُپِّير! لم أحتج قطّ إلى فتحها عنوة، إذ أنّ الخشية اعترت القنصل لانتُلُس بحيث أنّه تركها مفتوحة.

في تلك الأثناء كان قيصر يتأسّف على غياب شيشرون.

لقد ذكرنا كيف كان الجميع يريد شيشرون إلى جانبه؛ پُمپِيوس يشدّ به إليه، وكذلك قيصر.

فبما أنّ قوّتين متساويتين تتلاغيان، كما يقول أوكلِديس، لم يلتحق شيشرون لا بقيصر ولا بپُمپِيوس.

بقي في كومِس.

لاح لقيصر أنّ ما يمنع شيشرون من حسم أمره لصالحه هو حضور مَرکُس أنطونيوس إلى جانبه. إذ أنّ مَركُس أنطونيوس، كما تذكرون، هو ربيب لانتُلُس الذي أمر شيشرون بخنقه أثناء مؤامرة كتِلينا، زوج فُلڤيا،

Twitter: @ketab_n

وهي أرملة كلوديوس الذي قتله أَنّيوس ميلو.

وكان أنطونيوس ذا قلب لا يعرف الضغينة، فأخذ ريشته وكتب لشيشرون:

«من مَركُس أنطونيوس، المدافع عن الشعب والمشرف على العدالة سابقاً، إلى شيشرون القائد الظافر، سلام.

لو لم أكن أحبّك، يا شيشرون، أكثر ممّا يحلو لك أن تظنّ، لما حفلت بإشاعة تسري هنا لا أجد فيها ذرّة من الصحّة. وكلّما زاد تعلّقي بك، ازداد معه اقتناعي بأنّ من حقي أن أهتمّ بهذه الإشاعة، مع أنْ لا شيء يبرّرها.

إنّك مُقدم على عبور البحر، تاركاً عزيزَيك دُلابلّا وتُلّيا الغاليَين على قلبك. أنت الذي لا أعزّ منه على قلوبنا جميعاً، أقسم لك، بحقّ هِرَقل، أنّ شرفك ومنزلتك يهمّاننا كما يهمّانك.

أُصرّ على أن تقتنع، يا شيشرون، أنْ ليس لأحد -فيما عدا قيصر- ما لك من المودّة في قلبي، وأنْ لا أحد، عند علمي، يرجو قيصر منه الوفاء أكثر ممّا يرجوه منك.

أناشدك إذن، أيّها العزيز شيشرون، ألّا تسلك أيّ مسار قد يُلزمك نهائيّاً؛ واحذر من سبق له أن جحد جميلك إلى هذه الدرجة؛ ولا يجوز لك، بغية اتّباع هذا العاقّ، أن تهرب، كما من عدوّ، من وجه رجل -فرضاً أنّه لم يحببك قطّ- لا يزال يودّ، لشدّة تقديره لمنزلتك، أن يراك صاحب منعة وموضع تكريم.

أبعث لك بهذه الرسالة مع كَلپورنيوس، صديقي الخاصّ، لكي تدرك مدى اهتمامي بكلّ ما يمتّ إلى خلاصك ومجدك بصلة».

كلّ تلك التوسّلات باءت بالفشل: فقد أصبح قدر شيشرون مسطّراً

Twitter: @ketab_n

في كتاب الأقدار. انطلق إلى كومِس حوالى بداية يونيو، وفي الحادي عشر من الشهر ذاته كتب إلى زوجته تِرَنسيا، من مرفأ گَيت، أنّه تقيّأ مرارته للحال فزال بذلك التوعّك الصحّي الذي منعه من مغادرة إيطاليا، راجياً منها، وهي الزوجة التقيّة، أن تقدّم قرباناً لأپُلّون وإسكولَپِس.

وفيما كان شيشرون يبحر من گَيت، كان قيصر يتوجّه إلى إسبانيا. بقي في إسبانيا حوالى سبعة أشهر. وبسبعة أشهر، استسلمت إسبانيا كليّاً. ولدى عودته إلى روما، عيّنه مجلس الشيوخ حاكماً مطلق الصلاحيات.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع (تابع)

عندما أُعلن عن تنصيب قيصر حاكماً مطلق الصلاحيات، راح الناس يترقّبون البدء بقرارات النبذ.

لم يحصل شيء من ذلك. ما حصل هو العكس، فأوّل مرسوم أصدره قيصر هو استدعاء المنبوذين.

فرجع إلى روما كلّ من تبقّى من المنفيّين حتّى من نُبذ في عهد سِلّا.

وأُعيدت أموال المنبوذين المستولى عليها إلى أولاد من مات منهم في المنفى.

وصدر مرسوم اللوائح الجديدة، يقضي بإفلاس ضئيل، قدره خمسة وعشرون بالمائة، لصالح المَدينين، رضي عنه الجميع، حتّى الدائنون الذين كانوا يخشون إفلاساً بخمسة وسبعين بالمائة بل مائة بالمائة.

وفي اليوم الحادي عشر من تنصيبه حاكماً مطلق الصلاحيات، انتُخب قنصلاً مع سِرفيليوس إيزَورِكُس، الذي أشار عليه قبيل الانتخاب بنصيحة مفيدَة: أن يزحف حالاً على پُمپيوس.

نصيحة من تلك النصائح التي لا يُدلى بها إلّا لقيصر وحده.

وبما أنّ قيصر ترك جيشه في إسبانيا، توجّب عليه أن يعبّئ جيشاً آخر؛ وفي المقابل، كان لپُمپيوس، المقيم منذ حوالى سنة في دِرّاكيوم، متّسع من الوقت ليجمع جيشاً رائعاً.

لم يكن له شاغل آخر، في حين كان قيصر يُخضع إسبانيا، يستولي على

Twitter: @ketab_n

مرسيليا، يقضي على الشغب، يُعيد الاستقرار إلى روما، يُعيد المنبوذين، يدبّر فوائد الدائنين والمَدينين.

وجد الجميع الوقت اللازم للالتحاق بپُمپيوس: كاتون وشيشرون وحتّى مَركُس بروتُس، الذي قتل پُمپِيوس أباه قديماً عندما كان پُمپِيوس نائباً لسلّا.

ردّ بروتُس آنذاك على من استغرب سلوكه، بقوله:

- إن مَركُس بروتُس من هؤلاء القوم الذين يُضحّون دائماً بضغينتهم في سبيل الوطن.

وهكذا قام وطنان: وطن أرستقراطيّ لدى پُمپِيوس، ووطن ديمقراطيّ لدى قيصر.

فكيف لي، وأنا ابن لُمعتَق، أن أفضّل الوطن الأرستقراطيّ على الوطن الديمقراطيّ، پُمپِيوس على قيصر؟ سأتعرّض إلى ذلك عندما أصير إلى الحديث عن أثينا وعن دراستي مع كاتون الابن وشيشرون الابن.

وواقع الحال أنّه كان لپُمپِيوس، كما ذكرنا، جيش رائع.

كان له أوّلاً أسطول ضخم استمدّه من السِكلاد وكُرسيرِس وأثينا، والپونتس وبِتينيا وسورية، من قليقيا وفينيقيا ومصر.

ابنه سِكستُس، الذي شارك مع گبينُس وأنطونيوس في الحملة التي أدّت إلى استعادة بطليموس أَوليتِس عرشه، كان لا يزال في مصر.

توفّي بطليموس أَوليتِس بعد عام من الحكم فخلفته ابنته كلِيوپَترا.

أصبح سِكستُس عشيقاً للملكة الشابّة وحصل منها على عدد كبير من السفن أعان بها والده.

والنتيجة أنّ أسطول پُمپِيوس بلغ خمسمائة سفينة حربيّة، ما عدا المراكب الشراعيّة والمنشآت الخفيفة.

Twitter: @ketab_n

أمّا الجيش البرّيّ فمؤلّف من تسعة فيالق:

خمسة من إيطاليا انضمّت إلى پُمپيوس وهو في دِرّاكيوم؛ فيلق قديم من صيقلّية يسمّى التوأم باعتباره مكوّناً من بقايا فيلقين آخرين؛ فيلق قادم من كَنديا ومقدونيا مؤلّف من قدامى المحاربين المقيمين في اليونان.

وأخيرا فيلقان عبّأهما لانتُلُس، في آسيا، وهو من قاوم بضراوة بالغة كلّ التسويات الممكنة بين پُمپِيوس وقيصر.

وإضافة إلى ذلك، أتى سِپيون، وهو حمو پُمپيوس، بفيلقين من سوريا.

ويضاف إلى هؤلاء ثلاثة آلاف نبّال وفريقان من حملة المقاليع، يعُدّ كلّ منهما ستّمائة رجل.

وكانت الخيّالة مؤلّفة من أربعة عشر ألف رجل، نصفهم من نخبة الخيّالة الرومانية والنصف الآخر من الحُلفاء.

أمّا المال فكان منه فيض كثير.

صناديق المرابين في روما وُضعت تحت تصرّف پُمپِيوس، وكذلك كنوز مرزبانات الشرق. فالشرق شرعاً في حوزة من انتصر على مِترِداتِس.

وكذلك اليونان بذلت جهداً متناهياً، إذ كانت تخشى قيصر، تخشى جيشه المؤلّف من برابرة الناس، وترتعد لذكر الغاليّين الذين نهبوا دِلفِس.

ولتأمين المؤن، هناك أهراء أوروبا: مصر وبلدان آسيا.

وكان لپُمپِيوس كذلك السيادة على البحر، من جرّاء أسطوله الرائع الموزّع على ستّ عمارات.

فهناك عمارة مصر تحت إمرة سِكستُس پُمپِيوس الشابّ، وسنراه لاحقاً، عند تتويجه ملكاً على البحر المتوسّط، يطلق على نفسه لقب ابن نِپتونُس.

وعمارة آسيا تحت إمرة لِليوس وتريازُس.

Twitter: @ketab_n

وعمارة سوريا، تحت إمرة كَسّيوس.
وعمارة رودُس تحت إمرة مَرسِلُّس پُمپونيوس.
وعمارة إلّيريا وأركايا تحت إمرة ليبون وأُكتافيوس.

وأمّا ببولُس، ذلك الأحمق والشجاع في آن، ببولُس صهر كاتون، فكان يقود العمارات كلّها، وبالتالي الأسطول بأكمله.

درّب پُمپِيوس جيشه طوال السنة، وأمر بتدريب الأسطول.

فقد استعاد ذلك القائد العجوز -وكان الناس يظنّونه متراخياً بما تمتّع به من لذائذ في قصره على هضبة أَلبينُس- وهو في السادسة والخمسين من عمره نشاط الشباب؛ إذ كان بين جنوده يقوم بما يقومون به من تدريبات، تارةً يمشي معهم وتارةً يحمل السلاح، وتارةً أخرى يمتطي حصانه منطلقاً بأقصى سرعته، يستلّ سيفه ثمّ يغمده، ويرمي الرمح إلى مسافة بعيدة وبقوّة لم يقوَ أشدّهم مراساً على مجاراته فيهما.

أمّا قيصر، الذي راح يهرول حتّى أقاصي إسبانيا ويخترق بلاد الغال وإيطاليا، فقد بلغ بْرُنديزيوم شبه وحيد، بدون عدّة ولا مؤونة، وفي فصل العواصف.

هناك جمّع حوالى عشرين ألف رجل، أي ما يكاد يساوي سدس من كان مع پُمپِيوس؛ وقال لهم:

- أيّها الرفاق، لقد أتيتم معي لتنجزوا أعمالاً عظيمة، أليس كذلك؟ إذن، من عقد عزمه كليّاً على هذا الأمر ينبغي ألّا يقيم أيّ اعتبار لا للشتاء ولا للعواصف. هؤلاء لا ينبغي أن يصمد أمامهم شيء: لا نفاد المؤن، ولا قلّة المعدّات ولا بطء رفاقهم. ففي حالتنا الراهنة، الأمر الوحيد الضروريّ للنجاح هو الإسراع.

فلندَع إذن هنا أمتعتنا وخدمنا وعبيدنا؛ ولنركب أوّل سفينة نجدها،

Twitter: @ketab_n

شرط أن نجد من السفن ما يكفي لنقلنا كما نحن؛ ولنستغلّ الشتاء الذي يَطمئنّ إليه أعداؤنا لنقع عليهم آنَ لا يتوقّعون ذلك على الإطلاق.

نحن قلّة، فليكن! الشجاعة تعوّض عن القلّة.

يبقى أمر المؤونة.

فمعسكر پُمپِيوس يذخر به: فلنطرد پُمپِيوس من معسكره، ولن ينقصنا شيء من بعد، يصبح العالم ملك أيدينا.

تذكّروا فقط هذا الأمر: نحن مواطنون وأمّا مَن هم في مواجهتنا فعبيد.

والآن من لم يشأ أن يغامر في سبيل القدر الذي يطمح إليه قيصر، فله كامل الحريّة في أن يتخلّى عن قيصر».

أجابه هتاف حماسيّ وبالإجماع:

- هيّا ننطلق!

انطلقوا، وبعد ثمانية أيّام، بدون مؤن وبدون معدّات حربيّة ودون انتظار وصول الفرق المتبقيّة التي ضرب قيصر لها موعداً في بْرُنديزيوم، ركب قيصر قرابة خمسين سفينة، كان عليها ما إن تقلّ الجنود إلى إلّيريا أن تعود فوراً لتأتي بالفيالق المتبقيّة. تسلّل قيصر بين أسطول بِبولُس ونزل قريباً من أَپُلّونيا في مكان خال وسط الصخور، إذ كانت المرافئ كافّةً في حراسة أنصار پُمپِيوس.

أتى يحاصر، بخمسة وعشرين ألف رجل، جيشاً قوامه مائة وخمسون ألف رجل.

صحيح أنّ الرجال كانوا يتوافدون من كلّ أقاليم غرب إيطاليا. انطلق هؤلاء من ضفاف سيكُرِس عابرين غاليا النربونيّة والتي ما وراء الألپ. توقّفوا في روما، وفي محطّتهم هذه سُمِعوا يقولون عن قيصر:

Twitter: @ketab_n

- إنّ هذا الرجل لمجنون! حتّى متى يبقى يجرّنا في أثره؟ ومتى يدَعنا نسترخي قليلاً؟ أيظنّ أنّ لنا أجساداً من برونز وكواحل من حديد حتّى يدفع بنا من طرف الدنيا إلى طرفها الآخر؟ حتّى البرونز والحديد ينبريان. لا بدّ للسيوف وللدروع من قليل من الراحة: للدروع لكي تقاوم وللسيوف لئلّا تنثلم. ينبغي على قيصر وهو يعاين جراحنا أن يدرك أنّنا بشر لا أكثر. حتّى الآلهة تسأم من القيام بما قمنا به. يبدو كأنّه، في سرعة سيره، يفرّ من عدوّه بدل أن يلاحقه. ارأف بنا، يا قيصر! نمدّ إليك أذرعنا؛ كفانا، كفى، يا قيصر!

عندها، كان النقباء ورؤساء المائة ورؤساء الألف يجيئونهم قائلين:

- سيروا! قيصر ينتظركم في بْرُنديزيوم.

وكان هؤلاء الرجال يستأنفون السير متثاقلين، متذمّرين يلعنون قيصر، ولسان كلّ منهم يقول إنّهم لن يبلغوا بْرُنديزيوم إلّا ليموتوا فيها أو يثوروا ضدّ قيصر.

حين بلغوا بْرُنديزيوم يهدّهم التعب مُنهكين، مُشرفين على الموت، أُعلموا أنّ قيصر قد غادر؛ فانتصب هؤلاء الرجال وهم يبكون من الغضب وارتدّوا على قادتهم قائلين:

- اشهدوا، قيصر لم ينتظرنا. الغُرمُ عليكم، كان ينبغي لكم أن تستعجلونا ونحن سائرون على الطرقات، بدل أن تدعونا نستريح وننصب خيمنا وننام شأن الجبناء والكسالى. آه! ما أتعسنا! لقد خنّا قائدنا!

ولم يكن هؤلاء الرجال يأملون إلّا في أن تعود، على جناح السرعة، تلك السفن الخمسون التي أقلّت رفاقهم إلى الضفّة الأخرى من الأدرياتيك، لكي تقلّهم هم أيضاً ليصلوا في موعدهم فينتصروا مع قيصر أو يموتوا معه.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

بشائر يُمنٍ بالنسبة إلى قيصر - نُذُر شؤم بالنسبة إلى پُمپِيوس - إنّك تحمل قيصر وأقداره - بخمسين ألف رجل لا غير، قيصر يحاصر پُمپِيوس ورجاله المائة ألف - خبز جند قيصر - كُولِيوس وأَنيوس ميلو - موتهما - فشل قيصر - قيصر ينسحب من المعركة - پُمپِيوس يلاحق قيصر - الحرب تنتهي أو تكاد - كاتون يبكي - قيصر يتوقّف في فَرسالا - الفأل يعِد قيصر بالنصر - الفأل مناوئ لپُمپِيوس - قيصر يحسم أمره بخوض المعركة - يعطي إشارة البدء بالمعركة.

لم تكن عيون روما وحدها ولا عيون إيطاليا وحدها مُصوّبة نحو هذه القرنة الصغيرة من إلّيريا، بل عيون العالم بأكمله.

فالقضيّة لا تعني فقط روما وإيطاليا، بل العالم بأكمله.

القضية بسيطة وهائلة في نفس الوقت.

هل تنتصر الأرستقراطية مع تلميذ سِلّا؟

هل ينتصر الشعب مع ابن أخي مَريوس؟

هل تغرق إيطاليا في مراسيم النبذ وفي الدم مع پُمپِيوس؟

هل يتعرّض الكون لحلم قيصر؟

Twitter: @ketab_n

كانت علامات الفأل مؤاتية لقيصر؛ وكان تأثيرها لا يزال نافذاً لدى الشعب، مع أنّنا بدأنا في عصرنا نعرف حقيقة قدْرها.

إليكم ما حصل في روما.

قدّم قيصر، عند مغادرته روما، قرابين للإلهة فُرتونا[1].

وكان أنّ الثور المقود إلى المذبح فرّ وهرب إلى خارج المدينة؛ اعترضه مستنقع فعبره عوماً.

استقدم قيصر العرّافين وقال لهم:

– إلى ماذا يشير هذا؟ فأُجيب:

– يشير إلى أنّه ينبغي لك، نظير هذا الثور، أن تغادر روما، وأن تعبر مثله البحر، ذلك المستنقع الفسيح الذي يفصلك عن پُمپِيوس.

هذا ما أمدّ قيصر بالشجاعة، وهو أكثر الناس إيماناً بالطّالِع. نعم، هذا ما حمله على عبور الأدرياتيك بخمسة وعشرين ألفاً من رجاله، دون أن ينتظر وصول بقية جنده.

ثمّ حدث، بعد مغادرته، أمر آخر.

انقسم أبناء روما ما بين مناصر لپُمپيوس ومناصر لقيصر، وبلغ بهم الأمر خوض معركة عظيمة بالحجارة والعصيّ، هُزم فيها أنصار پُمپِيوس.

كان لي في هذه الحرب الصغيرة دور متميّز، إذ عيّنني رفاقي، المناصرون لپُمپيوس، ممثّلاً لأنوب منابه.

أصابني حجر في ركبتي، بقيت أعرِج بسببه مدّة شهر.

وفي دِرّاكيوم، حصلت نُذُر أخرى أشدّ أهميّة.

فقد قرّ رأي پُمپِيوس، حين علم بقدوم قيصر وبقلّة صحبه، أن يزحف عليه ليسحقه.

---

(1) الإلهة التي تتحكّم بالحظّ عند الرومان (المترجم).

Twitter: @ketab_n

غير أنّ نهرين، ينبعان من جبال كَوداڤِس، كانا يقطعان الشاطئ ما بين درّاكيوم وأَپُلّونيا، هما: نهر جِنوزُس ونهر أَپسُس.

سارت الأمور على ما يرام عند نهر جِنوزُس، فقطعه قيصر بدون مشكلة.

أمّا نهر أَپسُس فكانت طلائع جيش قيصر مقيمة على ضفّته المقابلة.

طلب پُمپِيوس من متطوّعَين أن يسبرا غور النهر.

بينما كان الجنديّان يخوضان النهر من ضفّته اليمنى، كان أحد جنود قيصر يندفع فيه من الضفة الأخرى عائماً متفوّقاً على تيّاره، فهاجم جنديَّي پُمپِيوس وقتلهما.

حين أدرك پُمپِيوس أنّ النهر أعمق من أن يُجتاز مشياً، قرّر أن يقيم فوقه جسراً.

تركه قيصر وشأنه، عازماً أن يهاجم من يستطيع عبوره من جند پُمپِيوس، في الوقت المناسب.

ما إن اعتلى الجسر من الطرف الآخر ثلاثمائة رجل حتّى انهار الجسر، ووقع كلّ من عليه وغرقوا.

أمّا من عبر منهم إلى الضفّة الثانية، فقد فتك قيصر ببعضهم واستسلم الباقون.

اعتبر پُمپِيوس هذين الحدثين بمثابة نذيرَي شؤم فتراجع.

بعد ذلك ببضعة أيّام، وصل أنطونيوس مستقدماً معه الجنود الخمسة والعشرين ألفاً، أو الثلاثين ألفاً، الذين خلّفهم قيصر وراءه.

وكان قيصر بأمسّ الحاجة إلى هؤلاء الجنود، واستأبطأ قدومهم، فحزم أمره على الذهاب بنفسه ليأتي بهم. تنكّر بزيّ عبد وارتمى في سفينة تُقلّ خمسمائة أو ستّمائة راكب إلى بْرُنديزيوم.

Twitter: @ketab_n

كان لا بدّ لهذه السفينة، حتّى تبلغ البحر، من أن تهبط نهر أَوويِس، الذي تقع أپلّونيا على ضفّتيه، على مسافة ميل أو ميلين.

كانت الريح الآتية من عرض البحر ترمي بموج الأدرياتيك داخل النهر بعنف شديد، لم يعد الربّان يقوى معه على كسر حاجز الموج، فأمر بالانكفاء إلى أپلّونيا.

عندئذ وقف قيصر وأمره، بنبرة آمرة، غير آبه بزيّ العبد الذي يرتديه، بأن يستأنف طريقه.

كان في صوته من السلطان ما منع الربّان حتّى أن يسأل قيصر من يكون ليتكلّم بهذه النبرة الآمرة. واكتفى بالقول:

- إنّك ترى أنّ المعاندة بالخروج إلى البحر، والريح على ما هي عليه، إنّما هي مغامرة بحياتنا.

عندها كشف قيصر عن وجهه المخبّأ نصفه وراء معطفه، وتفوّه بهذه الكلمات التي أصبحت مذّاك شهيرة:

- لا تخشَ شيئاً، أيّها الربّان، إنك تُقلّ الآن قيصر وقدَره.

وفعلاً خرجت السفينة إلى البحر. غير أنّ البحر، الذي كان أقلّ انصياعاً من النهر لقدر الحاكم المطلق الصلاحيات، قذف به وبسفينته على الشاطئ.

ومع ذلك لم يخنه الحظّ: فقد بلغ المعسكر دون أن يقع في قبضة أحد؛ وبعد ثمانية أيّام، راح پُمپيوس يتقهقر أمام نُذُر الشؤم. في اليوم الثاني لتراجع پُمپيوس، وصل مَركُس أنطونيوس مع جنوده الثلاثين ألفاً.

فكان أنّ قيصر هو من قرّر حينئذ الهجوم بجنوده الخمسين ألفاً.

سرعان ما بلغ روما ذلك النبأ الذي لا يُصدّق: إنّ قيصر يحاصر بخمسين ألف جنديّ پُمپِيوس بجيشه الذي يضمّ مائة ألف.

Twitter: @ketab_n

فعلاً كان قيصر يحاصر پُمپِيوس، بعد أن تسلّل بين پُمپِيوس ودرّاكيوم فعزله عن المدينة.

ثمّ أنشأ خطّاً طوله ستّة أميال، وبنى ستّة وثلاثين حصناً عند مؤخّرة الجبال التي كان پُمپِيوس يحتلّ قممها.

إلّا أنّ المحاصِرين كان يعوزهم كلّ شيء، بينما المحاصَرون يعيشون في الوفرة.

فالمحاصَرون المحصورون على شاطئ البحر، كان تحت تصرّفهم أسطول يمدّهم بالمؤن.

اعتاد قيصر وهو في بلد عدوّ أن يقتات بالشعير والخضار، مع صنف من الخبز مصنوع من عروق اكتشفها الجند وهم في سردينيا واقتاتوا بها.

ومع أنّ هذا النوع من الخبز لم يكن يفيض عن الحاجة، فإنّ هؤلاء الرجال القادمين من الشمال ومن الشرق -من هِلفيسيّين وغاليّين وألّوبرُجيّين- ببطونهم المحتاجة إلى طعام مغذٍّ أكثر ممّا نحتاجه نحن أهل الجنوب، كانوا يرمون بخبزهم من فوق تحصينات پُمپِيوس، لكي يفهم هؤلاء الفرسان المتأنّقون، هذه الشبيبة الناعمة، هؤلاء الشّبان الأنيقون الملقّبون بـتْرُسّولي[1]، من أيّ غذاء كان يعتاش جند قيصر.

وقد أمر پُمپِيوس بإخفاء هذا الخبز حتّى لا يعرف أبداً هؤلاء الـتْرُسّولي، هذه الشبيبة المتأنّقة، هؤلاء الفرسان الناعمون من هو ذلك الصنف من البرابرة، من هم أولئك الوحوش المفترسة التي عليهم أن يحاربوها يوماً ما.

في تلك الأثناء كانت الفتن تعصف بنا في روما.

وأمّا مُسبّب الاضطرابات القائمة في غياب قيصر فهو المدافع عن

---

(1) المفردة اللاتينية هي *trossuli* أي الشبيبة الأرستقراطية الوافدة من مدينة ترُسُلُم (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الشعب كُولِيوس.

وما كان سبب تعكّر مزاج كُولِيوس؟

ذاك ما عرفته بعد فترة طويلة، من رسالة للمؤرّخ سَلّوست، صاحب الحدائق الرائعة، كتبها لقيصر.

إليكم هذه الرسالة:

«قوم مُتلوّثون بالانحلال وبالجرائم، اعتقدوا أنّك مزمع على تسليمهم أمر الجمهورية، فأتوا بحشودهم إلى معسكرك، وهم يهدّدون المواطنين المسالمين بالنهب؛ وليس فقط بالنهب بل وبالقتل وبكلّ ما يمكن توقّعه من تلك النفوس المُنحطّة. وعندما أدركوا أنّك لن تعفيهم من توفية ديونهم، ولن تسلّمهم المواطنين كما يُسلَّم الأعداء، تركوا كلّ شيء وذهبوا؛ سوى فئة صغيرة منهم ظنّت أنّها واجدة في معسكرك من الأمان أكثر ممّا تجده في روما، وذلك من شدّة خوفها من دائنيها. ولكنّك لا تستطيع أن تصدّق كم من الرجال ومن الناس كفّوا عن موالاتك ليوالوا پُمپِيوس ويختاروا معسكره ظنّاً منهم أنّهم يجدون فيه الملجأ المنيع ضدّ دائنيهم.»

من هؤلاء الرجال الذين انتقلوا من معسكر قيصر إلى معسكر پُمپِيوس: كُولِيوس.

إنّه لرجل ظريف كُولِيوس هذا. فهو القائل ذات مساء لأحد المتطفّلين عليه، وكان هذا يظنّه مُلزماً باعتناق رأيه لمجرّد أنّه يتناول معه وجبة العشاء:

- بحقّ هِرَقل! قل مرّة واحدة 'لا'، لنصبح اثنين.

رافق كُولِيوس قيصر إلى إسبانيا سابقاً، وعاد مع قيصر إلى روما. وكان يأمل الإفادة من مرسوم اللوائح الجديدة.

Twitter: @ketab_n

ولم يحصل ذلك على الإطلاق. إذ أنّ قيصر لم يسمح سوى بإفلاسٍ بنسبة خمسة وعشرين بالمائة. ولم يكن ذلك ليرضي كُوِليوس. فدفْعُ خمسة وسبعين بالمائة يعني بالنسبة لكُوِليوس خمسة وسبعين بالمائة ممّا ليس في حوزته. كان يحتاج إلى إلهاب عواطفه حتّى لا يدفع شيئاً من ديونه على الإطلاق.

طلب كُوِليوس، بُغيةَ بلوغ مأربه، أن يوضع مقعده قرب مقعد زميله كَيوس ترِبونيوس، المكلّف إقامة العدل بين المواطنين.

ثمّ أعلن أنّه لن يتلقّى شكاوى الدائنين بل شكاوى المَدينين.

فلم يقدّم أحد شكواه.

ثمّ اقترح مرسوماً يقضي أنّه بوسع المَدينين وفاء الخمسة والسبعين بالمائة من ديونهم على ستّة أقساط وبدون فائدة.

غير أنّ القنصل سرِفِلُس نَوسِكُس، الذي عيّنه قيصر وكلّفه بحفظ السلام أثناء غيابه، عارض اقتراح كُوِليوس.

فقدّم كُوِليوس اقتراحاً آخر.

يقول الاقتراح إنّه، ما دامت الحرب قائمة بين قيصر وبُمبِيوس، لا يمكن إجبار المستأجرين على دفع إيجاراتهم.

أيّده هذه المرّة جميع المستأجرين، ووقف ضدّه جميع الملّاكين، فحصل على مبتغاه: إثارة القلاقل.

أمّا المشرف الثاني على العدالة، ترِبونيوس، فقد دفعه أحدهم عن مقعده فتعثّر وسقط أرضاً على درجات المحكمة، فانفجّ رأسه.

أمر القنصل عندئذ بطرد كُوِليوس من مجلس الشيوخ.

أراد ترِبونيوس أن يخطب في الشعب، فاعتلى المنبر المُعدّ للخطابة، غير أنّ مرافقي القنصل أنزلوه عن المنبر.

Twitter: @ketab_n

فبعث إلى أَنّيوس ميلو، قاتل كلوديوس، الذي كان يأكل أشهى التين في مرسيليا بفضل شيشرون، من يقول له إنّ الوقت قد حان ليعود إلى إيطاليا ويدعو أهل الإقليم إلى الثورة باسم پُمپِيوس.

سارع أَنّيوس ميلو إلى قبول هذا الاقتراح. فعبّأ حوالى مائة رجل واجتاز الألپ، لا فرق بينه وبين هنيبعل.

التحق به كُولِيوس مع بضعة مصارعين، وراحا يجوبان الأقاليم ويعلنان أنّ الديون قد أُلغيت.

لم يكن إلغاء الديون كافياً في نظرهما؛ كانا يسعيان إلى النهب.

استطاع ميلو أن يُفلت حوالى ألف عبد، وراح بجيشه الصغير هذا يضرب الحصار على إحدى مدن منطقة كَلَبريا.

غير أنّ المدافع عن الشعب كْوِنتُس پيديوس، الذي كان محاصَراً في المدينة مع بضع مئات من رجاله، رماه من فوق السور بحجر أصاب رأسه، فقتله.

وكذا فعل كُولِيوس من جهته.

ضرب الحصار حول توريوم. لكنّه، لشدّة ثقته بفصاحته، تقدّم نحو مجموعة من الفرسان الإسبان والغاليّين، واقترح عليهم أن يتخلّوا عن خدمة قيصر ليدخلوا في خدمة پُمپِيوس.

بدا اقتراحه هذا لأحد هؤلاء الفرسان غير نزيه، فطعنه بسيفه وأرداه قتيلاً.

فها روما قد استعادت هدوءها. بعد أن انصرفت الأنظار لحظةً عن پُمپِيوس وقيصر لتتّجه صوب كُولِيوس وأَنّيوس ميلو، ها هي تعود إلى پُمپِيوس وقيصر.

كانت أمور قيصر تسيء.

Twitter: @ketab_n

فقد سُمع أنّ پُمپِيوس فكّ الحصار المضروب حوله وراح يُعمل السيف في رقاب نصف جنود قيصر، وأنّ قيصر فرّ مع من تبقّى من جيشه صوب تِسّاليا.

كان اليوم يوم عيد عند أنصار پُمپِيوس.

بعد خمسة عشر يوماً، ها هو نبأ آخر ينفجر وسط الفوروم.

فحْواه: تجابَه الجيشان في فَرسالا، فأُبيد جيش پُمپِيوس، ولا أحد يعرف مصير پُمپِيوس.

هكذا انتقلت الفرحة من جماعة پُمپِيوس إلى جماعة قيصر.

لنخبر إذن بحقيقة ما جرى ولننظر في مصير پُمپِيوس.

الواقع أنّ پُمپِيوس داهم جيش قيصر مرّتين: مرّة حين خرج من المدينة المحاصرة، ومرّة أخرى حين خرج من معسكره. فكان أن فقد قيصر من جرّاء ذلك ألفي رجل ما بين قتيل وجريح.

حمل ذلك قيصر على التفكير. إن حظّ أكبر القادة قد يغفل أحياناً؛ وكان بوسع قيصر، وهو في غفلة من غفلات حظّه تلك، أن يفقد سيطرته على العالم.

قالها هو نفسه مساء ذلك اليوم الذي فقد فيه ألفي رجل:

- لو عرف پُمپِيوس كيف ينتصر، لكان النصر اليوم إلى جانب پُمپِيوس.

كان لا يزال في وسع قيصر أن ينقل الحرب إلى تِسّاليا أو مقدونيا، حيث يلقى، بدل ذلك البلد القاحل الذي أكرهه على أكل الخبز المصنوع من عروق النبات، مناخاً خصباً يوفّر لبطون الغاليّين والجرمان ما يفيض عن حاجتها.

فعسى پُمپِيوس يظنّ عندئذ أن تراجعه ناجم عن الخسارة التي

Twitter: @ketab_n

أصابته، فيسعى في أثره يلاحقه.

أمّا إذا ركب پُمپيوس سفنه عائداً إلى إيطاليا، فيستطيع قيصر إذّاك أن ينعطف من ناحية ڤِنيسيا ويمثُل أمامه ليجابهه تحت أسوار روما.

وقد يشاء الحظّ لپُمپِيوس أن يسير إثر قيصر إلى مقدونيا؛ وإليك ما يبرّر ذلك.

كان پُمپِيوس قد أرسل حماه سِپيون إلى مقدونيا مع فيلقين. فلا بدّ أنّ قيصر سيلاحق هذين الفيلقين وسِپيون نفسه، بجيشه ذي الخمسين ألف جنديّ. وكان من المتوقّع لپُمپِيوس، وهو العاشق المهيّم بزوجته، ألّا يترك حماه تحت رحمة قيصر.

أصاب قيصر في حساباته. فقد راح پُمپِيوس يلاحقه، ولهذا السبب، انتشر النبأ الأوّل بأنّ قيصر هُزم وفرّ.

كاتَب پُمپِيوس الملوك والقادة والمدن من موقع المنتصر. وبما أنّ زوجته كُرنيليا كانت في مِتِلينا، فقد أرسل لها من يقول لها إنّ الحرب قد انتهت أو تكاد.

اتّخذ هذا النبأ صفة رسميّة في روما، لا سيّما وأنّ أصدقاء المنبوذين ونوّابهم بدأوا يتوافدون، وراحوا يحجزون لهم بيوتاً في ضواحي الفوروم، يستطيعون منها أن يترشّحوا لمختلف المناصب.

كان الكثيرون في جيش پُمپِيوس يطمعون في شغل المناصب والمراتب التي في يد قيصر.

ولا سيّما في منصبه: 'حبْر الأحبار'.

بل بلغ بهم الأمر أنّهم سمّوا ثلاثة أشخاص دون غيرهم للتنافس على هذا المنصب: لانتُلُس سپِنتير ودُميسيوس إنوبَربُس وعلى الأخصّ سِپيون، حمو پُمپِيوس.

Twitter: @ketab_n

ولذا راح أنصار پُمپِيوس يتجوّلون في روما مرفوعي الرؤوس.

لزم أنصار قيصر الصمت المطلق، خاصّة وأنّ إشاعات مشؤومة راحت تسري في روما حول من سيشملهم النبذ بعد انتصار پُمپِيوس. وأشيع أنّ دُميسيوس قادم وفي طيّ ردائه لائحة منبوذين تُعتبر لوائح سِلّا ومَريوس إزاءها كمثْلِ لا شيء.

وراح كثيرون يقولون بصوتٍ عالٍ، في الفوروم وفي حقول مارس ولا سيّما تحت بوّابة پُمپِيوس التي أصبحت ملتقى مناصريه:

- لوائح مبوذين؟ وما الغرض منها؟ ليس لغير الحمقى أن يضيعوا وقتهم في ملء لوائح؛ أمّا نحن فالنبذ عندنا لا يتناول أشخاصاً بل شرائح اجتماعية؛ لن نضرب بضعة أفراد، سنقضي على جماهير.

وما زاد من احتمال وقوع ما يشبه ذلك هو نموذج الانتقام المرعب الذي قدّمه لَبيانُس، بما أنّه تجاوز القانون الذي سنّه كاتون القاضي بتأمين جميع الأسرى على حياتهم، وأمر بذبح خمسمائة أسير من جند قيصر.

شهق كاتون بالبكاء من جرّاء ذلك ورجع إلى دِرّاكيوم ساتراً رأسه بثوبه علامة الحداد.

ولمّا شرع پُمپِيوس بملاحقة قيصر، خلّف في دِرّاكيوم وراءه هذا البَكّاء.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن (تابع)

كان پُمپِيوس يسمع مَن حولَه يلومونه على تباطؤه. يسمع أنّه يستطيب أن يلقى عند نهوضه من النوم حاشيةً من المرزبانات والشيوخ، حسب قول الذين اعتبروا أنّ الأمور لا تجري بالسرعة الكافية؛ وأنّ إنوبَربُس لم يعُد يسمّيه إلّا أَغَممنون أو ملك الملوك؛ وأنّ فَڤونيوس صرّح بصوتٍ عالٍ حتّى يسمعه پُمپِيوس: «كفى، لن نأكل التين في توسكُلُم هذه السنة أيضاً»؛ وكان يتناهى إلى سمعه من كلّ الجهات أنّ هذه الشبيبة الأنيقة التي تبعته وضاقت به تتهامس: «لنتخلُص أولاً من قيصر، ونرى بعد ذلك كيف ننتهي من أمر پُمپِيوس». فحزم أمره على مهاجمة قيصر ما إن يتوقّف عن المسير.

كان قيصر يسير من الغرب باتجاه الشرق، فاجتاز أپيرا ودخل تِسّاليا وتوقّف في فَرسالا.

قطع قيصر حوالى مائة وثمانين ميلاً، وعلى مدى مائة وثلاثين ميلاً كانت كلّ لحظة من لحظات مسيراع أشبه بالعراك. إذ كان نبأ هزيمته قد انتشر، وأصبح الناس يعاملونه معاملة الفارّ فيمنعون عنه المؤن والعلف. وحين دخل أخيراً تسّاليا، واستولى على مدينة كُمفي، أصبح جيشه في بحبوحة من عيشه.

طوال ثلاثة أيّام، راح هؤلاء الرجال المتضوّرون من الجوع منذ خمسة أشهر يقيمون الاحتفالات.

Twitter: @ketab_n

عرف قيصر بوصول طليعة جيش پُمپِيوس، فاستأنف مسيره.

لم يكن وقتها في المكان المناسب الذي يريده لشنّ معركته الحاسمة.

فإن كنت تُسمّى قيصر، وكنت تقامِر بالكون في لعبة الزهر المسمّاة معركة، فأقلّ ما يتوجّب عليك هو اختيار السجّادة التي عليها يكون الربح والخسارة.

حين وصل قيصر إلى فَرسالا، توقّف عن المسير.

في اليوم التالي، ظهر پُمپِيوس، الذي كان يتبعه على مسافة مسيرة يوم واحد، وأقام معسكره على مرتفع مقابل معسكر قيصر.

غالباً ما كنّا، أثناء نزهاتنا في أروقة الأكَديميا[1] خلال تلك الأمسيات الطويلة التي سبقت معركة فِليبي، نسأل بروتُس، أنا وكاتون، أن يروي لنا أحداث تلك المعركة الرهيبة التي بها ارتهن مصير العالم، كما حدث في معركة فِليبي. لذا بقيت رواية بروتُس راسخة في ذهني. كان شاهداً عياناً وعاملاً فعّالاً، فرأى كلّ شيء وشارك فيه.

الأمر الذي أضعف موقف پُمپِيوس هو شكّه.

كان التردّد في الحسم من طبيعته، وكان الفأل مناوئاً له.

وما أدراك ما الفأل بالنسبة لهؤلاء!

فقد حلم ليلة يوم المعركة أنّه في روما، وأنّ الشعب يستقبله بالتصفيق أثناء دخوله المسرح، وأنّه عند مغادرته المسرح زيّن هيكل ڤينوس نيسافور بالأسلاب الثمينة.

لأوّل وهلة، يبدو أنّ هذا الحلم فيه ما يشير إلى طالِع سعيد؛ ولكن بشيء من إعمال الفكر، قد تلمح فيه معنى مزدوجاً.

(1) *Academia*، قرب أثينا، أوّل مدرسة لتعليم الفلسفة منظّمة على شكل جامعة، أقامها أفلاطون لدى عودته من سيراكوزا بإيطاليا في 387 ق. م. ومن تسميتها جاءت المفردة «أكاديميّة» بمعناها المدرسيّ العامّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

ألم يكن قيصر يتباهى بأنّه ينحدر من ڤينوس؟ ألم يزيّن پُمپِيوس، بأسلاب انتصاراته، هيكل ڤينوس، التي هي أمّ قيصر؟

من جهة أخرى، بقي معسكر قيصر طوال الليل فريسة الهلع الشديد. فقد صرخ الحرس مرّتين أو ثلاث مرّات «إلى السلاح!» لظنّهم أنّنا نهاجمهم. ثمّ، أثناء تبديل نوبة الحراسة قبيل الفجر، شاهدنا فوق معسكر قيصر، الغارق عندئذ في هدوء عظيم وصمت مطلق، ضوءاً لمّاعاً يتصاعد ثمّ يقبل صوب معسكر پُمپِيوس وينقضّ عليه.

وكلّما ازداد تزعزع پُمپِيوس، ازداد رسوخ قيصر.

قبل المعركة بثلاثة أيّام، قدّم الذبائح بغيةَ تطهير جيشه.

وبعد التضحية بالذبيحة، صرّح القيّم على الأضاحي، وكان من أهل تِسّاليا، وبالتالي عرّافاً ماهراً، صرّح لقيصر بقوله إنّه سيتشابك بالأيادي مع عدوّه بعد ثلاثة أيّام.

لم يكتف قيصر بما سمع فسأله:

- ألا يمكنك أن تقول لي شيئاً ما عن نتيجة المعركة التي تنبئني بها؟

أجابه العرّاف:

- الجواب عندك وليس عندي. الآلهة تشير إلى أنّ ما يجري في حياتك هو عكس ما يحدث في هذه الساعة. فإن كنت الآن سعيداً، فستغدو تعساً؛ وإن كنت منتصراً الآن، فستغدو مهزوماً؛ وإن كنت مهزوماً الآن، فستغدو منتصراً.

إضافة إلى ذلك، حدث أمر ما في ترَلِّس، وهي مدينة واقعة في ليديا قريباً من مِياندرِس، حيث كان الهيكل يتضمّن تمثالاً لقيصر: فجأةً ارتفع بلاط الهيكل، وانبثقت من الأرض نخلة راحت ذراها الرائقة تلقي بظلالها على جبين تمثال قيصر.

Twitter: @ketab_n

أُضيف إلى ذلك كلّه أمراً شخصيّاً.

لقد تعرّفت في بلاط الإمبراطور على شابّ يدعى تيتُس ليڤيوس[1] ينشغل الآن بتجميع الموادّ عن تاريخ روما. وُلد عام 695، فكان له من العمر وقت معركة فَرسالا إحدى عشر سنة. وكثيراً ما أخبرني أنّه، يوم نشوب المعركة، كان، في مسقط رأسه في پَتاڤيَم، رجل ذائع الصيت في فنّ العرافة يقيم عند كَيوس كُرنيليوس الذي كان يحبّه محبّته لابنه. كان هذا الرجل جالساً على كرسيّ العرافة يتابع طيران الطيور، فإذا بحدس يخطر له فجأة، لحظة انطلاق المعركة، ينبئه بأنّ الاشتباك قد بدأ بين قيصر وپُمپِيوس.

استمرّ في تفحّص الدلائل، ثمّ نهض فجأةً بحماس وصرخ:

- إنّك منتصر، يا قيصر!

كان من مع قيصر يشكّكون في نبوءته، فوضع التاج عن رأسه وأعلن أنّه لن يعتمره من جديد إلّا حين تؤكّد الأحداث حقيقة النبوءة.

ومع ذلك كان قيصر يتردّد، فمع پُمپِيوس من الفرسان ثمانية آلاف فارس، بينما ليس معه سوى ألف.

جمع جنوده وقال لهم:

- أيّها الرفاق، ها پُمپِيوس أمامنا بجيش هو ثلاثة أضعاف جيشنا؛ وإنّي أنتظر وصول كُرنِفيسيوس مع فيلقين، وسيكون بيننا بعد غد. فهل ينبغي لي أن انتظره؟ كما أنّ كَلينُس يحيط بِمـگرس مع خمس فرق، فهل لنا أن ننتظر كَلينُس؟ أم أنّكم تشعرون من أنفسكم القدرة على خوض المعركة ونحن في هذه الحال؟

فصرخ الجنود بصوت واحد:

---

(1) هو المؤرّخ الروماني الشهير (59–17 ق. م.) (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- المعركة! المعركة!

وقف قيصر حينئذ فوق مرتفع ترابيّ حتّى يراه أكبر عدد ممكن من رجاله، وهتف بهم:

- أيّها الأصدقاء، ها قد وافى أخيراً يوم المعركة المُهداة من پُمپِيوس، معركة لن نصارع فيها الجوع والشحّ، بل الرجال. لقد تشوّقتم إلى هذا اليوم بفارغ الصبر، وها هو قد أتى. وعدتموني بالنصر، فاثبتوا عند وعدكم. ليلزم كلّ منكم صقره![1]

ثمّ التفت إلى أنطونيوس قائلاً:

- مُر برفع راية القتال فوق خيمتي.

بعد لحظة، راح العلم الذي بلون الدم يرفرف في الأجواء.

(1) الصقر أو النسر هنا يرمز للوعي واليقظة. والأرجح أنّ العبارة آتية من أسطورة بروميثيوس سارق النار، إذ كان له نسر يتغذّى من كبده وينمو ويزداد جمالاً بقدر ما يتضاءل جسم بروميثيوس. ولكنّ النسر نفسه هو الذي طار في النهاية ببروميثيوس وأطلقه من سجنه (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

تموضُع الجيشين - شعارا المرحلة - كرَستينُس - انطلاق المعركة - صوّبوا عليهم في وجوههم - هلع الرومان الأنيقين - الخيالة تفرّ وتثير القلق لدى بقيّة الجيش - پُمپيوس يغادر ساحة المعركة ويعود إلى معسكره - يعفو عن الرومان - قيصر يهاجم المعسكر - فرار پُمپِيوس عبر لَرِسّا ووادي پُونِـگ - قلق قيصر على بروتُس - قيصر يحرق مراسلات پُمپِيوس دون أن يقرأها - ما الأفضل أن تكون: تِـمِستُكليس مهزوماً أم قيصر منتصراً؟

كان الجيشان يعسكران على الضفة اليمنى من نهر أَپِدانُس، الذي ينبع من نقطة التقاطع بين جبلَي پَنَتوليوم وتِمفوستُس.

كلمةً عن موقع الجيشين ثمّ أخرى عن موقع القائدَين.

اتّخذ قيصر موقعاً له في الجهة اليمنى من النهر؛ فلا بدّ له من خوض المعركة، وفق عادته، وهو وسط فيلقه العاشر وأنطونيوس على مقربة منه.

كان كَلڤينيوس لوكيوس يقود قلب الجيش، وسِلّا مَيسرته.

حين رأى پُمپِيوس ذلك، احتفظ لنفسه بميسرة الجيش وصفّ

Twitter: @ketab_n

حوله، إضافة إلى فيلقَيه المفضّلَين، حشداً من المقلعجيّة[1] والنشّابين ومن الخيّالة.

عاين قيصر تموقع عدوّه، فأدرك أنّ خطّته تقوم على محاصرته لعزله عن باقي المقاتلين.

فعمد في الحال إلى استدعاء ثلاث فرق من الاحتياطيّين، وخبّأها وراء فيلقه الثاني، وأمرها أن تبقى خفيّة عن عين العدوّ بانتظار هجوم الخيّالة.

كان عليها، ما إن تظهر الخيّالة، أن تندفع إلى المقدّمة، وألّا ترمي رماحها بل أن تصوّب أسنّتها إلى وجوه الأعداء.

- فعليكم قبل كلّ شيء أن تُصوبّوا عليهم في وجوههم! أضاف قيصر.

إذ أنّ قيصر كان يرى، وعلى حقّ، أنّ هذه الشبيبة المتأنّقة، أنّ هؤلاء الفرسان الأنيقين يفضّلون الفرار على أن تُشوّه وجوههم.

وطلب من هذه القوّة الاحتياطية، المؤلّفة من ثلاثة آلاف رجل، أن تترقّب إشارته، أي التلويح بالراية، لتبدأ بتنفيذ العملية العسكرية المحدّدة لها.

كان كلڤينيوس لوكيوس، قائد قلب جيش قيصر، يواجه سِپيون، وهو حمو پُمپيوس، بفيالقه التي استقدمها من سوريا.

وكان سِلّا، قائد مَيسرة جيش قيصر، يواجه أفرانيوس، قائد مَيمنة جيش پُمپِيوس، بفيالقه القادمة من قيليقيا ومعها فرق آتية من إسبانيا، أي القوات التي يعتبرها پُمپِيوس أفضل ما عنده.

ميمنة جيش پُمپِيوس كانت محميّة بنهر يصعب عبوره. اعتبر پُمپِيوس أنّ هذه الحماية تفي بالغرض، فاستدعى إليه أغلب النبّالين والمقلعجيّة.

---

(1) الذين يحاربون بالمقلاع (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وراح پُمپِيوس يراقب اصطفاف الجيشين، وهو على صهوة حصانه في أعلى الهضبة.

فلفت انتباهه على الفور الفرق ما بين الجيشين: جيش قيصر يسوده سكون كليّ، والهيجان -ولعلّي أقول الفوضى- يسود جيشه.

لم يكن أيّ من هؤلاء الخيّالة، من هؤلاء الأنيقين، من هؤلاء المتأنّقين ينصاع لأوامره، بل كلّ يسعى أن يكون في الصفّ الأوّل.

بعث لهم پُمپِيوس رسلاً يناشدونهم أن يلزم كلّ المكان المحدّد له، وأن يثبت فيه ثباتاً كلّيّاً وأن يبقوا مترابطين.

شاهد قيصر رسل پُمپِيوس يحملون أوامره إلى سائر الأرجاء، فظنّ أنّه يوعز لهم ببدء الهجوم.

فأذاع للحال بين جنده كلمة السرّ للتعارف ما بينهم: «ڤينوس الظافرة».

وأذاع پُمپِيوس من جهته كذلك كلمة السرّ: «هِرَقل الذي لا يُقهر».

في نفس اللحظة وقع نظر قيصر على أحد المتطوّعين في جيشه، كان قبل سنة نقيباً في الفيلق العاشر، وسمعه آنذاك يصرخ في فرقة المائة التي اختارته قائداً لها:

- اتبعوني، أيّها الأصحاب، فقد آن الأوان لنفي بالوعد الذي قطعناه لقيصر!

فعرفه قيصر وناداه باسمه، وسأله:

- فما رأيك بهذا النهار، يا كرَستينُس؟

- إنّه نهار طيّب ومجيد بالنسبة إليك، أيّها القائد الظافر. وعلى كلّ حال، لن تراني إلّا قتيلاً أو ظافراً.

ثمّ التفت صوب أصحابه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- هيّا أيّها الرفاق، علينا بالعدوّ!

كان، بفرقته المؤلّفة من مائة وعشرين جنديّاً، أوّل من هاجم جيش پُمپِيوس البالغ عدده اثنين وخمسين ألفا.

وصل كراستِنُس مع رجاله المائة والعشرين إلى مسافة عشرين قدماً من جبهة القتال وأطلقوا نبالهم.

آذن ذلك ببدء المعركة، وانطلق إذّاك صوت الأبواق والبُكسان[1] من كلا الجانبين.

انطلق صفّ المشاة التابع لقيصر انطلاقة رجل واحد وبنفس الهتاف، وما إن أصبحوا على المسافة المناسبة حتّى أطلقوا نبالهم، ثمّ استلّوا سيوفهم دون أن يتباطأوا في سيرهم.

جابهم أنصار پُمپيوس دون أن يتراجعوا إلى الوراء خطوة واحدة.

رأى پُمپِيوس أنّ جيشه استوعب الصدمة بشجاعة، فأمر خيّالته بمهاجمة ميمنة قيصر والالتفاف عليها من كلّ الجهات.

شعر قيصر أنّ الأرض ترتجّ تحته من وطأة ذلك العدد الهائل من الخيل، غير أنّه، وهو أمام هذا الطوفان المرعب، لم يتلفّظ، أو بالأحرى لم يردّد، إلّا هذه الكلمات:

- أيّها الأصدقاء، عليكم بالوجوه!

ثمّ أمر أن تُلوّح الرايات بالإشارة المتّفق عليها ليراها جنود الاحتياط الثلاثة آلاف. فانقضّوا على العدوّ مسلّطين حراب نبالهم إلى وجوه المهاجمين، حسب تعليمات قيصر، وكلّ واحد منهم يردّد هتاف قيصر:

- أيّها الأصدقاء، عليكم بالوجوه!

سمعت هذه الخيّالة المتأنقة، المؤلّفة حصراً من الأعيان والأشراف

(1) أبواق خاصة بالجيش الروماني (المترجم).

Twitter: @ketab_n

والفرسان، هتافهم آنَ راحت تُحسّ بضرباتهم.

صمدت لحظةً من شدّة دهشتها أكثر منها بدافع الشجاعة.

ولكنّ جميع هؤلاء الخيّالة، وقد آثروا الذلّ على التشويه الجسديّ، تركوا سلاحهم وفرّوا ساترين وجوههم بأيديهم.

رأى النبّالون أنّ الخيّالة التي رافقتهم في الهجوم راحت في الحال تغادرهم، فأصبحوا وحيدين.

وطئ الفيلق العاشر على جثثهم وراح برماحه يضرب ميسرة جيش پُمپِيوس.

في نفس الآن، راح فرسان قيصر الألف، وكلّ واحد منهم مردوف بنبّال على مؤخّرة حصانه، يلاحقون الخيّالة الفارّة.

كان پُمپِيوس قد أوعز إلى مشاته أن يلتفّوا على ميمنة قيصر ما إن يروها تهتزّ من وقع هجوم الخيّالة الثمانية آلاف، لكنّهم حين رأوا الخيّالة تفرّ، أدركوا أنّ العدوّ التفّ عليهم.

صمدوا لحظات، إلّا أنّ الهجوم الذي تعرّضوا له مجابهةً من قبل الفيلق العاشر، ومجانبةً من قبل النبّالين، جعلهم يتفرّقون ويعمدون إلى الفرار.

عند فرارهم، صرخ جمع الخيّالة الوافد من غلاطية ومن كپَدوكيا ومقدونيا وكريت، ومعهم جميع النبّالين القادمين من الپونتس وسوريا وفنيقيا، وكذلك كلّ المتطوّعين الآتين من تِسّاليا وبِيوسيا وأَكايا والإپير؛ صرخوا بأجمعهم وبصوت واحد وبعشر لغات مختلفة:

- لقد هُزمنا!

وعمدوا بأجمعهم إلى الفرار.

وعلى كلّ حال، كان من حقّهم أن يفرّوا بما أنّ پُمپِيوس نفسه قد فرّ.

الواقع أنّ پُمپِيوس، حين رأى خيّالته تتقهقر، انطلق بحصانه خبباً

Twitter: @ketab_n

راجعاً إلى معسكره.

«أوقع جوپِتير، أبو الآلهة الجالس على مقعد عالٍ، الهلعَ في قلب أَجاكس، الذي توقّف من صدمة الدهشة التي أصابته، ورمى خلفه بترسه المغطّى بسبع طبقات من جلد الثور، وفرّ بعيداً عن الحشود وهو يتطلّع من كلا الجانبين»[1].

وردت إلى ذهني أبيات هوميرُس هذه. فما دام أنّ أجاكس نفسه فرّ، فلا حرج على پُمپيوس من الفرار.

ألم يُقدّر لأنطونيوس نفسه، الذي كان يلاحقه في تلك اللحظة على رأس خيّالته، أن يفرّ هو أيضاً في أكسيوم؟

ما إن وصل پُمپيوس إلى معسكره حتّى صرخ بأعلى صوته، ليسمعه الضبّاط والجنود:

- كونوا حريصين على الدفاع عن مواقعكم، فإنّي أجوب المعسكر لأصدر أوامري.

لا شكّ أن پُمپِيوس كان يظنّ أنّ جنوده سيهربون باتّجاه المعسكر ليلجأوا إليه.

وعساهم أن يتحصّنوا داخله ثمّ يعيدوا الهجوم حين يصبح الفأل أكثر ملاءمة.

ولا شكّ أنّ پُمپِيوس انسحب إلى خيمته على أمل أن يُتاح له ما أراد. غير أنّ پُمپِيوس لم يأخذ بالحساب عبقرية قيصر ولا إنسانيته بوجه التحديد.

عندما تأكّد قيصر أنّه كسب المعركة، أرسل كلّ من يحمل سلاحاً من

(1) يستشهد دوما في هذا الكتاب بمقتطفات شعريّة لهُوارسيُوس وقد خلط مصاريع أبياتها، إذ كانت ترجمة الأشعار والملاحم نثراً شائعة في زمنه. وقد حافظ المترجم على خياره هذا (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

بوّاقين ومنادين حربيّين، وأمرهم أن يجولوا بين الفارّين وهم يصرخون:

- الموت للغرباء، ولكنّي أعفو عن الرّومان!

بلغت هذه الكلمات الواعدة بالأمان آذان كلّ من يفكّر بالدفاع عن نفسه بدافع اليأس، أو بالفرار ليصون نفسه، فكفّوا عن الفرار ومدّوا أيديهم نحو الجنود الشاهرين سيوفهم، وراحوا يصرخون:

- إنّنا لَمن الرّومان!

عندها تعانق المنتصرون والمهزومون في ساحة المعركة، كما لو أنّ روح قيصر الرقيقة والمفعمة بالرحمة قد نفذت إلى جسد كلّ جنديّ من هؤلاء الجنود.

لم يبق حول پُمپِيوس حينئذ إلّا بعض الفارّين الموالين لقادتهم، وألفان أو ثلاثة آلاف من الجنود الذين بقوا يحرسون المعسكر ولم يكونوا قد سمعوا بعد بالعفو الصادر عن قيصر.

أمّا قيصر فقد انضاف إلى جنده عشرون ألف رجل، ممّن شملهم عفوه.

حُسن الطالع، عليك أن تستغلّه. وليس قيصر ممّن يقال عنهم كما عن پُمپِيوس: لكان له النصر لو عرف كيف يفوز به.

جمع قيصر ما استطاع من الجند، أي حوالى عشرة آلاف رجل، وانطلق يهاجم بهم پُمپِيوس في معسكره.

كان پُمپِيوس في خيمته ورأسه بين كفيّه، حين سمع صخباً.

نهض ومشى حتّى عتبة خيمته مستفسراً:

- ما الذي يجري هنا؟

جنود يهربون هلعين وهم يصرخون:

- قيصر! قيصر! .

Twitter: @ketab_n

فأوقف أحدَ الهاربين واستنطقه، ثمّ أخذ يصيح:

- ماذا! حتّى في عقر معسكري!

عندئذ رمى بشارات القيادة بعيداً، وامتطى أوّل حصان لقيه، آمراً جنوده بأن يصمدوا -وكانوا من أهل تْراسيا، أي من الغرباء- وخرج من الباب المُعدّ له حاثّاً الخطى في طريقه إلى لَرِسّا.

لم يكن للجنود التْراسيّين أمل بالنجاة، لكونهم من غير الرّومان، فصمدوا حتّى الساعة السادسة مساءً.

اجتاز المنتصرون المعسكر لا يلوون على شيء، مع أنّهم رأوا موائد مُعدّة بتمامها، مفروشة بأواني طعام من ذهب وفضّة، ولمحوا طاولة لانتُلُس مغمورة بالزهور ومفروشة باللبلاب.

كم كان يلذّ لهم التوقّف عندها، غير أنّ صوت قيصر دوّى:

- إلى الأمام!

كرّر الجنود أنفسهم:

- إلى الأمام!

كان قيصر قد ترك ثلث رجاله ليحرسوا معسكره، فترك الثلث الثاني يحرس معسكر بُمپيوس.

مع الثلث المتبقّي، انخرط في طريق يخوّله قطع السبيل على الهاربين؛ والواقع أنّه، بعد ساعة، سدّ عليهم طريق الفرار.

أُجبر الفارّون على التوقّف، وتجمّعوا فوق هضبة في أسفلها نهر.

استولى قيصر في الحال على النهر، فاستحال على العدوّ المشرف على الموت عطشاً أن يروي ظمأه.

حين أدرك أنصار بُمپِيوس أن كلّ آمالهم قد زالت، إذ لا سبيل بعدُ إلى الفرار وهم عرضة لهجوم خلفيّ في أيّة لحظة، طلبوا الاستسلام؛ فقال

Twitter: @ketab_n

لهم قيصر:

- غداً أتلقّى استسلامكم؛ والآن على العطشى منكم أن ينزلوا إلى النهر بمجموعات من خمسين شخصاً، وسيؤذن لهم بالارتواء.

كان معروفاً لدى الجميع أنّ كلام قيصر كلام ثقة، فجعل أنصار پُمپيوس ينزلون إلى النهر.

كان المهزومون، وهم في طريقهم إلى النهر، يتعرّفون على رفاق قدامى لهم صاروا في صفوف المنتصرين، فتصافحوا وتعانقوا بالأحضان، وراح هؤلاء الناس، الذين كانوا يتذابحون قبل ثلاث ساعات، يقبّلون بعضهم بعضاً وكأنّهم أشقّاء.

انقضى الليل كلّه على هذا المنوال؛ فمن كان معه مؤونة أعطى منها من كان يفتقدها. أشعلوا النار وشربوا وأكلوا، كما لو كانوا يحتفلون بيوم عيد.

وأمهل قيصر من لم يشأ أن يقبل عفوه إلى اليوم التالي كي ينسحب من المكان.

استفاد بعضهم من تلك المهلة، إلّا أنّه بقي في المعسكر في مطلع اليوم التالي ثلاثة آلاف وخمسمائة من أصل أربعة آلاف فارّ. عندئذ خرج قيصر من خيمته.

ركع المهزومون أمامه، فقال لهم:

- انتصبوا، فغداة المعركة، لا يبقى عدوّ.

ومدّ إليهم كلتا يديه مصافحاً، وعادوا جميعهم معاً إلى المعسكر، المناصر لقيصر والمناصر لپُمپيوس، الغالب والمغلوب.

أمّا ساحة المعركة فتغطّت بخمسة عشر ألف رجل من أنصار پُمپيوس ما بين قتيل ومُحتضَر.

Twitter: @ketab_n

لم يفقد قيصر سوى مائتي رجل.

فأصدر أوامره بأن يتفحصّوا القتلى فرداً فرداً بتمعّن، لعلّهم يعثرون بينهم على جثّة بروتُس. وكان قد أوصى جنوده أثناء المعركة، وحتّى قبلها، بألّا يقتلوا بروتُس، تحت طائلة الموت، وألاّ يتعرّضوا له، بل أن يأتوا به إن استسلم طوعيّاً، أمّا إذا راح يدافع عن نفسه رافضاً الاستسلام، فعليهم أن يفسحوا له مجالاً للهرب.

رجع بعضهم إلى قيصر يخبرونه أنّهم عثروا بين القتلى على دُميسيوس إينُبَربُس لا على بروتُس.

فأرسل إلى كلّ الأرجاء رسُلاً يذيعون النبأ.

كان بروتُس ابن سرڤيليا، وحين ولدته سرڤيليا كان قيصر عشيقها.

ثمّ سأل إن كان أَحد يعرف مصير ذلك المتطوّع الشجاع، الذي كان أوّل من بادر إلى الهجوم، أيّ كرَستينُس.

ولكنّ كرَستينُس كان قد قُتل، بيد أنّهم نجحوا في العثور على جثّته.

وإليكم ما نقله عن موته أحدٌ ما كان يقاتل معه.

لقد مزّق كرَستينُس إرباً إرباً أوّلَ جنديّ من أنصار پُمپيوس لقيه في طريقه، ثمّ اخترق صفوف الأعداء حتّى بلغ قلب تجمّعهم وهو يهتف:

- إلى الأمام، في سبيل ڤينوس الظافرة!

في ذلك الفم المشرع بصرخته المجيدة، غرس أحد أنصار پُمپيوس سيفه غرسة شديدة، راح سنّ السيف من شدّة وقعها يخترق الرأس حتّى قفاه. فمات كرَستينُس على التوّ.

وعند المساء تلقى قيصر أنباء بروتُس.

لما رأى بروتُس المعركة خاسرة، تخبّأ في المستنقعات التي على ضفّتي نهر أپِدانُس.

Twitter: @ketab_n

ووصل عند المساء إلى لَرِسّا.

وهناك علم أنّ قيصر يبحث عنه، فكتب له، إدراكاً منه بمدى اهتمامه بنجاته، بضع كلمات ليطمئنه. فأرسل له قيصر في الحال رسولاً يدعوه إليه.

كان قيصر قد وهب جنوده ثلاث عطايا، تاركاً لهم حريّة توزيعها كما يرتأون.

فوهب الجنود أولى العطايا لقيصر بصفته أفضل مقاتل.

ووهبوا العطية الثانية لقائد الفيلق العاشر.

ووهبوا العطية الثالثة لكرَستينُس.

فأمر قيصر أن يحفروا له قبراً، وضعوا فيه جثمان ذلك المحارب الشجاع، ووضعوا جنبه كلّ ما وهبه إياه رفاقه من المكافآت العسكرية.

ثمّ حملوا إلى قيصر مراسلات پُمپيوس التي وجدوها في خيمته كما هي، فأحرقها جميعاً دون أن يفضّ أَيّة رسالة منها. سأله إذّاك مَركُس أنطونيوس:

- ماذا أراك تفعل؟ فأجاب قيصر:

- أحرق هذه الرسائل حتّى لا أعثر فيها على أيّ مبرّر للانتقام.

ثمّ ألقى نظرة أخيرة على ساحة المعركة المحمرّة من الدم، وعلى الجثث المتراكمة، وعلى الحفر التي يحفرونها، وقال:

- إنّكم، أيّها الآلهة، لشاهدون أنّ هذا ما أرادوه هم لا ما أردته أنا. لو صرفت جيشي بالرغم من انتصاراتي، لوجّه إليّ كاتون الاتّهام وأدانني. والآن -قالها وكأنّه يقاطع نفسه- أمن الأفضل لك أن تكون تِمِستُكليس منبوذاً أم قيصر منتصراً؟

نهاية الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

فرار پُمپِيوس - تُرك حيث بقي - عثر على صاحب سفينة يستضيفه - الانطلاق إلى مِتِلين ولقاء پُمپِيوس بكُرنيليا - پُمپِيوس يقيم في أَتّاسيا - قرار پُمپِيوس بالذهاب إلى بطليُمس طلباً لضيافته - ما نصح به بطليُمس حين علم أنّ سفينة پُمپِيوس على وشك الرُسوّ - اغتيال پُمپِيوس ومأتمه - انتقام قيصر من مغتالي پُمپِيوس.

ذكرنا كيف فرّ پُمپِيوس ووصل إلى لَرِسّا.

كلّما ابتعد پُمپِيوس عن ساحة المعركة، كان من رافقه من المُخلصين له يتخلّف عنه ثمّ يختفي. يبدو أنّ في المصائب الكبرى أمراً شديد العدوى؛ ولا بدّ من إخلاص بالغ لكي يغامر المرء بالوقوع في المصائب.

قيصر معروف لدى الجميع بطيب مزاجه، وبقدر ما يُعجّل المرء في مخاصمة پُمپِيوس، يسهل عليه التصالح مع قيصر.

لم يعد إلى جانب پُمپِيوس عند خروجه من لَرِسّا إلّا خمسة أشخاص أو ستّة.

سار في ذلك الوادي الجميل الذي سيتغنّى به ڤِرجيليوس بعد عشر سنوات بأبيات غاية في الجمال.

Twitter: @ketab_n

ارتمى بوجهه، من شدّة عطشه، على الأرض ليشرب من نهر پينيه، ثمّ نهض وركب حصانه من جديد في طريقه إلى البحر.

أيّ عين بشريّة تقدر أن تسبر ما يجري في أعماق هذا الإنسان؟

سيّد الكون بالأمس، وها هو اليوم يكاد لا يتحكّم حتّى بحياته نفسها.

كان قادراً بالأمس أن يتقاسم الكون مع قيصر، وأن يسود وفق مشيئته على الشرق أو الغرب.

واليوم، إلى أيّ مكان يلجأ؟ بأيّ سقف يحتمي؟ وبأي شجرة يستظلّ؟

بلغ شاطئ البحر عند هبوط الليل، وانعطف يميناً بمحاذاة جبل أُسّا، كمن يتوجّه إلى كْرِمنا.

وقع أخيراً على كوخ صيّاد فطلب منه أن يستضيفه مع صحبه القلائل، فقبِل باستضافتهم.

مُذ غادر فرسالا، لم تخرج كلمة واحدة من فمه؛ واحترم صحبه صمته هذا المفعم بأحلك الأفكار.

ارتمى على حصير ونام أو تظاهر بالنوم.

عند انبثاق الفجر، استيقظ وركب زورقاً مع شخصين أو ثلاثة ممّن صحِبه من الرجال الأحرار، وأطلق عبيده قائلاً:

- اذهبوا إلى قيصر، فإنّكم لاقون لديه أفضل ممّا تجدونه عندي.

أمر صاحبَ الزورق أن يسير بمحاذاة الشاطئ. ثمّ ما فتئ أن لمح في الخليج، وهو يلفّ حول رأس مَليبا، سفينة تجارية كبيرة على أهبة الإقلاع.

أشار إلى الجذّافين بإصبعه نحو السفينة ليسيروا باتّجاهها.

كان ربّان السفينة، واسمه پِتيسيوس، واقفاً على سطحها. حين اقترب پُمپِيوس من السفينة راح يلوّح بيديه، فِعلَ من يطلب الصعود إليها.

Twitter: @ketab_n

وشدّ ما كانت دهشته حين سمع پِتيسيوس يصرخ:

- أسرعوا دون أن تتباطأوا لحظةً واستقبلوا هذا الرجل بكلّ إجلال؛ إنّه پُمپِيوس.

لقي پُمپِيوس على السفينة استقبالاً حافلاً جديراً به. كان پِتيسيوس في استقباله في أعلى السلّم فساعده على الصعود.

- أتعرفني إذن؟ سأله پُمپِيوس، ما إن وضع رجله على سطح السفينة. فأجاب:

- رأيتك في روما وأنت في ذروة سلطانك، وكان من المحتمل ألّا أعرفك من هيئتك.

- فكيف إذن عرفتني ودعوتني باسمي؟ سأل پُمپِيوس. أجاب پِتيسيوس:

- رأيتك هذه الليلة في الحلم، لا كما شاهدتك في روما سيّداً ظافراً، بل ذليلاً، منهاراً تسألني أن أستضيفك على سفينتي. ولذا، عندما أتى من يقول لي إنّ زورقاً آتياً نحو سفينتي على وقع تجذيف شديد، وعلى متنه رجال يرتدون الجُبّة ويمدّون أيديهم بتضرّع، تصايحت في نفسي: «إنّه پُمپِيوس».

فخفض پُمپِيوس رأسه وتنهّد.

أشار إلى صديقَيه وقدّمهما لربّان السفينة دون أن ينبس بكلمة؛ هما: لانتُلُس وفَڤونيوس.

ثمّ ذهب يجلس في مؤخّرة السفينة، وطلب من صاحب السفينة بعض الماء الفاتر ليغسل رجليه وبعض الزيت ليفركهما بعد الغسل.

أمر صاحبُ السفينة بأن يُلبّى طلبُه.

نظر پُمپِيوس حواليه بحزن: لم يعد لديه لا خدم ولا عبيد.

Twitter: @ketab_n

فبدأ يخلع حذاءه بنفسه.

فما كان من فَفْونيوس، ذلك الرجل القاسي المُسمّى بقرد كاتون لأنّه كان يربو على كاتون قساوةً؛ ذلك الرجل الذي استوقف پُمپِيوس في الفوروم بقوله: «اخبط برجلك إذن، يا پُمپِيوس، واجعل الفيالق تنبعث من الأرض!» ؛ ذلك الرجل الذي كان يسخر من القائد الظافر الشريف الأصل قائلاً له: «لن نأكل هذه السنة من تين توسكُلُم»؛ ما كان منه إلّا أن ركع أمام پُمپِيوس، ثمّ بالرغم من ممانعة پُمپِيوس خلع عنه الحذاء وغسل رجليه وفركهما بالزيت.

ما كاد فَفْونيوس يفرغ من أداء تلك الخدمة المتواضعة لقائده، حتّى ظهر على الشاطئ رجل يُلوّح بيديه طالباً النجدة. قال پُمپِيوس:

- إنّه أحد أنصاري، أغيثوه فقد أغاثني.

فأرسلوا إليه زورقاً أتى به حتّى صعد السفينة.

كان ذلك الرجل الملكَ ديجُلَروس، وهو قائد رُبع سابق صار ملكاً على غلاطية، قبل أن يجرّده مِترِداتِس من ملْكه ويأخذه أسيراً؛ غير أنّه فرّ من سجنه واستعاد مملكته وجزءاً من أرمينيا الصغرى. وحين توجّه إلى مجلس الشيوخ، أقرّه المجلس في ملْكه على هذين الإقليمين، فأصبح مذّاك من الموالين لپُمپِيوس اعترافاً منه بجميله.

كان هو أيضاً طريداً، عارياً ومجرّداً مثل پُمپِيوس.

أبحرت السفينة في اليوم ذاته.

نزولاً عند طلب پُمپِيوس، قصدت السفينة مِتِلين، حيث كانت كُرنيليا تترقّب أخباره.

تركت السفينة ماندا وسِيونا إلى يسارها، ومرّت ما بين جِرُنتا وهْيِرا حتّى وصلت إلى مِتِلين.

Twitter: @ketab_n

رست السفينة في المرفأ وبُعث برسول إلى كُرنيليا، فما إن لمحته حتّى صرخت:

- ماذا؟ أنباءٌ عن پُمپيوس! انتهت الحرب! فردّ الرسول:

- نعم، ولكنّها انتهت بالتأكيد على غير ما تقصدينه.

- فما الأمر إذن؟ سألت كُرنيليا حين لحظت الكآبة على وجه الرسول. أجابها:

- الأمر بسيط: إن أردتِ أن تري زوجك للمرّة الأخيرة، فعليك أن تتبعيني وأن تترقّبي رؤيته في حالة من البؤس لا يمكنك تخيُّلها.

- پُمپِيوس! پُمپِيوس الذي كتب إليّ بأنّه منتصر!

- إنّه مهزوم، إنّه طريد، بل على سفينة ليست له.

فقبضت كُرنيليا على ذراع الرسول وطالبته بأن يصرّح بكلّ ما يعرف. وعندها علمت بما حدث في فرسالا وبهزيمة پُمپِيوس وفراره.

بعد أن سمعت كُرنيليا ما سمعته، ارتمت على الأرض تنشج وهي تتدحرج على البلاط وتلوي ذراعَيها وتنتف شعر رأسها.

ثمّ استعادت وعيها، فنهضت واندفعت خارج البيت مُهرولةً نحو الميناء وهي تصرخ: «پُمپِيوس! پُمپِيوس!».

رآها پُمپِيوس آتيةً من بعيد، فاقترب منها بقدر ما يسمح له جدار السفينة واحتضنها بين ذراعيه.

كان لقاؤهما حزيناً مؤلماً. راحت كُرنيليا تتّهم نفسها بأنّها شؤم على كلّ من أحبّت. فزوجها الأوّل، كوِنتُس كرَسُّس، قُتل شرّ قتلة في بلاد البَرثيّين؛ وها زوجها الثاني أتعس حالاً ربّما من سابقه، لبقائه حيّاً بعد هذه المصيبة الفادحة الشؤم، يهيم على وجهه طريداً.

عبثاً حاول پُمپِيوس أن يؤاسيها.

Twitter: @ketab_n

علم سكّان مِتِلين أنّ السفينة التي رست لتوّها في مينائهم تُقلّ بُمپيوس.

فأرسلوا له وفداً يدعوه للنزول في مِتِلين؛ غير أنّه رفض دعوتهم بعناد مصرّحاً بأنّ سوء الطالع يلازمه ويخشى أن ينتقل منه إليهم. ثمّ أستأنف:

- قدّموا الطاعة لقيصر وأنتم واثقون، فقيصر طيّب الطويّة رحيم بالناس.

ثمّ تناقش مع الفيلسوف كْرَتِپُّس في وجود العناية الإلهيّة.

أرادت كُرنيليا أن تتبع بُمپِيوس مع ابنها، غير أنّه، وقد هُزم وفقد الكثير، لم يبق له من الشجاعة ما يكفيه ليقدر على فقدان زوجته وابنه أيضاً.

رفعت السفينة الشراع ببُمپيوس، مارّةً بين سْپورَدِس وسِكلادِس، مخلّية كَرپاتُس يميناً وروذُس يساراً، ثمّ تجاوزت الشّناخ[1] المقدّس وتوقّفت في أَتالِيا ما بين ليسيا وپَمفيليا.

التحقت به هناك خمسة مراكب حربيّة، أو ستّة، قادمة من صقيلية، وأنشأ بضع فرق عسكرية وجمّع قرابة ستّين من أفراد مجلس الشيوخ.

بقي أسطوله على حاله سليماً؛ وكان كاتون قد استلم قيادته بعد أن أُرسل إلى دِرّاكيوم لحراسة المعدّات، وتلقّى على متنه عدداً كبيراً من الفارّين ذهب بهم إلى أفريقيا.

تألّم بُمپِيوس ألماً شديداً لأنّه، بسبب انصياعه لوساوس من حوله، خاض المعركة بجيشه البرّي دون اللجوء إلى أسطوله، وهو أهمّ قوّاته، وحتّى دون أن يُطلع أسطوله على عزمه خوض المعركة ويطلب منه أن يكون على أهبة الاستعداد لتلقّي أوامره في حال تعرّضه لهزيمة.

(1) أنف الجبل إذ يتقدّم في عرض البحر ويشرف عليه من علٍ (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الخطأ نفسه ارتكبه لاحقاً وفي نفس الظروف كلّ من برتُس وكسّيوس.

«إنّ جوپتير يبثّ الجنون في روع من يريد إهلاكه».

قرّر پُمپيوس، وقد جُرّد من أسطوله، أي من وسيلة فائقة الفعاليّة، أن يقوم أقلّه بما يسعه القيام به في تلك الحال. أرسل أصحابه يجولون الساحل ليطلبوا العون من جميع المدن الحليفة، بل ذهب بنفسه يستنجد بالمدن المجاورة باذلاً نشاطاً مدهشاً.

ومع ذلك كان يعلم أنْ لا أحد يفوق قيصر في هذا الميدان. ومن شدّة خشيته أن تنسدّ عليه كلّ السبل وهو في مخبئه، جمع كلّ أصحابه ليتشاور معهم بأمر المكان الذي عليه أن يلجأ إليه، بانتظار أن يعبّئ جيشاً آخر.

كان في نيّة پُمپيوس أن يلتجئ إلى البَرثيّين، إذ كان يعتبرهم القوّة الأقدر على حمايته. غير أنّ كُرنيليا كانت تتأفّف من اللجوء إلى هؤلاء البرابرة الذين ذبحوا زوجها الأوّل.

فاقترح فَفونيوس اللجوء إلى جوبا النوميدي، ومن هناك يمكنهم الالتحاق بكاتون وبقوّاته الهائلة.

لشؤم طالعهم أنّ تِيُفَنيس الذي من لِسبُس كان من مستشاري پُمپيوس؛ فأصرّ على پُمپيوس أن يلجأ إلى مصر.

فلا بدّ أنّ بطليمُس، ذلك الملك الصغير المدين له بكلّ شيء -بما أنّه هو الذي أعاد العرش إلى أبيه- لن يغفل عنه. ثمّ إنّ مصر لا تبعد عنه أكثر من ثلاثة أيّام أو أربعة، بينما كان يقتضيهم الالتحاق بكاتون خمسة عشر يوماً.

أيّد پُمپيوس هذا الاقتراح، أفلا ينبغي للأقدار أن تتحقّق؟

عُقد مجلس الشورى في قبرص. ثمّ انطلق پُمپيوس إلى سَلَميس مع زوجته وابنه في مركب حربيّ قادم من سَلوقيا، واستقلّت حاشيته سفناً

Twitter: @ketab_n

تجاريّة.

كان يناسب الموتَ أن يتمّ الإبحار على أفضل وجه: فراح نفَسُه يدفع السفن.

كان في حوزة پُمپِيوس كاملُ المعلومات اللازمة: الملك الشابّ بطليمُس في پِلوزا يقاتل فيها جيش أخته كلِيوپَترا.

تزوّجا قبل سنتين، وبطليمُس في الخامسة عشرة من عمره وكلِيوپَترا تكاد تبلغ التاسعة عشرة.

طالبت كلِيوپَترا حينئذ بالعرش، بوصفها البكر.

وكان مستشارو بطليمُس قد دفعوه لشنّ الحرب.

وربّما كان العداء بين سِكتُس پُمپِيوس والمرأة الشابّة أحد الأسباب التي دفعتهم إلى إبعاد زوجها عنها.

في ذلك الوضع السياسيّ والزوجيّ، وافى إلى مصر أحد أصدقاء پُمپِيوس، مُرسَلاً من لدنه، طالباً منح اللجوء للمنهزم في فَرسالا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل (تابع)

كان مستشارو بُمپِيوس ثلاثة: خصيّ ومعلّم بيان وخادم.

اسم الخصيّ فُتينُس ومعلّم البيان تِيُدوتُس الذي من شِيو والخادم أشِلّاس.

عُرض طلب بُمپِيوس على هذا المجلس الجليل.

مسكين بُمپِيوس!

ارتأى الخصيّ فُتينُس رفض طلب الاستضافة،

وارتأى الخادم أشِلّاس قبول الطلب،

وحين سُئل المعلّم تِيُدوتُس الذي من شِيو عن رأيه، أجاب:

- وحدهم الموتى لا يعضّون.

فاستفسروه عن مقصده، فأجاب الخطيب:

- لا أمان لنا لا في الرفض ولا في القبول. ففي استقبال بُمپِيوس استعداءٌ لقيصر والقبول بزعامة بُمپِيوس. أمّا رفْضنا طلب بُمپِيوس فيعرّضنا لخطر ضغينة قاتلة في حال ما إذا استعاد بُمپِيوس قدراته. فقال الملك الشابّ:

- والآن عليكم أن تحسموا الأمر حالاً.

- لقد حسمت أمري: وحدهم الموتى لا يعضّون، أجاب معلّم البيان.

فتبادل الملك والمستشاران الآخران النظر، وقد بدأوا يدركون مقصده.

Twitter: @ketab_n

وتمّت المشاورات بصوت منخفض، وبعدها كُلّف أشلّاس بتنفيذ ما اتُّفق عليه.

اصطحب معه شخصين رومانيّين، خدما كلاهما في جيش پُمپِيوس، أحدهما قائد كتيبة والآخر قائد مائة.

أحدهما يدعى سِپتيميوس والآخر سَلڤيوس، إذ يحسن بنا أن نحكم بالأبدية على اسمَي القاتلين.

ضمّوا إليهما عبدين أو ثلاثة عبيد وأرسلوهما في سفارة إلى پُمپيوس.

لم يكن پُمپِيوس يتوقّع أقلّ من أن يرى المركب الملكيّ آتياً إليه وعليه بطليمُس بالذات. راح هو وكُرنيليا يسائلان الأفق، فكادا لا ينتبهان إلى زورق حقير، انفصل عن الشاطئ وراح يقترب منهما وعلى متنه ثمانية أشخاص، إلّا حين لاصق السفينة.

ذلك الاحتقار لعاثر الحظّ الرفيع الشأن جرحَ شعورَ أقلّ الرجال إحساساً، ولم يرتفع إلّا صوت واحد لينصح پُمپِيوس باستئناف مسيره.

إلّا أنّ پُمپِيوس كان قد استنفد قواه كلّها وبلغ قدره منتهاه. فقال:

- قد نعطي الانطباع بأنّنا هاربون، ومن العار أن نهرب من وجه ثمانية رجال.

حينئذ هبّ سِپتيميوس واقفاً في زورقه وحيّا باللغة اللاتينية قائده السابق منادياً إيّاه بالقائد الظافر.

استلم أشِلّاس الحديث بعده باللغة اليونانية فدعا پُمپِيوس، باسم الملك بطليمُس، إلى أن ينتقل من مركبه الحربيّ إلى الزورق.

ولم يرتفع إلّا صوت واحد لثني پُمپِيوس عن عزمه الاستجابة للدعوة؛ فيما كانت كُرنيليا تقول له:

- إن كنت تبغي الاقتراب من الشاطئ، فاقترب أقلّه بمركبك الحربيّ؛

Twitter: @ketab_n

وإن نزلت إلى الشطّ فانزل أقلّه مع حاشيتك.

لكنّ أشِلّاس قال مستأنفاً حديثه باليونانية:

- أيّها القائد الظافر العظيم الشأن، يستحيل ذلك، فأرض الشاطئ موحلة، وفيها مرتفعات رملية، قد تنغرس سفينتك فيها.

في تلك الأثناء، كان على الميناء والشاطئ حراك مستمرّ.

السفن تُجهَّز والجنود يركضون في كلّ الاتّجاهات لتبليغ الأوامر.

كان پُمپِيوس متردّداً، فسألته كُرنيليا:

- لماذا هذه الحركة القائمة على السفن وبين هؤلاء الرجال؟ فأجاب أشِلّاس:

- استعداداً لتكريم پُمپِيوس.

بهذا القول، حسم پُمپِيوس أمره. فقبّل كُرنيليا المجهشة بالبكاء، وطلب من قائدَي كتيبة من حاشيته أن يسبقاه إلى النزول، أحدهما من المُعتَقين اسمه فِلِپّوس والثاني من العبيد اسمه سيرِس. وفيما كان أشِلّاس يمدّ له يده ليساعده على النزول، التفت مرّة أخرى نحو زوجته وابنه وودّعهما بهذين البيتين للشاعر سُفوكلِس:

«من يسِرْ نحو طاغية يكن عبداً له

حتّى وإن كان لا يزال حرّاً وهو يقترب منه»

كانت تلك آخر كلمات سمعَتها كُرنيليا مع ابنها تخرج من فم پُمپِيوس.

ابتعد الزورق بصمت، تتبعه نظرات قلقة يلقيها المتبقّون على السفينة. ولم يكن يُسمع إلّا صوت المجاذيف وهي تبتعد بپُمپِيوس عن أصدقائه وتقترب به من الشاطئ المصري، كلّما ضرب الملّاحون الماء بمجاذيفهم.

الجذّافون صامتون والآخرون مكفهرّون لا تصدر عنهم حركة.

قطع پُمپِيوس ذلك الصمت الجنائزيّ، قائلاً لسِپتيميوس:

Twitter: @ketab_n

- ألم تكن تعمل تحت أوامري؟

أجابه سِپتيميوس بإشارة من رأسه، لكنّه لبث صامتاً.

عندئذ تنهّد پُمپِيوس، وكان قد خطّ على لوحاته خطاباً باليونانية كان ينوي إلقاءه في حضرة الملك الشابّ.

أخرج لوحاته من صدره وفتحها، ثمّ أخذ قلمه وصحّحها.

في تلك الأثناء، كان الناس، ممّن رأيناهم سابقاً يسعون على الشاطئ في كلّ الاتجاهات، يتجمّعون حول المكان المعدّ لنزول پُمپِيوس.

أدخل ذلك بعض الطمأنينة في قلوب من بقوا في السفينة، وهم يصوّبون أنظارهم دون كلل نحو الزورق الذي يحمل مصير البعض وأقدارهم، وكذلك سعادة الآخرين وحبّهم.

وأخيرا بلغ الزورق الشطّ.

فنهض پُمپِيوس واستند على كتف مُعتَقه فِلِپّوس لينزل إلى الشاطئ.

لكنّ سِپتيميوس، وكأنما حُرّم عليه أن يدَع پُمپِيوس يمس البرّ حيّاً، استلّ سيفه بسرعة البرق وأغمده في جنبه.

كانت الضربة مرعبة، غير أنّ پُمپِيوس بقي واقفاً، فلا يُصرع الجبّار بضربة واحدة، كما لا تهوي السنديانة بضربة فأس.

لم يطلق پُمپِيوس صرخة واحدة، ولا تنهّدة واحدة. التفت يُلقي نظرة أخيرة على زوجته وابنه، وأخذ ثوبه بكلتا يديه ساتراً به وجهه، ثمّ تلقّى ضربتين أخرَيين من سَلڤيوس وأشِلّاس دون شكوى وبدون أن يبدي حراكاً ليتجنّبهما.

ثمّ هوى مُطلقاً تنهيدته، الأولى والأخيرة.

مات وعمره ثمانٍ وخمسون سنة ويوم.

ارتُكب هذا الاغتيال بحضور المتراكضين على الشاطئ وتحت نظر

Twitter: @ketab_n

الواقفين في السفينة.

راح الولد يبكي، وراحت كُرنيليا تلوي ذراعَيها من شدّة اليأس.

صاحت بالقتلة أن يعيدوا لها جثمان زوجها.

غير أنّ رُبّان السفينة خشي أن يدركوه، فنشر أشرعته وراح يبتعد عن الشاطئ بالرغم من توسّلات كُرنيليا له بألّا يبرح مكانه.

أقبلت كُرنيليا بوجهها نحو ذلك الشاطئ دون أن تقوى على تحويل نظرها عنه، لكي لا يضيع منها أمر من المشهد المريع الدائر هناك.

احتزّ القتلة بسيوفهم رأس پُمپِيوس حتّى لا يبقى لدى بطليمُس -وكان يعرف پُمپيوس- أيّ شكّ في موته.

أمّا جسمه، فألَقوه على الشاطئ عارياً، وأمّا الثوب فتركوه وغطّوا به وجهه.

كان فِلِپّوس قد قفز إلى اليابسة وجلس يبكي قرب الجثّة المقطوعة الرأس.

تركه القتلة في أساه وابتعدوا.

بقي فِلِپّوس وحده، محاطاً بمجموعة من فضوليّين جاؤوا يقدّرون عظمة الإنسان قياساً على هذا الجسد المبتور، وأخذ يغسل الجثّة بماء البحر بكلّ تقوى. ثمّ ألبسها رداءه الخاص، وصنع محرقة من حطام زورق صيّاد غريق التقطها على الشاطئ.

وهو في غمرة نشاطه الجنائزيّ هذا، رأى شيخاً يقترب ببطء ويقف أمام الجثّة، ويسأله:

- هل هو جثمان پُمپِيوس ما تدفنه الآن؟

- نعم! أجاب فِلِپّوس، فقال الشيخ:

- دعني أساعدك؛ فقد خدمت في جيش پُمپِيوس. لن يحقّ لي من بعد

Twitter: @ketab_n

أن أشكو من غربتي، بما أنّني حظيت، بعد الشقاء الذي عانيته، بمجد مساعدتك في دفن أعظم الرومان.

هكذا جرى مأتم پُمپِيوس.

في اليوم التالي، كان لوكيوس لانتُلُس في سفينته، المبحرة بموازاة الشاطئ المصري قادمة من قبرص، واقفاً على سطحها كاتفاً يديه، ينظر إلى اللهب يتصاعد من المحرقة وإلى رجل جالس قربها يبكي؛ ولم يكن يعلم بما حدث. فسأل صحبَه بحزن:

– من هو هذا الإنسان الذي قدم إلى هذا المكان ينهي فيه مساره المُقدّر ويستريح من أعبائه؟

وبعد لحظة تنهّد ثمّ أضاف:

– واأسفاه، لعلّه أنت يا پُمپِيوس العظيم!

وفي اليوم التالي نزل لانتُلُس نفسه إلى اليابسة وقُتل.

دعوني أذكر حالاً – قبل أن أعود إلى شؤوني الخاصة – ما كان مصير جميع هولاء القتلة.

حين وصل قيصر إلى مصر، وجدها في اضطراب عظيم. ظنّ الملك الشابّ، وهو لا يزال في حربه ضدّ أخته، أنّه يستميل قيصر إذا قدّم له رأس پُمپِيوس. غير أنّ قيصر حوّل نظره باشمئزاز؛ ولمّا قدّموا له الخاتم الذي به مُهرَ عدد لا يحصى من الكتابات – وكان على صورة أبي الهول، وهو رمز لما لا تنتهك له حرمة– أخذه بين يديه وهو يبكي.

لعلّه استشعر موتاً ليس أقلّ رهبة من الموت الذي يبكيه!

فأمر بقتل أشلّاس وفُتينُس، ونوى أن يحكم بنفس العذاب على تِيُدوتِس السفسطائيّ، باعتباره أعظمهم جرماً لأنّه هو الذي نصح باغتيال پُمپِيوس. إلّا أنّ تِيُدوتِس كان قد استبق الأمور وغادر مصر.

Twitter: @ketab_n

ثمّ هام على وجهه طريداً مدّة طويلة، بائساً، مكروهاً، محتقراً، يُشار إليه بالبنان، إلى أن اكتشف بروتُس مخبأه، لمّا أخضع آسيا، فانتزع آخر أنفاسه تحت التعذيب.

أمّا الملك الشابّ بطليمُس، فقد اختفى في إحدى معاركه ضدّ قيصر. ولعلّه غرق في النيل.

بأمر من قيصر، حمل فِلِپّوس إلى كُرنيليا العلبة التي تحوي رفات پُمپِيوس، فدفنتها كُرنيليا في ضريح في بيتها الذي في ألبا حيث قضت مع پُمپِيوس أيّاماً هي من أمجد الأيّام وأسعدها.

كان ذلك في العام 707 لتأسيس روما.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

هُراسيُوس يغادر أُربيليوس - يذهب إلى أثينا - يُبحر من تَرنتُم - تُنزله السفينة في كُرَنثيا - كُرَنثيا - مِگارا - إلوزِس - أثينا - هُراسيُوس يسكن في شارع هِرمس، مقابل معبد تيزِيوس.

كنت في الثامنة عشرة وصرت، بفضل دراستي عند أُربيليوس ومحادثاتي عند سِرانُس، أتكلّم اليونانية كما أتكلّم اللاتينية تقريباً. فقرّر والدي أن يبذل تضحية أخرى فيرسلني إلى أثينا لأجني فيها، حسب تعبير شيشرون، آخر وردة في حسن الأدب والمعرفة، وردة من ورود ما وراء البحار نابتة في تربة غريبة.

أصبحت أثينا، وهي تخضع لروما، سيّدةَ من أخضعها، فالأقدار متقلّبة. في تلك المدينة، كنت تسمع اللغة اليونانية الخالصة، وتجد أشهر المعلّمين. فقد عاملها سِلّا بمراعاة مع أنّه عامل بعض أهلها بضراوة. وعلى كلّ حال، صان لها حريّتها ومجدها، فبقيت أعظم معالمها الأثرية وأروعها منتصبة بأكملها، وبقيت معظم تماثيلها ثابتة على قواعدها. فقدت أثينا نفوذها السياسيّ، لكنّها احتفظت بمرتبتها الأولى في مجال الفكر.

غادرتُ إذن مدرسة ڤيلابرُم وأُربيليوس، وكنت أعزّ تلميذٍ إلى قلبه،

Twitter: @ketab_n

لأذهب إلى أثينا بغية استكمال تربيتي.

دعوني أذكر منذ الآن ما صار إليه هذا الإنسان الطيّب بعد أن تركته، ثمّ أثناء الفترة التي عاشها فيها بعد.

كرّس حياته للتعليم، دون أن يتساهل يوماً مع تلامذته أو أهلهم، يعامل كلّ من عُهد به إليه نفس المعاملة، من العامّة كان أو من الخاصّة؛ ولذا عاش فقيراً وفقيراً مات، لستّ سنوات خلت. حافظ حتّى سنّ الثامنة والتسعين على ذاكرته كاملة. وقد أكّد لي بعضهم أنّ مواطنيه نصبوا له تمثالاً في ساحة هضبة بِنِڤَنتُم، يبدو فيه جالساً مرتدياً الطيلسان وإلى جانبه لوازمه التقليديّة للكتابة، وكم سُحرت بها حين رأيتها لأوّل مرّة.

سافرنا، أنا ووالدي، إلى تَرَنتُم، حيث كان عليّ أن أُبحر، فأنفصل عن والدي لأتركه يعود إلى ڤِنُسيا يعيش فيها حياته المغمورة بالقليل ممّا تبقّى له من مال ضحّى بأغلبه في سبيل تربيتي.

تَرَنتُم هي وطن أنيّوس، وآنذاك كان البيت الذي ولد فيه لا يزال قائماً، يتعرّف عليه الغرباء من لوحة رخامية سُجّل عليها تاريخ ميلاده وموته.

مكثنا ثلاثة أيّام في تَرَنتُم، لا أعرف إن كان ذلك بسبب الريح التي لم تكن ملائمة أم لأنّ السفينة التي تقلّنا لم تستكمل حمولتها. زرت خلال الأيّام الثلاثة سِركُس المدينة الذي يطلّ الناس منه على البحر، وفيه يقيمون التمثيليّات المسرحية ويُجرون المداولات السياسية؛ كما زرت ساحتها الرئيسية الرائعة حيث تمثال جوپِتير الضخم، الذي لا ينافسه في الارتفاع إلّا **جبابرة رودُس**، وضريح العاشقَين الذي يخلّد ذكرى حبّ پلَوتوس لزوجته أورِستِلا.

Twitter: @ketab_n

لم يُعلمنا صاحب السفينة إلّا حين الإقلاع أنّنا لسنا ذاهبين إلى أثينا، كما كان يتوقّع هو نفسه، مروراً برأس تِنار، بل إلى كُرنَثيا.

فاقترح أن يُنزل الركّاب الذاهبين إلى أَتِّكا الواقعة في خليج كُرنَثيا، في ميناء ليتْشه، ومن هناك يقصدون أثينا عن طريق مِـگارا وإلوزيس.

ولم يكن لنا خيار آخر، بما أنّ كلّ أمتعتنا كانت على السفينة. فقبّلت والدي المسكين وأبحرنا.

بعد ستّة أيّام من السفر، لاح لنا البرّ، فأدركنا أنّنا وصلنا إلى كُرسيرا. وكان الربّان قد انحرف عن مساره نحو اليسار، فاتّجه شطر الجنوب.

ثمّ مررنا بين لوكاديا وسِفَلّينيا، فسرنا بمحاذاة إيتاكا، التي شاهدنا على شواطئها تلك القطعان البديعة من الخنازير التي يرد ذكرها عند عوليس، إلى أن دخلنا أخيراً بحر أَلسيون.

كانت النشوة تغمرني منذ أن بدت لنا أرض اليونان. لم نعد نشهد إذّاك إلّا جزراً لأسمائها رنين، وأماكن ذاع صيتها بفضل أناشيد قديمة تركها لها شعراء اليونان. فاستعدت عند مروري أمام لوكاديا أبيات سافو؛ وعند مروي أمام إيتاكا أبيات هوميرُس. وها أنا أشهد فجأةً، وأنا ألج خليج كُرَنثياتُم، جبل البَرناسُس ينتصب أمامي مثل جبّار جليل شابّ رأسه.

بعد أن قطعنا مسافة، أبصرت منطقة بِيوسيا فحيّيتها بأبيات من كتاب **أودِيبوس** لسُفوكلِس؛ ومن ظهر السفينة، كنت أتبيّن لوكترِس، إحدى بنتي لِيونيدَس الخالدتَين، وبِلَتِيه حيث قهر مَردونيوس پَوزانيَس، وكُرونه حيث هزم أجِزيلَس جيوش أثينا وكُرِنثيا وثيفا وأَرگُس المتحالفة معاً.

ثمّ نزلنا في ليتشيه،

Twitter: @ketab_n

يصل هذا الميناءَ بالمدينة سورٌ مزدوج طوله نصف ميل، بينما تبعد كُرونه عن ميناء سَرونِكُس البحري ثلاثة أميال.

وضعت أمتعتي على ظهر حمّال وذهبت لا إلى المدينة نفسها بل إلى ضاحية كْرِسّا، حيث نزلت مع أربعة أو خمسة من المسافرين في فندق. فقد كنّا جميعنا قاصدين أثينا ومصمّمين على أن ندخلها سويّةً.

تواعدنا على اللقاء في اليوم الثالث، على أن يزور كلّ واحد منّا، خلال هذه الأيّام الثلاثة، كُرِنثيا وضواحيها كما يحلو له.

رحت منذ مساء اليوم الأوّل، استكشف المدينة.

وكما سبق أن ارتقيت هضبة الجَنِكولُم في روما فور وصولي إليها، كذلك سارعت هنا إلى الصعود نحو القلعة.

عند خروجي من المدينة شاهدت ضريح أولاد ميديه، إذ كانت أمّهم قد وضعتهم في أسفل المذبح موكلةً حراستهم للآلهة.

غير أنّ الكُرنثيّين انتزعوهم من مكانهم وقضوا عليهم رجماً.

صحيح أنّ أورِبيدِس يقول في تراجيديته إنّ ميديه هي التي قتلتهم. إنّها لكذبة قبض الشاعر لقاءها من قضاة المدينة خمسة موازين.

كان في القديم عُرف - لم يعد اليوم ساري المفعول- يقضي بأن يحلق أبناء الكُرنثيّين رؤوسهم ويلبسوا الثياب السوداء حتّى سنّ السابعة، تكفيراً عن جرائم آبائهم.

لا يستغرق الطريق المؤدّي إلى القلعة أكثر من محطّتين أو ثلاث محطّات، إن سلكته بخطّ مستقيم. والواقع أنّه يتيه في متعرّجات شتى، بحيث أنّ قطعه يقتضي حوالى ثلاثين محطّة.

يمرّ الطريق بسبيل بِرين المكرّس لربّات الشعر. فمن مائه الصافي والخفيف كان الحصان بِگازُس يرتوي حين فاجأه بِلِّروُفون قافزاً فوق

Twitter: @ketab_n

ظهره ليتخذّه عنوةً مطيّةً له. وشربت بكفّيّ من الدمع الذي لا تزال الحوريات تذرفه على موت ابنهنّ الذي قتلته دِيانا، ثمّ ذهبتُ أستريح في هيكل ڤينوس المسلَّحة التي تحرس بوابة القلعة.

يحيط بالإلهة من اليمين ومن اليسار تماثيل الحبّ والشمس.

إنّ ڤينوس إلهة الكُرنثيّين، أو الكُرنثيّات بالأحرى. ولا شكّ أنّ السبب في ذلك كون الطبيعة أغدقت عليهنّ الجمال بسخاء. لم يكنّ يخجلن أبداً من خفّة تصرّفاتهن، بل يفتخرن بها ولا يزلن كذلك. ڤينوس إلهة الغانيات، وهنّ كاهناتها. حين تحلّ المصائب الكبرى أو تحدق المخاطر، كنّ يسرن مع المواطنين في المواكب. وعند مجيء كسرى، احتمت كُرنَثيا بهيبتهنّ. هناك لوحة، فُقدت حين نهب مِمّيوس كُرنَثيا، تمثّلهنّ وهن يقدّمن النذور لڤينوس؛ وفي أسفل اللوحة أبيات للشاعر سِمونيدِس تنسب لهنّ شرف إنقاذ اليونان.

ولهؤلاء السيّدات مهارة في نهب الغرباء، عبّر عنها هذا المثل الشهير: «لا يجوز لأيّ كان من الناس أن يذهب إلى كُرنَثيا».

إنّ مراسيم عبادة غانيات كُرنَثيا اليوم على نوعين، أحدهما مكرّس للإلهة السماوية والثاني للإلهة الفانية. فالإلهة السماوية هي ڤينوس والإلهة الفانية لَيِّس.

لَيِّس تهدّد ڤينوس بإنزالها عن عرشها.

بلغت ذروة مجدها في كُرنَثيا بعد أن اختطفها أَلسِبيادِس من موطنها، صقِليّة. فتوافد الفنّانون والأمراء والملوك من كلّ أرجاء اليونان ليروها. وقدُم إليها ديمُستِنيس مثل غيره. فطلبت منه لَيِّس عشرة آلاف درهم. أجاب:

– المبلغ باهظ باعتباره ثمناً للتوبة. ثمّ انسحب.

Twitter: @ketab_n

استدلّيت على ضريحها؛ كان مغموراً بأكاليل لم أرَ قطّ مثلها على ضريح أيّ محارب شهير.

وفي كُرنَثيا، كما تتناقل التقاليد، نشأ فنّ الرسم، حين قام أحد العشّاق، ولأوّل مرّة، برسم صورة ظلّ عشيقته المنعكس على الجدار.

لست بحاجة إلى التذكير بأنّ المصريّين ينسبون لأنفسهم السبق في هذا الميدان.

والواقع أنّ فنّاني سيسيون وكُرنَثيا كانوا، حوالى فترة الألعاب الأولمپيّة الأولى، أي حين حازت كُريب على جائزة الألعاب، أوّل من بادر إلى ذلك الرسم الذي أثار سبقُه الفنّيّ إعجاب الجميع. وعلى سبيل المثال، بينما كان دِدالُس السِسيوني يفصل الرجْلين واليدين عن التمثال، كان كْلِيوفانِس الكُرنثيّ يلوّن ملامح الوجه بمسحوق الآجرّ المشويّ. وفي سِسيون أيضاً نشأ أوپَمپُس، رائد المدرسة الثالثة في الرسم؛ علماً بأنّ المدرستين الأخريين هما مدرستا أثينا وإيونيا اللّتان جادتا علينا بپَوزيَس وپَمفيلِس، وبفضل هذا الأخير برع مِلانتُس وأَپلّيس.

نعرف أنّ قصدير أثينا هو أفضل المعادن لصنع المزهريّات والكؤوس والشمعدانات وكلّ ما يتجلّى فيه البذخ من شكله الفنّيّ.

عندما خرجت من معبد ڤينوس المسلّحة، اندهشت من رحابة الآفاق التي تمتدّ حولي وأنا في أعلى بهو المعبد. فإلى شماله، أي في الجهة الواقعة مقابلي، بحر الألسيون، ويتراءى لي جبل الپَرنَسُّس فوق دِلفِس، والهِليكون فوق تيفو؛ ومن الشرق، أي إلى يميني، خليج سَرونِكُس برمّته من جزيرة إيجينِس وحتّى قمّة سونيوم التي كنت أتبيّن أدقّ تقاطيعها من شدّة صفاء هوائها؛ ومن الغرب أخيراً، أي إلى يساري، يقوم الأنف الجبليّ سيسيُن مع هيكل نِپتونُس المرتفع فوقه وشواطئ أكايا الرائعة

Twitter: @ketab_n

المستحمّة في نهر كْرِسّا.

لا أروع من هذين الخليجين وهما يلعقان أمواج ذلك البرزخ الذي يشبّهه پِندارُس بجسر مرميّ فوق البحار واصلاً ما بين شمال اليونان وجنوبها.

عندما ترى ذلك الموقع الرائع، تدرك أي حظّ استأثرت به كُرِنثيا في معاملاتها التجارية: بضائع شمال اليونان ترِدها عبر البرزخ، ومنتجات إيطاليا وصقلّية وإسبانيا وبلاد الغال تصل إلى ميناء ليتشيه عبر خليج كْرِسّا، فيما تنزل منتجات بحر إيجيه وآسيا وفينيقيا إلى ميناء كُرونه.

أصبحت كُرِنَثيا إذّاك مستودع آسيا وأوروبا، وفُرضت ضرائب عبور على البضائع المنقولة من ميناء إلى آخر دون أن تمرّ بها.

ثمّ أتت فترة لم يعد الناس فيها يكتفون بنقل البضائع عبر البرزخ، بل أدخلوا السفن إليه.

عندها أصبحت أسواق كُرنَثيا أغنى أسواق العالم، إذ راح يلتقي فيها عاج ليبيا، وجلود سيرينه، بخور سوريا وتمور أفريقيا، سجّاد قرطاجة وعنبر لِقونيا، حرير بلاد السيرِس وشاش بلاد الكوس، حجارة الهند الثمينة وعقيق بلاد الغال الأحمر، منتجات پرگمِس الفخّارية وأرجوان صُور، فَرو سيتيا وفِراخ كُلكوس وصوف پُلّنسِيا.

والآن تصوّروا الألعاب في البرزح أمام حشد من الناس المتوافدين من سائر أنحاء العالم.

واأسفاه! أيّ فرق بين كُرنَثيا هذه التي أراها عند قدميّ وكُرنَثيا أيّام پِرياندرِس وفِيلِپُّس!

في اليوم الثالث، اجتمعنا، حسب ما اتّفقنا عليه، حوالى الساعة الثالثة صباحاً استعداداً للسفر.

Twitter: @ketab_n

أعدّوا لنا أربعة أو خمسة من البغال لحمل أمتعتنا.

وانطلقنا في طريقنا وكأنّنا قاصدون ميناء سِنشْرِس. وحين بلغناه داورناه ومررنا بسفح جبل أونِيس سالكين، بالاتجاه المعاكس، نفس الطريق التي سلكها هِپّوليتُس ذاهباً إلى ميسينا بعد أن نبذه تيزِيوس.

بعد ساعتين، كنّا في مِـگارا.

قضينا نهاراً طيّباً إذ قطعنا ما بين خمسة وثلاثين وستّة وثلاثين من الأميال.

نظراً لأهميّة مِـگارا، قرّرنا أن نمكث فيها يوماً.

كان يُطلق عليها لقب مِـگارا المجادِلة بسبب مدرستها في علم الجدل، وقد كانت موطن أوكليدِس وسْتِلپُنتِس. وفيها هيكل جميل لجوپِتير الأولمبي في وسط غابة مقدّسة، أُقيم فيها ضريحان لإفِجينيا وأَدراستُس.

وفي اليوم الثالث من وصولنا، انطلقنا في مطلع الفجر فبلغنا إلوزيس قبل منتصف النهار بقليل.

نعرف كم كانت هذه الأسرار، التي لم نعد نأخذ بها اليوم، ذات شأن في ذلك الزمان.

كان القانون يحرّم وقتها، على كلّ إنسان غير يونانيّ المولد، أن يشارك في الأسرار المقدّسة[1]. وإن خانها أحد وهتك سرّها، حُكم عليه ليس فقط بالموت، وليس فقط بتجريده من ممتلكاته، بل بأن يصبح منذوراً لَمقت الناس أجمعين.

هناك أُقيم عمود التشهير تخليداً لذكرى الجريمة والعقاب.

لم يبلغنا إلّا القليل عن هذه الأسرار. يقال إنّ أيّ مكان أدخلها إليه

(1) تُطلق التسمية على أعياد وشعائر احتفالية كان اليونان والرومان القدامى يقيمونها للآلهة، من أشهرها «أسرار إلوزيس» عند اليونان، انتقلت منهم إلى الرومان وبقيت تُمارَس حتى نهاية القرن الرابع الميلاديّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

الأثينيّون عمّته روح عجيبة من الوحدة والإنسانية.

أمّا العقيدة فكانت تقوم، وفق ما بلغنا، على الإيمان بالإله الواحد.

كانت مراسم إلوزيس تُقام كلّ سنة في الخامس عشر من شهر بُدروميُن، الموافق للسابع أو الثامن من سبتمبر عندنا. وكانت تدوم تسعة أيّام؛ خلال تلك الأيّام التسعة كانت تُحرّم الملاحقات القضائية كلّيّاً، وتُعلّق كلّ قرارات مصادرة أملاك المَدينين، حتّى من صدر بحقّه حُكم القضاء.

يقع هيكل الإلهة الشهير هذا في الطرف الشرقيّ من هضبة عظيمة تشرف على المدينة. طوله من شماله إلى جنوبه 384 قدماً، وعرضه من شرقه إلى غربه 325 قدماً.

أثناء الحروب الميديّة، انسحب سكّان إلوزيس مع الأثينيّين إلى جزيرة سَلامِس.

لم نتوقّف إلّا ثلاث ساعات في إلوزيس، ما يلزم للغداء وإراحة خيلنا وزيارة المعبد. كنّا نستعجل الوصول إلى أثينا في نفس اليوم. ثمّ دخلناها من **البوابة المقدّسة**.

ذهبنا للإقامة في شارع هِرمس، مقابل هيكل تيزِيوس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

حالة أثينا حين وصولي - پمپونيوس أتّكُس - مختلف مدارس أثينا: الرواقيون، والأفلاطوتيون، والارتياتبيون، والپثاگوريّون، والأَپيقوريّون - الأَكَديميا - العمود - اللِّسيوم.

أقول في الكتاب الثاني من رسائلي:

«كان من نصيبي أن أتربّى في روما وأطلّع فيها على الآلام الشديدة التي أصابت اليونان بسبب غضب آخيلوس. إنّ مدينة أثينا المتميّزة أضافت إلى ثقافتي أموراً كثيرة: فيها أدركت كيف أميّز بين الخطّ المستقيم والخطّ المنحني، وكيف أبحث عن الحقيقة في حدائق أكَديمُس[1].»

تعبّر هذه الأبيات تعبيراً صادقاً عمّا جئت لأجله إلى أثينا وعما قمت به فعلاً.

كانت أثينا تمارس على الغرباء، أيّاً كانت سنّهم، جاذبيّة خارقة. الشبّان يجدون فيها الملذّات والحبّ مع أعذب نساء الأرض؛ والرجال الناضجون يتمتّعون بمحادثة الفلاسفة؛ بل يجدون أفضل من ذلك: تحت تلك السماء الصافية وإزاء ذلك البحر الشفّاف بشفافيّة الهواء،

(1) حدائق تتخلّلها أروقة، أقامها الإغريق القدامى تخليداً لذِكر البطل الأثينيّ أكَديموس. وفي المحلّ ذاته أنشأ أفلاطون مدرسته الشهيرة للفلسفة وسمّاها «أكَديميا» (سبق ذكرها) (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

يتلقّون ذكريات لا مثيل لها يتنقّلون في أرجائها.

«كم مرّةً، أيّها الأثينيّون، ستُغفر لكم ذنوبكم مراعاةً لذكرى الأعمال العظيمة التي قام بها آباؤكم؟»؛ ذاك قول قيصر بعد معركة فَرسالا.

تيتُس پُمپونيوس مثال عن الإغراء الذي تمارسه أثينا. فارسٌ ولِد في روما عام 643 لتأسيسها، نأى عن مدينة مولده ليتسنّى له أن يبقى، قدر الإمكان، على الحياد في الحرب الدائرة بين مَريوس وسِلّا. وعندما استقرّ في أثينا، انكبّ كليّاً على الدراسة، فتمكّن من اللغة اليونانية بحيث أنّ الناس نسوا اسمَيه وصاروا يسمّونه «أتِّكُس»[1].

وإليه وجّه شيشرون أكثر رسائله التي نعتبرها نموذجاً في فنّ الكتابة. شيشرون أيضاً كان يعشق أثينا. ولعلّني لن أتّفق تماماً مع الخطيب الشهير في وصفه لجغرافية المدينة، ولذا سأذكر في الوقت المناسب ما هو سبب الاختلاف في نظرتنا إلى هذه المدينة وشؤونها.

قدِم شيشرون إلى أثينا وعمره ثمانٍ وعشرون سنة، وفيها قام بأولى محاولاته في فنّ الخطابة. وفيها التقى مجدّداً مع أتِّكُس وتعرّف على أنطيوكُس، وهو أشهر فلاسفة الأكَديميا القديمة. وفيها رأى فيدرُس وزينون، لا أقصد زينون زعيم الرواقيّين، بل تلميذ أپيقورُس. وفيها استمع إلى الخطيب الشهير ديميتريوس السوريّ. وفيها أخيراً، وبالرغم من كونه مواطناً رومانيّاً، أفاد من الانحلال الذي أصاب الطقوس الدينيّة فتدرّب على أسرار إلوزيس.

في عام 702، أي قبل رحلتي الوارد ذكرها آنفاً بأربع سنوات، مرّ شيشرون بها في طريقه إلى قِليقيا التي عُيّن حاكماً عليها، فنزل وقتئذ عند الفيلسوف أرسطُس، أشهر معلّمي الأكَديميا. وقد استطاع أن يُقنع

(1) نسبةً إلى منطقة أتّكا Attica، التي تشمل أثينا وما حولها (المترجم).

Twitter: @ketab_n

مُـمّوس، وهو حفيدٌ لأخي القائد الذي دمّر كُرنَثيا وكان منفيّاً فيها بسبب غشّه في الانتخابات، بالتخلّي عن هبة نالها من مجمع الحكماء، حصل بموجبها على أرض لا تزال آثار بيت أپيقورُس قائمة فيها حتّى اليوم.

عرّج عليها لدى عودته من قِليقيا، عام 703، وعرض أن يبني، على نفقته، رواقاً في هيكل سيرِس في إلوزيس، ورواقاً ثانياً يُزيّن به الأكَديميا. وعندما عاد إلى روما، أرسل ابنه إلى أثينا ليُكمل فيها دراسته، وأرسل معه اثنين ممّن أعتقهم. وحين وصلتُها، كان ابنه يقطنها منذ شهر تقريباً، ويعيش برخاء عيشة شابّ يصرف مبلغاً يتراوح بين ستّين ألفِ سِستِرس وسبعين ألفاً سنويّاً.

كنت أملك ربع ذلك المبلغ تقريباً، وأشعر منه بأنّي غنيّ، لا بل غنيّ جدّاً، نسبةً إلى المبلغ الزهيد الذي احتفظ به أبي ليعتاش به.

في اليوم التالي لوصولي، ذهبت لزيارة الفيلسوف كْرَتِپُّس، ناوياً أن أتابع دروسه. كان لا يزال بعد شابّاً، رقيقاً، ودوداً، جميل الطلعة، وكانت له دارة جميلة على ضفاف سيفِز، يحلو له أن يستقبل فيها أصدقاءه وحتّى تلاميذه.

عنده التقيت بڤَليريوس مِسّالا وابن شيشرون. لم يعيرا بالاً لأصولي المتواضعة بل أقبلا نحوي إقبالهما على مواطن لهما واستقبلاني أروع استقبال.

مدارس روما الكبرى في ذلك الوقت هي: الرواقيّة، والأفلاطونيّة، والارتيابيّة، والپِتَاگوريّة، والأپيقوريّة.

هذا ما كان الأپيقوريّون يعتقدونه:

«في كلّ إنسان إنسانان، إنسان مادّيّ وإنسان عقلانيّ،

Twitter: @ketab_n

«الإنسان المادّي لا يسمو على الحيوان في شيء، إذ أنّ له ما للحيوان من حواسّ،

«والعقل وحده يجعله أسمى من الحيوان، وبه يقارب الألوهيّة التي منها ينبثق

«تقوم الفضيلة على تحرير النفس من سيطرة الحواسّ، لتتحرّر من الأهواء كافّةً وتحافظ على قدرتها على المحاكمة الحرّة.

«كلّ ما يؤدّي إلى هذه النتيجة، أي كلّ ما يقرّبنا من الكمال، هو خير.

«وكلّ ما يؤدّي إلى عكس هذه النتيجة، أي كلّ ما يُحطّ من قدر عقلنا، هو شرّ.

«لا يكمن الشرّ الحقيقيّ في الأوجاع والأمراض والموت، لأنّ هذه ليست رهن إرادتنا، بل هي حوادث منبثقة من نظام العناية الإلهية الأبديّ الذي يتحكّم بالكون.

«ما يعكّر فينا الجوهر الإلهيّ هو الرذيلة.

«وما يحافظ على نقائه هو الفضيلة.

«الرذيلة والفضيلة أمران مطلقان ومتلازمان.

«الانتقال من الرذيلة إلى الفضيلة لا يقوم بالتدرّج.

«لا فرق إطلاقاً بين الرذيلة والكفر، بما أنّ كلّ رذيلة إهانةٌ للآلهة.

«كل ما يُعزّز حاجاتنا الجسديّة، وكلّ ما يستعبدنا لأهوائنا يحِدّ من حرّيتنا ويردينا في التعاسة والرذيلة.

«كل ما يكثّف فينا حياة الروح، وكلّ ما يقوّي فينا من سلطان العقل، يمنحنا الاستقلالية وبالتالي السعادة والفضيلة.

«للرواقيّ الحقيقيّ ضمير لا يعكّره شيء. وعقل لا يضيق بشيء. فهو ينصاع لما يقضي به ضميره وعقله دون تردّد؛ يدرك أنّه لم يتلقَّ الوجود من

Twitter: @ketab_n

العناية الإلهية التي تتحكّم بالكون إلّا ليشغل مكانه، مهما كان ضئيلاً، في الكلّ الأكبر؛ وأنّه، ومهما تناهى في الصغر، إن هو أعاقه أو ثبت على حال، فإنّه يعيق تناسق الكلّ السامي. فعليه أن يؤمن بدءاً بأنّه لم يولد لذاته، بل لأجل وطنه، لأجل عائلته، لأجل أصدقائه. فلا بدّ له والحال هذه أن يخدم وطنه وعائلته وأصدقاءه بكلّ ما أوتي من قدرات ومن ملكات. وعليه أخيراً أن يُقبل على المشاركة في الشأن العامّ إعلاءً لسلطة القانون وانتصاراً للحرّية!

«وعليه على الأخصّ أن يتعبّد للحريّة تعبّداً لا حدّ له، لأنّه، بدون حرّية، لا تدوم للإنسان كرامة، ولا تتنامى الأخلاق في أفعاله. فالرواقيّ أبداً على استعداد للموت في سبيل الحرّية؛ ذلك لأنّه يبقى واثقاً ساعة موته - قُدّر لروحه أن تخلد أم أن تفنى مع جسده- من أنّه حقّق الغاية من وجوده، خلال ذلك العبور الذي ندعوه الحياة؛ وبأنّه، وهو الضعيف الزائل، قد عاش في هذه الدنيا حياة إلهيّة.»

على هذا كان الرواقيّون، ولا سيّما منهم بروتُس.

أمّا الأفلاطونيّون فيردّون على الرواقيّين بالقول:

«إنّكم لمجانين، وأسوأ من مجانين: إنّكم متكبّرون. يا لكم من مجانين متكبّرين يدّعون المساواة بالألوهية! ألا تدركون أنّه في الألوهيّة، وفي الألوهيّة وحدها لا فيكم، تكمن الحكمة الكليّة؛ وأنّكم، بعدم تغافلكم لحظة واحدة عن الكمال اللّامتناهي، يمكنكم أن تحظوا بتلك القدرة التي تهب نفوسكم الخالدة نعمة الفوز - بعد هذه الحياة التي بمثابة يوم واحد- بالسعادة التي عبثاً تسعون إليها في هذه الدنيا، أي سعادة الاستغراق في معرفة الألوهيّة، والاحتفاء بعظمتها، والتمتّع بمواهبها.

«تفحّصوا الكون ونظامه الرائع؛ فبالتعبّد لقدرته الكلّية ترقَون إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك الانخطاف السماويّ، وإن هو إلّا بدايات أولى للملذّات المعدّة لأصحاب الفضيلة دونِ غيرهم. احتقروا هذه الحياة حيث، على بهيق برقٍ خُلّب، تصارعون الرذيلة والشقاء والعاهات والموت. تساموا بالفكر بحيث لا تدرككم أهواء الدنيا ولا همومها، أنّى كنتم. تأمّلوا في الله: فمن الله ينبثق كلّ شيء، وفي الله يكمن كلّ شيء، لأنّ الفضيلة في الله وحده، والحقيقة في الله وحده. وكلّ شيء خارجه جريمة، وكلّ شيء ضلال. إنّ الحياة ملكة وُهبت للإنسان، تخوّله الاختيار بين السبيل المؤدّية إلى العدم والسبيل المؤدّية إلى الخلود.»

وبعدهم يأتي الارتيابيّون قائلين:

«لا شيء في هذه الدنيا يمكن التحقّق منه ماديّاً. فأين هي إذن براهينكم على النظام الذي تقولون به؟ إنّكم، في مختلف فرَقكم، لا تنجحون إلّا في أمر واحد: أن تدحضوا ما يدّعي إثباته خصومكم من الفرق الأخرى. فهل تعتقدون أنّكم تبرؤون من الأحكام المسبقة بدحض الخرافات السخيفة؟ تعتنقون عقائد تدّعون أنها تفسّر كلّ شيء، بينما هي لا تفسّر أيّ شيء. لا شيء أكيد في الحياة، وسأبيّن لكم ذلك وأقيم الدليل على بطلان النظُم كافّة. لا شيء أكيد، حتّى الأخلاق نفسها، فما يُعتبر فضيلةً في زمن وبلد محدّدين، يُعتبر رذيلة في غير زمن وبلد. فمدينة سْپَرتا تشجّع على السرقة، بينما تعاقب عليها روما.

«المناخ والمسافات والسنوات تبدّل معايير الخير والشرّ. فلنتفحّص على الدوام أسرارَ الطبيعة، وبدون انقطاع معاييرَ الأمور. إيّانا أن نقول أبداً **هذا كائن**، بل **هذا ممكن الكينونة**. وعلينا ألّا نؤمن إلّا بما يمكن قبوله أكثر من سواه، وبما هو أكثر احتمالاً، دون أن نؤمن أبداً بإيمان مطلق. قد نستدلّ بحدثٍ ما في الإنسانية، بتقدّمٍ ما في العلم، على أنّ ما اعتبرناه

Twitter: @ketab_n

حقيقة على مدى قرون ليس أكثر من كذبة. فلنَرْتَب على الدوام، جاهدين أن نبلغ الحقيقة عن طريق الشكّ. على ذا تقوم الحكمة الحقيقية، وتلك هي الفضيلة الحقيقية، إن كان للفضيلة وجود».

كان پثاگوراس أكثر مبتكري النظم الفلسفية غموضاً. عاصر نوما وأنشأ مثله ليس فقط تشريعاً بل أيضاً جمعيّة جديدة. أتى من الهند بعقيدة التقمّص. ونظراً إلى أنّه لم يجد ما يؤسّسها عليه، أسّسها على نفسه، بحيث أنّ التشكيك بالعقيدة أصبح يقتضي التشكيك بالمعلّم نفسه. حفظت ذاكرتُه أحداث التاريخ حتّى حرب طروادة دون أن تتجاوزها، وتلك لعمري ذاكرة لا بأس بها على الإطلاق. يقول عن نفسه أنّه كان سابقاً وعلى التوالي: أُثَليدِس، ابن مِركوريوس، ثمّ أوفُربُس، ابن پَنتُس، الذي جرحه مِنِلاس، ثمّ هِرمُتيمُس الذي من كْلازُمِينس، وهو معلّم أَنكساگُراس وسابقُه. عادت روحه يوماً من رحلة فوجدت جسدها قد احترق وتعذّر عليها طريق العودة، فاقتبست جسد صيّاد على وشك أن يولد، وعبرت من جسد ذلك الصيّاد إلى جسد پثاگوراس.

أمّا عقيدته، فلم أفقه منها شيئاً ذا بال. ولذا لَن أحاول أن أشرحها لا لمن يعاصرني ولا للآتين من بعدي. استطاع أوّلاً أن يتمكّن كليّاً وبعناية قصوى من الأخلاق والقانون، وكذلك من علم الفلك والهندسة وفروع الرياضيّات كافّةً. وله ندين بذلك البرهان الشهير عن مربّع وتر المثلّث. ولكنّه لفرط ما أعمل ذهنه بالأعداد، توصّل إلى اقتراح المقولة التالية، وهي أساس نظامه برمّته: «الأعداد هي مبادئ الأشياء».

فَلْيُبرهن على ذلك من استطاع إليه سبيلا!

وأردف مقولته بدور الأعداد في **الآحاديات والثُنائيات والثُلاثيات** وخاصة في **العَشَريات**.

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، فهو أوّل من أحسّ بأنّ التوافق يسود أجزاء الكون، فقال بأنّ **العالم منظومة متّسقة**.

ارتقى من ذلك إلى الألوهية نفسها، فاعتبرها عقلاً أسمى، لامتناهياً وكليّاً. غير أنّه خشي أن يُتّهم بانتهاك حُرمة الآلهة الأخرى، فلم يُطلع على آرائه هذه سوى مريديه، مضيفاً إلى فلسفته قوله بأنّ النفس البشرية هي جزء من العقل الإلهيّ، مُميّزاً إيّاها عن المادّة التي اعتبرها مصدر الميول المخجلة والأهواء الرذيلة.

أمّا الكلبيّون، ولا نتناولهم هنا إلّا من باب التنويه، فيمثّلون بكلّ بساطةٍ ووضوحٍ الرواقيّة الشعبيّة؛ وما تعتبره الرواقية كبرياء، تراه الكلبيّة وقاحة.

كان الواحد من هؤلاء الحكماء يتجوّل مرتدياً الأسمال، خُرجه على ظهره، عصاه في يده، والشتيمة في فمه. إنّها الحكمة الأقرب إلى الجنون، والفضيلة الأدنى جواراً من الرذيلة. وكان لكلّ قوم كلبيُّهم، كما كان لكلّ من ملوك مصر مُهرّجُه. رأيت ذات يوم ليڤيا، زوجة أغُسطُس، تستمع إلى شخص من الفلاسفة الكلبيّين، اسمه آرِيوس. أصابتها محنة لم تشأ أن تُغمّ بها قلب زوجها، فأمرت ذلك الفيلسوف الوقور أن يوفّر لها بعض التعزية.

لا يتبقّى لي سوى أن أشرح فلسفة أپيقورُس، وهي المُفضّلة لديّ. يقول أپيقورُس:

«وُلد الإنسان بطبيعتين، يُحسّ بإحداهما ويفكّر بالأخرى. فلِمَ لا نُقدّر سوى الطبيعة المفكّرة، ولا نحتقر سوى الطبيعة التي تُحسّ؟ ولِمَ، ونحن كلٌّ واحدٌ، لا نعيش سوى بنصف من نصفَينا؟ الأحرى بالإنسان أن يتمتّع بطبيعته المزدوجة دون مغالاة، فلا يترك حواسّه تُضلّ عقله،

Twitter: @ketab_n

ولا يأذن لعقله بأن يلغي حواسّه. فإنّ من نظر في أمر الطبيعة، وسعى إلى معرفة القوى التي تحرّك المادّة والقوانين المتحكّمة بها، ولم يحاول أن يفسّر الطبيعة من خلال نظريّة أعسَر على التفسير من الطبيعة ذاتها، فإنّه إذن يتحرّر من خشية الآلهة ويتصالح مع ضميره، فيراقب، بلا خوف، دنوّ أجله الذي به ينتهي كلّ شيء.

أكان ذلك بباعث من تناغم عقيدة فيلسوف گرجِسّيوس مع مبادئي الشخصيّة، أم لرقّة أخلاقيّتها، أم بفعل هذا القول المأثور «اللذّة هي الحكمة الحقيقية»؟ فإنّي أحسستُ منذ شبابي بميل إلى هذه العقيدة. وإن حصل لي، في بعض كتاباتي، أن ظهرت بمظهر تلميذٍ متردّد متأرجح للمدارس الأخرى، فقد تعبّدتُ دائماً في أناشيدي لمن اعتبرتهم آلهة العقل واللذة والحبّ، أيّ أپلّون وڤينوس وإيرُس، عنيت الثالوث الإپيقوريّ.

منذ ثاني يوم لقائي عند كْرَتِّپس بابن شيشرون، أتاني في نُزلي في شارع هِرمس ليُريني أثينا.

ما كنت أستعجل مشاهدته؟ حدائق الأكَديميا الشهيرة. فاجتزنا الساحة الرئيسية بمحاذاة السِرَمِكُس وخرجنا من باب إپلانِس ثمّ توقّفنا على بعد مائة خطوة من المدينة لمشاهدة أضرحة پركلِس وكْرَسِبولُس وشَبريَس، الواقعة إلى يمين الطريق المؤدّية قديماً إلى بيت أفلاطون وحدائقه. ثمّ انحرفنا يساراً فاجتزنا السِرَمِكُس الخارجيّ وأمضينا فترة عند ضريح القنصل الشهير مَرسِلُّس، وهو أوّل من جاهر بعدائه لقيصر مطالباً بتنحيته عن حكم بلاد غاليا. كان قد اغْتيل منذ فترة قصيرة على يد عبدٍ ما فتئ أن انتحر هو نفسه حاملاً معه سرّ أسباب الاغتيال[1]. بلغْنا

(1) كان سِرڤيوس سُلپيسيوس ومَرسِلُّس في أثينا حين اغتيل مَرسِلُّس. وبما أنّ سِرڤيوس سُلپيسيوس زميل لمَرسِلُّس، فقد استأذن أهل أثينا ليدفنه في المدينة، فرفض الأثينيّون طلبه لأنّه مخالف للعرف.

Twitter: @ketab_n

أخيراً ضريحَي هَرموديوس وأرِستوگيتون المُستندَين إلى حدائق أكَديمُس منتصبَين على بضع خطوات من الـگـمنازيوم.

نعرف من هو أكَديمُس (وهو نفسه من كشف لكَستور وپُلّوكس عن المكان الذي خبّأ فيه تيزيوس شقيقتَهما هِلينا)، أكَديمُس الذي زرع الحدائق الشهيرة التي ورِثتها عنه أثينا، والتي ظلّلت بأفيائها مدّة خمسة قرونٍ كلّ العظماء ليس فقط في عاصمة الأتّيكا، بل أيضاً في العالم المتحضّر، وفيها كان النقاش يستعر حول أمور في غاية الأهميّة، بحيث حُرِّم فيها الضحك.

فيها علّم أفلاطون، ومن هنا اشتُقّ لقب «أكَديميّون» الذي أُطلق على تلاميذه.

يُخبر شيشرون، في كتاب عنوانه **في انقضاء كلّ ما هو خير وشرّ**، عن النزهة التي قام بها وهو شابّ أثناء إقامته في أثينا إلى خارج أسوار المدينة، مع شقيقه كْوِنتُس شيشرون وابن عمّه پُمپونيوس أتِّكُس وپيزون.

النزهة ذاتها كنت وقتها أقوم بها مع ابنه. وإليك دعوته لي للقيام بها. فقد خرج شيشرون في زيارته قديماً من باب إپِلِس مجتازاً المحطّات الستّ ما بين أثينا والـگـمنازيوم، ولذا وصف ما أثاره لديه ذلك المكان الشهير من مشاعر، مع أنّه وجده مقفراً وقليل الارتياد. لم يتكلّم لا عن الأشجار ولا عن الغيضات التي تكلّمت عنها أنا في قصائدي.

السبب هو أنّ شيشرون زار الأكَديميا قبلي بخمسة وثلاثين عاماً، وبعد حصار سِلّا لها بستّ سنين فقط. والحال أن سلّا أراد أن تنكشف له ضواحي المدينة فأمر بقطع الأشجار واقتلاع الغيضات.

أمّا عند زيارتي الأكَديميا بعد واحد وأربعين سنة من الخراب الذي ألحقه سِلّا بها، فكانت الأشجار قد نمت وعادت حدائق أكَديمُس من

Twitter: @ketab_n

جديد ملجأ للفلاسفة ومُتنزّهاً للمدينة.

يجتاز هذه الحدائق مجرى ماء وحيد، يدعى سِفِزِس، يتفرّع إلى جدولين يضفيان على المكان غضاضة مُستحبّة.

حاذينا النهر صعوداً وقطعنا برج تِمونِس كاره الناس حتّى بلغنا كُلُنّا، وهي قرية صغيرة ومسقط رأس سُفوكلِس. حظيت غابة الأومِنيدِس المقدّسة بحظّ أفضل من حظّ الأكَديمُس، إذ راعى سلّا حرمتها.

كان معبد نِپتونُس هِپّيوس، الذي لجأ إليه أودِپوس، لا يزال قائماً.

تقع كُلُنّا على طريق ثيفا على مقربة من الطريق النحاسيّ.

دخلناها من باب هِيَپادِس، فزرنا بيت تِـميستُكْلِس، ومقام الإلهة دْيانا الذي بناه خلف بيته، ثمّ بيت فُسيون، وخرجنا من باب إيمِيا، فطالَعتنا، مقابل هياكل ڤينوس وحدائقها، حديقةُ سينوسَرگس حيث كان الكلبيّون يعقدون مجالسهم.

ومقابلها، على بعد محطّتين تقريباً، يقوم اللِّسِيوم[1] مستنداً إلى الإِلِّسّوس. ويقال إنّ ليكُس، ابن پَوديونُس، هو الذي بناه، ثمّ أتى پِرِكلِس فزرع حدائقه وزيّنه باللوحات. ومن بعده اختاره أرسطو مكاناً لإلقاء دروسه في الفلسفة؛ ولأنّه كان يتمشّى وهو يلقي دروسه، سُمّي تلاميذه بالمشّائين أو المتنزّهين.

إلى الجهة الأخرى من الإِلِّسّوس، يرتفع جبل هيمِتُّس، الذي كان نحلُه يأتي ليَحِطّ على شفتَي أفلاطون وهو صبيّ،

عدنا من باب إيجيه المؤدّي مباشرة إلى مسرح باخوس وإلى الأودِيوم؛ ثمّ سلكت شارع تريپيه وبلغت شارع هرمس مروراً بأسفل الأَرِيُپَـگس.

سيُتاح لي في ظروف أخرى أن أتحدّث عن معالم أثينا الأثريّة.

---

(1) مدرسة أو معهد (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

دراستي - عشقي - ما كان يحدث في روما عندما كنت فيها أدرس وأحبّ - انتصار قيصر - نشوء المعارضة ضدّه - نجاحه في استمالة المدافعين عن الشعب - يجرح مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ - يصلنا نبأ اغتيال قيصر ونحن في أثينا - تأثير هذا النبأ على الناس - كتاب شيشرون ***رسالة في الواجبات*** *- بروتُس وكَتسيوس في عداد الأبطال - بعض التفاصيل عن مؤامرة بُرسيا - ابن بروتُس.*

من يقرأ قصائدي الغنائية وهجائيّاتي ورسائلي، يدرك أنّي قدمت إلى أثينا لدراسة اللغة والشعر اليونانيّين أكثر ممّا لدراسة الفلسفة، قناعةً منّي أنّ اللغة، حين تجري على شفاه النساء بالأخصّ، تبلغ منتهاها من الاتّساق والظرف والمرونة.

شجّعتني هذه القناعة، وأنا لا أزال تلميذاً مدقعاً، أن أسعى للتعرّف على تلك المرأة الجميلة، نْيِرا، التي كانت أكثر غانيات أثينا رواجاً في تلك الفترة. نظمتُ لها باليونانية بضعة أبيات أشرعت لي أبواب بيتها.

صحيح أنّي بعد ثلاثة أيّام اكتشفت أنّ لي منافساً، ولذا نظمت لها قصيدتي التي مطلعها:

Twitter: @ketab_n

«ليلاً، وكان القمر يسطع في سماء رائقة» .

كتبتها أوّلاً باليونانية، كما فعلتُ في الأبيات السابقة؛ غير أنّي عندما قرأت شعراء اليونان الرائعين، وأدركت ضآلة ما أنتجته روما من شعر نسبة لنتاج أثينا، أيقنت أنّ الشعر قد اكتمل هنا بينما لم يبدأ بعد هناك.

فعدت والحال هذه إلى الشعر اللاتيني. بعد أن قلّدت شعر سافو التي من ألسِيا وأنكْرِيون، صمّمت على إدخال بحور جديدة إلى العروض، وركّزت دراستي على تطوير الفنّ الشعريّ.

إلى رجوعي إلى اللغة اللاتينية أشير في هجائيّتي العاشرة حيث أقول:

«وأنا أيضاً وُلدت على هذه الضفة من البحر. كنت أنظم باليونانية، حين ظهر لي كْورِينُس عند الصباح، في ساعة تنقطّع فيها الأحلام الكاذبة، ليردعني بقوله: 'لا أغبى من الذي ينقل الحطب إلى الغابة إلّا من يحاول أن يزيد من عدد الشعراء اليونان'».

قضيت في أثينا ثلاث سنوات، يمكنني اعتبارها أسعد سنوات حياتي. خلال هذه الفترة، شهد العالم، أو أقلّه اليونان، استقراراً تامّاً.

خلال هذه السنوات الثلاث، أكمَل قيصر مشروعه الهائل في توطيد السلم. فبعد أن قتل أو أغرق الملك الصغير بطليمُس، وبعد أن أعاد مقاليد مصر إلى كلِيوپَترا، وبعد أن أفنى فَرنَسيس بضربة من سيفه، وبعد أن انتصر على بلاد الغال والپونتس ومصر وأفريقيا، وبعد أن عُيّن حاكماً مطلق الصلاحيات لعشر سنين، وبعد أن أصلح حسبة السنة وأنشأ تقويماً سنويّاً جديداً، وبعد أن سحق سِپيون وأفرانيوس وپِتريوس وجوبا في تَپسا، وبعد أن هزم في مُندا كلّاً من كْنِيوس وسِكستُس پُمپِيوس، وشهد كاتون يبقر بطنه، بعد ذلك كلّه عُيّن قيصر حاكماً مطلق الصلاحيات مدى الحياة، فأصبح يمسك العالم في قبضته.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع (تابع)

كان أنصار پُمپِيوس وكاتون السابقون يكرهون قيصر بشكل تلقائيّ. بدل أن يقبلوا بموالاته لما يصنعه من خير، أبغضوه لأنّه لم يأت بما يستحق اللوم كما استحقّه، واحداً تلو الآخر، كلٌّ من مَريوس الذي ذبح الكثيرين، وسِلّا الذي نبذ الكثيرين، وپُمپِيوس من جرّاء ضعفه.

من جهة أخرى، اعتبرت جمهوريات اليونان القديمة - وكان قيصر أبقى لها قوانينها المدنيّة المحليّة- أنّ انهيار الحرّيات في روما إنّما هو انهيار لحرّيتها هي. وبلغ بغض قيصر ذروته في أثينا، مع أنّ مجلس الشيوخ عاملها بمراعاة لم يعامل بها أيّاً من المدن اليونانية الأخرى.

بعد فترة، بدأت تشيع أنباء مفادها أنّ قيصر يواجه معارضة خافتة تتصاعد يوماً بعد يوم.

وظهر الاستياء إلى العلن في بعض الحالات.

فقيصر لم يعد يكتفي بالتكريم المبالغ فيه وغير المألوف، بل رضي بأن يقام له تمثال بين تماثيل الملوك، وأصبح يجلس في مجلس الشيوخ وفي المحكمة على كرسيّ من ذهب، وصار تمثاله يُحمل في السِّركُس وهو محاط بنفس الحفاوة التي تحاط بها تماثيل الآلهة. صار له هياكل ومذابح وكهنة، وأُطلق اسمه على شهر من أشهر السنة، هو يوليو، وأضحى يعامِل بنفس الازدراء جميع من يُكرّمهم أو يكرّمونه.

مسكين ذلك الرجل العظيم! حين بلغ ذروة مجده، بدأ يشعر بخواء المجد.

Twitter: @ketab_n

وبدأت تصل إلى مسامعه من كلّ حدب وصوب نداءات التحذير من قيام معارضة ضدّه.

فحين رفض مدافع عن الشعب أن يقف خلال مرور موكبه، قال له قيصر:

- هل تأتيني مطالباً بالرجوع إلى الجمهورية، أيّها المدافع عن الشعب؟

ذات يوم، خصّه مجلس الشيوخ بتكريم غير مسبوق، ووافاه الشيوخ إلى الفوروم حيث كان جالساً ليُعلموه بالمرسوم الذي أصدروه.

غير أنّه استقبلهم استقباله لأفراد عاديّين، وردّ عليهم، دون أن ينهض عن كرسيه، أنّ عليهم أن يقلّلوا من تكريمهم له لا أن يكثروا منه.

فانسحب الشيوخ على استياء.

مهما قيل في مجلس الشيوخ من أنّ قيصر همّ بالنهوض عن كرسيه، وإن بِلّوس هو الذي قال له: «أنسيت أنّك قيصر؟».

ومهما قيل في مجلس الشيوخ من أنّ قيصر خشي أن يصاب بصرعة عصبيّة - وهو العذر الذي قدّمه هو نفسه،

فإنّ مجلس الشيوخ بقي على استيائه.

وفي غير يوم - يُدعى يوم لوپِركالِس، كان فيه شبّان العائلات العظيمة الجاه في روما ومعهم أغلبيّة القضاة يركضون عبر المدينة وهم عراة، وفي أيديهم كرابيج من جلد يسلّطونها على المارّة - كان قيصر جالساً على كرسيّه الذهبيّ يرأس الاحتفال؛ وكان أنطونيوس يشارك في الركض المقدّس بصفته قنصلاً، فاعتلى أذرع أصدقائه وقدّم له تاجاً محفوفاً بغصن غار.

راح بعض المتملّقين يصفّقون.

رفض قيصر استلام التاج، فصفّق الشعب.

Twitter: @ketab_n

كانت تلك الأمور كلّها تحزّ في قلب قيصر.

فمهما أحسن الصنيع وتسامح وعدل وعامل الناس معاملة حسنة، لا يتمكّن من استرضاء أعدائه.

كانت هذه النكسات تثير في نفس قيصر القرف من الحياة. فقد سرّح حرسه الإسباني، وراح يتنزّه وحيداً في شوارع روما، في الفوروم وفي حدائق مَرس. بل قال مرّة بصوت عالٍ: «أُفضّل أن أُقتل على أن أبقى خائفاً على الدوام»؛ وقال مرّة أخرى: «إنّ حياتي تهمّ روما أكثر ممّا تهمّني».

ذلك كان حديث الناس على الدوام في أثنيا، في اللِّسِيوم، في حدائق أكَديمُس، في الأَكَورا[1]، حين علا صوت يوماً وعلى حين غرّة يقول، دون أن يصدّقه أحد:

- لقد طُعن قيصر للتوّ بالخنجر اثنتين وعشرين طعنة.

ثمّ ظهرت التفاصيل شيئاً فشيئاً إلى العلن، وأُرفقت أسماء القاتلين باسم الضحيّة: بروتُس، كَسّيوس، كَسكا، سِمبير، تْرِبونيوس، دِسيمُس بروتُس المُلقّب بأَلبينُس أي الأمهَق.

وكنا لا نزال نشكّ في الأمر، عندما تلقّى شيشرون الابن من أبيه كتاب **رسالة في الواجبات**، كان شيشرون قد دسّ فيه عدّة مقاطع تؤكّد النبأ الرهيب.

فلماذا كان شيشرون يكره قيصر إلى هذا الحدّ، مع أنّ قيصر لم يسئ إليه مرّة بل كثيراً ما أحسن إليه؟

الجواب في غاية البساطة: قيصر وشيشرون شخصان عظيمان كلاهما، إلّا أنّ شخصيّة قيصر كانت تسحق شخصيّة شيشرون.

(1) المفردة يونانية، وتدلّ على الساحة الشعبيّة أو الميدان العامّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

لو شاء قيصر أن يمارس البلاغة لأصبح خطيباً عظيماً مثل شيشرون. أمّا لو مارس شيشرون فنّ الحرب ما شاء، فلما استطاع أن يصبح قائداً بعظمة قيصر.

شيشرون كان ابناً لقصّار أو لبائع خضر، لا ندري تماماً.

أمّا قيصر فمتحدّر من ڤينوس من جهة أبيه ومن أَنكُس مَرسيوس من جهة أمّه.

شيشرون قضى حياته يحاول الارتقاء إلى مصاف الأرستقراطيّة؛ أمّا حين ارتأى قيصر أن يصبح من الشعب، فقد لاقى شيشرون ما قبل منتصف الطريق.

لهذا السبب حردَ شيشرون عليه، ظنّاً منه أنّه بابتعاده عنه يعظُم في عينيه. والواقع أنّ شيشرون بابتعاده عن قيصر ولج في الظلمات.

فحاول أن يستجلب عليه اضطهاد قيصر بمدح كاتون.

بينما راح قيصر، وهو ذاهب لملاقاة النصر في مُندا، يهدي شيشرون مجلّدَيه في قواعد اللغة.

لم يَرد ذكر لشيء من ذلك في كتب شيشرون: نجد فيها متّهم كَتِلينا وأَنّيوس ميلو، مُساند المجتمع ومن ينذر قيصر للآلهة حماة الوطن.

فلعلّ كتابه قام مقام نصيحة لأهل أثينا تبيح لهم كره قيصر.

احتفلت أثينا بالحدث احتفالاً عظيماً.

فأمرت باعتبار بروتُس وكَسّيوس بمثابة بطلَين، وبإقامة تمثالين لهما إلى جانب تمثالَي هَرموديوس وأرِستوگيتون.

وراحت تفاصيل الحدث تتوارد بتواصل.

جريمة الاغتيال اقتُرِفت على هذا النحو:

رأينا أنّ ما كان يشغل بال قيصر بعد معركة فارسال هو العثور على

Twitter: @ketab_n

بروتُس حيّاً.

وعندما عاد إلى روما أَوكل إلى بروتُس حكم بلاد غاليا التي ما وراء الألپ.

كان ضمير بروتُس يؤنّبه؛ فقد حاول جهده أن يبغض قيصر، لكنّه لم يستطع إلى ذلك سبيلا.

كان ثمّة في روما رجل يكره قيصر حقّاً.

هو كَسّيوس.

بأعجوبة نجا كَسّيوس من الموت حين كان نائب كْرَسُّس أثناء الحملة الرهيبة على الپَرثيّين.

فاستقبله قيصر بوصفه نقيباً شجاعاً عليماً بشؤون الحرب، وذلك بعد معركة فَرسالا التي كان كَسّيوس فيها من أنصار پُمپيوس.

أثناء فرار كَسّيوس مع پُمپيوس، مرّ قيصر بمِـگارا واستولى على اثني عشر أسداً كان پُمپيوس يحتفظ بهم لإقامة الألعاب.

تلك أولى شكاوى كَسّيوس من قيصر.

ثمّ إنّ قيصر حين عاد إلى روما غفر له: ثاني شكاويه.

وأخيراً سلّمه منصب مشرف على العدالة أقلّ شأناً من منصب بروتُس: ثالث شكاويه.

وحين رأى كَسّيوس أنّ قيصر بدأ يفقد شعبيّته بسبب محاولاته تنصيب نفسه ملكاً، عزم أن يحيك مؤامرة ضدّه.

زار أصدقاءه واحداً واحداً وأطلعهم على نيّته، طالباً معونتهم، فأجابوا كلّهم:

- إن انخرط بروتُس في المؤامرة فنعم، وإن لم ينخرط فلا.

كان كَسّيوس على علاقات سيّئة ببروتُس منذ أن عُيّن مشرفاً على

Twitter: @ketab_n

العدالة. غير أنّه حين اقتنع أنّ الأمر لن ينجح بدون بروتُس ذهب إليه.

قامت سابقاً بينهما صداقة قويّة. وحين رأى بروتُس كَسّيوس وهو قادم إليه، مدّ له يده.

كان بروتُس متجهّماً مهموماً، بسبب التهديدات المفزعة التي يتلقّاها باستمرار.

فقد رأى لافتة معلّقة برقبة تمثال لبروتُس القديم، أي بروتُس الذي طرد التَرّكينيّين، وكانت اللافتة تحمل هذه الكلمات: «ليتك لا تزال حيّاً!».

وبروتُس نفسه وجد بطاقة في محكمته، عليها: «أأنت نائم، يا بروتُس؟»

كما أنّ أحدهم دسّ تحت باب بيته بطاقة تقول: «لا، لستَ أنت بروتُس في حقيقة الأمر».

لذلك كان يفكّر بما يجب أن يفعله في هذا الوضع الحرج، وهو إزاء رجل لا يستطيع أحد سواه أن يتصدّى له، وهو مُحاط بحشد من المستاءين ينتظرون منه كلّ شيء.

تلك كانت حاله حين لقيه كَسّيوس.

الاقتراح يتجاوب مع فكرة بروتُس الدفينة.

غير أنّ كَسّيوس لم يحصل منه إلّا على كلمتين:

– سوف أفكّر.

ما إن خرج كَسّيوس حتّى ذهب بروتُس إلى صديق له يثق به كلّ الثقة، اسمه كُونتُس لِـگـاريوس.

شأنه شأن جميع المستاءين، كان كُونتُس لِـگـاريوس من أنصار پُمپِيوس، ثمّ عفا قيصر عنه.

Twitter: @ketab_n

لكنّ تلك القلوب الحقودة اتخذت من ذلك سبباً إضافيّاً لمعاداة قيصر.

وجده بروتُس مريضاً بمرض يستوجب لزوم السرير. وكان حديثه مع كَسّيوس يغلي في قلبه، فقال:

- آه، يا لِـگـاريوس، أفي هذا الوقت تمرض؟ فأجابه:

- يا بروتُس، إن كان لديك مشروع عظيم، فاطمئنّ، سأكون في حالة جيّدة.

فأخبره بروتُس عمّا دفعه إلى المجيء، واتّفقا كلاهما في الحال على قواعد المؤامرة.

تمّ الاتفاق أن يُخفى أمر المؤامرة عن شيشرون، لخوفهما من وهن عزيمته، وأن يطلِعا عليها لَبيون.

فتوكّل بروتُس بالذهاب إليه وإلى بروتُس أَلبينُس.

وللحال دخل عليهما بروتُس أَلبينُس، وقد أتى يستعلم عن صحّة لِـگـاريوس.

صرّحا له بكلّ شيء.

خرج صامتاً دون أن يلتزم بأيّ أمر.

ظنّ الصديقان أنّهما قد تهوّرا.

وفي اليوم التالي، رأى بروتُس ألبينيوس داخلاً عليه، يسأله:

- هل أنت رئيس المؤامرة التي تناقشنا فيها البارحة عند لِـگـاريوس؟

- نعم، أجاب بروتُس بمنتهى البساطة. فمدّ أَلبينُس له يده قائلاً:

- إذن، أنا أيضاً معكم، لك أن تعتمد عليّ.

وتقدّمت المؤامرة بسرعة.

نعرف كيف أُشركت بُرسيا فيها.

كانت بُرسيا بنتاً لكاتون وأرملة بِبولُس الذي طالما أثار الاضطرابات

Twitter: @ketab_n

في الفوروم قديماً، ثمّ مات وهو يقود أسطول پُمپيوس.

تزوّجت ثانيةً من بروتُس وهو لا يزال شابّاً ولَه ابن.

كتب هذا الابن، وعمره اليوم أربعون سنة، كتاباً بعنوان **مذكرات بروتُس**.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

نُذُر تنبئ بنهاية قيصر - كَلْبُرنيا تستمهل قيصر، فيتردّد في الخروج - جاء دِسيمُس بروتُس ليأتي به - العرّاف أَرتمِدورُس - تُلّيوس سِمبير - «وأنت أيضاً يا ابني بروتُس!» - موت قيصر وهلَع روما - مأتم قيصر وخطاب أنطونيوس - ردود الفعل ضدّ القتلة - بروتُس وكَسّيوس يُجبَران على مغادرة روما.

قطعت المؤامرة أشواطاً بعيدة؛ وتواردت النُّذُر حول مصير قيصر، غير أنّ عماه، أو ربّما ضجره من الحياة، بلغا منه مبلغاً جعله لا يعيرها أيّ اهتمام.

كلمة عن هذه النُّذُر.

كان قيصر قد أرسل إلى كَپُوا «حامية»[1].

قامت هذه الحامية بحفريّات في مقابر قديمة، في بقعة اختارتها لإنشاء مساكن لها، فوقعت على قبر مؤسّس المدينة الأوّل.

وجدت في هذا القبر لوحة من نحاس كُتب عليها:

«عندما يُعثر على رفاتي، سيُقتل واحد من المتحدّرين من إيوليوس[2]

(1) مقابل لكلمة colonie: مجموعة مهمّتها عند الرومان أن تراقب أحوال البلد المُفتتح حديثاً، وهي غير الحامية العسكرية (المترجم).

(2) ابن البطل الأسطوري إنياس، الذي وضع ڤرجيليوس الإنياذة تمجيداً لمآثره (المترجم).

Twitter: @ketab_n

على يد أحد مُقرّبيه، وسيجرّ ثأرُه البلايا على إيطاليا».

علم بذلك كُرنيليوس بَلبُس، وهو صديق حميم قيصر، فأبلغه به. فسأله قيصر:

- من المقصود بالنبوءة، برأيك، ومن هم المقرّبون الذين عليّ أن أحذرهم؟ أجابه بَلبُس:

- ليس لك إلّا قريب واحد قادر على التآمر ضدّك، إنّه بروتُس. فردّ قيصر وهو يتحسّس صدره المتهازل:

- لا بأس! هل تعتقد أنّ بروتُس على عجلة من أمره، بحيث لا يستطيع أن ينتظر نهاية هذا الجسد البائس؟

تزامن ذلك تقريباً مع معجزات أخرى:

فقد لاحظ الناس أنّ الخيول التي نذرها قيصر للآلهة، بعد عبوره الرُبِكون، وتركها ترعى بحرّية، قد امتنعت عن الأكل وراحت تبكي بكاءً مُرّاً.

ورأى آخرون في الجوّ رجالاً من نار على أهبة التعارك.

كما أنّهم حين شقّوا جثّة أضحية قدّمها قيصر لم يعثروا على قلبها؛ وذلك من أروع النُّذُر المعهودة، نظراً إلى أنّه لا يوجد حيوان يستطيع أن يعيش بدون قلب.

وبعد تضحية أخرى، حذّره سْپوريوس، العرّاف الشهير بحدّة البصر في استكشاف المستقبل، من أنّ خطراً عظيماً يتهدّده في فاتح مارس.

عشيّة ذلك اليوم، تجمّعت طيور من مختلف الأجناس، لم يكن أحد قد شهدها من قبل تطير في سرب واحد، وانقضّت على طائر النمنمة[1] ومزّقته إرباً إرباً.

(1) وهو طائر شديد الصغر (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان قيصر مساء ذلك اليوم عند لِپِدُس، فأخبروه بقصّة هذا الطائر، ثمّ حملوا له رسائل ليوقّعها.

أثناء العشاء، غادر قيصر سريره على المائدة وذهب يوقّع الرسائل على طاولة قريبة من مائدة المدعوّين.

كان الحديث يدور حول الموت حين قام قيصر عن المائدة، فسأل لِپِدُس:

- ما هي أفضل ميتة؟ فردّ قيصر وهو يوقّع الرسائل:

- هي آخِر ميتة يتوقّعها المرء.

عاد قيصر إلى بيته ورقد.

ما إن غفا حتّى انفتحت الأبواب والنوافذ فجأةً.

استيقظ من الضجيج ومن شعاع القمر الذي لم يعد شيء يحجبه عن الغرفة، فسمع زوجته كَلْپُرنيا تئنّ بالشكوى في نومها.

كان الأنين مبهماً والكلمات غير واضحة اللفظ.

فأيقظها.

عندئذ طوّقته بذراعيها، قائلة:

- آه، يا زوجي الغالي! كنت أحلم أنّي كنت أضمّك بين ذراعيّ وأنت مثخن بالطعنات، مُدمّى.

لم يكن قيصر يخلو من الهواجس، لذا أمر أن تُقدّم في ليلة 14 إلى 15 مارس مائة أضحية للاستخارة في أحشائها.

في صباح 15 مارس وافاه مقدّمو الأضاحي.

لم يجدوا في أيّ من المائة أضحية فألَ خير. فقال لهم قيصر، بعد تفكير قصير:

- لا بأس! لن يصيب قيصر إلّا ما هو مُقدّر له.

Twitter: @ketab_n

دُعي مجلس الشيوخ للانعقاد في 15 مارس صباحاً. وشاء الحظّ أو شؤم الطالع ألّا يُعقد الاجتماع في مكانه المعهود، بل تحت أحد الأروقة المحيطة بالمسرح.

وكان تحت هذا الرواق تمثال لپُمپيوس.

في تلك الأثناء، كان المتآمرون مجتمعين عند كَسّيوس، لينطلقوا من هناك.

كانوا في انتظار بروتُس.

وخلال الانتظار، أُثير سؤال خطير مفاده: وماذا لو فتكوا بأنطونيوس وهم يفتكون بقيصر!

كان تْرِبونيوس يعارض ذلك، أمّا الباقون فكانوا مجْمعين على ضرورة قتل أنطونيوس.

في تلك الأثناء، دخل بروتُس، فأوكلوا إليه اتّخاذ القرار بهذا الشأن. هزّ بروتُس برأسه وقال:

- كلّا! إن أنطونيوس لا يستحقّ الموت، فليبقَ أنطونيوس حيّاً.

وبما أنّ أنطونيوس كان قويّ البنية، خافوا أن يزجّ بكلّ قوّته في الصراع، فقرّروا أن يلزمه بعض المتآمرين عن كثب ويسْتبْقوه خارج مجلس الشيوخ فيما يتمّ الاغتيال.

خرجوا من بيت كَسّيوس، متذرّعين بأنّهم اجتمعوا لمرافقة ابن كَسّيوس إلى الكِپتوليوم للاحتفال بارتدائه جُبّة الرجولة. وقد ذكرت تفاصيل هذا الاحتفال في حديثي عن حفلة ارتدائي جُبّة الرجولة.

وفعلاً رافق المتآمرون كَسّيوس وتوقّفوا في الفوروم.

وهناك اتّخذ كلّ منهم المكان المحدّد له.

ارتقى القضاة منبر المحكمة معلنين استعدادهم لأداء القضاء، وكانت

Twitter: @ketab_n

وجوههم خالية من كلّ تعبير.

حكم بروتُس على رجل بغرامة، فقال الرجل:

- إنّي رافعٌ أمري إلى قيصر. أجابه بروتُس بكلّ هدوء:

- لم يمنعني قيصر يوماً ولن يمنعني عن ممارسة القضاء وفقاً للقوانين.

وكانت قد حانت ساعة قدوم قيصر، ولكنّه لم يقدم.

فما جعله يلزم بيته؟ وهل أُخبِر بشيء؟ هل سمع أحدٌ صوت القيّم على تأويل النُّذُر، الذي أشار عليه أن يتوقّى مطلع شهر مارس؟

وفيما كان المتآمرون يتبادلون النظرات في حالة من القلق الشديد، اقترب أحد الشيوخ، ويُدعى پُپليوس لَيِناس، من كَسّيوس وبروتُس وقال لهما همساً بعد أن ألقى عليهما التحيّة:

- عليكما بالإسراع، فالأمر لم يعد مخفيّاً. أرفع الدعاء للآلهة لكي يتمّ ما نويتما عليه بخير.

عندها أقبل أحد عبيد بروتُس مسرعاً وهو شاحب اللون هلعاً.

قدم ليعلن أنّ پُرسيا مُدنِفة. فسأله بروتُس:

- أهي من طلبت منك أن تأتيني؟ أجاب العبد:

- كلّا! أتيت من نفسي. فقال بروتُس عندئذ:

- إنّي باق.

ما إن فرغ من قوله، حتّى سُمعت كلمات مهموسة تقول:

- أنطونيوس! ها هو أنطونيوس!

والحال أنّ أنطونيوس قدم ليعلن أنّ قيصر لن يخرج من بيته، لإحساسه ببعض الانحراف في صحتّه، وأنّه يرجو من الشيوخ أن يؤجّلوا الجلسة إلى يوم آخر.

فتذكّر المتآمرون وقتها كلام لَيِناس. إن انفضح سرّ المؤامرة، حسب

Twitter: @ketab_n

قوله، فلم يعد بالإمكان تأجيلها: فهُم إذن من الهالكين.

قرّروا أن يرسلوا أحد المتآمرين إلى قيصر ليحاول إقناعه بمغادرة البيت.

وقع اختيارهم على ألبينُس.

وكان، بعد بروتُس، أحبّ الناس إلى قلب قيصر، إذ كان قيصر قد عيّنه ثاني وريث له.

لم يكن قيصر مريضاً على الإطلاق، كان يراعي مخاوف كَلْپُرنيا.

أخجله ألبينُس من استسلامه لهذه المخاوف، واصطحبه معه بالرغم من توسّلات كَلْپُرنيا.

ما كاد يخطو عشرين خطوة خارج بيته حتّى حاول أَرتِمِدورُس الكْنيدي، وكان يدير مدرسة للأدب اليوناني في روما، أن يقترب منه.

لم يكن الاقتراب منه سهلاً، إذ كان الجميع يترقّبون خروج قيصر. ما إن خرج حتّى أحاط به بعض الزبائن، منهم من يتوجّه إليه بأعلى صوته، ومنهم من يسلّمه أوراقاً.

وكان أَرتِمِدورُس يائساً محادثته على انفراد وبالهمس، فأعدّ له كلمة. وسلّمه الورقة قائلاً:

- يا قيصر، اقرأ هذه الورقة على وجه السرعة، ففيها أمور مهمّة تعنيك أنت شخصيّاً.

فردّ قيصر على أَرتِمِدورُس بإشارة من رأسه، وهو يحاول أن يقرأ الورقة. لكنّ الأمر تعذّر عليه بسبب كثرة الحشد والتهائه بحديث ألبينُس، فلم يستطع أن ينهي قراءتها، ودخل مجلس الشيوخ والورقة في يده.

بلغ مجلسَ الشيوخ ومشى رأساً قاصداً المقعد المُعدّ له.

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة، قام ألبينُس، وفق ما اتُّفق عليه، بإقصاء أنطونيوس عن قيصر محدّثاً إيّاه عن أمر كان قيصر يعيره اهتماماً بالغاً.

وبعد قليل، خرج وإيّاه من دار مجلس الشيوخ، بينما كان كَسّيوس يتملّى تمثال پُمپيوس.

لو كان من تلاميذ أفلاطون لا من تلاميذ أَپيقورُس، ولو آمن بالحياة الأخرى، لظننّنا أنّه كان يرفع الدعاء لپُمپيوس ليؤيّده في مهمّته بالانتقام من منافسه.

وقبل أن يجد قيصر وقتاً للجلوس، دنا منه تُلّيوس سِمبير.

الخطّة المتّفق عليها: يتقدّم تُلّيوس سِمبير من قيصر ليطلب منه استدعاء أخيه من منفاه، فيتقدّم المتآمرون جميعهم. وتكون الساعة قد حانت.

لم يقلق قيصر لرؤيتهم، لاعتقاده أنّ المحيطين به هم أصدقاؤه.

رفض قيصر طلب تُلّيوس سِمبير، وكانوا يعرفون مسبقاً أنّه سيرفضه. فاتّخذوها حجّة ليلتصقوا به من قريب. المناسبة مؤاتية: مدّوا أيديهم جميعاً نحو قيصر كما ليتوسّلوا إليه، فأجابهم:

- لن يفيدكم ذلك شيئاً، فقد قرّرت أن سِمبير لن يدخل روما ما دمت حيّاً.

ثمّ عندما أحسّ بالاختناق من شدّة الحشد، حاول أن يبتعد.

فأخذه تُلّيوس من ثوبه وشدّه إليه فانكشفت كتفه. فقال قيصر:

- غريب! لم يعد هذا التصرّف توسّلاً، إنّه تصرّف عنيف!

لم يعد مجال للتراجع.

استلّ كَسكا خنجره، وكان واقفاً خلف قيصر، وسدّد له أوّل طعنة.

وكان قيصر، حين عيل صبره منهم، قد تحرّك من مكانه، فلم تصبه

Twitter: @ketab_n

الطعنة بل لامست كتفه. فصرخ به قيصر:

- آه منك أيّها الشقيّ كَسكا.

ثمّ قبض على سيف كَسكا بإحدى يديه ولطمه بالثانية بالمخرز الفولاذيّ الذي كان يخطّ به على لوحاته الشمعيّة. فصرخ كَسكا باليونانية:

- النجدة! أيّها الأصدقاء!

عندما سمع المتآمرون نداءه، سحب بعضهم خناجرهم وآخرون سيوفهم وانقضّوا على قيصر.

فصار قيصر، أنّى اتّجه، لا يرى إلّا الحديد.

ولم يكن بطل المعارك الدامية ليهلع من هذا المنظر، ولا بدّ أنّه راح يستلّ أحد سيوفه ليجعلهم يدفعون غالياً ثمن حياته، حين لمح بروتُس بين القتلة.

عندئذ أرخى سيفه من يده ولم يُطلق، بمثابة شكوى أو توبيخ، إلّا هذه الكلمات المؤثرة: «أنت أيضاً يا بُنيّ!»، ثمّ غطّى رأسه بردائه واستسلم للقتلة.

وبما أنّه - ويا للغرابة! - بقي واقفاً بالرغم من الطعنات التي أصابته، ضاعفوا طعناتهم مسعورين إلى درجة أنّهم أصيبوا بالجراح هم أنفسهم. وجُرحت يد بروتُس جرحاً بليغاً.

وكان أن انهار قيصر أخيراً عند قدَمي تمثال پُمپيوس.

لقد غادر الحياة.

حاول بروتُس وقتها أن يتكلّم ليشيد بها فعل، إلّا أنّ صخباً هائلاً علا واندفع الشيوخ ممّن لم يضلع في المؤامرة من الرواق وهم يصيحون:

- يا للجريمة! اغتالوا قيصر!

ثمّ تلاهم آخرون ممّن شاهدوا قيصر وهو يهوي، صائحين:

Twitter: @ketab_n

- لقد مات قيصر!

فسرى الاضطراب من مجلس الشيوخ إلى الفوروم، ومن الفوروم إلى الشوارع.

وعلت صيحتان: «إنّهم يغتالون قيصر!» و«قيصر قد مات!»، انتشرتا في المدينة بأكملها، تزرعان الرعب في كلّ مكان.

فمنهم من أغلق بابه وانحبس في بيته. ومنهم، بالعكس، من ترك حانوته ومصرفه مشرّعي الأبواب. وهرعوا جميعاً إلى رواق پُمپِيوس، أملاً بأن يدركوه ليحولوا دون إنجاز الجريمة.

في غمرة هذا الصخب، أخذ رجلان يهربان خوفاً على حياتهما، هما أخلص صديقين لقيصر: أنطونيوس ولِپِدُس.

ومن الناس من انضمّ إلى المتآمرين، فتجمّعوا على شكل كتيبة، تدلّ عليهم سيوفهم المستلّة المصبوغة بالدمّ.

راحت تلك الكتيبة تهبط درجات رواق پُمپِيوس وتتقدّم نحو الفوروم.

أمّا الجثّة فقد بقيت حيث كانت مُسجّاة في بركة من الدماء.

كان الجميع يفدون لمشاهدتها، ولا أحد يجرؤ على لمسها.

ثمّ جاء ثلاثة عبيد فحملوها ووضعوها على محمل وأعادوها إلى بيت قيصر.

عرفت كَلْپُرنيا بمحنتها، فخرجت إلى أمام باب قصرها تنتظر جثّة زوجها. وهرع أحدهم يستقدم الطبيب أنتِستُس.

للأسف! كان قيصر قد غادر الحياة: عدّ الطبيب ثلاثة وعشرين جرحاً في جسده.

الطعنة القاتلة الوحيدة هي التي أصابته في صدره.

Twitter: @ketab_n

لم يكن ذلك ما خطّط له المتآمرون.

كان مفترضاً أن يجرّوا جثّة قيصر، ما إن يقتل، في شوارع المدينة ثمّ يلقوها في نهر التيبَريس؛ وأن يستولوا بعد ذلك على أملاكه كافّةً ويلغوا مراسيمه كافّة.

لم يجرؤوا على القيام بذلك، خشية من أنطونيوس ولِپِدُس، فالأوّل كان قنصلاً والثاني قائد كتيبة فرسان؛ فلعلهما يبرزان في أيّة لحظة، القائد مع جنوده والقنصل مع مرافقيه.

والأخطر من ذلك: لا نعرف ما حدث للمتآمرين خلال ما تبقّى من اليوم.

فكأنّهم ذهبوا يختبئون، مرتعبين من فعلتهم الفظيعة.

في ثاني يوم، ظهر بروتُس وكَسّيوس وباقي القتلة في الفوروم وخاطبوا الشعب.

ولكنّ الشعب تلقّاهم بصمت أصمّ.

بطبيعة الحال، كان الشعب، بالرغم من احترامه لبروتُس، يتأسّف على قيصر.

عندما أدرك المتآمرون ذاك انسحبوا إلى الكَپِتوليوم، كما ليضعوا أنفسهم تحت حماية الآلهة.

كان مجلس الشيوخ في تلك الأثناء منعقداً للتشاور.

اقترح أنطونيوس وپلوكوس وشيشرون إصدار عفو عامّ ومرسوم أمان لجميع المتآمرين، على أن يقرّر مجلس الشيوخ أيّ تكريم يُسدى لهم.

طالب المتآمرون برهينة فأرسل لهم أنطونيوس ابنه.

عندئذ نزلوا إلى مجلس الشيوخ واجتمعوا مع الآخرين وأقسم الجميع يمين الصلح.

Twitter: @ketab_n

ودلالةً على أنّ التصالح اكتمل بينهم، ذهب بروتُس يتعشّى في بيت لِپدُس، وكَسّيوس في بيت أنطونيوس.

في اليوم التالي، اجتمع مجلس الشيوخ مجدّداً.

في جلسة ذلك اليوم، أُقيم تكريم لأنطونيوس ليشكروا له أنّه أخمد نار الحرب الأهليّة؛ ثمّ تمّ تقاسم الولايات.

حصل بروتُس الذي أغدق عليه المجلس المديح على جزيرة كريت، وكَسّيوس على أفريقيا، وتْربونيوس على آسيا، وسِمنبير على بِثينيا، وبروتُس ألبينُس على بلاد الغال المسمّاة 'سِركُمپَدانا[1] .

من سوء الطالع أنّهم نسوا أنطونيوس، ولم يكن أنطونيوس ممّن يكتفي بمُجرّد شكر.

ثمّ راح يشيع بين الناس أنّ قيصر ترك وصيّة، وأنّه عهد بهذه الوصيّة، حسب ما أكّد بعضهم، إلى كاهنات فِستا.

كانت تلك ثالث وصيّة يتركها قيصر، ليعيّن بموجبها، كما قيل، ثلاثة ورثة جدد، هم من أولاد أبناء إخوته:

أولهم أُكتافيوس،

ثانيهم لوكيوس پِناريوس،

وثالثهم كْوِنتُس پِديوس.

وأوصى قيصر لكلّ منهم بثُمن ثروته، وإضافة إلى ذلك تبنّى أُكتافيوس فمنحه اسمه.

احتلّ دِسيمُس بروتُس المرتبة الثانية بين ورثة قيصر، وهو من ذهب إلى قيصر في بيته ليأتي به إلى مجلس الشيوخ.

أوصى قيصر للشعب بحدائقه الجميلة على ضفاف التيبَرِيس، التي

---

(1) أي ذلك الجانب من فرنسا القديمة، المجاور لنهر پو Pô (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

لفتت انتباهي منذ وصولي إلى روما. وأوصى لكلّ مواطن روماني، إضافة إلى ذلك، بثلاثمائة سِسترس.

بفعل الإشاعات الذي أذاعها أنصار قيصر، راح الناس يتجمّعون في الشوارع.

الواقع أنّ قرار القتلة برمي جثّة قيصر في التيبَريس له ما يبرّره؛ إذ أنّ إلقاء الجثّة في التيبَريس يؤدي إلى إلغاء المأتم، فلا يبقى أيّ سبب لتجمهر الشعب في شوارع المدينة. وعلى الأخصّ تُلغى الخطابات، فالخطابات هي أكثر ما يخشى منه.

لكن حين استرجعت أرملة قيصر جثمانه، لم يعد هناك مفرّ من إقامة المأتم. اقترح بعضهم أن يقام المأتم خفْيةً؛ ولكن ما يكون إذّاك موقف الشعب؟

ارتأى كَسّيوس أنّ المغامرة بكلّ شيء أسلم عاقبة من إقامة المأتم. وكان لأنطونيوس مشروعه الخاص، فأصرّ على بروتُس حتّى قبلَ بالمأتم.

سبق لبروتُس أن ارتكب أوّل خطأ حين وفّر حياة أنطونيوس، وارتكب خطأً ثانياً حين ماشاه على رأيه.

عُرض جثمان قيصر، يوم المأتم، أمام بيته، وتجمّع الشعب برمّته أمام المنزل وفي الشوارع المتاخمة له.

ظهر أنطونيوس، المعروف لدى الجميع بأنّه أعزّ أصدقاء قيصر، فاستقبله الجميع بالتصفيق.

كان يمسك بورقة: إنّها وصيّة قيصر. أبرزها أمام الشعب مشيراً إلى أنّه يريد أن يتكلّم.

وللحال سُمعت هذه الكلمات تسري بين الناس: «الصمت، أنصتوا إلى أنطونيوس!». وعمّ الصمت.

Twitter: @ketab_n

قرأ أنطونيوس الوصيّة من أعلى الرواق، وكان صوته قويّاً رنّاناً، فلم تفت الشعب منها كلمة.

عندها علم الشعب أنّ قيصر يوليه اهتماماً كبيراً، حتّى بعد موته، فلذا أورثه حدائق التيبَريس مع ثلاثمائة سِسترس لكلّ مواطن.

انفجر الشعب بالصراخ والأنين والشهيق.

وأمر أنطونيوس برفع الجثمان ونقله إلى حدائق مارس؛ فسار الشعب كلّه في موكبه.

أُعدّت محرقة قيصر في حدائق مارس، جنب قبر ابنته جوليا، زوجة پُمپِيوس التي طالما بكاها پُمپِيوس ثمّ سرعان ما تعزّى عنها بغيرها.

بغيةَ عرض الجثمان، أُقيم هيكل مذهّب على شاكلة هيكل ڤينوس الوالدة الذي لا يزال قائماً في الفوروم مقابل المنبر المعدّ للخطباء.

وُضع الجثمان كالمعتاد على سرير من عاج مغشّى بغطاء من ذهب وبرفير، وفوقه غنائم النصر من السلاح، عُلّق عليها الثوب المدمّى الذي اغتيل فيه.

عند الصباح، ابتدأت ألعاب المأتم في الشوارع والساحات. وكانت مسرحيّاتها التمثيلية من اختيار أنطونيوس: منها مسرحيّة **أجَكس** لپَاكوڤيوس، حيث يرِد هذا البيت الذي ينطبق كليّاً على قتلة قيصر:

«أوَ أنقذتُهم من الهلاك ليُهلكوني!»

حين أُلقي هذا البيت، قابله الجمهور بنوبة من التصفيق الحادّ يعبّر عن حالة الشعب النفسيّة.

وفي تلك الحالة من الهيجان، انطلق مسير الموكب الجنائزيّ. كان الجثمان الحقيقيّ المشوّه موضوعاً في تابوته، ورُفع مكانه جثمان من شمع صُبّ على جسد قيصر بعد وفاته ببضع ساعات، ليتسنّى للجميع رؤيته.

Twitter: @ketab_n

كانت صورة الجثمان متقنة الصنع تظهر فيها ملامحه الكامدة، كما تبيّنها الفنان في الجثمان نفسه، وبدا للناس أنّ الجروح الثلاثة والعشرين تطالب بالاقتصاص من القتلة.

ولك أن تتخيّل الصخب الذي استقبل به الشعب الجسد المُسجّى على سريره الجنائزيّ.

وصار من اليسير توقّع ما سوف يؤول إليه الأمر.

استلم أنطونيوس الكلام وكان متحدّثاً بارعاً، درس فنّ الفصاحة على النمط الآسيويّ المفعم بالصّور والتشابيه. فذكّر في خطابه بحياة قيصر، تلك التي كرّسها بأكملها لخدمة الشعب ثمّ انتهت بطعنة خنجر سدّدها إليه أعداء الشعب.

لم يذكر فقط ما أنجزه قيصر فعلاً بل ما كان ينوي فعله أيضاً؛ وفي ما كان ينوي فعله ينال الشعبَ خيرٌ يزيد عما ناله سابقاً.

ثمّ رفع ثوب قيصر المدمّى وأشار إلى الطعنات البادية فيه، وعلى كلّ طعنة وضع اسم أحد قتلته.

وكان، وهو يتكلّم، يلوّح بالثوب فوق الجماهير.

فكأنّ كلّ الأهواء المريعة كانت تنبعث من ثنايا ذلك الثوب مطالبةً بالدم، انبعاثَها من معطف إله الحرب. وراحت مشاعر الغضب والكراهية والثأر تنبثق انبثاق حزمة من بروق تعشي أبصار الجماهير وتنفذ منها إلى قلوبهم.

وحين بلغ الهيجان ذروته، تقدّم رجلان يحمل كلّ منهما رمحين في يساره ومشعلاً في يمينه، وأضرما النار في المنبر.

أُعدّت المواد الملتهبة على نحو جعل النار ترتفع بسرعة، وضاعف من التهابها أن كلّ فرد رمى فيها ما استطاع من حطب. فمن علامات التقوى

Twitter: @ketab_n

في هذه الظروف أن يرمي كلّ واحد من الشعب ما يتوجّب عليه من وقود يغذّي به النار.

هذه المرّة لم تنحصر الأمور في حدود التقوى، بل بلغت حدّ الهذيان، فقد بادر الشعب إلى التقاط كلّ ما وقع في متناوله من أبواب ومصاريع وطاولات ومقاعد خشبيّة وحواجز، لا بل إلى انتزاعها وتحطيمها ليرمي بها كلّها في الموقد الضخم الذي سرعان ما تحوّل من محرقة إلى بركان.

بلغت انفعالات الشعب مبلغاً قد يتسبّب معه أبسط حادث بمحَن عظيمة. رمى البهلوانات وعازفو الناي بثيابهم المطرّزة بالذهب في اللهيب؛ ورمى المحاربون القدماء والجنود بأسلحتهم؛ والنساء بحليِهنّ؛ والأولاد بكُرياتهم الذهبيّة، حين علت صيحة مفاجئة «سِنّا! «سِنّا!»، وشوهد رجل ممزّق الثياب يتخبّط وسط الشعب.

ثمّ سُمع صخب غاضب، ارتفعت على أثره خِرق مدمّاة على رؤوس العصيّ، وفوقها رأس مقطوع مثبّت في رأس رمح. وعلا صوت بهتاف: «الموت للقتلة!». فردّدته آلاف الأصوات زاعقة بنفس التهديد؛ وانسابت الحشود انسياب السيل متوزّعة على مجموعتين قاصدة بيتي بروتُس وكَسّيوس.

ولكان هذان لقيا حتفهما، لو لم يُبلَّغا بالأمر قبل فوات الأوان ويهربا من المدينة ليعتصما في أَنسيوم.

أمّا التعس الحظّ الذي شُهّر به فراح ضحيّة خطأ.

إنّه الشاعر هِلفيوس سِنّا، صديق قيصر، الذي ظنّه الناس كورنيليوس سِنّا أحد أعضاء مجلس الشيوخ، الذي شارك في اغتيال قيصر.

منذ ذلك الحين، انتهى أمر بروتُس وكَسّيوس بالنسبة لأهل روما. ظنّ بروتُس وكَسّيوس أنّ خروجهما من روما مؤقّت، فإذا به خروج إلى

Twitter: @ketab_n

الأبد.

وبينما كانت أثينا تأسف لنكران روما جميلَ من حرّرها، بلغها نبأ قدوم برونُس.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

استقبال حماسيّ لبروتُس في أثينا - من كان بروتُس هذا - شيشرون الابن يعرّفني عليه - أرافق بروتُس إلى كَريستُم - أُغادر أثينا برفقته إلى مقدونيا - يُعيّنني مدافعاً عن الجند - بروتُس يُصاب بمرض الشَرَه - ينقذ حياة گَيوس أنطونيوس.

من السهل إدراك حجم الحماس الذي أثاره فينا، نحن الشبيبة المناصرة لپُمپيوس، نبأ وصول بروتُس إلى أثنيا، وكان قد سبقه إلينا كتاب شيشرون الرائع حول واجبات المواطنين، ورسالته إلى ابنه، حيث يقول له إنّه لكان الآن في أثينا، لو لم يعتبر بقاءه في روما ضرورياً لما فيه خير الوطن.

من المعروف أنّ في حياة بروتُس الخاصّة ما يضفي على حياته في الميدان العامّ -إن اقتضى الأمر- مزيداً من السلطان في نظر معاصريه. فلعلّه يتعذّر على أيّ إنسان أن يكون خيّراً -بالمعنى القديم الكامل لهذه الكلمة - أكثر من بروتُس.

ولهذا، كانت زوجته پُرسيا تُجلّه إلى حدّ العبادة. ويعلم الجميع أنّها، في سبيل النفوذ إلى سرّ المؤامرة المحوكة ضدّ قيصر، غرزت في فخذها سكّيناً دلالةً على أنّها بكلّ جدارة ابنة كاتون وزوجة بروتُس. ومع ذلك فإنّها، يوم اغتيال قيصر، أشرفت على الموت وهي تنتظر نهاية العملية.

Twitter: @ketab_n

حزن بروتُس حزناً بالغاً حين غادر إيطاليا وترك فيها زوجته؛ إذ لم يكن بوسعه أن يصطحبها حتّى لا يُشركها في حياة المنفى والأخطار التي تنتظره.

تواعدا في إيبه، وهو ميناء صغير في لُسينيا غير بعيد عن رأس پَلِنورُس، حيث قُدّر لهما وداع لا لقاء بعده.

حاول كلّ منهما أن يخفي عن الآخر ما يقاسيه من ألم، وإذ تطالعهما فجأةً لوحة لم تدَع لهما إلى التكتّم سبيلاً.

تصوّر اللوحة **وداع أندروماك لهِكتور**. وجدت پُرسيا فيها تعبيرا مريراً عن وضعها الراهن، فلم تقوَ على حبس دموعها وانفجرت بالنحيب.

كان على مقربة من بروتُس في تلك اللحظة واحد من أصدقائه يُدعى أسيليوس، راح يلقي هذه الأبيات الجميلة المقتبسة من **الإلياذة**:

«لأجلك كلّ ذلك، يا هِكتور، يا من تقوم عندي مقام أبٍ وأمٍّ أُجلّهما، ومقام أخٍ، بما أنّك زوجي المتألّق شباباً». فقال بروتُس وهو يبتسم ابتسامته العَذبة الحزينة:

- أمّا أنا، فأنّى لي أن أخاطب پُرسيا بكلمات هِكتور هذه:

«عودي إلى بيتك، واهتمّي بأعمالك الخاصّة وبقماشك وبفلكة مغزلك، ومُري الخادمات بأن يقمن بعملهنّ. أمّا الحرب فهي شأن الرجال المولودين في إلْيون، وشأني الخاصّ». ثمّ استأنف بحنان:

- فإن لم يخوّلها ضعفُ جسدها أن تنجز ما ننجزه من مآثر، فإنّها، بثبات جأشها، ستناضل في سبيل الوطن نضالاً لا يقلّ سخاء عن نضالنا.

بلغتنا هذه التفاصيل، كما نوّهتُ سابقاً، قبل أن يفد بروتُس إلينا، فأضيفت هيبة الشعر إلى عظمة الواقع.

كان أهل المدينة، كلّما أُعلن عن وصول سفينة قادمة من إيطاليا،

Twitter: @ketab_n

يتسارعون إلى الميناء.

توالت بضعة أيّام دون أن يصدُق أملنا، بسبب هبوب رياح معاكسة أخّرت وصول السفينة.

وأخيرا تردّدت هتافات «إنّه بروتُس! يحيا بروتُس!». فها هو بروتُس يصل إلى پيريوس بسفينته.

هرعت أثينا بأكملها نحو ما يُسمّونه **الأسوار الطويلة**، أي تلك المساحة الواقعة بين شارع فَليرُم وشارع تيزِيوس.

وركضت مع الناس. حين بلغت قبر أُريپِديس، لمحت بروتُس آتياً من بعيد في حشد كبير، ابن شيشرون إلى يساره، وإلى يمينه رجل من أثينا نسيت اسمه، كان قد استضافه سابقاً، أتى اليوم يطلب إليه حظوة استضافته مرّة أخرى. أذكر فقط أنّه كان يسكن في شارع المتحف.

كان مظهر بروتُس ينمّ عن رقّة وعزم، عن هدوء وهيبة: يمشي مكشوف الرأس، جبينه البارز منخفض بعض الشيء، شعر رأسه مقصوص، وعيناه الرائعتان مفعمتان بالعذوبة والعظمة. وكان يرفض برقّة أغصان الغار والأكاليل المقدّمة له، ولا يمسك بيده إلّا غصناً صغيرا من البلّوط.

كانت الشفاه تتناقل أصغر التفاصيل المنصرمة من حياته، وتتناقش في عراقة أصله التي كان بعضهم ينكرها.

فمن يزعم أنّه من العامّة وابنٌ لبروتُس، الذي كان وكيل مؤونة في إحدى البيوت، يؤسّس حكمه على استحالة تحدّره من الرجل العظيم يونيوس بروتُس الذي طرد التركينيّين، علماً بأنّ يونيوس هذا حكم على ابنيه بالموت بعد تلك الحادثة بعشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة.

ومن يدافع عن عراقة أصله، ينسب ليونيوس ابناً ثالثاً، لم يسمح له

Twitter: @ketab_n

صغر سنّه بأن يشارك في جرائم أخويه، ومنه تحذّر بروتُس.

كان بروتُس نفسه يتبنّى الموقف الأخير؛ ولا بدّ لي من القول إنّي –عن حقّ أو لمجرّد رغبة شخصيّة–، حين رأيته لأوّل مرّة، لفتني شبهه بتمثال بروتُس الأوّل الذي في الكَپتوليوم.

غير أنّ أحداً لم يجادل في أنّ نسب بروتُس من أمّه سِرڤيليا يرقى إلى سِرڤيليوس الذي، بعد أن شهد سپوريوس ميليوس يرفض المثول أمام الحاكم المطلق الصلاحيات سِنسِنّاتُس، قصد الفوروم مُخْفياً خنجره تحت ذراعه، ودنا من المتمرّد كما ليكلّمه ثمّ طعنه فأرداه قتيلاً.

كان عمره اثنتين وعشرين سنة لما حظي بثقة كاتون، فاختاره ليشرف على بيع أملاك بطليموس؛ وقد قام بهذه المهمّة على أفضل وجه وحصّل لروما مبالغ ضخمة.

أثناء الاضطرابات الناجمة عن الصراع بين پُمپيوس وقيصر، كان الناس يتوقّعون منه أن يوالي قيصر الذي أحبّه منذ البدء محبّته لابنه، لا أن يوالي پُمپيوس الذي حكم على أبيه بالموت أثناء الحرب التي خاضها قائداً لجيشه ضدّ لِپدُس. وقد عجبوا أشدّ العجب حين رأوه ينحاز إلى جانب پُمپيوس، لمجرّد قناعته بأنّه صاحب الحقّ. سوى أنّه كان يشيح بوجهه عن بپُمپيوس حين يلتقيه، ويمرّ دون أن ينبس ببنت شفة؛ فقد كان في الوقت نفسه يستقبح ألّا يناضل في سبيل پُمپيوس، ويستدنس محادثته.

حارب في فَرسالا مع پُمپيوس قائداً لكتيبة ومجرّد جنديّ. بعد الهزيمة، عاد بروتوس إلى معسكره ثمّ غادره من الباب المطلّ على المستنقعات. وقد أخبرت سابقاً كيف بقي في المستنقعات حتّى المساء ثمّ ذهب منها إلى لَرِسّا.

بعد يومين من وصول بروتُس إلى أثينا، قدّمني شيشرون له في حدائق

Twitter: @ketab_n

اللِّسِيوم، خارج باب دِيُكارِس. كانت تلك نزهته المفضّلة: لم يكن يحفل كثيراً بالأكَديميا الحديثة، ويؤثر المشّائين على الفلاسفة، ومنهم كْرَتِپُّس، صديق شيشرون، المذكور آنفاً.

التفّ حوله قسم من شبيبة أثينا ومعهم مِسّالا وپُمپِيوس ڤارُس الذي أهديته نشيدي الذي مطلعه:

«أنت، يا من يلازمني غالباً في أعظم المخاطر!»

وهو غير ڤارُس الذي عُيّن قنصلاً من وقت قريب.

كان اسمي من الأسماء القليلة الشأن نسبةً لِمِسّالا وپُمپِيوس ڤارُس، ولا أدري ما سبب انعطاف بروتُس إليّ. يوم تعرّفت عليه لأوّل مرّة، تحدّث معي مطوّلاً، وفي اليوم التالي عبّر لي عن صداقته لي.

في بادئ الأمر، بدا بروتُس وكأنّه لم يقصد أثينا إلّا ليمارس الأدب والفنون الجميلة، فيقضي وقته مناقشاً في الفلسفة والشعر. كان يتكلّم ويكتب اليونانية بسهولة، مع أنّه لم يتكلّمها ولم يكتبها إلّا حين كان يتعذّر عليه غير ذلك.

وسرعان ما تبيّن الهدف الحقيقيّ من قدومه. الهدف كان الإعداد للحرب. لذلك أرسل إروستراتُس سرّاً إلى مقدونيا طلباً لولاء قادة جيوش ذلك الإقليم.

بعدها، علم بقدوم بعض السفن من آسيا محمّلة بالبضائع الثمينة، وعلى رأسها صديق له يدعى أنتِستيوس، فعزم على الذهاب لملاقاتها.

ذات مساء، أعلمني أنّه عازم على السفر في غده وسألني إن كنت أريد مرافقته.

كان ينوي الذهاب إلى كَريستُم، وهي مدينة في أقصى جنوب أوبيه شهيرة بمقالع الرخام، لينتظر فيها وصول السفن.

Twitter: @ketab_n

تستغرق الرحلة بضعة أيّام؛ وكان طلبه إليّ، وأنا المغمور المسكين، بمثابة إنعام من رجل ذائع الصيت، فقبلته شاكراً.

انطلقنا والتقينا بالأسطول وهو يعبر بين أندرُس وطرف أوبِه. انتقل بروتُس بمفرده من زورقه إلى السفينة التي عليها صديقه، وللحال تقريباً صدر الأمر للأسطول بالرسوّ في ميناء كَريستُم.

نجح إذن بروتُس في مشروعه، وها هو الأسطول تحت تصرّفه.

عند المساء، أقام لنا عشاء عظيماً، إذ شاءت الصدف أن يصادف نصره السلميّ هذا يوم عيد مولده: عندئذ أصبح في الثامن والثلاثين من عمره.

عندما انتهينا من العشاء، قدّمنا القرابين احتفاءً بنصر بروتُس وتحرير روما.

فجأة وبدون سبب ظاهر، طلب كوباً فحطّمه، وقبل أن يشرب تلفّظ بهذا البيت الذي يضعه هوميرُس على لسان پَترُكلُس وهو في النزاع الأخير قائلاً لآخيلوس:

«أقضي من جرّاء ضربة قدر شرس، وعلى يد ابن لاتونا»[1].

تبادل المدعوّون النظرات لجهلهم سبب إلقاء بروتُس لهذا البيت المشؤوم الطالع. وحين سألوه عن ذلك، أجاب أنّ البيت ورد تلقائياً على شفتيه فألقاه دون أن يفكّر في معناه.

في اليوم التالي، سلـّمه أنِتستيوس مليونَي سِسترس من المال الذي حمله إلى إيطاليا.

ومن جهة أخرى، راح جميع جنود پُمپِيوس، الذين لم يوالوا قيصر وكانوا لا يزالون هائمين في تِسّاليا، يلتحقون به بطيبة خاطر.

رجعنا إلى أثينا.

---

(1) هي أم الإله أَپُلون (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان كَسّيوس في انتظار بروتُس، إذ كان عليهما أن يتدبّرا معاً بعض القضايا العامّة. فأُقيم على شرف كَسّيوس احتفال كبير، لم يبلغ ما بلغه الاحتفال ببروتُس. إذ لم يكن لكَسّيوس، وهو أوّلاً رجل حرب، ما كان لبروتُس من تقدير كونه فيلسوفاً وشاعراً ومؤرّخاً.

وعلى كلّ حال كنّا نعرف الأسباب التي حدت بكلّ منهما للتحرّك: على وجه كَسّيوس الأعجف والجامد، تقرأ الحسد والكراهية وجميع الأهواء الشرّيرة.

سافر كَسّيوس إلى آسيا، بينما بقي بروتُس في أثينا.

كان يطمح ببقائه إلى أمر يتعدّى ميوله إلى المتعة الفلسفية وإلى إعمال الذهن بالعلوم: كان يطمح إلى أن يرسّخ في صدر شبيبتنا مبادئ رواقيّة لا تتزعزع.

تستطيع أن تتفهّم ذلك بيسر، حين تسمع، من بين أسماء الشبّان الشرفاء من طلّاب العلم في أثينا آنذاك، اسم كاتون وشيشرون ومِسّالا.

تركت إقامة بروتُس تأثيراً كبيراً، بحيث أنّ هُرتَنسيوس، المشرف على العدالة في مقدونيا، سلّمه ولايته؛ فجمعنا بروتُس وسأل من منّا يريد أن يتبعه، فانطلق منّا نفس الهتاف؛ فكان عدد جنود بروتُس بعدد الرومان المقيمين في أثينا.

وكنت ممّن تبعوه، لا بل أقرّ بأنّي كنت أوّل من فعل ذلك. وأقرّ هنا بذنبي، مع أنّي اعترفت بذلك منذ زمن طويل في رسالتي إلى يوليوس فلورُس:

«أحداث كبرى انتزعتني من ملذّات أثينا، فانسَقتُ، وأنا لا أزال حديث العهد بمهنة السلاح، في تيّارات الحرب الأهليّة إلى حزب لم يكن له أن يقاوم ذراع أُغُسطُس الجبّارة».

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، لم تتأخّر صداقة بروتُس عن مكافأتي أكثر ممّا أستحقّ بكثير. فقد عيّنني مدافعاً عن الجند، فشغلت، ولمّا أبلغ الثانية والعشرين، منصباً لا يعلوه إلّا منصب القنصل قائد الجيش ونائبه قائد الفرقة.

وكان يحقّ للمدافع عن الجند أن يقود الفرقة إذا دعت الحاجة.

ومن هذا قولي في هجائيّتي السادسة من الكتاب الأول:

«وقديماً،

بحجة أنّي كنت آمر على فرقة بصفتي مدافعاً عن الجند»

كانت أولى مآثرنا أنّا فزنا بكميّة ضخمة من السلاح، كانت قد أُعيدت من دِمِتريادِس بأمر من أنطونيوس، وكان قيصر قد أوصى عليها لحربه ضدّ البَرثيّين. ومن جرّاء هذا النصر أصبح ملوك الجوار وأمرائه من أعواننا.

فجأة، استخبر بروتُس أنّ گَيّوس أنطونيوس، أخا مركُس أنطونيوس، قد انطلق من بْرُنديزيوم قادماً إلى أَپُلّونيا ودِرّاكيوم ليستلم قيادة الفرق العسكرية المؤتمرة بأمر گبينيوس. وكان علينا أن نسبقه لنستلم قيادة الفرق قبل وصوله، فتيسّرت لنا تلك المغامرة بفضل معاكسة الريح له، مع أنّ گَيّوس أنطونيوس كان على بعد ثلاثين ميلاً فقط، بينما كنّا نحن على بعد أربعين ميلاً.

فانطلق بروتُس مع من تيسّر له من جند، دون أن يهتمّ بأن يضمّ إليه الفيلق الذي أنتمي إليه. وحثّ سيره مع جيشه مسرعين، بالرغم من الثلج الكثيف ومن طرقات وعرة صعبة المسالك، بحيث أنّه خلّف بعيداً وراءه حَمَلةَ المؤن.

بلغ دِرّاكيوم وفيها أصيب بذلك المرض الغريب الذي يسمّيه الأطباء مرَض الشرَه الذي يسبّب جوعاً متواصلاً لا مسدَّ له.

Twitter: @ketab_n

وما زاد الوضع خطورةً أنّ الجيش، كما ذكرت آنفاً، كان يفتقر افتقاراً كاملاً إلى المؤن. فقد بلغ بروتُس حالة من الوهن البالغ لا يفلح فيها علاج، حين خطر لجنوده أن يقتربوا من الحرس الساهرين على أبواب المدينة، مُدلين لهم بإشارات الصداقة، ليُطلعوهم على أحوال بروتُس. عند سماعهم اسم بروتُس، الذي كان موضع تكريم حتّى لدى أعدائه، انفصل رجلان عن المجموعة ودخلا المدينة، ثمّ عادا منها مُحمّلَين بالمؤن، وحملاها هما بالذات إلى المريض.

تأثّر بروتُس تأثّراً شديداً من هذه البادرة، ولذلك، عندما استولى على المدينة بعد فترة قصيرة، عامل بإنسانية متناهية ليس فقط الجنديّين الذين وافياه بالطعام، بل الأهالي كافّة.

قبل ذلك، وصل گَيّوس أنطونيوس عن طريق البحر إلى أپُلّونيا وأمر جميع فرق الساحل بأن تنضمّ إليه؛ وعندئذ استسملت دِرّاكيوم. لمس گَيّوس أنطونيوس لدى أهل أپُلّونيا استعداداً للاقتداء بجيرانهم، فغادر المدينة مصطحباً معه ما استطاع من أنصار قيصر وانسحب إلى بُتروتُم. غير أنّ بروتُس سعى في أثره مسرعاً بحيث أنّه داهمه وهو بعد في الطريق، وفتك بفرقه الثلاث.

ظنّ گَيّوس أنطونيوس أنّه سيكون أسعد حظّاً إذا ما التفّ على ابن شيشرون المسارع إلى نجدة بروتُس؛ إلّا أنّه هُزم هنا أيضاً هزيمة نكراء. فبعد مسيرة بضعة أيّام، دهمه بروتُس وهو يعبر وسط المستنقعات، وكان قادراً على سحقه مع كلّ جنوده؛ ولكنّه اكتفى بأن طوّقه من كلّ الجهات، وأصدر لجنوده أمراً بأن يوفّروا حياة أولئك الجند الذين سيصبحون عمّا قريب زملاءَ لهم. ذلك ما حصل فعلاً: استسلم جند گَيّوس أنطونيوس وعند استسلامهم سلّموا قائدهم.

Twitter: @ketab_n

عندها، تجلّت رقّةُ قلب بروتُس. فبدل أن يعامل گَيّوس أنطونيوس معاملتَه لعدوّ ولأسير، عامله معاملة الصديق والضيف. وقد اعترف گَيّوس أنطونيوس بتلك المروءة على طريقته: حاول أن يدفع جنود بروتُس إلى الثورة ضدّه.

لكنّهم بقَوا مخلصين لقائدهم؛ ألقوا القبض على گَيّوس أنطونيوس وغلّوه بالأغلال وساقوه إلى بروتُس. كان من حقّ بروتُس أن يحكم عليه بالموت هذه المرّة، ولو فعل لجاراه الجميع ولطالبه الجنود بأن يُنفّذوا هم بأنفسهم فيه حكم الإعدام، من شدّة ما سخطوا عليه. فقد بلغ منهم السخط مبلغه، بحيث أنّ بروتُس، الذي عقد عزمه على إنقاذه، خشي أن يُعصى أمره إن لم يلجأ إلى إخفاء نيّته، فقال لهم:

- سأعطي الأوامر بإلقائه في البحر، موثَقاً مغلولاً كما هو الآن، فلن يقوى على النجاة.

وفعلاً، استدعى صاحب زورق، وهمس بأمرٍ ظنّ جنوده أنّه أمر بالتخلّص من گَيّوس أنطونيوس، فقادوه إلى الشاطئ وهم يطلقون صيحات التنديد به ويهدّدونه.

لم يأمر بروتُس صاحب الزورق بأن يُغرق گَيّوس أنطونيوس، بل أن يقوده إلى سفينة أخرى ليحتفظ به أسيراً في مكان آمن.

سخط شيشرون من ذلك الرفق؛ فشيشرون، المحامي الذي أمر بخنق لانتُلُس وسِتيگُس، لم يفهم كيف يعفو بروتُس وهو القائد الظافر عن گَيّوس أنطونيوس.

فكتب له رسالة ليلومه على صنعه؛ وكنت بقرب بروتُس حين وافاه الرسول. فقال:

- رجال السلام هؤلاء، ما أضراهم!

Twitter: @ketab_n

وأعطاني رسالة شيشرون لأقرأها، بينما راح يجيبه عليها، ثمّ كلّف الرسول بحملها إليه. فقلت لبروتُس:

- لست بحاجة أن أسألك إن كنت ستتبع نصيحة شيشرون فتأمر بقتل گَيّوس أنطونيوس. أجابني بروتُس:

- لن يكون، إذاً، إلّا قتلاً نافلاً. يجدر بشيشرون أن يحذر **صديقه** أُكتافيوس.

وشدّد بروتُس في نطق تعبير **صديقه**.

ثمّ مدّ إليّ بالرسالة التي فرغ من كتابتها، قائلاً:

- وبالمناسبة، هل تودّ أن ترى ردّي على رسالته؟

وسلّمني الرسالة.

وجدت في رسالة بروتُس قدراً من الجمال جعلني أسأله نسخة عنها، لا بوصفها نصّاً سياسياً، بل أثراً نموذجيّاً في الفصاحة.

أذِن لي بروتُس بذلك.

أنقل هنا ما يتعلّق بـگَيّوس أنطونيوس وبأُكتافيوس:

«أمّا لومك لي لأنّي لم أقتل گَيّوس أنطونيوس، فإليك ما رأيته في الأمر. لا يحقّ إلّا لمجلس الشيوخ وللشعب الروماني أن يحكما على المواطنين الرومان الذين لم يُقتلوا في الحرب. لعلّك تقول لي: إنك تخطئ حين تعتبر مواطناً من يتصرّف تصرّف عدوٍّ للدولة. فلك أقول: لا، على العكس، أعتقد أنّي على حقّ؛ حين لا يصدر عن مجلس الشيوخ مرسومٌ، أو عن الشعب أمرٌ، فليس لي أن أدّعي إصدار حكم مسبق لا أحتكم فيه إلّا إلى نفسي».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

أُكتافيوس وأُغسطُس - أَدين بالجميل لأُغسطُس ولكنّي لا أدين لأُكتافيوس إلّا بالحقيقة - مولد أُكتافيوس - التّنبئات التي رافقت مولده والتي تلته - مملكة الإسكندرية يحكمها قاصر - أجداد أُكتافيوس لأمّه - دراساته في أَپلّونيا - تنبؤات تياجينِس بشأنه - حالة روما عند وفاة قيصر - خطورة القبول بخلافته - أُكتافيوس ينطلق إلى روما برفقة صديقه أَگرِپا وأستاذه أَپلّودورُس اليِرگامي - بروز علامات فألٍ مُطمْئنة أثناء دخوله المدينة - صِفات أُكتافيوس - أنطونيوس - الفِلِپيات - أُكتافيوس ما بين أنطونيوس وشيشرون - خذوا الأولاد وأصلحوهم - الحكم الثلاثيّ - مراسيم النبذ - سِكستُس پُمپِيوس.

لقد قدّمتُ للإمبراطور أغُسطُس ما يكفي من دلائل إعجابي الشديد واعترافي الأبديّ بجميله ليحقّ لي استئذانه بقول الحقيقة بصدد قيصر أُكتاڤيانُس[1]، الذي لم يعد يربطه به اليوم أيّ رابط مشترك.

(1) يقصد الرجلَ الذي كانه أُغسطُس قديماً، إذ كان اسمه أُكتاڤيوس وأُكتاڤيانُس، ثمّ اختار اسم أُغسطُس لدى تنصيبه إمبراطوراً. وسيرى القارئ أنّ دوما، الذي يضع الكلام على لسان هُراسيُوس، يسمّيه تارةً باسمه هذا وطوراً باسمه ذاك، حسب الفترة التي يغطّيها كلامه (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال، إن كان لثَنائي قدر من الأهمّيّة، فإنّه ناجم عن نزاهتي في الحكم على وجهَي ذلك الجانوس[1] الذي أقفل هيكل الحرب.

حين يدور الكلام حول امرئ لا يعيش العالم ويتنفّس إلّا بسلطانه، تُضْحي كلّ التفاصيل مهمّة وجديرة باهتمامنا.

فإنْ حاربتُ أُكتاڤيوس، فلأنّ الواجب دعاني لمحاربته؛ وإن أثنيت على أغُسطُس، فلأنّ الواجب يدعوني للثناء عليه.

وفي تقديري أنّ ما أكتبه في هذه الساعة لن يخرج إلى العلن، على كلّ حال، إلّا وقد أصبح ذِكر من يرد في مذكّراتي هذه نسياً منسيّاً منذ أمد طويل. فلمَ ينبغي عليّ أن أتردّد في قول الحقيقة، خيراً كانت أم شرّاً؟

رأينا في حديثنا عن وصيّة قيصر أنّه عيّن ثلاثة من أحفاد إخوته أوصياء على تركته. وكان على رأس اللائحة أُكتاڤيوس الذي كان أحبَّهم إليه، ولهذا السبب خصّه بثلاثة أرباع تركته.

سبق لأُكتاڤيوس أن رافق قيصر إلى إسبانيا وعاد معه في نفس المركبة.

وصدف أنّ أنطونيوس أتى يستقبل المنتصر، وكان قد حلّ محلّ قيصر أثناء غيابه حاكماً على إيطاليا، فترك أُكتاڤيوس له ولقيصر المقعدَين الأماميّين، وجلس على المقعد الخشبي الخلفيّ مع بروتُس ألبينُس.

فرَضاً أنّ ولع قيصر بأُكتاڤيوس لم يكن سببه أنّ أنطونيوس كان يعكّر مزاجه، فلا بأس أن ننسب ذلك إلى حنان قيصر الشديد على أخته جوليا، وعلى ابنتها أتيا، والدة أُكتاڤيوس. أضف إلى ذلك أنّ قيصر ما إن تعافى من مرض شديد ألمّ به وجعل الكثيرين يشكّكون في مستقبله، حتّى التحق به أُكتاڤيوس في إسبانيا مع ثلّة من مرافقيه سالكين طرقاً موبوءة بالأعداء.

(1) من آلهة الميثولوجيا الرومانيّة، يُصوّره أوڤيديوس برأسين، دلالة على سلطانه على السماء والبحار والأرض. كان إله البدايات والمواسم والمفاتيح والأبواب، تُفتَح وتُغلَق بمشيئته (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

قرّر قيصر أن يسهر على ألّا يعتور تربية ابن أخيه المحبوب أيّ خلل، فأرسله ليدرس الآداب اليونانية لا في أثنيا (لعلمه أنّ أثينا معادية له) بل في أَپُلّونيا؛ ذلك أنّ شبيبة أثنيا كانت بعامّة من الأرستقراطيّة الراقية، بينما كانت الشكوك تحوم حول أرستقراطية أُكتاڤيوس الشابّ.

لا أتردّد إطلاقاً في التنويه بذلك، لأنّي سمعت أكثر من عشر مرّاتٍ الإمبراطور نفسه يقول إنّه يتحدّر من عائلة فرسان عريقة لا أكثر، ولم يمنع ذلك أباه من أن يصبح أوّل من دخل مجلس الشيوخ من أبناء العائلة.

لذلك كانت تلك الشبيبة الرومانية العريقة، التي لم يكن كرم محتدها موضع شكّ، تعامل أُكتاڤيوس معاملة شديدة السوء، فتقول له:

- كانت أمّك تبيع الطحين في طاحون أَريسيا، فيعجنه أبوك بيدين لا تزالان ملوّثتين من تداوله الدراهم في مِرولُم.

والواقع أنّ أباه كَيّوس أُكتاڤيوس، المُتّهم بأنّه كان يعجن الطحين في مِرولُم بيدين لا تزالان ملوّثتين من تداول الدراهم، قد بدأ حياته العملية سمساراً -حسب ألسنة السوء في روما- ثمّ صرّافاً، وتلك مهنة وفيرة الفائدة ارتقت به من مرتبة الغنيّ التي كان عليها إلى مرتبة المليونير. وحين أثرى، عُيّن سمسارنا هذا قيّماً على العدالة ثمّ حاكماً على مقدونيا.

إنّها حقّاً لسابقة أن يحكم مملكة الإسكندر الكبير رجل يُعّير أبوه بكونه عطّاراً وخبّازاً في أَرسيا؛ كما كان هو نفسه يُعيّر بأنّه عمل سمساراً وصرّافاً وصاحب طاحون.

كما أنّ أنطونيوس كان يُعيّره بأنّ في نسبه شخصاً مُعتَقاً اسمه سِستيون من توريوم.

إنّها لتهمة على قدر من الخطورة، إليك مصدرها: كان أُكتاڤيوس في صباه يُدعى تورينُس، أي التورينيّ، نسبة إلى بلاد توريوم، وقد أراني هو

Twitter: @ketab_n

نفسه ميدالية نحاسية عليها رسمه ولقبه هذا.

ولكن إليك من جهة أخرى ما يمكن أن يقال في دحض مهاترات أنطونيوس: حين عُيّن والد أُكتاڤيوس قيّماً على العدالة في مقدونيا، كان لا بدّ له من عبور بلاد توريوم. وكان مجلس الشيوخ قد كلّفه بأن يجتثّ بهذه المناسبة ما تبقّى من العبيد الذين تبعوا سپَرتَكُس؛ ولقد قام والد أُكتاڤيوس بتلك المهمّة على نحو كان موضع رضى كامل لدى مجلس الشيوخ.

بهذه المأثرة حصل على لقب «تورينُس» الذي أورثه لابنه عند وفاته.

أثناء إقامته في مقدونيا، حكم الإقليم بعدالة متناهية، جعلت شيشرون في إحدى رسائله يحثّ أخاه كوِنتُس، القنصل الأسبق والوالي على آسيا، أن يخطب ودّ حلفاء الجمهورية كما فعلَ جاره أُكتاڤيوس.

عاد أُكتاڤيوس من مقدونيا وأعدّ العدّة ليصبح قنصلاً، ولكنّه توفّي فجأة. وكان قد تزوّج مرّتين فترك من زوجته الأولى أوكاريا بنتاً اسمها أُكتاڤيا، ومن زوجته الثانية أتيا، وهي ابنة جوليا وبالتالي ابنة أخي قيصر، بنتاً اسمها أيضاً أُكتاڤيا وابناً هو أُكتاڤيوس.

وأُكتاڤيا المذكورة آنفاً هي التي تزوّجت أنطونيوس فيما بعد.

أمّا من جهة أمّه فقد كان الإمبراطور القادم أفضل حظّاً: فجدّه مَركُس ألسيوم بَلبُس مُتحدّر من ناحية أمّه من عائلة أعطت عدداً كبيراً من الشيوخ، وكان يمتّ من ناحية أمّه بصلة قرابة وثيقة إلى پُمپِيوس.

ولذا كان للاثنين المدعوَّين بَلبُس حظوة لدى قيصر.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع (تابع)

فقد أُكتافيوس أباه وهو في سنّ الرابعة، وكان قد ولد عام 692 لتأسيس روما، في 20 سبتمبر قبيل طلوع الشمس، فلامسته قبل أن تلامس الأرض -ويا لها من دلالة سعد!- مقابل هضبة پَلَتينُس قرب **رؤوس الثيران**، وبالتحديد حيث يقوم معبده اليوم.

ما إن وُلد حتّى نُقل إلى ڤِلّيتري، في بيت الطحّان إيّاه الذي طالما عُيّر به، وبقي من طحينه على ثيابه بعض الأثر، وفق قول شبيبة روما.

هنا يغيب عن عين أشدّ الباحثين دقّة، على مدى فترة قصيرة، مسار هذا الإنسان العظيم القدر. ما أستطيع أن أقوله وبمرأى العين هو أنّ البيت الذي سكنه وليداً أبعد ما يكون عن القصر، مهما قيل عن التنبِئات وعلامات الفأل المرافقة لمولده.

الغرفة التي رضع فيها صغيرة جدّاً، وهي أشبه ببيت مؤونة منها بغرفة عادية.

عندما زرت ڤِلّيتري كان الناس يتناقلون أنّ أُغُسطُس لم يولد في پَلَتينُس بل في ڤِلّيتري نفسها. ولذا كانوا يتجنّبون دخول تلك الغرفة التي شهدت مولده، إلّا عند الضرورة. وإذا ما دخلها أحدهم دون تهيّب، أُكرِه على الخروج منها -حسب القول المتناقل- خروجَه من معبد إله. قرّر مالك البيت، وكان حديث العهد به، أن يُعرض عن هذا الاعتقاد المتوارث، فأمر بوضع سريره في تلك الغرفة دون مراعاة لحرمتها.

Twitter: @ketab_n

صحيح أنّهم في اليوم التالي وجدوه في سريره، ولكنّهم وجدوه في أوّل الشارع يكاد يموت هلعاً. إذ أنّ أيدي خفيّة حملته أثناء الليل ونقلته إلى حيث وجدوه.

وعلى كلّ حالٍ فإنّ التّنبّئات التي سبقت مولده تعادل تلك التي تلته.

وقعت صاعقة على أسوار ڤِلّيتري أثناء حمل أمه به. استفسروا عرّافاً عن الحادث فتنبّأ أنّ أحد مواطني المدينة سيسود يوماً العالم كلّه.

ومن الأخبار أن أَتيا أتت ليلاً تقدّم قرباناً لأپّلّون فغفت في مَحمل في وسط المعبد، فأتت أفعى ودخلت محملها ثمّ غادرته بعد لحظة.

فلا شكّ أنّ أغُسطُس مدينٍ لتلك الأفعى بما طُبع عليه من حذر.

بعد تسعة أشهر ولدت أَتيا أُكتاڤيوس، فاعتُبر ابناً لأپّلّون، بما أنّ الأفعى كانت مكرّسة لهذا الإله.

وقبل أيّام من وضعها الصبيّ الشهير هذا، حلمت أتيا أنّ أحشاءها حلّقت حتّى السحب وراحت تملأ السماوات والأرض؛ وفي نفس الساعة كان أُكتاڤيوس من ناحيته يرى في منامه أنّ زوجته تتمخّض عن الشمس.

لنتابع التّنبّئات التي تلت الولادة، ولنراقب كيف راحت ترافق الصبيّ ثمّ الفتى.

يوم ولادته، كان النقاش يدور في روما حول مؤامرة كَتِلينا، أثناء قنصلية شيشرون وأنطونيوس المعروفة (وأنطونيوس هذا هو غير أنطونيوس عضو حكومة الثلاثة، ولم يكن إذّاك في سنّ تخوّله أن يكون قنصلاً). لازم أُكتاڤيوس زوجته أثناء مخاضها، فلم يشارك في النقاش. لامه بعضهم على تغيّبه، فأجابهم أُكتاڤيوس أنّ امتناعه عن الحضور له مبرّر، هو ولادة ابنه. وصدف أنّ عرّافاً شهيراً اسمه نِـجيديوس كان حاضراً، فسأل عن ساعة وضْع أتيا ابنها فأخبره أُكتاڤيوس فهتف

Twitter: @ketab_n

نِـجيديوس:

- ها قد وُلد من سيسود الدنيا!

أخبرت حاضنة أُكتافيوس، وقد أخذها العجب، أنّها وضعت ذات مساءٍ الرضيعَ كالمعتاد في سريره في موضعه من الطابق الأرضيّ في الغرفة الصغيرة التي ورد ذكرها؛ ثمّ إنّها في اليوم التالي وجدت الغرفة خالية؛ بحثت عن الطفل طويلاً في كلّ الأمكنة، فوجدته مشغولاً في رأس برجٍ بإرجاء موعد طلوع الشمس.

غالباً ما كان الطفل يضطرب في نومه بسبب نقيق ضفادع في مستنقع قريب من المنزل. وما إن استطاع الطفل أن ينطق حتّى أمر الضفادع بلزوم الصمت، فصمتت الضفادع.

بلغ أُكتافيوس حوالى سنتين، حين كان أُكتافيوس يقود جيشه في منطقة قاصية من تْراسيا ويجتاز حرشاً مكرّساً لباخوس. فعنّ له أن يستشير الإله عمّا يُقدّر لابنه من أمور رائعة. بادروا إلى تقدمة القرابين، فارتفع لهيبها حتّى بلغ ذروة الهيكل، ثمّ صعد من ثغرة فيها نحو السماء. فصرّح الكهنة عندئذ أن لا فائدة من المتابعة، لأنّ مثل هذا لم يحصل إلّا للإسكندر الكبير. وفي نفس المكان، حلم أُكتافيوس ثاني ليلته بأنّه يرى ابنه ملتحفاً بغنائم جوبِتير، مُكلّلاً بهالة من نور، حاملاً بيديه الصولجان والصاعقة ومعتلياً مركبة مزيّنة بالغار مقرونةً إلى اثني عشر حصان ناصع البياض.

فقد أُكتافيوس أباه، كما ذكرنا، وهو في سنّ الرابعة.

في الخامسة من عمره، كان يتنزّه على طريق كَمپانيا وهو يأكل رغيفاً من خبز، فانقضّ عليه نسر وانتزع منه الرغيف بحركة مباغتة وراح يتوه فترة في الجوّ قبل أن يعود ليقدّم له الرغيف بكلّ رفق.

Twitter: @ketab_n

حلم كونتُس كَتُلُس، بعد تكريسه الكَپِتوليوم، بحلمين. رأى في أوّلهما مجموعة من الصبيان يلعبون حول مذبح جوپِتير، فمدّ جوپِتير يده ورفع أحدهم إلى قاعدة التمثال ونصب في صدره راية الجمهورية.

في حلمه الثاني، لمح الصبيّ نفسه بين ذراعي جوپِتير؛ فأراد أن ينزله من بينهما، فقال له الإله:

- دعِ الصبيّ حيث هو، إنّي أرفعه ليصبح سنداً للجمهورية.

في اليوم التالي، التقى كونتُس كَتَلُس بالصبيّ أُكتاڤيوس، فدُهش للشبه بينه وبين الصبيّ الذي رآه في الحلم.

كلّ الناس رأوا أُكتاڤيوس في رؤاهم، حتّى ذلك المُشكّك شيشرون.

فقد خيّل له أنّه يرى صبيّاً ذا وجه متميّز، تنزله ذراع خفيّة من السماء بسلسلة من ذهب ومعها سوط تلقّته من جوپِتير. كان يقصّ حلمه على أصدقائه وهو يجتاز الفوروم، فصاح فجأة:

- ها هو صبيّ الحلم!

كان ذلك الصبيّ أُكتاڤيوس نفسه.

حين لبس جُبّة الرجولة، انفتح جلبابه المشيخيّ فجأةً من الجانبين كما بفعل مقصّ خفيّ وسقط على الجانبين. فاستنتجوا من ذلك أنّ الصبيّ أعدّته الأقدار ليسنّ القوانين للمجلس الذي يرتدي أعضاؤه ذلك الجلباب، أي مجلس الشيوخ.

ذكرنا سابقاً أنّه بعد عودته من إسبانيا، ذهب إلى أَپلّونيا للدراسة.

ذات يوم صعد مع رفيقه أَگرِپّا إلى مرقب تِياجينِس العالم بالرياضيات. شاء أگرِپّا أن يعرف طالعه.

أنصت أُكتاڤيوس إلى نبوءة المنجّم وأدرك أنّه يتنبّأ لصديقه بمستقبل عجيب للغاية، ومن شدّة عجبه رفض أن يستمع إلى ما سيقوله له عن

Twitter: @ketab_n

مستقبله، خشية منه أن يكون مستقبله أدنى رتبة. إلّا أنّه انصاع إلى إصرار أگرِبّا ورضي أن يذكر لتِياجينِس تاريخ مولده وظروفه. وما إن انتهى من كلامه حتّى ارتمى تِياجينِس على قدميه وراح يسجد له سجوده لإله.

أكتسب أُكتافيوس من جرّاء ذلك قدراً من الثقة بنفسه جعله يعلن عن طالع برجه ويأمر بصبّ ميدالية بطالع برج الجديّ، وهو برج مولده.

لهذا السبب، حين علم وهو في أَپُلّونيا بمقتل قيصر وبتعيينه وريثاً له، لم يعد يخامره أيّ شكّ من سعد مستقبله.

إنّ موقفه ذلك يدلّ على رباطة جأش، لا سيّما وأنّه صادر عن رجل لم يُطبع على الشجاعة. لا شكّ أنّ الخوف هو أوّل ما بادره، إذ أنّه يكان يخاف من كلّ شيء: يخاف الحرّ فلا يخرج صيفاً إلّا بقبّعة كبيرة؛ يخاف البرد فيلبس جوارب صوفية في الشتاء؛ يخاف الرعد، فلا يقوى على مقاومة الرجفة حين ترعد السماء، ويحقّ له الخوف من الرعد، لأنّ صاعقة سقطت على بعد خطوات منه وهو يجتاز جبال الألب، ممّا حدا به إلى إقامة معبد للإله جوپِتِير الراعد، بعد عودته إلى روما.

ما أتى يبحث عنه في روما، ذلك الشابّ الجريء، أبعد ما يكون عن الحرّ، وأسوأ بكثير من البرد وأشدّ رهبة من الصاعقة:

يبحث عن عدوّين، اسمهما بروتُس وكَسّيوس.

يبحث عن صديق اسمه أنطونيوس.

يبحث عن ثأر دام يأخذه من طبقة الأعيان برمّتها. إن لم ينجح في ثأره، فأمامه الموت أو أقلّه النبذ المؤبّد.

وإن نجح، فله السلطان وما ينجم عنه من معارضة وصراع ومخاطر. وإن قُدّرت له النجاة فالحرب على مدى عشرين سنة؛ والمحاربون القدامى المتضوّرون جوعاً وما يلزم لإطعامهم وأداء رواتبهم؛ مجلس

Twitter: @ketab_n

الشيوخ الذي ينبغي الفوز به أو تخديره؛ والثلاثمائة سِستِرس التي ينبغي دفعها لكلّ مواطن، وإذا فرضنا أنّ عددهم أربعة آلاف رأس، يكون مجمل المبلغ مائة وأربعين مليون سِستِرس.

يبحث عن صداقة شديدة الوطء، هي صداقة أنطونيوس، عليه أن ينهض بها. فقد أقامه قيصر أميناً على وصيّته، أو بالأحرى أقام نفسه أميناً على وصيّة قيصر. وكانت هذه الوصيّة تُثقَل كلّ يوم بحاشية وجيزة لصالح أنطونيوس. فقد كان أكولاً نهِماً حفيد هِرقل هذا، يهضم الذهب بأسرع ممّا يلتهمه.

والحقّ أنّ أنطونيوس لم تعوِزْه يوماً الحيل الناجعة. وجد نفسه يوماً في أثينا خالي الوفاض من المال، فبدا له أن يتزوّج من مِنيرڤا.

فكلّف مهرُ مِنيرڤا أهلَ أثينا أربعة ملايين سِستِرس.

أجل! لا يصُدّ أُكتاڤيوس أيُّ اعتبار. انطلق من أپّلونيا مع شخصين لا أكثر: صديقه أكرِبّا وأستاذه أپّلودورُس البرگميّ.

صحيح أنّ أمارات طالعٍ كثيرة بعثت الطمأنينة في نفسه، ولم يفقد أُكتاڤيوس يوماً إيمانه بالطالِع.

أثناء دخوله روما، ظهر قوس سحاب في أفق رائق ثمّ وقعت صاعقة على قبر ابنة عمّه جوليا، ابنة قيصر، الزوجة التي طالما أحبّها پُمپِيوس في حياتها وسرعان ما نسيها بعد موتها.

أدرك أُكتاڤيوس أنّ في الصاعقة التي ضربت قبر ابنة عمّه جوليا فألَ خيرٍ له.

فدخل روما رابط الجأش.

كان في تلك الفترة شابّاً هزيلاً بين سنّ التاسعة عشرة والعشرين، نحيفاً، شاحبَ الوجه؛ ويعرج قليلا بسبب قِصر إحدى رجلَيه. عيناه

Twitter: @ketab_n

واسعتان، مخضوضرتان لامعتان ببريق غريب، حاجباه متلاصقان، أنفه معكوف وأسنانه منفرجة قصيرة صدئة.

لم يكن أحد ممّن يرونه أثناء مروره ليظنّ يوما أنّ االمارّ أمامه هو سيّد الكون العتيد.

فسيّد الكون في تلك الساعة هو أنطونيوس؛ فقد كان أنطونيوس سيّد روما، ومن كان سيّد روما كان سيّد الكون.

حظي بالسيادة بفضل تقهقر بروتُس وكَسّيوس.

صحيح أنّ كلّ أنصار قيصر انضمّوا إليه، وأنّ كَلْپُرنيا أتته ليس فقط بثروتها، ومقدارها أربعة آلاف وزنة من الذهب، بل أتته أيضاً بالسجلّات التي كان قيصر يسجّل فيها مشاريعه كافّة. حاز أنطونيوس الأربعة آلاف وزنة هذه، وهو مبلغ ضخم، فراح يجود بها على الناس؛ وحاز أنطونيوس السجلّات، فراح يسجّل فيها مشاريعه الخاصّة وفق مصلحته. راح يتكلّم باسم قيصر فيما هو يعمل برأيه الشخصيّ، فيعيّن القضاة ويستدعي المنبوذين ويطلق سراح السجناء.

ولنقل بالمناسبة إنّ أنطونيوس لم يحصل فقط على منصب قنصل، بل كان له منصب قيّم على العدالة عيّن فيه أخاه كَسّيوس، ومنصب مدافع عن الشعب عيّن فيه أخاه الثاني لوكيوس.

وحده شيشرون، عدوّ أنطونيوس الطبيعيّ، شيشرون الذي لم تستطع رسائل أنطونيوس أن تحمله على موالاة قيصر، وحده كان قادراً على مقاومة تجاوزات أنطونيوس.

غير أنّ شيشرون لم يكن يوما شجاعاً، وهو اليوم أقلّ شجاعة من أيّ يوم مضى، لتقدّمه في السنّ، إذ كان قد بلغ الثالثة والستّين.

لو كان أنطونيوس وحده لما أخاف شيشرون إلى حدّ كبير؛ لأنّ

Twitter: @ketab_n

شيشرون كان يعرف عن أنطونيوس سكره وقساوته وعهره وتبذيره؛ ومع ذلك لم يكن أنطونيوس شرّيراً على الإطلاق، كما سبق أن ذكرت.

لكنّ مدعاة بغضه لشيشرون تعود إلى أمرين: أنّه صهر لانتُلُس وزوج فُلفيا.

كان شيشرون يتأهّب لمغادرة روما ليلتحق بصهره دولابِلّا القنصل وزميل أنطونيوس، ويصبح نائبه.

لا بدّ أنّ القارئ لا يزال يذكر أنّ كون دولابِلّا صهراً لشيشرون لم يمنعه من مناصرة قيصر.

كان شيشرون على أهبة السفر، حين وافاه القنصلان المعيّنان خلفاً لأنطونيوس ودُلابِلّا يرجوانه ألّا يغادر روما.

وكانا رجلين محترمين صاحبَي أفضال، اسماهما هِرسيوس وپَنزا.

أتيا يقترحان عليه معاهدة: إن قبل بالبقاء في روما وبمساعدتهما للوصول إلى السلطة، فإنّهما يلتزمان بتقويض سلطة أنطونيوس فور استلامهما السلطة.

غير أنّ شيشرون أخذه الخوف، فلم ينالا منه سوى أن يذهب إلى أثينا، بدل الالتحاق بدُلابِلّا، ثمّ يعود إلى روما فور أن يتيح لهما استلامهما زمام القنصليّة تأمين حماية له.

وبالفعل، انطلق شيشرون وأبحر من ريجيوم، بقصد الذهاب إلى أثينا، حسب وعده، غير أنّ الرياح المعاكسة منعته مرّتين من بلوغ أثينا وأجبرته على النزول في سِراكوزا.

فيها تلقّى أخبار روما.

أنبأته الأخبار أنّ أنطونيوس تبدّل كلياً فأعلن خضوعه لمجلس الشيوخ، وأنّ بروتُس وكَسّيوس لن يتأخّرا في الوصول إلى روما. فقابل

Twitter: @ketab_n

شيشرون بروتُس في ڤيلِس ونتج عن المقابلة أنّ شيشرون قرّر العودة إلى روما.

إذّاك كتب لبعض أصدقائه يخبرهم بعودته، فأعلموا بدورهم آخرين. كان شيشرون رجل أصحاب الأعمال والمصرفيّين والمرابين وكلّ من يسمّون أنفسهم أثناء الحروب الأهليّة بحزب الرأي الرّزين، فلم يكن بدّ من مشاركتهم لإقامة توازن مع ذلك السكّير، أنطونيوس. فاستقبل الناس شيشرون استقبال الظافرين، وكان استقبالاً شبيهاً بالذي شهدتُه شخصيّاً.

كتب شيشرون حالاً إلى بروتُس رسالة مخمليّة النعومة.

أثارت مظاهر التأييد لشيشرون حفيظة أنطونيوس.

فاستدعى مجلس الشيوخ، ليكون على بصيرة من أمره.

ودُعي شيشرون لحضور الجلسة.

كانت الدعوة أشبه ما يكون بأمر. ولم يكن لشيشرون من الشجاعة ما يكفيه سحابة يومين متتاليين؛ فتمدّد في سريره وردّ على موجّهي الدعوة بأنّ تعب السفر يمنعه من الخروج.

أدرك أنطونيوس ما وراء اعتذار شيشرون. وكما لو أراد أن يطلعه في الحال على التدابير التي أزمع على اتّخاذها ضدّه، وجّه إليه جنوداً بمهمّة دعوته للحضور إلى مجلس الشيوخ؛ وأمر جنوده، في حال ما إذا رفض شيشرون الدعوة، بأن يحرقوا منزل خطيبنا الشهير.

من حسن الحظّ أنّ بعض أصدقاء أنطونيوس منعوا الجنود من تنفيذ مهمّتهم.

أدّى عنف موقف أنطونيوس إلى عكس ما قصد إليه: أسخط شيشرون، ومن شدّة سخطه، استعاد شجاعته.

Twitter: @ketab_n

فأرسل يقول إنّه، نظراً لأنّ مجلس الشيوخ ينتظر قدومه، سيوافيه في يوم الغد ليس فقط ليرفع إليه شخصياً تقريراً عن تصرّفاته، بل ليطالب الآخرين كذلك بأن يفعلوا فعله.

ومن عجائب الأمور أنّ أنطونيوس وقع بدوره فريسة الخوف وأخلف بالموعد.

استمدّ شيشرون من غياب أنطونيوس ضراوة شديدة، فقصفه بأولى **فِلِپيّاته**.

ستبقى **الفِلِپيّات** إلى الأبد نموذجاً للفصاحة. ولعلّ أحداً يتساءل يوماً: بما أنّ خطابه ضدّ كَتِلينا سُمّي **الكَتِلينيّات** فلماذ سُمّيت خطبه ضدّ أنطونيوس **فِلِپيّات**؟

السبب هو أنّ ديمُستِنيس نشر، لأربعة قرون خلت، **الفِلِپيّات** ضدّ فيليب ملك مقدونيا، والد الإسكندر؛ ولشدّة إعجابه بديمُستِنيس، اقتبس شيشرون من الخطيب الأثينيّ الشهير، وهو في مثل ظروفه، عنوان خطبه الرائعة.

في الثاني من سبتمبر من عام 711 لتأسيس روما، ألقى شيشرون **فِلِپيّته** الأولى.

وما بين الخطبة الثانية والثالثة وصل أُكتافيوس إلى روما.

كان عليه أن ينتصر لأحد المعسكرين المتقاتلين: إمّا لشيشرون وإمّا لأنطونيوس.

ارتدع أُكتافيوس بسبب حذره الشديد من مناصرة أحد المعسكرين قبل أن يقدّر حظّه من النجاح. وللتمكّن من تقدير حظّ كلّ معسكر، كان عليه أن يلتقي بممثّليهما وأن يتفحّص زعيم كلّ منهما.

غالباً ما سمعت الإمبراطور نفسه يقول إنّه اهتدى في خطواته الأولى

Twitter: @ketab_n

برأي شخصين:

رأي فِلِبُّوس، حميه، الذي تزوّج أرملة أُكتافيوس بعد وفاته،

ورأي مَرسِلُّس، صهره، الذي تزوّج أُكتافيا من الزواج الأوّل.

كان على الشابّ أن يبدأ بزيارة أنطونيوس،

فذهب إليه.

لم يكن للسياسة أيّ شأن في زيارة أُكتافيوس، ذلك ما أكّد عليه أُكتافيوس: كانت زيارةَ فتىً لأبيه بالتبنّي.

كلّ ما في الأمر أنّ الفتى وهو يتحدّث مع أبيه بالتبنّي لّمح بخفاءٍ إلى الأربعة آلاف وزنة التي ائتمنته عليها كَلْپُرنيا.

أدرك أُكتافيوس بيسرٍ، من طريقة تلقّي أنطونيوس لمفاتحته، أنّ الأمانة تآكلت.

فهم أُكتافيوس الأمر فسارع إلى القول:

- بطبيعة الحال لا أحدّثك عن هذا المبلغ قاصداً حصّتي الشخصيّة بوصفي وريث ثلاثة أرباع أملاك قيصر، بل بسبب الثلاثمائة سِستِرس التي وعد بها قيصر كلٍّ مواطن من المواطنين.

راح أنطونيوس يضحك من ادّعاء أُكتافيوس حقّ التدخّل في شؤون الشعب وشؤون عمّه، فقال له:

- أيّها الفتى! إنّه لَمن الجنون لِمن هو في سنّك، ولِمن له قلّة من الأصدقاء مثلك، ولم يبرهن بعد عن مقدرته، أن يقبل بخلافة قيصر.

ثمّ هزّ برأسه وأضاف:

- صدّقني، إنّه لعبء أثقل من أن يحمله شابّ بسنّ التاسعة عشرة.

أصرّ أُكتافيوس على قضيّة الثلاثمائة سِستِرس، دون أن يصرّح بقبوله أو عدم قبوله خلافة قيصر.

Twitter: @ketab_n

- سننظر في الأمر، قال أنطونيوس وهو يشير لأُكتافيوس بحركة تعني أنّ النقاش دام أكثر ممّا يلزم، حسب رأيه.

وهل بقي أمر يُنظر فيه؟ خرج أُكتافيوس. وأمّا أنطونيوس فإمّا أنّه صرف الأربعة آلاف وزنة، أو أنّه يريد الاحتفاظ بها. وأوّل ما يبغيه، وذاك أمر بمنتهى الوضوح، أن يبقى هو المنفّذ الشرعيّ لوصيّة قيصر.

لم يتبقّ إلّا شيشرون.

ذهب أُكتافيوس إلى شيشرون.

كان شيشرون يؤْثر أُكتافيوس منذ أن رأى تلك الرؤيا التي رويتها آنفاً.

حين رآه في تلك اللحظة الحرجة، ظنّ شيشرون أنّه مُرسَل من لدن جوپِتير بالذات، فرحّب به باليونانية.

احمّر وجه أُكتافيوس، إذ لم يكن قد تمكّن بعد من لغة هوميرُس. ولطالما اعتقدتُ أنّ الإمبراطور يمثّل من بداية أمره العبقرية اللاتينية في صراعها ضدّ الآلهة الغرباء والتقاليد الأجنبية.

فاعترف بقلّة خبرته بالتحدّث بهذه اللغة التي يبرع شيشرون بها. انتفش شيشرون خيلاءً؛ وكثيراً ما كان أُكتافيوس يهاجمه مستغلّاً ذاتيته المتضخّمة، فها هو يقع في الفخ.

تمّ الاتّفاق بينهما منذ أوّل لقاء.

شيشرون يضع بتصرّف القيصر الشابّ فصاحته، والقيصر الشابّ يضع بتصرّف شيشرون سلاحه وجنده.

الأمر كلّه موجّه ضدّ أنطونيوس.

كان شيشرون ينخدش شعوره بكلّ ما عند أنطونيوس،

وكان شيشرون يزدهي بكلّ ما عند أُكتافيوس.

Twitter: @ketab_n

أمام شيشرون ذي الأصول العامّية، كان أنطونيوس يجهر بأصوله الشريفة، إذ كان يدّعي التحدّر من هرقل.

ولم يكن لأُكتافيوس أي ادّعاء من هذا القبيل. كان من عائلة فرسان مثل شيشرون الابن لا أكثر ولا أقلّ. لم يكن متحدّراً. كان صاعداً.

كان أنطونيوس يعتبر نفسه أكبر قوّاد عصره بعد قيصر، ويقول بأنّ القضايا الاجتماعية كافّة إنّما ينبغي حلّها بالسيف، في حين كان شيشرون يقول: «السلاح ينهزم أمام جُبّة القاضي».

كان أُكتافيوس يعترف بصراحة أنّ تذوّقه للمعارك قليل، وجهله للخطط العسكرية شديد. وعنده أنّ بِرِكلِس أعظم شأناً بكثير من تِـمِستُكلِس ومِلتياديس وإِبِمِنُنداس.

كان أنطونيوس مناصراً لقيصر، يسير في خطى قيصر، بينما راح شيشرون يشارك پُمپيوس مصيره ويسهر مع كاتون على مصالحه. أنطونيوس أعان قيصر لينتصر في فَرسالا، ولذلك كان بغيضاً لدى شبيبة الأشراف هذه المتأنّقة، لأنّه شوّه وجهها.

كان أُكتافيوس بريئاً من الحروب الأهليّة، لم ينحَز لا لقيصر ولا لپُمپيوس. لذا أقبل إقبال كوكب جديد لم يعهده أحد من قبل طالعاً من الأفق.

فكم كان أُكتافيوس يليق بشيشرون!

أمّا أُكتافيوس فكان يدرك أنّه لا يقوى على شيء بدون جند وبدون الشعب.

كان له ما شاء من الجند بوصفه ابن أخي قيصر؛

وسيكون الشعب معه حين يصرف له ما ورثه من قيصر.

علّق في الفوروم لافتة تقول: بما أنّ أنطونيوس رفض أن يعيد له

Twitter: @ketab_n

الأربعة آلاف وزنة التي ائتمنته عليها كَلْپُرنيا، فإنّه سيعمد إلى بيع أملاك الحاكم المطلق الصلاحيات بنسبة حصّته من الإرث، وفق وصية قيصر، حتّى يوفي دَين قيصر.

علاوة على ذلك، كان أُكتاڤيوس لا يذكر بروتُس إلّا بكلّ احترام، ويصرّح علناً أنّه على كامل الاستعداد لمدّ يده لكَسّيوس، ويأخذ، في أموره كافّةً، بنصيحة شيشرون ويرى فيه خير وسيط ومصلح بين الفرقاء. بل كان يعتبر مسبقاً أن كلّ ما يفعله شيشرون حسن وممتاز.

وكان شيشرون من جهته دائم الوفاء لما وعده به، يشجّعه ويؤيّده ويمدحه، فيقول مثلاً:

- إنّه صبيّ لا يُخشى جانبه على الإطلاق؛ ينبغي أن نداعبه ونلغيه: «خذوا الأولاد وأصلحوهم.»

بلغ أُكتاڤيوس قوله هذا، فابتسم وبرزت أسنانه الرماديّة اللون.

لكنّه عند أوّل مقابلة لشيشرون، صافحه وناداه قائلاً: يا أبي.

كان أُكتاڤيوس يشعر أنّه بفضل شيشرون يتقدّم في خطّته.

شاء أن يجسّ النبض العامّ فطالب بمنصب مدافع عن الشعب.

عارض أنطونيوس النزول عند مطلبه.

وكان أنطونيوس، في نفس الوقت، يطالب بقيادة الجيش المزمع إرساله لقتال دِسِمُس بروتُس، الذي كان يحكم بلاد غاليا التي ما قبل جبال الألپ.

ولا بدّ أنّكم تذكرون أنّ دِسِمُس بروتُس أو بروتُس ألبينُس هو نفسه الذي ذهب إلى قيصر في منزله ليأتي به، عندما رفض قيصر الحضور إلى مجلس الشيوخ يوم المؤامرة.

أيّد أُكتاڤيوس أنطونيوس، فحصل أنطونيوس على القيادة وانطلق في سبيله.

Twitter: @ketab_n

تلك كانت بغية أُكتاڤيوس، فكلّ قصير نظر يتمتّع ببصر ثاقب.

انطلق أنطونيوس مع فيلقين وأعطى أوامره لفيلقين آخرين أن يلتحقا به.

أغرى أُكتاڤيوس الفيلقين المتخلّفين، فصار له إضافة إلى هذين الفيلقين كلّ محاربي قيصر القدامى، أيّ ما بين خمسة عشر ألف رجل وعشرين ألفاً تقريباً. فأصبح يملك، وهو في العشرين من عمره، جيشاً بضعف جيش أنطونيوس.

عندئذ أعلن انحيازه لبروتُس وكَسّيوس وانضمّ إلى مجلس الشيوخ والأشراف ومناصري پُمپيوس. الظروف ملائمة، ويأتمر بأمره أربعون ألف رجل. فاقترح أن يذهب لنجدة دِسِمُس بروتُس ويُريح مجلس الشيوخ وروما والعالم من أنطونيوس.

علت صيحات الفرح، فها قد حظي مجلس الشيوخ بالرجل المناسب، وها أُكتاڤيوس، ابن أخي قيصر، قد أصبح من مناصري پُمپيوس وبات يلمّ شمل الناس أجمعين. فأرسلوه مع جيشه المؤلّف من أربعين ألف جنديّ لنجدة دِسِمُس ومحاربة أنطونيوس.

وبما أنّه لا بدّ من بعض المُشكّكين بين اللحى الشائبة، قامت لحيتان أو ثلاث منها تطالب بإلحاح بأن يُرسَل بعض القتلة مع أُكتاڤيوس.

فأرسلوا معه القنصلين المعيّنين حديثاً: هِرسيوس وپَنزا.

بفضل إشرافهما، يطمئنّ المجلس، ولن يقوى أُكتاڤيوس على التلاعب.

غير أنّ أُكتاڤيوس فرض عليهم أن تؤجّل عودة كَسّيوس وبروتُس إلى ما بعد هزيمة أنطونيوس.

لم يكن ذلك من باب السياسة بل من باب الحذر.

Twitter: @ketab_n

فانطلق الجيش إلى مُدينا.

بقي إذّاك شيشرون حاكماً مطلق الصلاحيات بمفرده.

فأعمى بصيرته الغرور وأصيب بجنون العظمة.

عندها كتب إلى بروتُس:

«إنّ الشابّ أُكتاڤيوس مفطور بشكل رائع على الفضيلة. لضاع كلّ شيء من أيدينا لو لم يُقصَ أنطونيوس عن روما. وكانت روما قبل هذا العمل العظيم بيومين أو ثلاثة أيّام قد أصيبت برعب مفاجئ فاندفعت إليّ بنسائها وأطفالها.

في ذلك اليوم بالذات، جنيت أينع الثمار ممّا تحمّلته من تعب وسهر، هذا إن صحّ أنّ المجد الحقيقيّ الراسخ ثمرة جديرة بأمانيك. الشعب بأكمله، بحشد لم تشهد مثله روما يوماً، تجمّع أمام منزلي وواكبني إلى الكَپتوليوم وأصعدني إلى المنبر وسط تصفيق صاخب.

لَيس لديّ أي غرور -أضاف شيشرون- وعليّ ألّا أقع فيه. غير أنّ إجماع الأوامر والتهاني والشكر حولي أثّر فيّ تأثيراً بالغاً - وأنا أعرف كم جميل أن يتمتع المرء بهذه الشعبية، حين يكون جديراً بها في سبيل إنقاذ الشعب».

استغلّ شيشرون شعبيّته ليطلق فِلِپياته المتبقّية ويتوصّل إلى إعلان أنطونيوس عدواً أوّل للشعب.

كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للحزب الجمهوريّ، الذي يتزعمّه بروتُس وكَسّيوس، وكنت أنا من أكثر جنوده حماساً، حين وصلت بالتتالي وفي غضون شهرين أو ثلاثة أشهر الأنباء التالية:

أنطونيوس هُزم، غير أنّ القنصلين هِرسيوس وپَنزا أُصيبا بجراح ثمّ توفيّا من جرّاء تلك الجروح.

Twitter: @ketab_n

مجلس الشيوخ رفض النزول عند طلب أُكتاڤيوس بأن يصبح مدافعاً عن الشعب.

أنطونيوس تحالف مع لِپِدُس وأنيّوس پُلّيون اللذين يسيطران على بلاد غاليا وإسبانيا.

بعدها رجع ليواجه أُكتاڤيوس، لكنّه تفاوض معه بدل أن يحاربه.

أُكتاڤيوس وأنطونيوس ولِپِدُس اجتمعوا قرب بُنونيا في جزيرة رينُس الصغيرة.

وهناك نصّبوا أنفسهم بمثابة حكومة ثلاثيّة لمدّة خمس سنوات، ثمّ تقاسموا العالم وحرّروا لائحة بالمنبوذين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

*قرارات النبذ في روما - الإعلان عن حكومة الثلاثة - شراسة أُكتافيوس - **جلّاد، انهض!** - فرار شيشرون - تردّده - الغربان - موت شيشرون - انتهاء عمليّات النبذ - اليد التي كتبت **الفِلِبِيّات** - اللسان الذي قتل كلوديوس.*

دامت جلسة حكومة الثلاثة ثلاثة أيّام.

في اليومين الأوليّن، تقاسموا العالم.

حصل أنطونيوس على أقاليم الشرق كافّةً، وعلى آسيا حتّى الپونتس وعلى أجزاء من فلسطين حتّى مصر.

حصل لِپدُس على أفريقيا،

وأُكتافيوس على أوروبا.

وخُصّص اليوم الثالث لتحرير لائحة المنبوذين.

حصل أنطونيوس من أُكتافيوس على رأس شيشرون،

وحصل أُكتافيوس من أنطونيوس على رأس لوكيوس قيصر، خال أنطونيوس.

وحصل أخيراً أنطونيوس وأُكتافيوس من لِپدُس على رأس پَولُس، عديله.

Twitter: @ketab_n

طال قرارُ النبذ ثلاثمائة عضو من مجلس الشيوخ وألفَي فارس.

مُنح كلّ إنسان حرّ خمسة وعشرين ألف درهم على كلّ منبوذ يسلّمه، ومُنح العبد عشرة آلاف درهم إضافة إلى إعتاقه.

ساد الدم والنار روما، وتغطّت أسوار المدينة بلوائح المنبوذين وبإعلانات الوفيات.

ثمّ قامت احتجاجات ضدّ تلك اللوائح الدموية، صيغت على هذا النحو:

«أَمنحُ كلّ من يُنقذ رأساً ضعف ما تمنحه حكومة الثلاثة عن كلّ منبوذ
سِكستُس پُمپِيوس
قائد البحار».

سنعود فيما بعد إلى ذلك القرصان الشابّ المغامر، الذي جعل مصير أُكتافيوس يتأرجّح برهة من الزمن؛ وسنذكر كيف دفعته مروءته للتصدّي لهمجيّة حكومة الثلاثة.

وكان آخرَ ما بلغنا من الأنباء، وأكبرهم كارثة، موتُ شيشرون.

سبق أن قلنا إنّ الدم والنار سادا روما.

مع أنّ حكومة الثلاثة كانت قد أكثرت من الوعود المعسولة، فأعلنت أنّها لن تسفك من الدم إلّا ما يقتضيه إرضاء الجند، وأضافت أنّها ستقف موقفاً متوازناً بين ضراوة سِلّا وتسامح قيصر، تجنّباً لإثارة كراهية الناس ضدّها كما فعل الأوّل، أو إثارة احتقارهم لها كما فعل الثاني.

ذلكم هو مصير المتسامح أحياناً في الحروب الأهليّة! بسبب تسامحه، أصبح قيصر موضع احتقار!

إضافة إلى ما سبق، أقسمت حكومة الثلاثة أنّها لن تتّخذ من الثروة سبباً للنبذ، وأنّها لن تقتل إلّا عدداً قليلا جدّاً من الناس، وفقط من بين

Twitter: @ketab_n

أكثرهم شرّاً.

وبالمقابل أصدرت منعاً باتّاً بإيواء المنبوذين وتعهّدت بإخفاء أسماء الذبّاحين - ويا له من احتياط ممتاز، من شأنه أن يُطمئنّ الذبّاحين تجاه ردود أفعال الناس.

أصدرت حكومة الثلاثة كذلك إعلاناً عُلّق في شوارع روما بغيةَ طمأنة المواطنين.

ثمّ حنثت الحكومة بكلّ وعودها.

إذ كانت عمليّات النبذ مريعة، وأخذت بالاعتبار أولاً ثروة المنبوذين؛ كما تمّ التصريح عن أسماء الذبّاحين.

صرّحت أنّها لن تقتل إلّا ثلاثة آلاف فارس ومائتي شيخ، فقُتل منهم أكثر من الضعف.

خلال إحدى تلك المذابح التي جرت تحت إشراف أُكتافيوس، رماه مِسينَس، وهو أحد الحكّام الثلاثة، بلوائح النبذ التي بين يديه، موجّهاً إليه هاتين الكلمتين:

- **جلّاد، انهض!**

قُتل أحدهم بسبب تهوّره بوضع خاتم من العقيق الثمين في إصبعه، وقُتل فِرّيس لأنّه رفض أن يُسلّم أنطونيوس أواني نحاسّية مصنوعة في كُرَنثيا، هي من بقايا غنائمه من صقلّية.

وقُتل آخر بأمر من فُلفيا لأنّه رفض أن يبيعها بيته؛ حملوا رأسه لأنطونيوس، فقال:

- لا أعرف هذا الرأس، لا بدّ أنّه لزوجتي.

فحملوا الرأس لفُلفيا، وفعلاً كانت هي التي طلبته.

تعرّفَت على الرأس ودفعت ثمنه.

Twitter: @ketab_n

لاحق الذبّاحون أحد المنبوذين فذكر لهم، تزكيةً لنفسه، اسم ابنه الذي كان صديقاً لأنطونيوس، فسأله الذبّاحون:

- ألا تُدعى تُرامُس؟

- بالضبط.

- إذن! الذي أرسَلَنا هو ابنك.

وقتلوه.

كان شابٌ في الخامسة عشرة من عمره ذاهباً إلى الكَپِتوليوم في موكب كبير من أصدقائه، لكي يرتدي حلّة الشريط[1]، فسَرَت إشاعة بأنّ اسمه على آخر لائحة من لوائح المنبوذين المنشورة توّاً. اختفى الموكب وكأنّه سرب من الطيور المذعورة؛ أمّا الشابّ فهرب، وحين بلغ بوّابة المدينة وقع على كتيبة تجبر الناس على الذهاب للعمل في الحقول. لم يُصرّح للجند بأنّه مواطن حرّ، بل سلّم نفسه لظنّه أنّه بذلك يضمن لنفسه النجاة. بعد بضعة أيّام، عاد إلى روما وقدّم رأسه للجلّاد. وكان قبل ذلك قد احتمى ببيت والدته، لكنّ والدته أغلقت بابها دونه.

كان قائد مائة يطارد رجلاً شاهراً عليه السيف، فكفّ يدَه مدافع عن الشعب، وسأله:

- أهذا الرجل منبوذ؟ أجاب قائد المائة:

- نعم، وأنت كذلك.

وقتله.

مدافع آخر عن الشعب كان يجمع التأييد لابنه في الانتخابات. ففوجئ للحال بأنّ مكافأة خُصّصت لمن يقتله.

(1) ثوب أبيض محفوف بشريط أرجوانيّ يُوشّح به الصبيان من أبناء الأشراف ما دون السادسة عشر في احتفال يتمّ قبل الاحتفال برداء الرجولة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

فهرب يحتمي في بيت أحد موكَليه. استعلم الابن عن سبب فرار أبيه، فسارع الناس إلى إعلامه بالأمر.

فقاد القتلة إلى مخبأ أبيه. ولكنّه، والحقّ يقال، بقي على الباب بينما كان القتلة يذبحون أباه(1).

وفي مقابل تلك الجرائم الفظيعة، شهدنا نماذج رفيعة من التفاني.

ذكرنا أنّ أنطونيوس أوكَل لِپِدُس وأُكتاڤيوس بأمر خاله لوكيوس قيصر.

حين علم لوكيوس قيصر أنّ اسمه على لائحة المنبوذين، احتمى بأخته، والدة أنطونيوس.

لحقه الذبّاحون عن كثب، عن كثب شديد حتّى لا يتركوا له المهلة الكافية لإغلاق باب الشارع في وجههم.

صعدوا إثره، غير أنّه تمكّن من دخول غرفة أخته.

انتصبت أخته على العتبة مادّة إليه ذراعيها، قائلة لهم:

- لن يتسنّى لكم قتل أخي قبل أن تذبحوني، أنا والدةَ قائدكم.

في تلك الأثناء استطاع لوكيوس قيصر أن يهرب من باب خلفيّ.

كُتبت النجاة للوكيوس قيصر.

وحين عرف ابنه أنّه منبوذ، حمله على كتفيه وسار به، وسط تصفيق الشعب، ليس فقط في شوارع روما، بل في الطريق حتّى أُستيا.

دُهش القتلة من ذلك البَرّ بالوالدين، ونادراً أن عهدوه، فأفسحوا الطريق أمام الشابّ والعجوز.

---

(1) يقول ڤِلّيوس پَتِركولُس، الذي ولد قبل وفاة هُراسيوس بتسع سنوات، عن تدابير النبذ التي نحن بصددها هذه العبارة الرهيبة: «شهدنا قدراً كبيراً من الإخلاص عند النساء، وقدراً كافياً عند المُعتقين، وقليلاً منه عند العبيد؛ وغاب كليّاً لدى الأبناء، وكم كان عسيراً عليهم ألّا يتعجّلوا في استلام إرثهم، حين يعرفون ما هو مبلغه».

Twitter: @ketab_n

الشابّ اسمه أَبِّيوس.

بعد خمس سنوات، عُيّن أَبِّيوس ناظراً على المدينة، فكان عليه أن يقيم الألعاب وفقاً للتقاليد. ولم تكن له ثروة، فتطوّع عمّال روما بالعمل مجّاناً للإعداد للألعاب، وفاءً منهم للشجاعة التي أبداها أيّام النبذ.

قلت إن في الإمبراطور أُغسطُس إنسانين متميّزين، كان أوّلهما يُدعى أُكتاڤيوس.

الإنسان الأوّل أصبح اليوم طيّ النسيان؛ فلنا إذن أن نتحدّث عنه كما عن ميت، لأنّ الإنسان الثاني دفنه من شدّة رأفته بالناس.

الأوّل كان عديم الشفقة. وهو الذي هاجمْتُه في هجائيّاتي، وإليه كتب مِسينَس تلك العبارة: «جلّاد، انهض!»

كان في أحد الأيّام يستعرض جنوده، فلمح أثناء إلقاء خطابه فارساً يدعى پِناريوس يسجّل ملاحظاته على لوحات بين يديه، فصرخ:

- هذا الرجل جاسوس، فليُقتل.

فقُتل پِناريوس.

أتاه المدافع عن الشعب كونتُس گلّوس يتملّقه، ولشؤم حظّه أنّه كان يُخفي لوحات تحت ردائه، فظنّها أُكتاڤيوس سيفاً، وأمر بتوقيفه.

لم يجدوا معه سيفاً. أمر أُكتاڤيوس بتعذيبه، فلم يقرّ بشيء.

عندئذ، كما قيل - لا أضمن صحّة ذلك بل أكتفي بتثبيت ما يُروى- عندئذ انقضّ أُكتاڤيوس عليه في سَورة جنون وقلع عينيه.

ثمّ أخذَه الاشمئزار من سَورته واكتفى بأن أمر بنفيه.

ذات يوم أتى أُكتاڤيوس، أو بالأحرى الإمبراطور أُغسطُس، على ذكر ذلك التعس الحظّ، فقال لنا إنّه مات غرقاً. قال له مِسينَس:

- إنّك مخطئ يا أُغسطُس، مات على يد قطّاع الطرق.

Twitter: @ketab_n

ولم يجرؤ أحد على السؤال أين وكيف حدث ذلك.

ولكنّه، في أحد الأيّام، أُجبر على العفو.

كانت تربط أختَه أُكتافيا علاقةٌ صداقة بزوجة أحد المنبوذين، فاستقبلته في بيتها وخبّأته في صندوق، وأمرت بحمل الصندوق إلى المسرح. حين وصل أُكتافيوس ليحتلّ مكانه في المسرح، حملوا إليه هذا الصندوق وقامت زوجته بفتحه وهي تبكي، مناشدةً الشعب أن يُعيد النظر في الحكم الصادر عن حكومة الثلاثة. أشفق الشعب عليها فراح يصفّق وعفا عن المنبوذ.

ولنذكر بالمناسبة أنّ پَولُس، وهو أخو لِپِدُس الذي أذِن أُكتافيوس بقتله، استطاع أن يهرب ويلتحق ببروتُس وكَسّيوس.

بذا استطاع اثنان على ثلاثة من أهمّ المنبوذين -أي لوكيوس قيصر وپَولُس وشيشرون- أن ينجوَا من النبذ. فلنتحدّث عن مصير ثالثهم.

طالما اعتقد شيشرون أنّ الفتى الجميل الذي شاهده في الحلم، والذي كان يدعوه ابنَه وهو يدعوه أباه، وطالما أثنى عليه في رسائله إلى بروتُس، لن يسمح أبداً بقتله.

ولذلك حين نصحوه بأن يهتمّ بسلامته، لأنّ أُكتافيوس ضحّى به ليروي غضب أنطونيوس ونقمة فُلڤيا، هزّ برأسه علامة عدم تصديقه لما يقال.

ثمّ إنّه غادر منزله الذي في طريق الظفر إلى دارته في توسكُلُم.

كان يشاهد الفارّين يمرّون أمام بيته فيعرفونه ويدعونه للفرار معهم.

بعد فترة تأكّدت الأنباء بحيث لم يبقَ معها مجال للشكّ.

قرّر شيشرون وقتها لا أن يغادر إيطاليا - فالنفي للمرّة الثالثة له مرارة الموت- بل أن يعتكف في بيته الريفيّ في أَستيرا، الواقعة بين أَنسيوم

Twitter: @ketab_n

وسِرسِيوم، على بضعة أميال من تِرّاسينا.

كان في نيّته، في حال ما إذا لم تتحسّن الأمور، أن يُبحر ليلتحق ببروتُس، حيث يكون. والواقع أنّ بروتُس استفاد من تدابير النبذ لأنّها دفعت عدداً من الفارّين للانضمام إليه.

بفضلهم، لم تغب عنّا أخبار روما يوماً أكثر من أربع وعشرين ساعة.

بفضلهم، علمنا بفرار شيشرون واحتمال وصوله قريباً إلينا.

وبالفعل سافر في محمله مع أخيه كْوِنتُس - ويا لها من طريقة بطيئة في السفر خلال أيّام المحنة الأهلية حيث الثأر يسعى بسرعة!

كانا كلاهما مُرهقَين، غير أنّ كْوِنتُس كان أكثرهما إحباطاً.

وكلّما تعب الحمّالون، كانوا يقرّبون المحمَلَين من بعضهما، ليتحادث الأخَوان عبر النافذتين فيشدّد شيشرون من عزيمة كْوِنتُس.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن (تابع)

غادر شيشرون وأخوه على وجه السرعة، فلم يأخذا معهما لا مالاً ولا مؤونة.

وكان شيشرون خالي الوفاض مثل أخيه.

لم يكن الخطر يُحدق بكْونتُس إحداقه بشيشرون، لأنّ اسمه لم يرد صراحةً في لوائح النبذ. فقرّرا معاً أن يعود كْوِنتُس إلى توسكُلُم، ليجلب ما هو ضروريّ ليس فقط للفرار، بل كذلك لمنفى طويل الأمد.

تعانقا وهما يذرفان الدموع، ومرّة بعد أخرى كان كْوِنتُس يعود ليرتمي على عنق شيشرون.

كان الأَخَوان يستشعران أنّهما قد لا يلتقيان من بعد.

وبالفعل ما إن وصل كْوِنتُس وابنه إلى توسكُلُم حتّى سلّمهما الخدم إلى السلطة.

أبى الأب أن يشاهد ابنه يموت، وأبى الابن أن يشاهد أباه يموت، فراح كلّ منهما يتوسّل الذبّاحين أن يقتلوه أوّلاً.

فاقتاد أربعة من الذبّاحين الأب، وأربعة آخرون الابن وذبحوهما في نفس الوقت.

كان شيشرون، دون أن يعلم بما حدث، يتابع رحلته الحزينة.

وصل إلى أستيرا فوجد سفينة متأهّبة للسفر. ركبها وكانت الريح ملائمة فأبحرت حتّى سِرسِيوم.

Twitter: @ketab_n

خطر للربّان أن يلتفّ حول نتوء صخريّ في البحر ليتابع طريقه. غير أنّ تراب إيطاليا، وهو مهد ذلك الخطيب العظيم، راح يجتذبه قسراً عن إرادته.

كُتب له في دفتر الأقدار أنّ إيطاليا ستكون لحده.

أمر شيشرون بالرُسوّ.

أُجبر القبطان على الانصياع. ما إن لامست قدم شيشرون التراب حتّى مشى، بشكل تلقائيّ، في اتجاه روما مسافة عدّة أميال.

ولما أدرك أنّه بدل أن يفرّ من الخطر يسير نحوه، عاد أدراجه إلى أستيرا.

بلغها ليلاً، وحيداً، كئيباً، مطأطئ الرأس. ودون أن يوجّه أيّة كلمة لخدمه، دخل غرفته ونام.

بعد ساعة سقط عن سريره، وقد حزم أمره على قرار بالغ الخطورة: يريد أن يرجع إلى روما، فيدخل على أُكتافيوس، ويطعن نفسه بالخنجر أمام مذبح الآلهة المنزلية ويرمي بدمه ولعنته على رأس قاتله.

ولكنّهم قد يقبضون عليه ويُعذّبونه قبل أن يصل إلى أُكتافيوس؛ ولم يكن متأكّداً من شجاعته.

ما كان أجمل تلك الخطّة الثأريّة، يدمغ بها وجه أُكتافيوس.

طلع النهار، فاستفرد النور بالقرار. وكان شيشرون قد اتّخذ قرب كَجيتا مزرعة فاتنة، دارة صيفيّة منعشة الهواء. سلّم أمره لخدمه وركب السفينة في طريقه إلى دارته هذه.

كان قد بنى على الرأس البرّي المتقدّم في البحر معبداً صغيراً لأَپُلون، معبداً من الرخام الأبيض، فكان -ويا للغرابة!- كلّما اقترب من المعبد يشتدّ سواده في نظره كما لو كان ملفّعاً بثوب الحداد.

كانت الغربان تغطّي المعبد.

Twitter: @ketab_n

«آه من تلك الغربان!» حسب قول عزيزي فِرجيليوس.

إنّها نُذُر شؤم.

أمام هذا المنظر، تطلّع خدم شيشرون بعضهم إلى بعضٍ متردّدين.

غير أنّ شيشرون تقدّمهم ماشياً، فحذوا حذوه.

طارت الطيور السوداء.

ولكن بدل أن تتفرّق، توزّعت على عدّة أسراب مُتّجهةً صوب سفينة شيشرون.

حين وصلت فوقها راحت تحوم حول الصواري وهي تصفِق أجنحتها وتطلق صياحاً عالياً.

إنّها الآلهة تحذّر؛ لم يفت الأوان بعد. لن يتيسّر لشيشرون إلّا التوجّه إلى صقلّية، ثمّ ركوب أوّل سفينة عسكريّة يلقاها من سفن سِكستُس پُمپيوس، فينجو بنفسه.

كان سِكستُس پُمپِيوس يسيطر على البحار، حتّى أنّه أطلق على نفسه لقب ابن نِپتونُس.

لكنّ شيشرون كان يسير بدافع من قدر مشؤوم؛ فقال:

- لننزل إلى البرّ.

كانت الغربان تنعق وتقرض الحبال بمناقيرها، وكأنّها تريد أن تجرّ السفينة الصغيرة بعيداً عن الشاطئ، والملّاحون كلّهم يصيحون:

- يا معلّم، فلْنُبحر من جديد! يا معلّم، علينا بالفرار! يا معلّم، ألا تدرك ما تنذرك به الآلهة؟

أصرّ شيشرون. فانصاع القبطان وهو يهزّ برأسه، ويقول:

- إن جوپِتير يُعمي من يريد أن يهلكه.

نزل شيشرون إلى البرّ وقطع بسرعةٍ المسافة التي تفصل البحر عن بيته.

Twitter: @ketab_n

استعجل وقت الراحة. تبعته الغربان ولم تفارقه إلّا عند باب البيت.

صعد شيشرون إلى غرفته، وكانت في الطابق الثاني، ومن نافذتها بوسع النظر أن يسرح على شاطئ البحر.

كانت النافذة مفتوحة، وبينما كان شيشرون يصعد إليها، راحت الغربان تحطّ على نافذتها، وكأنّها حزرت أنّها غرفة شيشرون.

كان الجوّ خانقاً وأبى شيشرون أن يغلق النافذة؛ فربّما أنّ خوفه الخرافيّ منعه من الاقتراب من تلك الطيور المنذرة بالسوء.

فارتمى بلباسه على سريره، وغطّى وجهه بطرف ردائه وغفا.

دخل غراب وحام حول السرير ثمّ رفع طرف الرداء بمنقاره كاشفاً وجه شيشرون، فاستيقظ شيشرون.

في تلك اللحظة دخل خادم وشاهد هذا النذير المرعب. نزل بسرعة يخبر باقي الخدم، فقرّروا جميعهم أن يقتادوا شيشرون خارج ذلك البيت المشؤوم، وإن قسْرَ إرادته.

أتوا إلى شيشرون وقالوا له:

- يا معلّم، لا يجوز لك أن تستسلم هكذا، بينما الحيوانات نفسها تأتي لنجدتك، وتدلّك على ما يجب فعله.

ودون أن ينتظروا أوامره، راحوا جميعاً يُعدّون العدّة، بعضهم يجهّز المحمل، وبعضهم الآخر يجبر شيشْرون على الصعود إليه، عنوةً تارةً وتوسّلا تارةً أخرى.

ما إن جلس شيشرون في محمله حتّى هرول الحاملون نحو البحر بأسرع ما يستطيعون.

لكن ما كاد شيشرون يخرج من دارته حتّى ظهر القتلة الذين أرسلهم أنطونيوس، وعلى رأسهم قائد مائة ومدافع عن الجند.

Twitter: @ketab_n

قائد المائة يُدعى هِرِنّيوس، والمدافع عن الجند پِپليوس.

كان پُپليوس مُتّهماً بقتل أبيه: وكان شيشرون قد رافع عنه وأنقذه، بغضّ النظَر عن كونه مجرماً أم لا.

وجد القتلة البيت مغلقاً فكسروا الأبواب، ولم يجدوا أحداً في البيت.

أمسكوا ببعض العبيد فصرّحوا لهم أنّهم لم يروا شيشرون، إلّا واحداً منهم يُدعى **الفقيه اللغويّ**، ربّما بسبب ملَكته في تعلّم اللغات؛ واحداً لا غير، كان كُونِتُس قد أعتقه وشيشرون قد تفانى في خدمته وربّاه كما لو كان ابنه؛ أجل، واحداً همس للمدافع عن الجند وهو يمرّ قربه:

- في اتجاه البحر، عبر الممرّات المُغطّاة.

فاندفع الجند في أثر شيشرون حتّى بلغوا مكاناً يتشعّب فيه الطريق.

وقفوا مرتبكين، لا يدرون أَيتّجهون يميناً أم يساراً.

ظهر رجل.

سألوه إن كان شاهد شيشرون.

من شؤم الأقدار أنّ هذا الرجل كان من أتباع كلوديوس وقد تسنّى له رؤية شيشرون؛ فأخذته الرغبة في الثأر. دلّ الجند على الطريق وحضّهم على الإسراع، إذ أنّ شيشرون كان يقترب من البحر.

جدّ قائد المائة والمدافع عن الجند والجند في ركضهم. وسمع شيشرون وهو في محمله وقع الأقدام ورنين السلاح.

حزر أنّه هالك، فقال:

- ها هم قادمون، لا جدوى من الفرار، انتظروهم.

والواقع أنّه لم يكن لدى الجند أمل، والمحمل على أكتافهم، أن يسبقوا الجند المُنتشين، الخفاف، المدفوعين بشهوة الذهب.

إذ أنّ شيشرون لم يكن منبوذاً عاديّاً، لذا كان رأسه يساوي أربعة

Twitter: @ketab_n

أضعاف الرؤوس الأخرى.

توقّف الخدم.

وسرعان ما أحاط القتلة بالمحمل.

كان شيشرون بانتظارهم، سانداً ذقنه إلى يسراه، في وضعه المعهود.

في مواجهة الخطر، استعاد هذا الرجل الشديد الضعف والحزم كامل شجاعته.

نظر إليهم دون أن يشحب لونه، وفرضت نظرته الجامدة هيبتها على القتلة لحظة.

بعضهم أشاح بوجهه، وبعضهم سترَ وجهه.

اقترب هِرِنيوس من شيشرون وفي يده سيفه، قائلاً:

- لقد حانت ساعتك، لا بدّ أن تموت.

لم يتنازل شيشرون للإجابة عليه؛ مدّ له رأسه خارج الباب.

قصدَ بتلك الحركة أن يقول: «اضرب!»

وضرب هِرِنيوس، وكان رجلا كفؤاً، فقطع وريد الحلق، ثمّ حزّ رأسه بالسيف.

بعد ذلك قطع يدَيه، وفق وصيّة أنطونيوس الخاصّة، وكان يريد أن يحصل على اليد التي كتبت الفِلِبّيات.

افتدى شيشرون بهذه الميتة المطمئنّة، المقدام، التي تكاد ترقى إلى مرتبة البطولة، كلّ مواقفه المتردّدة. وأخذ أنطونيوس على عاتقه المسؤولية الكبرى في اغتيال ذلك الرجل العظيم. ما يتبقّى من شيشرون: عملٌ أدبيٌّ سامٍ وصيتٌ يملأ الآفاق.

تَركَ القاتل الجثّة ملقاة في عرض الشارع، وليفعل الخدم بهذا الجسد المُقطّع الأوصال ما يشاؤون.

Twitter: @ketab_n

ما هو ثمين فيه هو الرأس واليدان.

كان أنطونيوس يرأس انتخابات القضاة في الفوروم حين شقّ رجلٌ الحشد من حواليه، ووضع عند قدميه رأساً ويدين.

تميّز أنطونيوس الرأس فأطلق صيحة فرح، ثمّ التفت إلى المشاهدين قائلاً:

- ها قد انتهت تدابير النبذ، سمّروا هاتين اليدين على منبر الخُطَب واحملوا هذا الرأس إلى فُلڤيا.

تجمّد الحشد صامتاً مرتعباً: لقد عرف أنّه رأس شيشرون.

لم يجرؤ أحد على معارضة تنفيذ أمر أنطونيوس بتسمير اليدين على المنبر.

لم يجرؤ أحد على اعتراض طريق القاتل الذاهب إلى فُلڤيا لقبض ثمن جريمته.

كانت فُلڤيا وسط نسوتها مشغولة بهندامها حين قُدّمت لها الغنيمة المدمّاة.

وكما فعل أنطونيوس، أطلقت هي أيضاً صيحة فرح.

بفعلها هذا، لم تكن فُلڤيا زوجة أنطونيوس بل أرملة كلوديوس.

وضعت بين ركبتيها الرأس المشوّه ولمّا تمّحِ ملامحه، ثمّ شدّت لسانه خارج فمه وثقبت اللسان بإبرة ذهبيّة اقتلعتها من بين شعرها.

ذلك اللسان هو عدوّ فُلڤيا الحقيقيّ، فهو الذي قتل زوجها الأوّل وجرّ الخزي على الثاني.

بعد لحظة دخل أنطونيوس، كان متعجّلاً لمعرفة تفاصيل موت شيشرون.

أخبره القاتلان، هِرنّيوس وپِپليوس، بكلّ التفاصيل.

Twitter: @ketab_n

كان أنطونيوس يعرف ذلك **الفقيه اللغويّ** التعس الذي خان شيشرون، ويعرف كذلك ما أسداه له الخطيب العظيم. فأمر بأن يسلّم الخائن إلى پُمپونيا زوجة كْوِنتُس، وأذِن لها أن تفعل به ما تريد.

لعلّ أنطونيوس أُصيب بتأنيب الضمير واعتقد أنّ الآلهة ترضى بهذا التكفير عن الذنب.

قيل إنّ تعذيب الخائن كان مريعاً.

كلّ تدابير النبذ هذه، وكلّ تلك الاغتيالات وتلك الفظاعات حفرت هوّة بين بروتُس وأُكتاڤيوس، بين كَسّيوس وأنطونيوس، وأدرك الناس أنّ معركة رهيبة مميتة، قد تقضي على أحد الطرفين، قادرة وحدها الآن أن تحسم أعظم قضية في إمبراطوريّة العالم.

فأعدّ لها بروتُس وكَسّيوس عدّتهما.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

كَتّيوس - طباعه - تجاوزاته - حُزن بروتُس من جرّاء الكوارث التي جرّتها الحرب الأهليّة - يأمر بقتل گَيوس أنطونيوس - رسائل بروتُس إلى كَتّيوس - يجتمعان في شمِرنا - مقارنة بين بروتُس وكَتّيوس - كَتّيوس يعطي بروتُس ثلث خزينته - حملة بروتُس على ليبيا - كارثة إكسَنثُس وإحراقها - بروتُس وكَتّيوس يلتقيان في سَردِس - النزاع بين بروتُس وكَتّيوس - رأي كَتّيوس في ظهور الأشباح.

قلنا لتوّنا إنّ بروتُس وكَتّيوس كانا يستعدّان لقتال أُكتاڤيوس وأنطونيوس. غير أنّ كلّاً منهما كان يستعدّ وفق طبعه الخاصّ، وبالتالي كانا مختلفَين أشدّ الاختلاف في تصرّفاتهما ومتناقضين أشدّ التناقض في نواياهما.

لم يكن كَتّيوس، بطبعه العنيف وقلبه الجريح وروحه البغوض، يراعي أيّ شيء. فقد طالب مدن آسيا بأداء الجزية عن عشر سنوات، ومن لم يستطع منها أن يدفعها تعرّض لتدابير أشدّ عنفاً.

ففي مدينة تَرسُس، فُرض على أولي الأمر أن يساهموا بمبلغ ألف وخمسمائة وزنة؛ فبادروا إلى بيع الأملاك العامّة ثمّ جرّدوا المعابد من

Twitter: @ketab_n

كنوزها؛ ولافتقارهم لمائتي وزنة أخرى أو لثلاثمائة وزنة، أمر كَسّيوس ببيع المواطنين الأحرار في سوق العبيد: الأولاد والنساء والعجائز، وحتّى الشباب، فانتحر أكثر من نصفهم مفضّلين الموت على العبوديّة.

بعد ذلك حضر كَسّيوس أمام رودُس، موطنه الثاني، بما أنّه تربّى هناك. غير أنّ رودُس كانت موالية لقيصر الذي درس فيها اليونانية والفصاحة. فقاومته رودُس.

حاصرها كَسّيوس ثمّ احتلّها عنوة، فذُبح خمسون مواطناً أثناء نهب المدينة.

خرج بروتُس من روما بعد كَسّيوس وسار خلفه، فوجد الدمار في كلّ مكان؛ كان يقتفي أثر ذلك المحارب القاسي بما يخلّفه من نار ودم.

كان بروتُس عيناه تبكيان دمعاً وقلبه يبكي دماً. كان حازماً ولكن وديعاً محبّاً، فانفطر قلبه من جرّاء الأخبار الواردة من صديقه، بقدر ما انفطر من تلك الواردة من أعدائه.

ذكرنا ما كان يبلغه من طرف كَسّيوس.

أمّا من طرف أُكتاڤيوس فكانت تبلغه تدابير النبذ في روما ومقتل شيشرون.

كان عليه أن يردّ على القتل بالقتل.

فبالرغم من إصرار شيشرون، امتنع بروتُس عن قتل گَيّوس أنطونيوس، وها مَركُس أنطونيوس يقتل شيشرون.

فأمر إذن بقتل گَيّوس أنطونيوس.

والذي نفّذ الأوامر هو هُرتَنسيوس.

بعد معركة فيليپ، وقع هُرتَنسيوس بدوره في يد مَركُس أنطونيوس، فأمر بذبحه على قبر أخيه.

Twitter: @ketab_n

كان هُرتَنسيوس هذا ابناً لذلك الخطيب الشهير التي كانت شهرته تُضارع شهرة شيشرون.

وكما كان بروتُس مبالغاً في رأفته، سرعان ما بالغ في تجاوزاته. إذ عليه أن يُعيل جنده، فالجنديّ الجائع ينحاز للمعسكر الخصم لعلّه يجد فيه من الطعام أفضل ما هو واجده في معسكره.

وأُجبر بروتُس على القيام بما قام به كَسّيوس: القائد فيه يلقي أوامره، والإنسان يئنّ.

كتب إلى كَسّيوس يقول:

«اترُكْ مصر بأسرع ما تستطيع والتحق بي في سوريا؛ لم نوحّد جيشَينا لنستحوذ نحن على السلطة، بل لننقذ بلدنا من العبودية ولنقوّض عرش الطغاة. ما الجدوى من أن نهيم في كلّ الاتّجاهات؟ يجب ألّا يغيب أبداً عن فكرنا الهدف الذي نعمل في سبيله وألّا نحيد عنه على الإطلاق.

لذلك، بدل أن نتباعد كما نفعل في إيطاليا، علينا أن نتقارب بأسرع ما يمكننا في سبيل إنقاذ مواطنينا».

وبما أنّ كَسّيوس كان هو أيضاً يستعجل النهاية، شدّ رحاله على الفور.

في سْمِرنا[1] التقى الصديقان.

لم يلتقيا منذ افترقا في أثينا.

وقتها توجّه بروتُس إلى مقدونيا وكَسّيوس إلى سوريا.

تفارقا معوَزَين شريدَين لا جيش ولا سفينة واحدة.

والتقيا مجدّداً ووراء كلّ منهما عشرون ألف رجل، ولهما أسطولهما الخاصّ، إضافة إلى أسطول سِكستُس پُمپِيوس، بعد أن تحالفا مع أهمّ مدن الشرق، وبحوزتهما خزينة مترعة بما فيه الكفاية -أقلّه من جهة

(1) حاليّاً إزمير، في تركيا (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

كَسّيوس- يؤمّنان بها كلفة الجيشين.

والحال أنّهما التقيا في وضع يخوّلهما منازعة أعداءهما السلطان على العالم.

حاولتُ أن أوضّح الفروق بين كَسّيوس وبروتُس، كما يراها الناس في روما وأثينا وحتّى في الجيش.

كَسّيوس أعظمهما في شؤون الحرب، ولكنّ مزاجه متوتّر وصحته عليلة وهو سريع الميل إلى العنف، يميل إلى السخريّة حتّى من أصدق أصدقائه، ويبالغ في سخريّته.

كان يحتاج قدراً هائلاً من المال، لا لنفسه بل لحاشيته وقواده وجنده، فلم يكن يرتدع عن أيّ تجاوز في سبيل الحصول عليه. لذا وصل إلى الموعد المضروب بخزينة هي ضعف خزينة بروتُس.

وكان بروتُس على عكسه فيلسوفاً أكثر منه خبيراً في شؤون الحرب، وله على نفسه ذلك السلطان المطلق الذي توصي به الفلسفة التي اعتنقها. فبدل أن يحكم بالتخويف ويفرض نفسه بالإرهاب كم فعلَ من قبلُ كَسّيوس، كان يعامل الناس بالإقناع. ولذلك أحبّه الشعب لفضيلته واستحوذ على قلوب أصدقائه بمعاملته السمحة. لم يملك مثَله أحدٌ قلباً صارماً تجاه نفسه، لم يملك مثله أحدٌ قلباً حنوناً على الآخرين؛ فلم يكنّ له البغضَ أحدٌ ولا حتّى أعداؤه. كان مستقيم الفكر، لا شيء يحرفه عمّا يراه عدلاً ونزاهة.

مجمل القول أنّ بروتُس، في نظر الناس، كان يحارب في سبيل المصلحة العامّة بدون اعتبار لأيّة مصلحة شخصيّة؛ بينما كان كَسّيوس، حسب قناعتهم، أكثر اهتماماً بمصالحه وشهرته منه بسعادة مواطنيه.

فإذا ما عدنا إلى ما مضى من الزمن، ودرسنا شخصيّة آل سلّا

Twitter: @ketab_n

وماريوس وكاربون، فأوّل أمر ينفذ إلى قناعة المؤرّخ أو الفيلسوف من استعراضه لهم، هو أنّ المحرّضين كافّةً لا يعتبرون الوطن إلّا بمثابة فريسة في يد المنتصر، ولا يناضلون إلّا بهدف استعباده.

ومن المحتمل إلى حدّ بعيد أن يكون ذلك شأن كَسّيوس، أمّا بروتُس فلا.

لقد أوردت عدّة مقاطع من رسائل بروتُس، خوّلني موقعي الحميم منه أن أحتفظ بها لا بصيغة ذكريات بل بنسختها. كلّها تنضح بتلك السكينة العذبة وفي آنٍ بتلك الاستقامة الصلبة، وكلتاهما تسرّبتا من مزاجه إلى طباعه.

أضيف مقطعاً ممّا كتبه إلى أتّيكوس:

«إنّ أحوالي في ألمع موقع يمكن الحظّ أن يُقدّره لي: فإمّا نصر يتحرّر به الرومان، وإمّا موت ينقذني أنا نفسي. كلّ شيء بالنسبة إلينا في حالة من الثبات والضمان، إلّا أمراً واحداً لا يزال غير أكيد، ألا وهو معرفة ما إذا كنّا سنعيش ونموت أحراراً. إنّ مَركُس أنطونيوس يتحمّل مسؤولية جنونه من حيث أنّ بوسعه أن يكون في مصاف رجالٍ من أمثال بروتُس وكَسّيوس وكاتون، ولكنّه يؤثر أن يكون الثاني بعد أُكتافيوس لا الأوّل في غير مكان؛ فإن انتصر أُكتافيوس في المعركة الوشيكة، فإنّه سيُجبر على إعلان الحرب عليه بدوره.»

لا حكمَ أكثر سداداً من هذا ولا توقّعَ أصدق منه.

استطاع كَسّيوس بتجاوزاته أن يجمع مبالغ باهظة. ولم يكن أمر بروتُس على هذه الحال. وهَن قلبُه أمام الطغيان، فاستعمل كلّ ما حصّله من مال في سبيل تجهيز الأسطول الذي وافى به كَسّيوس.

طالب بروتُس كَسّيوس بقسم من هذه المبالغ.

Twitter: @ketab_n

ثمّ افترقا وضربا موعد لقاء في سَردِس.

وبما أنّني تبعت بروتُس حتّى ذلك الوقت، استمرّيت في اتّباعه.

قصد كَسّيوس رودُس، بينما انحدر بروتُس، عبر كاريا، في شواطئ آسيا الصغرى حتّى دخل ليسيا.

أَعلَم بروتُس أهل ليسيا، قبل وصوله، أنّ عليهم أن يساهموا بدفع مبلغ من المال، وأنّ عليهم أن يؤدّوا هذا المبلغ -وهو غير باهظ على الإطلاق. وفي نفس الوقت حمل شخص اسمه ناوكراتيس أهل ليسيا على اتّخاذ القرار ليس فقط برفض دفع الجزية التي طلبها بروتُس، بل وبمنعه من عبور بلادهم.

ما إن أخذ بروتُس علماً بالعقبة التي أُقيمت في وجهه، حتّى أمر خيّالته بالزحف على أهل ليسيا دون أن يأخذوا أيّ قسط من الراحة أو أن يتمهّلوا، بغيةَ الإيقاع بهم على حين غرّة.

وكانت الخيّالة مفعمة بالحماس، فأسرعت في مسيرها أكثر ممّا كان يأمله بروتُس؛ وفاجأت أهل ليسيا أثناء تناولهم الطعام وقضت على ستّمائة منهم بحدّ السيف.

سار بروتُس هو أيضاً بمنتهى السرعة في الطليعة التي كانت تتقدّم قوام جيشه. فاستولى على حصون ومدن كثيرة قبل أن يُقيم العدوّ خطوط دفاعه.

أطلق سراح الأسرى بدون فدية.

وبدل أن يعترف له أهل ليسيا بجميل ذلك التسامح، اعتقدوا أن بروتُس يخشاهم.

كان لديه وسيلة يسيرة يدلّهم بها على خطأ حكمهم: أن يذهب لمحاصرة إكسَنتِس حيث تحصّن أشجعهم وأكثرهم ثروة.

Twitter: @ketab_n

أتى بروتُس وعسكر تجاه إكسَنتِس وطوّقها من كلّ الجهات.

من كان منهم أكثر خشية على نفسه من انتقام بروتُس، حاول الفرار.

صحيح أنّ المدينة كانت مطوّقة، غير أنّ النهر يوفّر سبيلاً للفرار.

فراحوا ينزلقون إلى الماء وينزلون النهر سباحة دون ضجّة تحت ستار الظلام.

وافى بعض الجند إلى بروتُس وأعلموه بأسلوبهم في الفرار.

فأمر بروتُس بأن تُمدّ شباك ما قبل المدينة وما بعدها.

وأمر بتعليق أجراس في الشباك. فما إن يمسّ سابحٌ الشبكة حتّى ينكشف أمره: يرنّ الجرس فيعلق الهارب.

عزم أهل ليسيا أن يشنّوا هجوماً خارج المدينة ليحرقوا الآلات الحربية، واختاروا ليلة ظلماء لا قمر فيها، فاستيقظنا فجأةً على صيحات صادرة عن حرس المدينة: «إلى السلاح!»

أدركْنا المكان الذي صدر منه الصياح، لكن بعد فوات الأوان، فقد كانت النيران تلتهم آلتَين أو ثلاثاً.

بينما كان أهل ليسيا يتقهقرون، هبّت ريح شديدة دافعةً باللهيب صوت المدينة. خشي بروتُس عندئذ أن يتصاعد اللهيب فوق الأسوار فيبلغ المساكن، فأمر بإخماد النار ليس فقط بغية إنقاذ الآلات، بل كذلك حفاظاً على المدينة.

استسلم أهل ليسيا إلى غيظ أحمق فشنّوا هجوماً ثانياً خارج المدينة بهدف تغذية النار بدفع إضافيّ. فرموا في الموقدين أو الثلاثة مواقد بكلّ ما جمعوه من موادّ ملتهبة: من قارٍ وراتنج وزفت وحطب ومشاعل؛ وسرعان ما ارتفع اللهيب ملتهماً ما حوله، جبّاراً لا يقوى أحد على ردّه. وغذّى اللهبَ من كان يُفترض فيه أن يخمده، فتقدّمت النيران نحو

Twitter: @ketab_n

المدينة وزحفت على الأسوار فبلغت شرفاتها ثمّ تجاوزت الأسوار حتّى بلغت البيوت؛ واشتدّ سعير النيران حتّى نشب في ما وراء التحصينات.

في تلك الأثناء، كنّا نرى سكّان إكسَنتِس متجمّعين على كلّ مرتفعات مدينتهم وقد احمرّ لونهم من أثر الحريق، وكأنّهم أبالسة حمقاء يدعون على الرومان بالموت. وكانوا يتفانون في إلهاب النار قاذفين فيها بكلّ ما يلتهب من عوارض خشبيّة وأثاث وأبواب مُقتلعة ونوافذ مُهشّمة، ويشعلون المشاعل من البراكين الناريّة ويقذفون بها نحو البيوت التي لم تلتهب بعد، فتشتعل بدورها مُغذّيةً الحريق بمزيد من الموادّ الملتهبة. وبأقلّ من ساعتين، التهمت النيران كلّ شيء؛ فاحترقت المدينة من أقصاها إلى أقصاها: بدا المشهد وكأنّه احتفال ضخم بإله النار، او قرباناً عظيماً مقدّماً للإله پْلوتونُس.

صُدم بروتُس من هول الكارثة، فقفز على صهوة جواده، وراح يطير على خبب ذلك الحيوان المذعور حول الأسوار، وهو يصيح بأهل إكسَنتِس أنّه يعفيهم من الجزية ويؤمّنهم على حياتهم وعلى كلّ ما يملكونه، وأنّه لا يطالبهم سوى بأمر واحد: أن يجنّبوا أنفسهم الموت. غير أنّ دعوات بروتُس كانت تستثير هيجانهم. صمّوا آذانهم عن مناشداته لشدّة ما تمكّن منهم سُعار التدمير. لم تعد تلك مدينةً آهلةً ببشر، بل مدينة يسكنها قوم حمقى، يتشوّق كلّ منهم إلى الموت، ويهرع نحوه بأقصر طريق ممكن، فهذا يرتمي في النيران وذاك يقذف بنفسه إلى أسفل الأسوار شكّاً على الرأس.

رأينا أمّهات يحتضنّ أولادهنّ بين ذراعيهنّ ويرتمين معهم في النهر. ورأينا أولاداً يمدّون رقابهم لسيوف آبائهم الساعين إلى إعفائهم من عبء الحياة. كنّا نسمعهم يصيحون بآبائهم أن اضربوا. ورأينا أخيراً المدينة وقد قضت عليها النيران، فتحوّلت إلى رماد لا يزال يرتفع منه

Twitter: @ketab_n

الدخان. ورأينا امرأة، أمّاً أوثقت ولدها إلى عنقها، تشعل النار في بيتها المنعزل الذي لم يطله اللهيب بعد، ثمّ تشنق نفسها على بضع خطوات منه وعلى وهج نيرانه.

عاد بروتُس إلى المعسكر كافّاً نظره عمّا حوله، ودخل خيمته وهو يصيح أنّه يقدّم مكافأة بثمانمائة سِستِرس لكلّ جنديّ ينقذ ليسيّا.

فرضي مائة وخمسون منهم بأن يبقوا قيد الحياة.

وعندها فقط أدرك بروتُس أمراً خطيراً: لا بدّ لنا، شئنا أم أبينا، أن نرضخ للقدر الذي هيّأناه لأنفسنا. منذ تلك اللحظة، لم يعد بروتُس يناضل في سبيل حياته، لأجل فكرة أو مبدأ أو حلم؛ بل في سبيل حريّة إيطاليا. اغتيال واحد أدخلنا في ذلك المسار الرهيب؛ فلا بدّ من مواصلة سلوك طريق الشؤم هذا، بمشعل مرفوع وسيف مُستّل.

ومواصلة الطريق، بعد احتراق إكسَنتِس، تقتضي منه الذهاب لحصار بَتَرا.

سار بروتُس إليها وهو يرتعد، لخشيته أن تقتدي تلك المدينة بإكسَنتِس، لا سيّما وأنّها عاصمة ليديا الفعليّة وأهمّ مدنها. وشاء الحظّ أن يأسر بروتُس بعض النسوة، فخلّى سبيلهنّ دون أن يطلب فدية، فرُحنَ يشدنَ بمروءته لدى آبائهنّ وأزواجهنّ -وكانوا أعيان المدينة- بحيث حملن سلطات بَتَرا على تسليمه االمدينة.

منذ ذلك الوقت، أصبحت مسيرة بروتُس مسيرة ظفر. فتناست المدن الأخرى مثال إكسَنتِس واقتدت ببَتَرا مستسلمةً بأجمعها الواحدة تلو الأخرى.

لذلك، بينما كان كَسّيوس يفرض على أهل رودِس ضريبة تبلغ ثمانية آلاف وزنة، أي مائة وثمانين مليون سِستِرس، لم يفرض بروتُس على أهل

Twitter: @ketab_n

ليسيا سوى المساهمة بمائة وخمسين وزنة.

وانطلق نحو يونيا دون أن يثقلهم بأيّ عبء جديد.

وفي يونيا بالذات، لقي تِيُداتُس الذي من شِيو، أي ذلك الرجل الذي نصح الملك الشابّ بطليموس باغتيال پُمپِيوس.

ومثَل تِيُداتُس أمام بروتُس.

هذه المرّة، أيّاً كان فيض الرحمة في قلب بروتُس، لم يبقَ أيّ مجال للتردّد: فحُكم على تِيُداتُس بعذاب اللصوص والقتلة.

ومع ذلك لم تبلغ من بروتُس الشجاعة إلى درجة أن يحضر تنفيذ الحكم: بل أمسَكني من ساعدي وسار بي إلى شاطئ البحر؛ جلسنا هناك وأعينُنا عالقة في ذلك المدى الشاسع، وقرأتُ له أولى مقاطع غنائيّتي **حين كان الراعي [پارِس] يجرّ...**، التي كنتُ قد باشرتُ بكتابتها.

حان موعد اللقاء بين القائدين، وكان بروتُس أوّل من وصل إلى سَردا.

عندما علم باقتراب وصول كَسّيوس، سارع إلى ملاقاته مع صحبه وجنده، تكريماً له.

اصطفّ الجند على الجانبين، وعند مرور كَسّيوس مع بروتُس في وسطهم، راحوا يحيّونهما معاً بلقب **القائد المُظفّر**.

ترقّب بروتُس وصول كَسّيوس بفارغ الصبر. بالرغم من مظاهر التكريم التي أحاطه بها، كان في صميم قلبه يأخذ عليه مآخذ خطيرة. لذا ما إن وصل كَسّيوس إلى سَردا واستقرّ في المنزل المُعدّ له، حتّى أدخله بروتُس إلى غرفة ودخل وراءه، وطرح أمامه تلك المآخذ.

لم يكن الصبر فضيلة كَسّيوس الكبرى، فتملّكه الغضب وصرنا نسمع الأصوات تتعالى، فتيسّر لنا أن ندرك، دون أن نفهم ما يقال، أنّ القائدين

Twitter: @ketab_n

يتبادلان الملامة. بروتُس يأخذ على كَسّيوس بخله وشراسته، وكَسّيوس يأخذ على بروتُس سخاءه وتعاليه على المصلحة الشخصيّة.

كان فَڤونيوس بيننا، وهو بالذات من كنّا نلقّبه بقرد كاتون، وهو بالذات -ألا تذكرون؟- من بقي مخلصاً لپُمپيوس بعد فرسالا، ثمّ حين رأى أنّه لم يبقَ له حتّى عبد واحد ليغسل له رجليه من غبار الفرار، ركع أمامه دامع العينين، وقام بالمهمّة التي تقتضيها التقوى.

أخذ فَڤونيوس على عاتقه أن يتدخّل في النقاش، إذ كان من الضروريّ تفادي القطيعة الصريحة ما بينهما؛ وسمعناه يلقي عليهما هذا البيت الذي يرد على لسان نِسطور في **الإلياذة**:

«أصغيا إلى نصائحي، لأنّكما كليكما أصغر سنّاً مني».

طرداه من الغرفة: بروتُس وهو يضحك وكَسّيوس وهو يتّهمه بأنّه يدّعي الفلسفة الكلبيّة. ولكنّ المقصود من تصرفّه تحقّق فعلاً، إذ تحوّل مسار النقاش بعد تدخّله، فتلاشى ضجيج الأصوات.

ولا شكّ أنّهما أدركا هما أيضاً أنّهما يقدّمان قدوة سيّئة.

وفي نفس اليوم تعشّيا معاً على نفس المائدة وبدا للجميع أنّهما قد تصالحا تماماً.

غير أنّ بروتُس كان مثقل القلب بمآخذه على كَسّيوس التي أكنّها طويلاً.

عند المساء، خرجنا من المدينة، أنا وبروتُس، الذي طلب منّي أن أرافقه كما يفعل كلّما ألمّ به حزن شديد. سرنا على الضفّة اليسرى من ذلك الپَكتول الشهير الذي طالما تغنّى به الشعراء اليونان، حتّى بلغنا موقع مصبّه في نهر هِرمُس، غير بعيد عن بحيرة جيجيا. فتح لي قلبه خلال هذه النزهة وأطلق العنان لندمه على مشاركته أناساً قد يؤدّون به، حتّى في نظر

Twitter: @ketab_n

الآلهة الخالدة التي ترى كلّ شيء، إلى سلوك طريق الظلمة.

في اليوم التالي، نظر بروتُس أمام الناس في قضية روماني اسمه لوكيوس پِلّا اتّهمه السَرديّون بالرشوة.

أثبت بروتُس عليه الجرم، ووسمه بالعار.

وكان كَسّيوس قد حاكم قبل أيّام أشخاصاً متّهمين بنفس الجرم، واكتفى بتأنيبهم بصورة غير علنيّة، وتركهم في وظيفتهم.

أمّا لوكيوس پلّا، فقد تمّ تأنيبه علناً وطُرد من وظيفته.

جرح هذا الحكم مشاعر كَسّيوس جرحاً عميقاً، إذ اعتبره رقابة تطاله هو بقدر ما تطال لوكيوس پلّا.

فاتّهم كَسّيوس بروتُس أمامنا جميعاً، وبلهجة شديدة المرارة لم يسعْه كتمانها، بأنّه يبالغ في احترامه القوانين والعدالة في زمن حرب أهليّة والتهاب سياسيّ لا بدّ معه من مراعاة الضعف البشريّ.

ما كان يزيد من حدّة مرارة كَسّيوس تجاه بروتُس أنّ بروتُس كان في كلّ الأحوال على حقّ.

اختلف بروتُس وكَسّيوس على الصعيد الأخلاقيّ، ولكنّهما بقيا دائماً متّفقَين في شؤون الحرب، لأنّ بروتُس كان يعتبر كَسّيوس أعظم منه قائداً وينتصح بنصائحه بطيب خاطر.

قرّر كَسّيوس مغادرة آسيا ليزحف باتّجاه أنطونيوس وأُكتاڤيوس المتقدّمَين عبر مقدونيا.

ذات يوم، جمعونا كلّنا وأعلمونا أنّهم حدّدوا يوم الغد موعداً للرحيل.

استبقاني بروتُس ذلك اليوم للعشاء مع بضعة أصدقاء. وفي الهزيع الثاني من الليل، ودّعَنا كلّنا قائلاً إنّه مشغول ببعض الأمور.

ذلك كان شأن بروتُس عادةً، يحبّ السهر ولكنّه، شغفاً بالعمل كما

Twitter: @ketab_n

تعفّفاً عن الطعام والشراب، لم يكن يستسلم للنوم إلّا بضع ساعات. وأذكر أنّي، أثناء نوبتي في حراسة المعسكر ليلاً، كثيراً ما كنت أرى ضوء قنديل بروتُس شاعلاً حين كان القادة الآخرون غارقين في النوم؛ ثمّ أراه من خلال انفراج خيمته وأنا أمرّ أمامها، إمّا مستنداً بمرفقه إلى الطاولة يقرأ، أو محرّراً أوامره لبضعة قوّاد مائة يتهالكون نعساً، فيما يبقى رئيسهم ساهراً حتّى طلوع النهار، بقلب ثابت وفكر حرّ.

لم يحدث قطّ للضُبّاط، الذين اعتادوا الذهاب إلى خيمته وقت نوبة الحرس الثالثة لاستلام أوامره، أن وجدوه غافياً.

وإليك ما حدث في تلك الليلة التي سبقت يوم الرحيل.

في الوقت الذي اعتدناه، أي في منتصف الليل، دخلنا خيمته كالمتعاد، وكالمعتاد وجدناه ساهراً. أعطانا كلّ أوامره بشأن الرحيل المقرّر بعد انقضاء أوّل موجة حرّ من النهار. وبعد ذهاب الآخرين، استبقاني بعض الوقت بوصفي مدافعاً عن الجند، ليتحدّث معي في الفلسفة والشعر؛ ثمّ أطلقني، إشفاقاً منه على عينيّ الضعيفتين المنطبقتين بالرغم منّي، وهو يُريني كتاب أفلاطون المفتوح أمامه.

خرجت.

بعد ذهابي، بقي وحده، وخفت الضجيج. كانت الليلة حالكة السواد لا قمر فيها. لم يكن قنديل بروتُس يرسل سوى ضوء خافت، وكان هو مستغرقاً في قراءاته، حين سمع رفيف شيء ينسلّ إلى خيمته.

استدار فرأى شبحاً ذا وجه بدا له غريباً ومخيفاً.

تقدّم الشبح نحوه وعن كثب بحيث أنّه كان يستطيع لمسه بمجرّد مدّ يده.

وانتظر بروتُس ريثما يوجّه الشبح الحديث إليه، ولكنّ الشبح بقي على

Twitter: @ketab_n

صمته، فتجرّأ بروتُس وبادره سائلاً:

- من أنت؟ إنسان أم إله؟ وفي كلتا الحالتين، ماذا أتيت تصنع هنا وما الذي تريده منّي؟ فأجابه الشبح:

- بروتُس، إني جنيّك الشرّير، سوف تراني من جديد في فِليبي. فردّ بروتُس بكلّ هدوء:

- فليكن! سأراك هناك.

اختفى الشبح في الحال، لا خارجاً من الباب، ولا غائراً في الأرض، بل متلاشياً على شكل بخار.

وفي الحال، نادى بروتُس خدمه وعبيده ومنهم من كان نائماً قرب خيمته.

ونادى الحارس الساهر على بابه.

سأل خدمه وعبيده والحارس: لم يكن أحد قد شاهد شيئاً.

عندئذ أطلقهم جميعاً واستمرّ يسهر ويقرأ حتّى طلع النهار. عند طلوع النهار استراح بضع لحظات.

ثمّ خرج في الساعة الثانية ودون أن يعلمني مسبقاً مرّ بي واصطحبني. كان في طريقه إلى كَسّيوس، فرافقته.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع (تابع)

وجدنا كَسّيوس قد نهض من نومه، إذ كان على عكس بروتُس ينام باكراً.

رجاه بروتُس أن يُخرج جميع مَن عنده وأن يمنحه لحظة من وقته للتحدّث معاً.

بقينا وحدنا.

حينئذ أخبره بروتُس بكلّ ما جرى له أثناء الليل، مع أنّه طوال الطريق لم يقل لي كلمة عن سبب مجيئه إلى كَسّيوس؛ ثمّ سأله عن رأيه بهذه الرؤيا.

فأرخى كَسّيوس رأسه على يده وراح يفكّر؛ وبعد فترة من الصمت قال له:

- «اسمع، طالما تناقشت وإيّاك في هذه المواضيع. وها هو هُراسيوس الذي ينتسب مثلي إلى فرقة أَبيقورُس حاضر، وسيشرح لك أحد مبادئ فلسفتنا: وهي أنّنا لا نحسّ ولا نرى دائماً ما نعتقد أنّنا نراه أو نحسّه؛ لأنّ حواسّنا، السريعة التلقّي لكلّ الانطباعات، هي ملكات خدّاعة، تقوم مخيّلتنا -التي تفوق حواسّنا زيغاناً- باستثارتها على الدوام. إنّها شبيهة بالشمع الرخو الذي ينصاع بسهولة لجميع الأشكال التي نريد أن نشكّله بها. أمّا نفسنا التي تتضمّن في ذاتها مُنتج الانطباعات ومُتلقّيها، فيتيسّر لها، وبالاعتماد حصريّاً على قدرتها الذاتيّة، أن تُنوّع هذه الأشكال وتُعدّدها.

Twitter: @ketab_n

«بذا تشهد مختلف الصور التي تبدو لنا في الحلم أثناء النوم. المخيّلة توقظها ثمّ تضفي عليها أنواعاً متعدّدة من الصور الخياليّة. وما أقوله لك، يا بروتُس، يصحّ على الناس كافّةً، ويصحّ بالأخصّ عليك بفعل جسدك المرهق من شدّة العمل الذي يجعل الروح أكثر حركيّة وأسرع تحوّلاً.

«وأضيف -تابع كَسّيوس- أنّ من غير المحتمل وجود الجنّ، وفرضاً أنّهم وُجدوا، فمن السُخف اعتقادنا أنّهم يقتبسون صورة البشر وصوتهم للتواصل معنا وبسط سلطتهم علينا. وكم أتمنّى وجودهم حتّى يتسنّى لنا وضع ثقتنا ليس فقط في تلك الحشود من الرجال والسلاح والخيل والسفن التي تأتمر بأمرنا، بل كذلك بعون الآلهة التي لن تتوانى عن معاضدة زعماء مهمّةٍ هي أقدس وأنبل المهمّات.»

تنهّد بروتُس ونهض ثمّ خرج وهو يقول:

- يا له من سرّ!

وبعد أن ابتعد عن الخيمة، التفت نحوي قائلاً:

- وأنت، يا هُراسيوس، ما رأيك بذلك كلّه؟

فلم يكن بدّ من الإقرار بأنّي في قضية ظهور الشبح هذه أرى رأي كَسّيوس، بما أنّي إبيقوريّ مثله، أي أنّه ضحيّة وهم حواسّه. فقال بروتُس:

- ومع ذلك، لقد رأيت رؤيا العين، وسمعت سمع الأذُن. ثمّ أضاف:

- وإذا رأيته من جديد في فِليبي، بما أنّه هدّدني بذلك؟ أجبته:

- لا أرغب إلّا في أمر واحد، أن أكون حاضراً لحظة الظهور.

هزّ بروتُس برأسه، وقال:

- لا، لا. لن يأتي إلّا إليّ وحدي، سيظهر لي وحدي.

ثمّ عاد إلى صمته وكآبته المعتادَين.

Twitter: @ketab_n

وعند الساعة الثانية من بعد الظهر، بدأ الجيش يتحرّك. وكنت أقود قسماً من الطليعة وأسير في المقدّمة.

فجأةً، انقضّ نسران كانا يحوّمان في السماء على أوّل رايتين من رايات الطليعة.

فأرسلتُ على الفور قائدَ مائة يخبر بروتُس بهذا النذير.

رجع قائد المائة، ونقل لي ما قاله بروتُس:

- هنّئ فلَكُّس بهذا الطّالِع السّعيد، وقُل له أن يحافظ على النسرَين ويُقيتهما. سيسير كلّ شيء على ما يُرام إن لم يطيرا.

اعتنيت بهذين النسرَين أفضل عناية، فرحت أطعمهما طوال المسير، وبقيا معنا حتّى فِليبي.

في عشيّة يوم المعركة، طارا.

ذلك هو النذير الذي طالما كان بروتُس يخشاه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

نشوب المعارك - بْروتُس وكَسّيوس يفاجآن طليعة جيش أنطونيوس - قيصر أُكتاڤيوس وبْروتُس يقدّمان قرابين استغفار سخيّة - نُذُر الشؤم - كَسّيوس يقترح تأجيل المعركة وبْروتُس يصرّ على شنّها في الحال - الأغلبية تؤيّد بْروتُس - بْروتُس وكَسّيوس يتعاهدان على الحياة والموت معاً - تنشّل حركة أُكتاڤيوس بسبب حلم - معركة فِلِيبي الأولى. بْروتُس ينتصر ولكن أُكتاڤيوس ينهزم. كَسّيوس يرسل تِتِينيوس للاستطلاع - خطأ كَسّيوس - انتحر ظنّاً منه أنّ بْروتُس هُزم وتِتِينيوس وقع أسيراً - تِتِينيوس ينتحر فوق جثّة قائده بعد أن تسبّب بمقتله عن غير قصد.

خلال مسيرتهما نحو الشمال، فرغ بْروتُس وكَسّيوس من إخضاع بعض المدن التي مرّا بها، لئلّا يستفيد منها أُكتاڤيوس وأنطونيوس.

اجتازا هِلِّسبُنتِس وتبعا سواحل تْراسيا، فيما كانت أساطيلهما تتقدّم في الخليج المُسمّى ببحر تارُس.

أقامت طليعة جيش أنطونيوس وأُكتاڤيوس معسكرها في المكان المدعوّ **المضائق**، بالقرب من جبل سِمبولُم المتفرّع من سلسلة جبال پَنجيه.

Twitter: @ketab_n

كانت بقيادة نُربانُس، الذي لم يتنبّه على الإطلاق إلى أنّ بْروتُس وكَسّيوس مرابطان على مسافة قريبة جدّاً منه؛ وإذا به يرانا نطوّقه في لحظة لم يكن ليتوقّعها قطّ، ونجبره على الانسحاب من موقعه، تاركاً قسماً كبيراً من جيشه أسرى بين أيدينا. بل كدنا نأسر جيشه بأكمله ونأسره معه.

فيما كان بْروتُس وكَسّيوس يستعدّان لمطاردة نُربانُس، علِما بأنّ أنطونيوس قد جدّ في سيره فقطع المراحل المتبقّية بسرعة عجيبة ووصل لنجدة نائبه.

أمّا أُكتافيوس فأُصيب بمرض أبطأ مسيرته، فلم يصل إلّا بعد وصول أنطونيوس بثمانية أيّام.

وكان بْروتُس وكَسّيوس قد تمركزا منذ فترة طويلة على سفح الجبل الذي تقوم عليه مدينة فِليبي، فأصبحت جبهة جيشهما محميّة بنهر صغير ينبع من الجبل ويصبّ في البحر.

وكان معسكر بْروتُس أقرب إلى المدينة ومعكسر كَسّيوس أقرب إلى البحر.

أمّا جيش أنطونيوس وأُكتافيوس فكان بأكمله مستنداً إلى سْتريمون.

هذه الرقعة الواقعة بين مجرى الماء الذي لا اسم له، حيث أقمنا معسكرنا، وبين سْتريمون، أي السهل الذي فيه نشبت المعركة التي نسعى الآن إلى وصفها، كانت تُدعى معسكر فِلِبُّس.

وقف جيش أُكتافيوس في مُواجهة جيش بْروتُس وجيش أنطونيوس في مُواجهة جيش كَسّيوس.

لم يسبق أبداً، ولا حتّى في فَرسالا، أن تَجابه جيشان رومانيّان بهذا العدد الضخم.

كان عديد جيش بْروتُس، الذي كنت فيه، أقلّ بكثير من جيش

Twitter: @ketab_n

أُكتافيوس، لكنّه يتفوّق عليه بدرجات من حيث روعة سلاحه المصنوع أكثره من الذهب والفضّة.

بالرغم من تواضعه وبساطته، سمح بْروتُس لجنده وضبّاطه بامتلاك أسلحة غالية الثمن، لاعتقاده بأنّ المرء بدفاعه عن سلاحه يدافع عن نفسه، وأنّ استماتته في الدفاع عن سلاحه تتناسب مع ارتفاع ثمنه.

ساد الشعور بأنّ ساعة الحسم تقترب وراح الجميع يستعدّ للقتال.

وزّع أُكتافيوس على جنده، بمناسبة تقدمته قرابين استغفارية، كيلاً زهيداً من القمح وخمسة دراهم لكلّ واحد .

أمّا بْروتُس فطهّر جيشه وهو في معمعة القتال ومنح كلّ جنديّ من جنده خمسين درهماً ليفضح بذلك خسّة موقف أُكتافيوس.

أثناء مراسيم التطهير، طار النسران اللذان بقيا في رفقتنا منذ سَرَدا واختفيا نهائياً. ولم يكن ذلك نذير الشؤم الوحيد. عند المساء، تداول بْروتُس وكَسّيوس في الأمر وقرّرا ألّا يُعلما الجند بتلك النُّذُر.

إذ أنّه في صباح اليوم نفسه، كان المرافق لكَسّيوس المُكلّف بحمل الحزمة[1] أمام القنصل قد قدّم له الإكليل مقلوباً على قفاه.

وقبلها ببضعة أيّام، تعثّر حامل شارة الظفر الذهبيّة التابعة لكَسّيوس، أثناء الاحتفال الدينيّ، فوقعت الشارة على الأرض.

كما أنّ رفوفاً من الطيور الكاسرة راحت تحلّق يوميّاً فوق معسكرَينا. ثمّ أن عدّة رفوف من النحل تجمّعت عند الخنادق، وعندما شاهد العرّافون ذلك المشهد المشؤوم الطالع أمروا بإخلاء المكان وعزله عن المعسكر.

(1) تتضمّن الحزمة التي يحملها المرافق السائر أمام كلّ رجل سلطة رومانيّ عدداً من القضُب وفأساً، إشارة إلى السلطة والعدل والتأديب. الملك كان يتقدّمه اثنا عشر من حاملي الحِزَم هؤلاء (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

بدأ القلق يساور كَسّيوس بالرغم من فلسفته الإپيقورية التي تُنكر تأثير النُّذُر. فصمّم على عدم استعجال المعركة، لاطمئنانه إلى كفاءة أسطوله بتأمين المؤن دون أن يخشى مكروهاً، وعلى انتظار حلول فصل الشتاء.

وكان بْروتُس، من جهته، لا يكفّ عن الإصرار على الإسراع في مجابهة العدوّ، أيّاً كانت الظروف، لأنّه كان يستعجل تحرير وطنه وإعتاق تلك الشعوب المرهقة بأعباء الحرب وما تسبّبه من كوارث عظيمة.

أمّا إصرار بْروتُس في الدفاع عن موقفه فسببه أنّ خيّالته، بعُدّتها الممتازة، كانت قد انتصرت في كلّ المعارك التي خاضتها، وأنّ الجنود كانوا يتحيّنون الفرص ليفرّوا من المعسكر الجمهوريّ مُلتحقين بجيش أنطونيوس وأُكتاڤيوس.

أدّى الخلاف بين بْروتُس، الساعي إلى المجابهة بأسرع ما يمكن، وكَسّيوس الساعي إلى التمهّل، إلى انعقاد مجلس حضره كبار القادة.

تداولوا في الأمر. تحدّث القائدان كلّ بدوره باسطاً حججه. كانت أولى حجج بْروتُس تواتر فرار الجند يوميّاً؛ ففي ذلك اليوم بالذات فرّ منهم إلى معسكر أُكتاڤيوس أكثر من ستّين جنديّاً.

إضافة إلى ذلك، كان بْروتُس يتمتّع بفصاحة فطريّة شديدة الإقناع، جعلت عدداً من مناصري كَسّيوس، ممّن كان يضمن تأييدهم كليّاً، ينفصلون عنه وينضمّون إلى بْروتُس.

غير أنّ أحد مناصري بْروتُس انضمّ إلى كَسّيوس: هو أَتّيسيوس، الذي اقترح تأجيل المعركة إلى فصل الشتاء، فقال له بْروتُس:

- أيّة فائدة تجنيها من انتظار سنة؟ أجابه أَتّيسيوس:

- فرضاً أنّي لم أجنِ سوى أن أحيا سنة إضافيّة، فذلك كافٍ، في اعتقادي.

Twitter: @ketab_n

أثار هذا الجواب، المعبّر ربّما بصراحة متناهية عن رأي صاحبه، استنكاراً لدى جميع الضبّاط الآخرين، فانضمّوا إلى رأي بْروتُس، بحيث أنّه اتُّخذ قرار بالأغلبية بشنّ المعركة في اليوم التالي.

انتصر بْروتُس فدعانا للعشاء عنده وهو مفعم بالآمال؛ فقضى سهرته يحدّثنا في الشعر والفلسفة. ثمّ خلّى سبيلنا أبكرَ من المعتاد، وذهب للنوم وهو يوصينا بأن نفعل فعله لكي يتسنّى لكلّ منّا أن يستعيد قواه ليوم الغد.

أمّا كَسّيوس فتعشّى في خيمته مع قلّة من صحبه، منهم مِسّالا الذي أبلغني هذه التفاصيل: ظلّ كَسّيوس طوال العشاء ساهماً صامتاً، على عكس عادته تماماً؛ وبعد العشاء قبض على يد مسّالا وشدّ عليها علامة الصداقة قائلاً له باليونانية:

- أَتّخذُك شاهداً، يا مسّالا، على أنّهم يجبرونني، كما فعلوا مع پُمپِيوس العظيم، على أن أرهن أقدار روما بصدفة معركة واحدة. يقتضي منّي الأمر قدراً كبيراً من الشجاعة وأملاً وطيداً بحسن الطالع. والواقع أنّني على عكس ذلك شديد الارتياب. لماذا؟ لا أدري، ولكن هذا هو الواقع.

ثمّ ودّع مسّالا وعانقه. التفت إليه مسّالا وهو خارج وقال له:

- بالمناسبة، أنت أيضاً لا تنسَ أن تأتي للعشاء عندي غداً؛ إنّه عيد ميلادي.

فأبدى كَسّيوس موافقته بإشارة من رأسه مشفوعة بابتسامة حزينة.

ما إن طلع نهار الغد حتّى ارتفعت فوق معسكر بْروتُس وكَسّيوس الدرع الأرجوانية وهي علامة الشروع في القتال، بينما راح القائدان يعقدان اجتماعاً أخيراً في الفسحة الفاصلة بين المعسكرَين. استلم كَسّيوس الحديث فقال:

Twitter: @ketab_n

- يا بْروتُس، أدعو الآلهة أن نفوز في المعركة لنقضي ما تبقّى من أيّامنا بالسلام والفرح! لكنّ أمسّ الأحداث بمصيرنا هي أيضاً أقلّها ضمانة، فإذا خيّبت نتيجة المعركة آمالنا، لن يسهل علينا التلاقي من جديد؛ فهل تقول لي ما الذي تختاره، في هذه الحالة، الفرار أو الموت؟ أجاب بْروتُس:

- حين كنتُ بعد شابّاً، يا كَسّيوس، ألَّفت بدون سببٍ واعٍ خطاباً فسلفيّاً طويلاً في لوم كاتون على انتحاره. قلت فيه إنّه لا يليق بالإنسان المتديّن ولا بالقلب الكبير ألّا ينصاع للنظام الإلهي، أو يتقبّل بكلّ شجاعة أحداث الحياة كافّةً فيتهرّب منها بالفرار. لكنّ وضعنا الراهن يجعلني أفكّر بطريقة أخرى. فإن لم تشأ الآلهة أن تكون نهاية النهار الذي نُقبل عليه الآن نهاية سعيدة، فإنّي عازم على الكفّ عن كلّ تجربة جديدة والإقلاع عن الإعداد للحروب، وأنجو بنفسي بعيداً عن الهموم رافعاً الشكر للأقدار؛ فمنذ أن نذرت حياتي للوطن في الفاتح من مارس، وأنا أحيا، بدافع من تفانيَّ في سبيله، حياة حرّة ومجيدة على السواء.

ابتسم كَسّيوس عند سماعه هذا الكلام وعانق بْروتُس قائلاً:

- إذن، بما أنّنا نتشاطر نفس العواطف، فلنسِر إلى العدوّ باطمئنان: فإمّا أن ننتصر وإمّا أن ننعتق من خوفنا ممَّن قد ينتصر علينا.

فرغا من الحديث ورسما خطّة المعركة بكلّ هدوء.

طلب بْروتُس من كَسّيوس أن يترك له قيادة ميسرة الجيش. ومع أنّ كَسّيوس هو الأحقّ بتلك المهمّة الشرفيّة بسبب سنّه وخبرته، فقد تخلّى عنها لزميله؛ بل وقرّر أن يذهب مسّالا على رأس الفيلق الأشدّ مراساً للقتال مع ميسرة الجيش.

Twitter: @ketab_n

في الحال أمر بْروتُس خيّالته بالخروج من خنادقها بعُدّتها الرائعة، وأمر مشاته أن يتّخذوا مواقعهم القتالية.

وكنت بوصفي مدافعاً عن الجند على رأس ما يقارب ثلاثة آلاف رجل من المشاة.

كان موقع فيلقي على طرف صدر الجيش.

في تلك الأثناء لم يبدُ على الجيشين العدوّين ما يشير إلى أنّهما يُعدّان لمعركة حاسمة: جند أنطونيوس منهمكون بحفر خنادق بقصد قطع طريق البحر على كَسّيوس، وأُكتافيوس وجنده ثابتون في أماكنهم، أو بالأحرى يسّرت الآلهة لأُكتافيوس أن يتّخذ قبل المعركة موقعاً ملائماً، هو الذي بالفعل أنقذ حياته لاحقاً.

فقد وافاه عند الصباح أحد أصدقائه، مَركُس أَستوريوس، ليخبره بأنّه حلم حلماً: تراءى له رجل بكامل سلاحه وأمره بأن ينهض ويذهب في الحال إلى قيصر لينذره بضرورة الابتعاد عن الخنادق. فأخذ قيصر فوراً بقوله، لأنّه كان، كما ذكرنا، شديد الإيمان بالأحلام.

أمّا جنده فلم يكونوا يتوقعّون على الإطلاق اندلاع المعركة، ظانّين أنّ الأمر لا يتعدّى كونه مجرّد مناوشات بين العمّال وجنود كَسّيوس.

كم كانوا مخطئين! فالقرار بالحرب قد اتُّخذ، بل وصدر الأمر بذلك.

مرّر كَسّيوس المتلهّف إلى الاشتباك مع العدوّ بطاقات صغيرة لرؤساء فرقه كتب عليها الأمر ببدء القتال، فيما راح هو نفسه يجول في صفوف عسكره ويدعوهم للقيام بمهمّتم على أحسن وجه.

ولم يكن الجنود بحاجة إلى من يشجّعهم، بل كانوا يشاركون بْروتُس تلهّفه بحيث أنّه قبل أن تتبلّغ ميمنة الجيش أوامره اندفعت نحو العدوّ خارجة من صفوفها وهي تطلق صيحات عظيمة.

Twitter: @ketab_n

فكان أنّ فيلق مسّالا والفيالق الآخرى المندفعة وراءه في نفس الاتّجاه راحت تلامس آخر صفوف ميسرة جيش قيصر وتقضي على بعض الجنود الذين اعترضوا طريقها.

ثمّ أوغلت في سيرها حتّى نهاية المعسكر، بدل أن تنسحب لتنضمّ إلى صدر الجيش لتؤازرنا في الالتفاف على العدوّ.

لمح الجمهوريّون من بعيد محمل قيصر فاعتقدوا أنّ قيصر في داخله، فأهالوا عليه سهامهم.

إلّا أنّ قيصر، بعد أن أنذره مَركُس أَستوريوس كما سبق القول، كان قد غادر المعسكر لتوّه.

فمرّرنا بحدّ السيف ألفين من أهالي لَسِديِمونِس الذين لقيناهم قادمين لنجدة قيصر.

كما أنّ صدر جيشنا، الذي وجد نفسه بهجومه الموارب مقابل ميسرة قيصر، جابهها بهجوم معاكس ودحرها بسهولة، مستغلّاً الاضطراب الذي أصاب الجنود بعد خسارتهم معسكرهم. ففتكنا بالفيالق الثلاثة فتكاً عظيماً، ثمّ اندفعنا مع الفارّين نحو المعسكر دونما أيّ نظام.

أراد بْروتُس أن يضبط الحركة، فاندفع من الميسرة نحو الميمنة وانساق بزخم اندفاعه فوجد نفسه في ما بيننا.

وعندئذ فقط تنبّه جنود أنطونيوس إلى الخطأ الذي ارتكبناه. أقول جنود أنطونيوس، لا أنطونيوس نفسه، فهو لم يشهد المرحلة الأولى من المعركة. حاول أن يتفادى تصاعد الهجوم فانسحب إلى مستنقع قريب. ذلك أقلّه التبرير الذي قدّمه، مع أنّ تبريره لا يفسّر أيّ شيء؛ أورده هنا بنصّه: «إنّي أروي بقصد الرواية لا بقصد الشرح».

عندئذ فقط، كما قلت، تنبّه جند أنطونيوس وجند أُكتافيوس، ممّن لم

Twitter: @ketab_n

يشاركوا في الهجوم الذي شنّته ميمنة جيشنا وصدره، إلى أنّ صدرنا غير محميّ فاندفعوا نحوه ونحو الميسرة التي كان كَسّيوس قد استعاد قيادتها.

كانت الميسرة ترزح تحت وطأة عبء صدر جيش العدوّ وميسرته، وهي لا تدري بفوز ميمنتنا، فتقهقرت.

إذن، ها هي ميمنتنا منتصرة وميسرتنا مهزومة.

ولم نكن على علم بتفاصيل تلك الهزيمة الجزئية، سوى أن كَسّيوس أبدى شجاعة بطوليّة. وحين رأى قوّات بْروتُس مندفعة بغير انتظام نحو العدوّ مجتذبةً قائدها، ظنّ أنّهم قضوا على بْروتُس. بل ذهبت به الظنون إلى أسوأ من ذلك بكثير، عندما أُنبأ بأنّها بدل أن تحارب راحت تنهب معسكر أُكتاڤيوس. فالتحرّك المُفترض أن تقوم به ضدّ العدوّ بالالتفاف عليه، قد قام به العدوّ ضدّها.

ترك أنصار قيصر الجمهوريّين يلهون بنهب المعسكر وتقتيل أهالي لَسِديمونِس، وانقضّوا على كَسّيوس بجيش يبلغ ضعف جيشه.

رأت الخيّالة ذلك الحشد الكبير فانتابها الرعب وتفرّقت فارّةً نحو البحر.

أمّا المشاة فقد أُصيبوا، لرؤيتهم ما بدر عن الخيّالة، بنفس الهلع وتزعزت عزائمهم.

اندفع كَسّيوس حينئذ ما بين صفوفهم وحاول وسعه أن يصدّهم عن الفرار.

انتزع الراية من حاملها ونصبها في الأرض وبقي ينتظر العدوّ شاهراً سيفه.

لكنّ الهلع بلغ من النفوس مبلغاً لم يستطع كَسّيوس معه بالرغم من شجاعته الفائقة أن يقنع حتّى حرسه الخاصّ بالصمود معه.

Twitter: @ketab_n

فأُجبر على التقهقر بدوره، تفادياً للوقوع حيّاً في يد العدوّ.

ثمّ انسحب مع قلّة من أنصاره إلى مرتفع مُطلّ على السهل؛ ومنه، شاهد جنود أنطونيوس ينقضّون على معسكره.

غير أنّه، لقصور بصره، لم يكن يتبيّن ما يجري في معسكر بْروتُس، ولا ما يحدث في معسكر أُكتافيوس.

خمّن أنّ بْروتُس قد هُزم، بما أنّه لم يأت لنجدته. جال إذّاك بنظره في ما حوله، فشاهد أحد ضبّاطه، المدعوّ تِتينيوس، وكان يحبّه حبّاً جمّاً بسبب شجاعته وذكائه، فناداه قائلاً:

- أترى حالتنا، يا تِتينيوس؛ يجب أن أحصل وبأسرع ما يمكن على أخبار بْروتُس.

أصدر أمره هذا فيما كان بْروتُس يهبّ لنجدته.

وإليك ما جرى:

حين أدرك بْروتُس أنّه انتصر -والواقع أنّنا استولينا على ثلاثة نسور وعدّة شارات - قفل راجعاً بعد أن نهب معسكر أُكتافيوس، وكلّه أمل بأنّ الحظّ حالف كَسّيوس كما حالفه. فوجئ بأن راية كَسّيوس لم تعد ترفرف حيث نُصبت. وممّا زاد من دهشته أنّ الراية المنصوبة في مكان مرتفع جدّاً كان يلمحها الجميع من أيّ موقع في السهل.

عبثاً راح يبحث عن الخيم التي كانت تحيط بالراية.

فاستعان بأكثر صحبه حدّةَ بصر.

أمعنوا النظر ثمّ قالوا لبْروتُس إنّهم يرون عدداً لامتناهياً من البشر يلتفّون بدروعهم ويحملون تروسهم يروحون ويغدون في المكان الذي كان يقوم فيه معسكر كَسّيوس. وأردفوا أنّه، نظراً لعددهم وثراء سلاحهم، من المستحيل أن يكون هؤلاء الرجال هم الحرس الذين بقوا

Twitter: @ketab_n

لحراسة المعسكر. ومع ذلك كانوا يؤكدّون له أنّهم لا يرون على ساحة المعركة الممتدّة في السهل، أسفلَ المرتفع، عدداً كافياً من القتلى يوحي بهزيمة كبرى استولى بفضلها العدوّ على معسكر كَسّيوس.

فجمع بْروتُس حوله ما استطاع من رجال وسار بهم سريعاً إلى حيث يوجد كَسّيوس حسب تخمينه.

في تلك اللحظة، مَثَل بين يديه رجل وافد خبباً على صهوة حصانه. فحدّق الجميع بهذا الرجل معتقدين أنّه رسول مُكلّف بنقل خبر مهمّ.

وحين أصبح على مسافة خمسمائة خطوة، صرخ صوت:

- تِتينيوس!

فاندفعوا جميعاً نحو تِتينيوس لعلمهم أنّه من أصدقاء كَسّيوس المقرّبين فراح بعضهم يحيط به بأحصنتهم وبعضهم الآخر يقفز أرضاً ويحيطه بذراعيه والكلّ يسأله عن أخبار كَسّيوس.

أمّا كَسّيوس فرأى المجموعة تندفع نحوه دون أن يميّز إن كانوا من الأصدقاء أو من الأعداء، وفي نفس الوقت يتابع النظر إلى تِتينيوس. حين اقترب رأى هيجان أصحاب بْروتُس واندفاعهم نحو تِتينيوس، أخطأ في حكمه وظنّهم جند قيصر أو أنطونيوس يحاصرون نائبه. فأصيب بمنتهى الألم، وصاح:

- آه! من شدّة تعلّقي بالحياة أنّي عشت لأرى أحد آخر أصدقائي المُفضّلين يقع بين أيدي أعدائي!

لم يشأ الاستفسار أكثر عمّا يجري، بل أشار إلى أحد مُعتَقيه واسمه پِندارُس بأن يتبعه، ثمّ أفلت رسن الحصان وتركه يخبّ، وهو مطأطئ الرأس مفطور الفؤاد، باتّجاه خيمته المنعزلة التي بقيت منتصبة دون أن يدري كيف.

Twitter: @ketab_n

وصل إلى عتبة خيمته فقفز أرضاً ودخلها.

وها هو ذلك الرجل الذي استأنف الحياة بعد هزيمة كْرَسُّس، والذي أفلت من البرثيّين بأعجوبة، وقد سئم النضال واستعجل قدوم أجله، لم يشأ أن يأخذ الوقت الكافي للاستعلام بشكل أكيد عن مصير بْروتُس للتثبّت من هزيمته أو نصره، ومن أنّه حيّ أو ميت، بل مدّ عنقه، كما تُقدّم الأضحية على المذبح، وأمر پِندارُس أن يضرب بسيفه.

تردّد پِندارُس. عند سماعه صخب الجند وهم يقتربون، والأحصنة وهي تدوس الأرض بحوافرها، والرجال المسلّحين بالحديد وهم يسيرون بخطى ثقيلة، أصرّ كَسّيوس على تنفيذ أوامره؛ ولم يعد لپِندارُس إلّا أن يضرب بسيفه.

بضربة واحدة سقط رأس كَسّيوس.

هرب بنداروس هائماً على وجهه. ولم يكن قد ابتعد عن الخيمة أكثر من خمسمائة خطوة حتّى دخل تِتينيوس عاقداً التاج على جبينه علامة النصر.

أوّل ما رآه جثّة، وقرب الجثّة رأس مفصول عن الجذع.

كان الوجه مُسلّطاً صوب الأرض. فكان لا بدّ له من الخوض في دم لا يزال بعد فاتراً ليبلغ الرأس.

تناوله من شعره وتأكّد أنّه رأس كَسّيوس، فقبّله.

في تلك اللحظة، وصل بعض من كانوا مع كَسّيوس حين وقع ذلك الخطأ المشؤوم، فأخبروا تِتينيوس بما جرى، فصرخ تِتينيوس:

- آه! ما أشقاني! إنّي سبب موت قائدي وصديقي.

ثمّ استلّ سيفه قائلاً:

- كنت قربك في حياتك، يا كَسّيوس، سأنضمّ إليك ميتاً حيث تكون!

Twitter: @ketab_n

ثمّ ارتمى على سيفه، فاخترق السيف جسده من الجانبَين.

وصل بْروتُس في تلك الأثناء، وكان قد تبلّغ بعض الأقاويل عمّا حدث تحت الخيمة، فحثّ السير.

وصل بعد فوات الأوان ليس فقط لإنقاذ كَسّيوس بل كذلك لإنقاذ تِتينيوس.

فتناول التاج الذي تدحرج عن جبهة تِتينيوس إلى الأرض، ووضعه على جثّة كَسّيوس وقد اغرورقت عيناه بالدموع وارتفع صوته بالنحيب، وهو يقول:

- السلام على آخر الرّومان!

ثمّ أمر بدفن الجثمان وبإقامة مأتم له في جزيرة تاسون، لئلّا تُشيع المراسيم الجنائزية الاضطراب في المعسكر.

ومن ثمّة وزّع على كلّ جنوده ألفَي درهم تعويضاً لهم عمّا خسروه من جرّاء نهب المعسكر.

صار كَسّيوس في عداد الأموات، أمّا بْروتُس فبقي في عداد الأحياء، صامد القامة لا يتزعزع، بقي روح الجماعة.

لم يكن كَسّيوس سوى ذراعها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

خسارة الجيشين - ظنّ أُكتافيوس وأنطونيوس أنّهما قد هُزما - ديميتريوس يبلّغ أنطونيوس بوفاة كَسّيوس غير المتوقّعة- إعدام الممثّل الإيمائيّ ڤُلُمنيوس والمهرّج سَكوليون - المجاعة في معكسر حكومة الثلاثة - بْروتُس يحسم أمره بخوض المعركة- نذير شؤم -معركة فِلِيپي الثانية - بْروتُس ينهزم - تفاني لُسيليوس - مَرُكُس كاتون الابن يأمر بأن يُقتل- ظننت بْروتُس مهزوماً فرميت ترسي وهربت - اللحظات الأخيرة من حياة بْروتُس - فلسفته - موته - مِسّالا يقدّم سْترَتون إلى أُكتاڤيوس - تمثال بْروتُس في مِديولانُم.

رجع بْروتُس إلى معسكره.

وكان الوحيد المنتصر بين القادة الأربع؛ فأُكتاڤيوس انهزم أمام بْروتُس، وكَسّيوس أمام جيش أنطونيوس. أمّا أنطونيوس الذي لم يشهد المعركة، بسبب خوفٍ مستعصٍ على الفهم، فقد انهزم أمام خوفه.

في مساء ذلك النهار، المأساويّ بنتائجه المعنوية أكثر منه بالخسائر المادية، جمع بْروتُس رجاله ورجال كَسّيوس. ونوديَ بالأسماء.

Twitter: @ketab_n

بقي في ساحة المعركة ثلاثة آلاف قتيل من الجمهوريّين؛ وخسر أنصار قيصر ستّة عشر ألف رجل.

عمّ الأسى معسكر حكومة الثلاثة التي اعتبرت ذلك اليوم يوم شؤم. كان أنطونيوس يسهر تحت خيمته يعتريه الخجل، حين بُلّغ بأنّ أحد مُعتَقي كَسّيوس يطلب التحدّث إليه.

كان اسم مُعتَق كَسّيوس هذا ديميتريوس.

أمر أنطونيوس بإدخاله، وبما أنّه كان يجهل نوايا الرجل احتفظ قربه بثلاثة جنود أو أربعة.

والحال أنّ ديميتريوس أتى، طمعاً بالمكافأة، يبشّر أنطونيوس بموت سيّده.

لعدم توقّعه مثل هذا الخبر، لم يشأ أنطونيوس أن يصدّقه.

فأراه ديميتريوس عندئذ ثوب سيّده وسيفه وأخبره بتفاصيل ما جرى في الخيمة بحذافيره.

كانت التفاصيل من الدقّة بحيث أنّه لم يعد يخامره أيّ شكّ.

فأسرع إلى أُكتافيوس وكان مثله يعتبر النهار يوم هزيمة وأخبره بكلّ شيء.

عند المساء، جمعوا الضبّاط وأمروهم بأن ينشروا بين جنودهم نبأ موت كَسّيوس، وأن يؤكّدوا لهم على أنّه لم يُقتل في المعركة بل بعدها، وأنّه مات يأساً لظنّه أنّه خسر المعركة.

أثمر النبأ عن النتيجة التي قصدها أنطونيوس، إذ راح الجنود في اليوم التالي يطالبون بخوض المعركة صارخين بملء جناجرهم.

تقدّم أنطونيوس وأُكتافيوس بجيشهما نحو بْروتُس الذي كان معتكفاً في معسكره. فقد كان معسكره ومعسكر كَسّيوس يغليان غلياناً يحول

Twitter: @ketab_n

دون أيّة مغامرة. امتلأ معسكره بعدد كبير من الأسرى عليه أن يُراقبهم، وامتلأ معسكر كَسّيوس بالغاضبين.

والواقع أنّ أمرين أصبحا شديدَي الوطأة على جنود كَسّيوس: هزيمتهم هم وانتصار بْروتُس.

أمّا الأسرى فقد وزّعهم بْروتُس إلى فئتين، ففصل العبيد عن الأحرار وأمر بقتل العبيد برمّتهم؛ ثمّ أخلى سبيل الأحرار فخيّرهم بين الانضمام إلى أُكتاڤيوس أو موالاته هو.

بقي بعضهم معه، بينما رجع أغلبهم إلى معسكر أُكتاڤيوس.

وكان من بين الأسرى من استثار نقمة عارمة لدى ضبّاط بْروتُس، ممّا أجبر بْروتُس على إخفائهم في خميته الشخصية حفاظاً على حياتهم.

إلّا أنّ بعضاً منهم لم تُجدِ فيهم الجهود المبذولة. منهم ممثّل إيمائيّ اسمه ڤُلُمنيوس ومهرّج اسمه سَكوليون.

لم يعطهما بْروتُس من الاهتمام أكثر ممّا يستحقّان، نظراً للمهنة التي يمارسانها. غير أنّ بعض أصدقائه أتوا يخبرونه أنّهما، بالرغم من كونهما في الأسْر، مستمرّان في السخرية بشكل وقح. هزّ بْروتُس كتفيه دون أن يجيب.

فاقترح مسّالا أن يُجلدا بالعصيّ فوق منصّة ثمّ يرسلا إلى أُكتاڤيوس وأنطونيوس، حتّى يتسنّى له تعيير القائدين بأنّهما يستقبلان مثل هؤلاء الضيوف والأصدقاء، حتّى في معسكراتهما.

ولقي الاقتراح قبولاً، على سبيل النكتة، مشفوعاً بالضحك. وكادوا يكتفون بهذا الانتقام اليسير، حين وقف پوبلِيوس كَسكا - وهو أوّل من وجّه الضربة لقيصر - منفجراً من الغضب وقال:

- لا يليق بنا أن نحتفل بمراسيم دفن كَسّيوس بمثل تلك الألاعيب.

Twitter: @ketab_n

ثمّ استدار نحو بْروتُس مستدركاً:

- ينبغي لك أنت بالذات، يا بْروتُس، أن تُرينا أيّة ذكرى تحتفظ بها عن زميلك، إمّا بالاقتصاص من الذين يتّخذونه موضوع سخريّتهم وإمّا بتوفير حياتهم.

انجرح بْروتُس من هذا التأنيب، ولا سيّما أنّه ورد بهذه اللهجة، فأجاب:

- لماذا تطلب رأيي، يا كَسكا، وما سبب إحجامك عن القيام أنت نفسك بما تعتقده واجباً عليك؟ فسأله كَسكا:

- هل تخوّلني سلطة القيام بذلك؟

- بكلّ تأكيد؛ أجاب بْروتُس.

- حسناً؛ ردّ كَسكا.

خرج في الحال من غرفة بْروتُس وأمر بقتل فُلُمنيوس وسَكوليون على الفور. فنُفّذ أمره.

أثار إحجام بْروتُس قلقاً شديداً لدى أنطونيوس وقيصر.

كان بْروتُس يجهل أمراً هما على علم به؛ وهو أنّ معركة بحريّة جرت يوم هُزم كَسّيوس وانتحر. فقد شنّ أسطول الجمهوريّين هجوماً على قافلة سفن محمّلة بالمؤن، آتية لنجدة أنصار قيصر ومعها تعزيزات كبيرة من الجنود؛ ممّا أدّى إلى تشتّتها. فمُنيت القافلة بهزيمة بالغة لم ينجُ منها إلّا قلّة من الجند، لم يبقَ لديهم مؤن فأُكرهوا على أكل أشرعة السفن وحبالها.

مع ذلك الشحّ العظيم المُلمّ بهم، أُجبروا على إقامة معسكرهم في منطقة واطئة تكتنفها المستنقعات، وقد تبلّلوا بأمطار الخريف التي هطلت بعد المعركة، وهم في حالة خوف شديد من البرد اللاذع المنبئ

Twitter: @ketab_n

بقدوم شتاء قارس؛ فهيهات أن يتمتّعوا بالوضع الذي كان عليه بْروتُس: معسكره في المكان الملائم، ومؤنه مضمونة لفترة طويلة، لا يُعرّضه موقعه لعذاب الشتاء، ولا يخشى أن يدهمه العدوّ بفضل سيطرته على البحار وانتصاره في البرّ. ولعلّ الإمبراطوريّة الرومانيّة لم يعد بوسعها القبول بقيادة عدّة أسياد، فلم يكن لها بدّ من الانقياد لسيّد أوحد؛ كما أنّ الآلهة ارتأت، بوافر حكمتها، أن تنقذ أُكتافيوس من الرجل الوحيد القادر على منعه من بسط سلطانه، فمنعت بْروتُس من الاطّلاع على تلك الظروف التي كان من شأنها أن تجعله يتفوّق تفوّقاً عظيماً على أعدائه.

فقرّر بْروتُس خوض المعركة جاهلاً وضعه الحقيقيّ. والدليل على وقوف الآلهة ضدّه، أنّ شخصاً اسمه كلوديوس فرّ من الجيش قادماً إلى معسكره عشيّة شنّ معركة فِليبي الثانية، ليبشّره بانتصار أسطوله. إلّا أنّ ضبّاطه ظنّوه متسكّعاً يسعى إلى مكافأة، فلم يحفلوا على الإطلاق بالنبأ المهمّ الذي أتاهم به، ولم يسمحوا له حتّى بمقابلة بْروتُس.

هبط الليل أسود ممطراً وخيّم فوق المعسكر. انسحب بْروتُس إلى خيمته كالمعتاد وارتمى على سريره. وما كاد يقع عليه حتّى سمع ذلك الحفيف الذي سبق حضور الشبح في سَرَدا. أدار عينيه صوب الباب فرأى الشبح الذي كان قد ضرب له موعداً منتصباً أمامه.

لكنّه تلاشى هذه المرّة دون أن يترك لبْروتُس فرصة التحدّث إليه.

طلع النهار، وبْروتُس شبه عازم على شنّ المعركة في ذلك اليوم. لذا هبّ من نومه قبل الفجر.

فجأة سمع صوتاً، فاستفسر عن الأمر.

قيل له إنّ حبشيّاً وافى إلى باب المعسكر بينما كان الحرس يفتحونه؛ ففسّروا ظهوره هذا على أنّه طالع شؤم، فقتلوه.

Twitter: @ketab_n

والضجّة التي سمعها بْروتُس نجمت عن فتك الجنود بذلك التعس الحظّ.

أخرج بروتُس جيشه وصفّه للمعركة مقابل جيشَي أنطونيوس وأُكتافيوس مجتمعَين، دون أن يعطي إشارة البدء بالقتال، لأنّه كان لتوّه قد تلقّى تقارير مقلقة عن بعض أفواج جيشه. إضافة إلى ذلك، كانت خيّالتنا تأنف من المبادرة إلى الهجوم، تاركةً أمر ذلك للمشاة.

في تلك اللحظة، أتى نسران، أحدهما من صوب الشرق والآخر من صوب الغرب، واجتمعا فوق جيشيَنا وراحا يشتبكان بعنف.

أتى النذير هذه المرة بصيغة مباشرة: أليس بروتُس وأُكتافيوس نسرين يتصارعان نسراً ضدّ آخر؟ فسادَ المعسكرَين صمت غير اعتياديّ.

ثمّ إنّ النسر القادم من الشرق، أي من جهة بروتُس، فرّ مهزوماً.

عندها تقدّم أحد ضبّاط بروتُس، المشهود له بالشجاعة، خارج الصفوف وسار رأساً نحو العدوّ. لم يكن بوسع أحد منّا أن يتبيّن نيّته، لا سيّما وأنّ آمال الجميع معقودة عليه.

والواقع أنّه هجر معسكر بروتُس لينضمّ إلى معسكر أُكتافيوس.

تبخّرت آخر أوهام بروتُس، فعمد، بالرغم من انقضاء ثلاثة أرباع النهار وتوقّع هبوط الشمس نحو المغيب حوالى الساعة التاسعة، إلى إصدار أوامره لجيشه بالزحف على العدوّ.

فتردّدت على طول الصفوف صيحة « إلى الأمام! »

اتّخذ بروتُس موقعه في الميمنة التي كان يقودها شخصيّاً، وحمل على العدوّ بما أوتي من عزم، فاخترق الصفوف المواجهة له. وتدافعنا وراءه خيّالة ومشاة، فدحرنا ميسرة أُكتافيوس برمّتها.

غير أنّ ميسرة بروتُس، لسوء حظّنا، تمدّدت كثيراً خشيةَ أن يلتفّ

Twitter: @ketab_n

عليها العدوّ المُتفوّق عدداً؛ كما أنّ أنطونيوس الذي تولّى القيادة هذه المرّة سعى إلى محو ذكرى غيابه عن معركة فِلِبّي الأولى، فدفع كتلة متماسكة من جيشه في مواجهة ميسرتنا الواهنة، وشطرها من وسطها مجبراً طرفيها على التشتّت؛ ثمّ طوّق قلب ميسرة الجمهوريّين وميمنتهم، مطمئنّاً إلى أنّ الفارّين عاجزون عن استئناف القتال.

عندئذ دبّ هلع شديد في قلوب أغلبيّة جنودنا. لم تُجدِ كلّ إشارات بروتُس إلى جنوده بالرأس واليد وبكلّ ما يملكه قائد عظيم، ولا الشجاعة المذهلة التي أبداها مَركُس، ابن كاتون، الذي لم يتقهقر خطوة عن موقعه بل جابه الموت وهو يصرخ « أنا كاتون! »، ولم يسقط إلّا وتحته كومة من الأعداء قتلى. فالكثيرون ممّن رأوا الموت عن كثب دون أن يتحلّوا بالشجاعة الكافية للصمود عمدوا إلى الفرار.

لا بدّ لي من الاعتراف أنّي كنت من بين هؤلاء.

الحقيقة أنّي ظننت أنّ بروتُس قد أُسِر. وإليك سبب خطأي.

كان بين صفوفنا صديق حميم لبروتُس، بدا له أنّ الهزيمة أصبحت أمراً محتوماً. لمح مجموعة من الفرسان الغرباء تستبسل في محاصرة قائده، فعزم على التضحية بحياته في سبيل إنقاذه، إن اقتضت الضرورة. كان يُدعى لُسيليوس.

فارتمى في وسط الفرسان صارخاً: « أنا بروتُس! »، وجرح اثنين أو ثلاثة من بينهم، وظلّ يصرخ « أنا بروتُس! » وهو يفرّ إلى الجهة المقابلة حيث كان بروتُس الحقيقيّ يقاتل.

سمعه الفرسان الغرباء، ولم يكونو قد رأوا بروتُس من قبل، فهبّوا يطاردونه وهم يصرخون: « الموت لبروتُس! ».

حينئذ ترك كلّ من سمع صراخه المعمعة والتحق بالمطاردين.

Twitter: @ketab_n

حين تراءى للُسيليوس أنّه ابتعد بهم مسافة كافية، رمى سيفه قائلاً:

- إنّي أستسلم، قودوني إلى أنطونيوس.

ندرك بسهولة لماذا يخشى قاتل قيصر أن يُساق إلى أُكتاڤيوس. انقضّ الفرسان على منتحل شخصيّة بروتُس، دون أن يمسّه أحد بأيّ أذى بغية الحصول على المجد الموعود لمن يقبض عليه حيّاً.

وراح يكرّر لهم:

- قودوني إلى أنطونيوس لا إلى أُكتاڤيوس.

تجمّع كلّ أنصار قيصر حوله صارخين:

- أجل، إلى أنطونيوس، إلى أنطونيوس، لا إلى قيصر.

سمعتُ صيحة «أسَروا بروتُس!» ورأيت تلك المجموعة المتزايدة العدد تحيط برجل لا ينفكّ يردّد: «أنا بروتُس، إنّي استسلم، قودوني إلى أنطونيوس».

ظننت أنّ الهزيمة قد وقعت، فنجوت بنفسي، بل رميت ترسي لأسرع في الركض. بعد أن قطعت مسافة قصيرة، تضايقت من صرّتي المخملية فأفرغتها من محتوياتها وقذفت بها بعيداً عنّي. وأخيراً خشيت من أن يفضحني خاتمي، فأرسلته في أثر ترسي وصرّتي المخملية.

والآن، وقد تعرّفت على سْتراتون الذي علّم بروتُس الفصاحة، والذي أسدى له آخر خدمة طلبها فأمسك بالسيف ليُيسّر لبروتُس عملية الارتماء عليه، بوسعي أن أروي مصرع بروتُس بتفاصيله، مع أنّي لم أحضره.

لي كلمة أخيرة أقولها عن لُسيليوس وكيف ظنّ أنّه بتصرّفه أنقذ حياة بروتُس، مع أنّه لم يؤجّل مصرعه سوى بضع ساعات.

بلغ أنطونيوس نبأُ أسر بروتُس ففرح به فرحاً عظيماً. فسار في الاتجاه

Twitter: @ketab_n

الذي دلّوه عليه مُسرعاً للقاء الأسير، دون أن يستوعب كيف استطاعوا القبض عليه حيّاً. حين أصبح على مسافة بضع خطوات من المجموعة، توقّف يبحث بنظره عن الشخص الذي يطلبه ولم يتبيّنه بين الحضور. خرج لُسيليوس وقتها من الصفّ وسار مباشرة نحو أنطونيوس قائلاً له:

- عيناك تبحثان عن بروتُس ولا تجدانه. فبروتُس لم يقبض ولن يقبض عليه حيّاً أحدٌ. لا سمحت الآلهة للأقدار أن تتمكّن من رجل مثله بهذا الأسلوب! لا شكّ أنّكم ستعثرون عليه ميتاً، وربّما حيّاً. لكنّكم ستجدونه، حيّاً كان أم ميتاً، على كرامته المعهودة. أمّا أنا فقد غششت جندك بانتحالي شخصيّة بروتُس. فها أنا؛ لقد نجا بروتُس بفضل حيلتي. أصدِر أوامرك، يا أنطونيوس، إنّي مستعدّ للموت.

ووقف ينتظر.

اعتقد الجميع أنّ لُسيليوس سيلقى مصرعه الذي يسعى إليه. لكنّ أنطونيوس توجّه إلى الذين اقتادوه إليه، وهم ينظرون بعضهم إلى بعضٍ خجلين من خطأهم، وقال:

- أيّها الرفاق، لا بدّ أنّكم مستاؤون جدّاً لوقوعكم في هذه الخديعة، أليس كذلك؟ لكن يجب أن تعرفوا أنّ طريدتكم هذه أفضل بدرجات من تلك التي كنتم تلاحقونها. رحتم تلاحقون عدوّاً فأتيتم لي بصديق. وعلى كلّ حال إنّكم تجنّبونني إحراجاً كبيراً، إذ بأيّة طريقة عساني أتصرّف مع بروتُس لو أتيتم به حيّاً.

ثمّ مدّ يده للُسيليوس قائلاً:

- أَحبُّ إليّ أن أكسب صديقاً كهذا من أن أبسط سلطاني على أعدائي.

تأثّر لُسيليوس من كرم أنطونيوس، فارتمى في أحضانه. وبقي منذ ذلك اليوم ملازماً له وعلى وفاء لا تفلّه الشدائد.

Twitter: @ketab_n

أمّا بروتُس فتخلّص من أعدائه الذين كانوا يهاجمونه قبل أن يأخذوا في مطاردة لُسيليوس خطأً، ثمّ اجتاز النهر وأصبح في أمان مختفياً وراء ستار من الشجر في عتمة الليل.

سار مدّة عشر دقائق تقريباً ليبتعد عن ساحة المعركة. ثمّ وجد منخفضاً من الأرض فتوقّف عن السير وجلس على صخرة مع من لزمه من ضبّاط وأصدقاء قلائل. ورفع عينيه إلى السماء المتلألئة بالكواكب وألقى هذين البيتين الواردين في كتاب أُريپِديس، **ميدِيا**:

«لا تتغاضَ، يا جوپِتير عن مُسبّب مثل هذه الشرور.

«الفضيلة، يا لها من اسم باطل، وظلّ باطل، وأمَة من عبيدِ الصُّدَف، وا أسفاه! أنّي آمنت بكِ».

الحكمة التي طالما أوخذ بروتُس بسببها: «أيّتها الفضيلة، ما أنت إلّا لغوٌ»، لم تكن حكمة، ولا قولاً من أقوال بروتُس، بل مجرّد قول مقتبس من أُريپِديس.

لم يكن لبروتُس وهو يحتضر أو وهو على شفا الموت ليستنكر حياته بأكملها على هذا النحو.

بعد هذين البيتين، سادت لحظة من الصمت. ثمّ سمّى بروتُس جميع أصدقائه الذين قضوا أمام عينيه واحداً تلو الآخر، مبتدئاً بكاتون الابن؛ وتفجّع خاصة عند ذكر فلاڤيوس ولابيون، مع أنّ فلاڤيوس لم يكن إلّا رئيس عمّاله. أمّا لابيون فكان نائبه.

أحسّ واحد من الذين فرّوا معه بالعطش، ولعلّه كان جريحاً. وكان مجرى النهر على بعد خمسمائة خطوة، فأخذ بروتُس خوذة وذهب ليجلب له ماء. في تلك اللحظة سُمع صوت على الضفة الأخرى. فاعترى فُلومِنيوس ودَردانُس القلق على بروتُس أكثر من قلقهما على نفسيهما،

Twitter: @ketab_n

فهرعا نحو النهر. لم يكن الصوت في الواقع نذير خطر. عندما قفلا راجعين وطلبا حصّتهما من الماء، وجدا أنّه لم يبقَ منه شيء. فقال بروتُس:

- يا صديقيّ، سنأتيكم بالماء.

وأشار إلى الجنديّ الذي ذهب إلى النهر في المرّة الأولى بأن يُعيد الكرّة. ولكنّه هذه المرّة، عاد من النهر جريحاً، وكادوا يقبضون عليه.

ثمّ سأل بروتُس من حوله:

- هل تعتقدون أنّ عدداً كبيراً من الجند ماتوا في المعركة؟ أجاب سْتَتيليوس:

- يمكننا التأكّد من ذلك.

ثمّ نهض واندفع صوب النهر واختفى وراء ظلّ الأشجار، مع أنّ بروتُس، الذي استشعر الخطر، ناداه بأن يرجع.

وقبل أن يختفي تماماً، التفت صوب قائده قائلاً:

- إن بلغت المعسكر ووجدته في وضع جيّد، فسأرفع مشعلاً وأعود فوراً إليك.

حدّق الجميع ببصرهم باتّجاه المعسكر، وسرعان ما رأوا مشعلاً يتلألأ على موقعه. ثمّ انطفأ المشعل.

للحظة استعاد بروتُس أمله، فقال:

- هيّا، عسى الآلهة لم تتخلَّ عنّا كليّاً.

انتظر. مرّت ساعة ولم يرجع سْتَتيليوس، فهزّ رأسه قائلاً:

- سْتَتيليوس إمّا ميتٌ وإمّا أسير؛ فلو كان حيّاً أو حرّاً لكان الآن بيننا.

والواقع أنّ سْتَتيليوس وقع في قبضة أنصار قيصر فقتلوه.

تقدّم الليل ولم يبقَ سوى ساعة على طلوع النهار.

فانحنى بروتُس نحو كْليتُس، وهو أحد خدمه، وأسرّ له ببعض

Twitter: @ketab_n

الكلمات.

ثمّ توجّه إلى ڤُلومِنيوس باليونانية:

- يا صديقي، تذكّر أنّنا رفيقَي صبا؛ تذكّر أنّنا درسنا معاً؛ تذكّر أنّ نفس القضيّة قد جمعت ما بيننا. والآن! آن الأوان لتبرهن لي عن حسن صداقتك. يا ڤُلومِنيوس، ساعدني لأموت. فسأله ڤُلومِنيوس:

- وكيف ذلك؟

- بالتكفّل بالضربة التي أريدها قاضية عليّ. فصرخ ڤُلومِنيوس مرتاعاً:

- آه منك يا بروتُس!

ثمّ نهض وابتعد عن بروتُس لا يلوي على شيء.

أصرّ بروتُس، غير أنّ ڤُلومِنيوس اكتفى بهزّ رأسه علامة استنكار دون أن يجيبه.

وقتها سمعوا نفس الصوت الذي سمعوه سابقاً آتياً من الضفّة الأخرى؛ فقال لبروتُس أحد أصدقائه:

- علينا بالفرار! أجابه بروتُس:

- أجل، بكلّ تأكيد، علينا بالفرار، ولكن ينبغي لنا أن نستعمل أيدينا لا أرجلنا في سبيل الفرار.

ثمّ شدّ على أيدي كلّ من كانوا حوله قائلاً بلهجة مرحة:

- هيّا! إنّي سعيد بأنّ أحداً من أصدقائي لم يتخلَّ عنّي، وأنّي قد أشكو سوء حظّي ولكن لا في ما يخصّ الوطن. لذا أعتبر نفسي أسعد بكثير ممّن انتصروا عليّ، في الماضي وحتّى في الحاضر؛ لأنّي أترك بعدي سمعة فاضلة لن يستطيعوا اكتسابها بأسلحتهم أو بثرواتهم،

Twitter: @ketab_n

ولا توريثها لخلَفهم. ومهما فعلوا، سيقال عنهم إنّهم ظالمون أشرار، انتصروا على أهل الخير ليغتصبوا سلطاناً ليس من حقّهم على الإطلاق. ثمّ استأنف حديثه قائلاً: تداركوا أنفسكم لتكونوا في أمان، ولا تهتمّوا بأمري من بعد.

بعد ذلك انتحى بروتُس ناحية مع اثنين أو ثلاثة من أصدقائه، منهم سْتراتون الذي، بعد رجاء طويل، رضي بأن يفعل ما رفضه ڤُلومِنيوس؛ فسلّمه سيفه ليثبّته بكلتا يديه في الأرض. ثمّ اندفع بروتُس مرتمياً على سنّ السيف متصلّب الجسد فاخترقه السيف من جانبيه. مات في الحال.

ذات يوم، بعد سنتين أو ثلاث من معركة فِلِپّي، كنت عند قيصر مع ڤِرجيليوس وأَگرِپّا ومِسّالا وپُلّيون، فدار الحديث حول بروتُس.

قال أُكتاڤيوس إنّ بْروتُس صاحب قلب كبير وكان يودّ لو أنّه لم ينتحر.

هذا المشهد، مهّد له مِسّالا الظروف، حين طلب إلى قيصر الإذن بأن يقدّم له أحد أصدقائه.

أذن له قيصر بذلك.

فنادى مِسّالا أحد خدم أغُسطُس وأمره بأن يُدخل الرجل المُلتفّ بمعطف، الموجود في بهو القصر.

عاد الخادم بعد ربع ساعة برفقة الرجل.

ذهب مِسّالا نحوه وأخذه من يده وقدّمه للإمبراطور قائلاً وعيناه مغرورقتان بالدموع:

– هاك، يا قيصر، الرجل الذي أدّى آخر خدمة إلى عزيزي بروتُس.

– سْتراتون؟ سأل قيصر ولونه يشحب بعض الشيء.

– هو نفسه.

Twitter: @ketab_n

ومدّ يده لشْتراتون.

منذ ذلك الحين، عامل قيصر شْتراتون معاملة الصديق وأشركه في كلّ مهماته. اعترافاً بذلك الجميل، أدّى شْتراتون للإمبراطور من الخدمات، ولا سيّما خلال معركة أكسيوم، أكثر ممّا أدّاه أيّ ممّن لازموه طوال حياته.

لنعد إلى بروتُس، الذي لم نغادره إلّا لنذكر كم كان قيصر يذكره بالحسنى.

بقي جثمان بروتُس حيث انتحر إلى أن اكتشفوه في اليوم التالي. وصل أنطونيوس وقت اكتشاف الجثمان فأمر بتكفينه في أثمن زرد ثمّ جمع رفات بروتُس وأرسله إلى أمّه سِرڤيليا.

بعد فترة من الزمن على مراسيم الدفن، علم قيصر أنّ الجنديّ الذي عهد إليه بتكفين بروتُس قد سرق الدرع. فأمر بصلب السارق.

لم يصحّ على الإطلاق ما أُشيع من أن پُرسيا، عندما عرفت بموت زوجها، انتحرت بابتلاعها الجمر. فقد توفيّت پُرسيا قبل معركة فِلِپّي بأربعة أشهر. كما أنّي اطّلعت على رسالة كتبها بروتُس إلى بعض أصدقائه يلومهم فيها على تخلّيهم عن زوجته وعلى أنّهم قبلوا بأن تستعجل أجلها تجنّباً للآلام الناجمة عن مرض طويل.

لقد ذكرنا مثالاً على التقدير الذي يكنّه قيصر لبروتُس؛ وها هو مثال آخر.

لم يكتفِ قيصر بأنْ أذنَ بإقامة مأتم جليل لبروتُس، بل شاء أن يحتفظ له بعد موته بكلّ ما كان يتمتّع به في حياته من احتفاء وتكريم.

من ذلك تمثاله ممتطياً صهوة حصانه، أقامته له مدينة ميلانو، الواقعة في بلاد غاليا ما وراء جبال الألپ.

مرّ قيصر بميلانو وشاهد تمثال بروتُس المتقن الصنع، بملامحه المطابقة

Twitter: @ketab_n

تماماً للأصل.

نظر إليه من طرف عينه واستأنف طريقه.

غير أنّه حين وصل إلى القصر المُعدّ له، استدعى قضاة المدينة وقال لهم أمام جمع غفير:

- لقد نقضتم المعاهدة التي أبرمتها معكم. فأجابوه وقد اشتدّ اضطرابهم:

- وكيف ذلك؟

- حين منحتم أعدائي حقّ اللجوء داخل أسواركم.

نظر القضاة إليه وهم يهمّون على الاعتراض؛ غير أنّ قيصر مدّ يده وأشار بإصبعه إلى التمثال، القائم في الساحة التي كان يسكنها:

- ماذا! أليس هذا أحد أعدائي قد انزلتموه في عقر مدينتكم؟

فتطلّع القضاة بعضهم إلى بعض مذهولين. قال لهم قيصر إذّاك:

- هيّا! هيّا! كفى. إن كان كلّ عظيم يستحقّ تمثالاً فمن أحقّ بالتمثال من بروتُس؟

فلا يعجبنّ أحد إن ذكرتُ قائدي القديم بكلّ هذا الخير، بما أنّ قيصر ذكر عدوّه القديم بمثله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

الهرب في مضايق جبل پانجيه - ألتقي بعامل مناجم يدلّني على بيته، فتصبح زوجته دليلي وتقودني إلى خليج أَبديرا - يقودني صيّاد إلى سفينة أنتِستيوس. أصادف في طريقي پُمپيوس ڤارُس - يُعلمني بموت بْروتُس - نرسل رجلاً يونانيّاً إلى معسكر أُكتاڤيوس. أنتِستيوس يقرّر الالتحاق بسكتوس پُمپيوس - يأخذونني معهم إلى بْرُنديزيوم - پُمپيوس ڤارُس يستأنف مسيره مع أنتِستيوس - سِكستُس پُمپيوس.

بعد المعركة، قصدت أوّل سلسلة من جبال پانجيه، بعد أن ألقيت عني عبء ترسي وصرّتي المخملية وتخلّصت من خاتمي، دون أن أتوقّف في طريقي إلّا حيث كنت أشعر بالأمان.

حوالى الساعة الثانية من الليل، حين بلغت ما يشبه مضيقاً جبليّاً يقيني قرْص الريح الآتية من الشمال، توقّفت عن السير على ضفّة جدول، استنتجت من استدلالي على الجهات أنّه يصبّ في نيزيُس، أي النهر الفاصل بين تراسيا ومقدونيا. فتدبّرت أمري لأقضي ليلتي هناك، وأنا أدعو الآلهة أنْ لا تكون الحيوانات قد استعادت بعدُ تلك الشراسة التي كسر الإله أُرفِيوبس من حدّتها.

Twitter: @ketab_n

لا طعام لديَّ، وها أنا تخلّصت من أولى مخاوفي، فبدأت أحسّ بحموضة الجوع اللاسعة. هدّأت جوعي ببعض جرعات ماء غرفتها من الجدول، ورحت أبحث تحت بضع شجرات عن مكان يقيني.

فكّرت عندئذ ببْروتُس وبالقسَم الذي ألزم به كَسّيوس، فالتزم به فعلاً. ودعيت الآلهة ألّا يلتزم بْروتُس بقسمه بنفس القدر من الإخلاص، ثمّ أغمضت عينيَّ على أمل أن أخلد إلى النوم.

إنّ النوم أكثر آلهة الأولمپ مزاجيّةً، ونادراً ما يصغي إلى توسّلات البشر، ولا يسخى بنعمه إلّا وفق هواه.

فلم يعُدني إلّا بعد طول انتظار، مع ما يواكبه من إنذار وارتعاش واستيقاظ على حين غرّة. طلع النهار ففتحت عينيّ واستأنفت سيري، تقودني أولى أشعّة الشمس.

تابعت مسيري شرقاً على أمل أن أجد على يميني خليج أَبْديرا، فلا بدّ أنّ بعض سفننا راسية فيه. والواقع أنّي حين بلغت قمّة مرتفع، طالعني البحر من جديد، فرأيت على سطحه عدداً كبيراً من الأشرعة.

لكن من هو صاحب تلك الأشرعة، أهو أسطول حكومة الثلاثة أم أسطولنا؟ ذلك ما استحال عليّ معرفته. فقد أشيع عشيّة المعركة أنّ أسطولنا قد هزم أسطول أنطونيوس وقيصر؛ غير أنّ ذلك النبأ، كما أسلفت، سرى مسرى الإشاعة فلم يصدّقه أحد.

سلكت درباً خمّنت أنّه يقودني إلى الخليج.

ما إن قطعت ميلاً حتّى وجدت نفسي، عند منعطف إحدى الطرق، أمام رجل مسكين الحال، وأدركت من لون وجهه ويديه أنّه عامل مناجم، فمناجم الذهب والفضّة كثيرة في جبل پانجيه.

قصدت ذلك الرجل وطلبت منه ثلاثة أمور، واعداً أن أدفع عنها

Twitter: @ketab_n

ثمناً جيّداً: قطعة خبز، مأوى للنهار في كوخ، ودليل يقودني إلى البحر ما إن يأتي المساء.

أمّا قطعة الخبز فسرعان ما حصلت عليها. فتّشَ في خُرج كان يحمله على كتفه، وسحب منه قطعة من خبز أسود، هي مؤونة يومه، لا بدّ أنّها خرجت من الفرن منذ أسبوع.

من فرط جوعي وجدتها طازجة طيّبة المذاق.

أمّا المأوى فسهل عليه أن يؤمّنه لي دون أن أحيد عن طريقي. ليس لي إلّا أن أتابع سيري فأجد كوخه على مسافة ميلين، وفي داخله امرأته وولداه؛ فأقول لامرأته أنّي لقيته في الطريق. فدلّني على بيته، لأمكث ما شئت ثمّ أنطلق منه إلى البحر.

أمّا الدليل الذي من شأنه أن يقودني إلى خليج أَبديرا، فليس لي أن انشغل بأمره، إذ أنّ بيته على بعد ثلاثة أميال فقط، وامرأته بنت بحّار قادرة على القيام بالمهمّة.

أعطيت ذلك الرجل المسكين قطعة ذهبيّة واستأنفت طريقي.

وجدت الكوخ والمرأة والولدين وفق ما قاله لي، فمكثت فيه من الساعة الثالثة حتّى الساعة العاشرة.

عند الغسق، انطلقنا.

بعد ساعة كنّا على الخليج في بيت الصيّاد.

هناك تأكّدت وببالغ السعادة من صحّة نبأ هزيمة أسطول حكومة الثلاثة، ومن أنّ السفن المحمّلة بالمؤن والجنود التي رأيتها سابقاً تابعة بالفعل للجمهوريّين.

رحت أدغدغ الأمل بأن يكون بْروتُس قد أفلت من يد أعدائه ولجأ إلى الأسطول، فيقد يتمكّن عندئذ من السيطرة على البحار ليواجه

Twitter: @ketab_n

أُكتافيوس وأنطونيوس.

في الساعة الثانية من الليل، ودّعت تلك المرأة الطيّبة ونقدتُها فِلِبّيّة ذهبيّة ثانية وركبت زورق أبيها.

استلم المجاذيف شابّان وسيمان وقويّان، هما ابنا البحّار العجوز، واستلم والدهما دفّة القيادة.

وانزلقنا بصمتٍ فوق الماء في خليج تازُس الجميل، حيث لا يزال يرسو حوالى ثلاثمائة سفينة، تابعة لذلك الفريق الذي اختفى قائداهما من الوجود.

فيما كنّا نبحر لصقَ نتوء برّي، تتلاشى عنده أطراف سلسلة جبال پانجيه، سمعنا صوتاً يصرخ:

- إليّ، أيّها الصيّاد!

وسمعنا في نفس الوقت وقع جسدٍ يسقط في الماء باندفاعة شديدة.

فأدركنا أنّه طريد من أمثالي يحاول أن ينجو بنفسه باللجوء إلى الأسطول. فأمرت البحّار بالتوقّف عن السير، وإضافة إلى ذلك أمرتُه بالتوجّه نحو الرجل.

وسرعان ما رأينا رجلاً يلج دائرة ضوء القمر وهو يشقّ الماء بعزم؛ وأقول يشقّ الماء لا الموج، لأنّ البحر كان هادئا كالمرآة.

انحنى الجذّافون على مجاذيفهم مضاعفين من جهدهم أضعافاً وأضعافاً.

وببضع ضربات مجذاف، صرنا قربه.

ما إن تبيّنت عيناي بعض ملامحه، حتّى رحت أحدّق فيه. وكلّما اقترب منّا واقتربنا منه، لاح لي أنّي أعرفه.

ثمّ حين صرنا على بضع خطوات منه، نهضت منتصباً في الزورق

Twitter: @ketab_n

وصحت:

- أهذا أنت، يا پُمپيوس ڤارُس؟

أخرج جذعه من الماء بجهد كبير وأطلق صرخة فرح:

- كُونتُس هُراسيوس! الحمد للآلهة الأزليّة!

فمدّ نحوي إحدى يديه وهو يسبح بالأخرى حتّى بلغ الزورق، فتمكّنت من الإمساك بتلك اليد لأساعده على الصعود إلى الزورق.

بعد تلك الأحداث، حين أصبح كلانا في روما، كتبت له قصيدة غنائية أثارت بعض الصدى بسبب ما تضمّنته من تفاصيل جديدة.

وكما تتوقّعون، استغلّينا الفترة التي تلت اللقاء لنتبادل بعض الأسئلة.

أعلمته بالأخبار القليلة المتوافرة لديّ، إذ أنّي غادرت ساحة المعركة قبله، أي حين بدا لي أنّ بْروتُس وقع في الأسر.

أمّا هو فبقي صامداً يقاتل إلى جانب مَركُس كاتون؛ لكنّه بعد موت كاتون قرّر أن يتراجع وينسحب إلى المعسكر، حيث كان أوّل من تبيّن أنّ سْتَتيليوس هو الذي كان يرفع المشعل الملتهب، بمثابة علامة اتّفق عليها مع بْروتُس، ثمّ هرع نحوه. وسْتَتيليوس هو الذي دلّه على مكان بْروتُس واقترح عليه أن يأخذه إليه.

لكنّهما وقعا في طريقهما على أنصار قيصر؛ فقُتل سْتَتيليوس، كما ذكرنا سابقاً، وأمّا پُمپيوس ڤارُس فقد تمكّن من الفرار. ثمّ، بعد بحث طويل، عثر عند الفجر على جثّة بْروتُس التي كان سْتراتون يحرسها وحده وهو يبكي.

وقتَها سمِع من سْتراتون نفسه كلّ التفاصيل التي رويناها.

بعد ذلك، هرب مثلي عبر وادي پانجيه وتعيّش كما تيسّر له، مُستعطياً أهل الجبل بعض خبزهم. ثمّ بلغ الساحل بنيّة الانضمام إلى الأسطول،

Twitter: @ketab_n

كما فعلت أنا. هناك شاهد زورق صيّادَين مسالمين فناداهم واندفع إلى البحر ليلتحق بنا.

أحسست بالسعادة تغمرني وبقوّتي تتضاعف أضعافاً.

فأيّاً كان قدري، لا بدّ أنّي أتقاسمه مع هذا الصديق.

توجّهنا نحو السفينة العائمة على مقربة منا. من نافل القول إنّ قباطنة الأسطول كافّةً كانوا على علم بما جرى في البرّ، ذلك أنّ السفن لم تكن راسية كحالها في وضع آمن، بل رافعةً أشرعتها، فبدت وكأنّها رفّ عصافير مضطربة على أهبة بسط أجنحتها للريح طلباً للفرار.

حين رأتنا السفينة نجذّف في اتّجاهها نادانا الربّان من بعيد مستعلماً عن هويّتنا.

أجاب رفيقي، دون أن يترك لي المجال لردعه:

- من أصدقاء بْروتُس!

يا له من جواب متهوّر غداة هزيمة نكراء.

من حسن حظّنا أنّ مخاطَبينا بقوا مخلصين لبْروتُس.

صرخوا بنا أن نقترب.

بعد لحظات كنّا على متن السفينة.

كانوا على علم بهزيمة بْروتُس، لا بموته. نحن الذين أخبرناهم بالنبأ المؤلم.

عند الفجر تواصلت سفينتنا مع السفن الأخرى بالإشارات المتعارف عليها. فاقترب الأسطول بأكمله من جزيرة تازُس وتجمّع عندها. هناك تحادث القباطنة على متن سفينة حربية يقودها أنتِستيوس، وهو ذلك الصديق لبْروتُس الذي قصدنا إليه في كَرِستا، فسلّمنا الخمسمائة ألف درهم التي جلبها من إيطاليا.

Twitter: @ketab_n

منذ ذلك الحين، شاطر أنتِستيوس بروتسَ مصيره، وتسلّم منه قيادة قسم من الأسطول الخاضع لدوميسيوس إينوبربُس.

أجمعنا على أن نبقى أوفياء إن لم يكن لبْروتُس وكَسّيوس - وقد فارقا الحياة - فللفريق الذي مثّلاه؛ فلا بدّ لنا والحالة هذه من الالتحاق بأسطول سِكستُس پُمپِيوس في بحر صقِلّية.

ولكن كنّا نودّ، قبل ذلك، الاطّلاع على آخر أخبار الجيش في البرّ؛ فسألنا الحاضرين إن كان عند أحدهم استعداد للذهاب إلى البرّ ليأتينا بها.

فتطوّع يوناني من مقدونيا، كان في عداد البحّارين الذي تلقّوني على زورقهم، وتكفّل الصيّاد الذي أتى بي بأن ينقله إلى البرّ وينتظره عند مصبّ إسْترِيمِن.

وكان هذا اليوناني سبّاحاً ماهراً، بوسعه إن طارده أحد أن يرتمي في النهر، وإن لم يلتقِ بالصيّاد في المكان المحدّد، أن يسير بمحاذاة الشاطئ إلى أن يصل إلى أقرب نقطة من جزيرة تازُس، فيرتمي في البحر ويسبح حتّى الجزيرة، التي لا تبعد عن الشاطئ إلّا مسافة ستّة أميال أو سبعة.

فانطلق فوراً ليقترب ما استطاع من الشاطئ ثمّ يطأه متى هبط الليل.

وكان علينا أن ننتظره ثلاثة أيّام.

في اليوم التالي، رأينا الزورق الذي حمله عائداً إلينا: لم يقتضِ منه الاستعلام الكامل عمّا طلبه أَنتيسيوس سوى ليلة واحدة.

أكّدت أخباره كلّ ما قاله پُمپِيوس ڤارُس عن موت قائدنا، لكنّها أضافت إلى الرواية المعروفة خبر مراسيم التكريم التي أحاط بها أنطونيوس جثمانه.

أمّا أُكتاڤيوس فلم يرَه أحد. كان عليلاً باستمرار. وكنا نقدّر لهذا

Twitter: @ketab_n

الشابّ، العليل الصحّة حسب شهادات كثيرين، أن يموت فيستقرّ زمام السلطة بيد أنطونيوس. (الإشارة الوحيدة الصادرة عنه إلى كونه على قيد الحياة هو أنّه طالب أنطونيوس برأس بْروتُس).

فلا بدّ أن تقوم اضطهادات جديدة، بما أنّ حكومة الثلاثة وعدت في حال انتصارها بمنح خمسة آلاف درهم لكلّ جنديّ من جنودها.

هذه الأنباء جعلت أَنتيسيوس يستقرّ على نيّته بالالتحاق بسِكستُس پُمپِيوس.

فطلبت منه أن ينزلني في بْرُنديزيوم أو تَرانت في طريقه. ولم أكن قد تلقّيت أيّ خبر من والدي منذ أن غادرت إيطاليا. فلا بدّ أن أتلقّاها هناك، ثمّ أذهب، بالرغم من الاضطهادات الوحشية القائمة، إلى جبال بلدي القديم سَمنيوم حيث أقي نفسي خطر المنتصرين.

أمّا پُمپِيوس ڤارُس فقد انقاد إلى حمّى الحرب التي أطفأها فيّ شؤم مصير معركتَي فِليپي، وبقي مصرّاً على الالتحاق بسِكستُس.

آن الأوان، باعتقادي، أن أذكر شيئاً عن هذا الشابّ الذي كان خلال فترة قصيرة ملكاً على البحر المتوسّط وتعامل مع حكومة الثلاثة معاملة الندّ للندّ.

ورد اسم سِكستُس پُمپِيوس لأوّل مرّة تحت قلمي في سياق حملة گبينيوس على مصر.

وذكرت أنّه كان، في اعتقاد الناس، عشيق كلِيوپَترا أثناء الحملة.

ثمّ غادر مصر بعد معركة فرسالا بصحبة بعض أعضاء مجلس الشيوخ بنيّة الالتحاق بوالده في پَمفيليا؛ ولكنّه قبل أن يصلها، بلغه نبأ وفاته في مصر.

فانسحب إلى قبرص ومنها قصد أفريقيا، وأبحر من أفريقيا إلى إسبانيا

Twitter: @ketab_n

حيث وافى أخاه كْنِيوس ببضع سفن.

وكان كْنيوس قد جمّع حطام جيش پُمپِيوس بعد انهزامه في أفريقيا، بمساعدة اثنين من نوّاب والده هما أپكونيوس وسْكاپُلا.

حظي باسم عظيم بسبب يده الرحبة المبسوطة؛ وانتصر في بعض الاشتباكات العسكرية. لذا، سرعان ما اعتنقت إسبانيا بأكملها قضيّته، فأصبح يقود ثلاثة عشر جحفلاً وأسطولا كاملاً أضاف إليه سِكستُس بعض السفن عند قدومه إلى إسبانيا.

في تلك الفترة بالذات، انطلق قيصر إلى إسبانيا، وكان القلق من ذلك الجيش المتزايد يوماً بعد يوم قد بدأ يساوره، فحمل الأخوَين على خوض المعركة في سهول موندا.

كان التصادم رهيباً وتأرجّح النصر طويلاً. واجه قيصر مخاطر عظيمة وهو يقود المعركة شخصيّاً في طليعة فيلقه العاشر الذائع الصيت. فقد كان يقول عن نفسه:

- في بعض المعارك قاتلت في سبيل النصر؛ أمّا في موندا فقاتلت في سبيل البقاء على قيد الحياة.

أصيب كنيوس پُمپِيوس فحاول الفرار، ولكنّه وقع في قبضة أعدائه، فعمد الجنود الذي قبضوا عليه إلى قطع رأسه وحملوه إلى قيصر.

عبّر قيصر عن أسفه كما فعل عند موت والده؛ ولكنّه عزم على استعمال هذا الرأس بما أنّه أصبح بين يديه.

فأمر أن يُشكّ على رأس رمح ويُنصب في وسط المعسكر، ليدرك الجميع أنّه لا مكان بعد لحزب مؤيّد لپُمپِيوس، إذ أنّ الأب والابن في عداد الموتى.

كان قيصر على خطأ، إذ لا يزال حيّاً شقّ أخير من جسد الأفعى، أشدّ

Twitter: @ketab_n

رهبة ممّا قُضي عليه.

يتمثّل هذا الشقّ قي سِكستُس الواسع الشهرة في روما، الذي أتوقّع له أن يبقى في التاريخ تحت اسم پُمپِيوس الابن. اجترح العجائب بفضل شجاعته، وها هو الآن في أمان وصحّة.

فلجأ إلى الجبال وراح يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الفارّين بانتظار أن يغادر قيصر إسبانيا، فيظهر إلى العلن من جديد ويعطي الدليل القاطع على وجوده.

أتى هذا الدليل من خلال انتصاره على كَريسيوس وعلى پُلّيون الشهير، وهو الذي نظمنا فيه، أنا وڤرجيليوس، بضعة أبيات لن توفّي يوماً دَيننا تجاهه، ممّا سأرويه في حينه.

بعد مقتل قيصر، طلب سِكستُس پُمپِيوس من مجلس الشيوخ استعادة أموال أبيه وتسريح الفرق العسكرية.

حصل سِكستُس على بعض مطالبه، بفضل مساندة أنطونيوس له، إذ مُنح تعويضاً بسبعمائة مليون سِستِرس وأوكل إليه قيادة البحار.

لو كان غيره في مكانه لأتى روما ليستغلّ نصره. ولكنّه تمرّس بالشدائد فأكسبته فطنة عظيمة عصمته عن مثل هذا الخطأ. جمّع ما استطاع جمعه من سفن في موانئ إسبانيا وبلاد الغال، واستفاد من صيت والده ليعيد إنشاء شبكة القرصنة التي كان والده قضى عليها، وفرض سيطرته على بحر صقلّية.

كان على ساحل البحر التِرّيني حين طلب من أنصاره أن يعلّقوا في روما تلك الإعلانات الشهيرة التي تعد كلّ من ينقذ حياة منبوذ بضعف ما تعد به حكومة الثلاثة كلّ من يقتل منبوذاً.

تلك كانت حال سِكستُس پُمپِيوس حين عزم أنتِستيوس على

Twitter: @ketab_n

الالتحاق به مع الأسطول الجمهوريّ، وحين وضع خطّته موضع التنفيذ أنزلني في بْرُنديزيوم.

أصرّ ڤارُس، بالرغم من إلحاحي، على عزمه الاستمرار في الحرب. فتعانقنا باكيَين، ونزلت أنا إلى البرّ واستأنف هو طريقه المتقلّب ومجازفاته المصيرية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

*أعلم بوفاة والدي - شَبَهي بِبياس - تقاسم العالم من جديد - العفو - أغادر أَپوليا وأرجع إلى روما - ألقى أُربيليوس مجدّداً - أنشر أولى هجائيّاتي: **أَسينيوس پُلّيون** - ما تخلّفه في روما من أثر - تيجِلّيوس السّرَديّ - گلبا - سَلُّستيِوس - فاوستا - سِكستُس ڤِلّيوس - كاتيا - فابيوس - الورّاقون - تجارتهم - موقع حانوت أصحابي.*

أوّل نبأ بلغني وأنا أنزل البرّ في أپوليا هو أنّ والدي قد توفّي.

وثاني نبأ أنّهم استولوا على تركته المتواضعة.

فقد فرضت حكومة الثلاثة ضرائب هائلة من أجل مكافأة جنودها. الضريبة تصل إلى ربع أرباح الناس الأحرار مولداً؛ وأمّا ضريبة أبناء المُعتَقين، مثلي، فالضريبة السابقة مضافاً إليها ربع الأملاك الأصليّة.

وفي حالتي، أنا الذي حمل السلاح ضدّ حكومة الثلاثة، يتمّ الاستيلاء الكامل على الممتلكات.

فها أنا على أرض وطني بدون أدنى مصدر للعيش سوى فلسفة بِياس، أي لا أملك إلّا ما أحمله في جيبي: بضع مئات من الفِلِپّيات الذهبية تكفي للعيش مدّة سنة على أسوأ ما تكون العيشة.

Twitter: @ketab_n

فانزويت عند أحد أصدقاء والدي يقطن في بَنسيا، على السفح الجنوبيّ من جبل قُلتور، ومكثت هناك أنتظر.

وبلغتنا أنباء أفضل ممّا كنّا نتوقّعه.

اكتفى قيصر، بمثابة ثأر شخصيّ، بتلقّي رأس بْروتُس تاركاً لأنطونيوس أن يحرق باقي الجثّة وأن يقيم له المراسيم الجنائزيّة التكريميّة.

بعد عودة أُكتاڤيوس إلى روما، وُضع الرأس على قدمَي تمثال قيصر.

تقاسم الثلاثيّ الحاكم العالم بعد النصر.

فأخذ أنطونيوس بلاد غاليا، أي تركة قيصر،

ونال أُكتاڤيوس إسبانيا ونوميديا، أي ترِكة پُمپيوس،

وأخذ لِپِسد أفريقيا، ترِكة كاتون.

أمّا إيطاليا فليست من حصّة أحد، بل يحكمها الثلاثيّ الحاكم بالتناوب.

رجع أُكتاڤيوس إلى روما مريضاً، وعليه تقع مهمّة المباشرة بإدارة إيطاليا، فيما يذهب أنطونيوس لمحاربة الپَرثيّين منساقاً لذلك الطموح الأبديّ الخائب الذي يساور كلّ قائد روماني.

وحظي أنطونيوس، كما يبدو، بالحصّة الأفضل. له أن يقاتل أعداء روما الأبديّين فلعلّه ينتقم لهزيمة كرَسُّس؛ وله أن يحكم الأقاليم، أي أن يضطلع ليس فقط بالوظائف الاستبدادية المنوطة بحاكم مطلق الصلاحيات، بل بمهمّة قنصل الجمهوريّة في الأقاليم.

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأُكتاڤيوس. عاد إلى روما ليوزّع على المحاربين القدامى المكافآت الموعودة، وليفرض بالتالي ضرائب باهظة؛ عاد ليسحق پُمپِيوس وحزبه، أي ليتابع حرب قيصر الأكثر إثارة للرفض الشعبيّ.

Twitter: @ketab_n

بل ليعاقب ويكافئ كما يحلو له قابضاً بين يديه على أهمّ سلطة في روما.

وروما هي إيطاليا برمّتها.

ولكنّ أُكتافيوس أدرك أنّ روما قد أصيبت من مراسيم النبذ بأكثر ممّا تستطيع تحمّله. إنّ ذلك الأسلوب في فرض السلطان هو من الأساليب أخطرها. بلجوئه إلى النبذ، راح أُكتافيوس يقوّي حزب پُمپيوس الذي بدأ يثير قلقه. وعلى كلّ حال، لم يكن بدّ من فرض سلطانه على أحد، والواقع أنّ أسلوب النبذ المعتمد سابقاً لا يخوّله السيطرة على أحد.

لذا، وصل قيصر إلى روما فأصدر عفواً عامّاً.

صحيح أنّه في نفس الآن فرض، كما سبق القول، ضرائب باهظة على المواطنين كافّةً واستولى على ممتلكات خصومه؛ لكنّه فعل ذلك من باب الضرورة لا من باب الثأر، إذ كان عليه أن يفي بالوعود التي التزم بها تجاه الجند قبل معركة فِلِپّي.

أشرع هذا العفو أمامي أبواب روما.

مات أبي وهو يعمل في جباية الضرائب، فحصّلت ما استطعت من المال المستحقّ له وسافرت إلى روما.

سكنت في الڤيلابرُم الأسفل، في الطابق الثالث. كان شيخي العجوز أُربيليوس لا يزال يمارس التعليم، فذهبت لزيارته. لم يكن بدّ لذلك المناصر القديم لپُمپيوس من أن يستقبل جنديّاً من جنود برُوتُس. فأهداني، إضافةً إلى متابعة دروسه بالمجّان، حصّة من مؤونة يومه الزهيدة.

شكرته وأنا أبتسم.

فسألني عمّا أنوي القيام به.

أجبته أنّني لا أحسن على الإطلاق سوى ممارسة الشعر.

Twitter: @ketab_n

فاستفسر عن النوع الشّعريّ الذي أؤثره.

قلت له إنّي ألمس من نفسي الميل لتكريس حياتي للهجائيّات، وأريته أوّل هجائيّة ألّفتها.

ولكي تفهم مضمون هذه الهجائيّة، لا بدّ لك من معرفة أوضاع روما آنذاك.

أثناء إقامتي في سَمنيوم مدّة شهرين أو ثلاثة، نتج عن عملية منح قدماء المحاربين بعض الأراضي أو مبالغ من المال نوع من القطيعة بين أنصار قيصر وأنصار أنطونيوس. فأسفر انسياق فُلڤيا إلى الدسائس ولوكيوس، شقيق أنطونيوس، إلى الطمع عن مجابهة بين الفريقين. ترك أُكتاڤيوس پُليون وشأنه يحكم ڤِنيسيا بفيالقه السبعة، وذهب على رأس الجيش الذي استطاع تجنيده ليعاقب المستائين؛ وبما أنّ أغناهم وأقدرهم تحصّنوا داخل پروجيا، طوّق المدينة وأحكم حصارها وأجبرها على الاستسلام جوعاً، ثمّ أسر منها ثلاثمائة أو أربعمائة من الشيوخ والفرسان ونحرهم على مذبح قيصر.

إنّ قيصر في الواقع أصبح إلها حقيقيّاً، بما أنّهم صاروا يقدّمون له الذبائح البشرية.

استولى أُكتاڤيوس على ممتلكات المذبوحين ووزّعها على جنوده.

وكان پلّيون بمثابة الشجرة في الحروب الأهلية، تنحني أمام الريح العاصفة. فبدل أن يؤيّد أنطونيوس ضدّ أُكتاڤيوس، تبرّع بأن يكون المصلح بين الاثنين.

أصبح بوسع أُكتاڤيوس أن يستبيح كلّ شيء بعد أن استأثر بالسلطة كما فعل: لقد قضت الحرية نحبها.

Twitter: @ketab_n

بفعل ذلك كلّه انبثقت هذه القصيدة الغنائية، هذه الغنائيّة المتوثّبة[1]، هذه الهجائيّة إن شئتم، من شقّ ريشتي، أو بالأحرى من قلبي.

فكرتها الأساسية كانت بمنتهى الجُرأة؛ فقد هدر صوتي في تلك الحقبة من الصمت هدير الصاعقة. أُصيب أربيليوس الطيّب منها بالهلع بالرغم من مناصرته لپُمپيوس، وحاول إقناعي بعدم إخراجها إلى العلن.

ولكنّي أجبته بقول بسيط للغاية:

عدت إلي بيتي مثل عصفور ذليل مقصوص الجناح، فرحت أكتب ليس فقط بدافع الإلهام بل عن حاجة ملحّة. لا بدّ لي من وسيلة للعيش، وبما أنّهم جرّدوني من كلّ ما أملك، لم يعد لديهم ما يأخذونه منّي سوى حياتي، وكم ندمت على أنّي أنقذتها في معركة فِليبي.

«جعلني الفقر مقداما»

هكذا أبصرت هجائيّتي النور.

كان لها وقع رهيب، بحيث أنّ قيصر لم يغفرها لي حتّى هذا اليوم. أعلم علم اليقين أنّها لا ترد في أيّة طبعة من كتبي، وأنّها لن تبصر النور مجدّداً إلّا بعد وفاتي.

وكم استغربت أنّي لم أتعرّض لأيّ اضطهاد.

---

(1) قصيدة مؤلّفة من بيت طويل يليه بيت قصير، وهذا التناوب يستعمل عادةً في الهجائيّة بسبب اندفاعه المتوثّب، ويُطلق عليه اسم épode (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر (تابع)

لم تكد هجائيّتي الأولى تنتهي من إثارة وقعها هذا، حتّى أطلقت هجائيّتي الثانية.

بالرغم من تستّرها تحت غشاء ما، لم تقصّر هذه الهجائيّة في لوم أُكتافيوس ومُمالئيه.

هاجمت، من بين الشخصيات التي كانت تحظى ببعض الأهميّة، تيجِلّيوس وسَلّوستُس. فقد أصبح تيجِلّيوس، الموسيقيّ الذائع الصيت المُلقّب بالسرَديّ بسبب مولده في جزيرة سردينيا، محظيّاً لدى أُكتافيوس يستلذّه جميع المدعوّين إلى مائدته.

كان المعلّم تيجِلّيوس رجلاً عظيم الشأن: عالماً وموسيقيّاً، مغنّيا بارعاً وعازف ناي ساحراً، أثارت مواهبه وثرواته ونفوذه القلق لدى شيشرون الذي خشي أن يكون موضع استيائه.

« اسعَ جهدك في أن تعيد لي رضى تيجِلّيوس بأسرع ما يمكنك »؛ هذا ما كتبه الخطيب العظيم إلى فابيوس گلّوس.

والواقع أنّ الناس كانوا يرهبون جانب أهل سردينيا، العبيدِ منهم، فكيف بالأثرياء والقادرين!

استقرّ نفوذهم منذ عهد قديم. فاستطاع تيجِلّيوس، بفضل مواهبه، أن يلقى حظوة لدى يوليوس قيصر ولدى الملكة كليوپَترا.

وبعد أن حظي برضا العمّ حظي برضا ابن أخيه.

Twitter: @ketab_n

وعلى غرار جميع المغنّين، كان صاحب نزوات. قلت فيه:

«لعلّنا نستنكر لدى جميع المغنّين هذه الرذيلة: أنّهم وهم بين صحبهم لا يقدرون على الإقدام على الغناء نزولاً عند ترجيّاتهم؛ كما أنّهم لا يقدرون على السكوت حين لا يترجّاهم أحد أن يغنّوا. تلك الخصلة، تمكّنت من تيجِلّيوس».

أمّا سَلّوستِيوس فمعروف لدى الجميع.

إنّه مؤرّخ مؤامرة كتِلينا، كَيوس سَلّوستِيوس كرِسپُس، ونائب قنصل لدى يوليوس قيصر، وأخو أُكتافيوس البكر.

غير أنّ الناس كلّهم لا يعرفون عنه ما سأقوله الآن.

وُلد في أَمِتيرنا لعائلة من عامّة الناس، وفي السابعة والعشرين من عمره، عُيّن مشرفاً على الشؤون المالية، ومدافعاً عن الشعب بعد ذلك بسنتين. وكان له من العمر اثنتان وثلاثون سنة، أو ثلاث وثلاثون، لمّا ضبطه بالجرم المشهود، وهو يمارس الدعارة، صديقنا القديم أَنّيوس ميلون الذي قتل كلوديوس، وهو كما ذكرنا بعيد كلّ البعد عن الهزل. كانت غريمته زوجة ميلون، فاوستا الجميلة، بنت سِلّا الحاكم المطلق الصلاحيّات.

نادى ميلون على عبيده وسلّحهم بأحزمة من جلد وأمرهم بالاقتصاص من سَلّوستِيوس اقتصاصاً شديداً. ثمّ خلّى سبيله بعد أن أجبره على دفع مبلغ باهظ من المال، علاوة على القصاص.

على إثر تلك المغامرة، طُرد سَلّوستِيوس من مجلس الشيوخ.

بعد أن شفي من مغازلة الأرستقراطيّات، هدر ثروته كلّها في معاشرة المُعتَقات. ثمّ لزم قيصر فعيّنه مشرفاً على الشؤون المالية ثمّ نائب قنصل ثمّ مشرفاً على العدالة ونائب قنصل في نوميديا.

Twitter: @ketab_n

فاعتصر هذا الإقليمَ التعس ورجع إلى روما بثروة هائلة، فقام بزرع بساتين هضبة كورينُس الرائعة وبتشييد قصر تيبور المهيب.

وحين هجوتُه بتلك الأبيات، كان في الواحد والخمسين من عمره ومن أصدقاء أُكتافيوس.

من حسن حظّي أنّي نشأت في فترةٍ أصبح الجميع فيها متعبين من الحروب الأهليّة، فأقبلوا على الأدب؛ في فترة كان ولع الناس فيها بالسياسة لا يزال متأجّجاً؛ في فترة كان فيها الخوف من الحاضر والذكريات عن الماضي والآمال بالمستقبل لا تدع العيون تغفو لحظة، ولا الآذان تسهو ثانيةً، ولا الناس ينفكّون عن مراقبة تصرّفات كلّ واحدة من الشخصيّات الواردة تحت ريشتي. ولكم أن تحكموا بعد ذلك على إحساس الناس بالمرارة لدى قراءتها وعلى سرعة انتشارها بينهم.

ولا بدّ من إضافة أمر: أنّ هذا الشغف شدّ من أزره ظهور صناعة جديدة: صناعة الورّاقين.

أصبحت تجارة الوِراقة تدرّ المال درّاً بحيث أن الأثرياء جعلوا يمارسونها. من هذا الباب، اشترى أَتِّكُس عدداً من العبيد استخدمهم في مكاتب وراقة، أي بمثابة نُسّاخ وصُنّاع كتُب. وبفضل قدرته على ولوج كلّ مكتبات أثينا وعلى الاستئذان بنَسخ الكتب بل واستعارتها، توفّرت له فرصة تجميع سلسلة مذهلة من الكتب النادرة. وبلغ الأمر من شيشرون أنّه لّمح لأَتِّكُس برغبته في استملاكها، فما كان من أَتِّكُس إلّا أن لّمح له بأنّ ثروته لا تخوّله الإقدام على مثل ذلك الأمر.

لّمح لشيشرون! هل تدركون ذلك؟ شيشرون الذي يشتري البيت بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف سِستِرس!

إذن، حين نشرت هاتين الهجائيّتين الأوليين، تكاثر عدد الورّاقين

Twitter: @ketab_n

الساعين إلى شراء المخطوطات المعتبرة، بحيث أنّ مكاتب الوراقة كانت تطالعك في حيّ أرجِلات، وتحت الأروقة، وعلى **الطريق المقدّس**، وفي الفوروم.

أمّا الورّاقون الخاصّون بي، أي سوسيِس إخوان، فكان لهم حانوت في طرف الفوروم.

كسبت إذا بهاتين الهجائيّتين مبلغاً محترماً من المال؛ ولكنّ أثمن ما أفدته منهما أنّني ذات يوم سمعت طرقاً على باب بيتي. فتحت الباب فرأيت، على العتبة، ڤاريوس وڤرجيليوس!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

ألقى ڤاريوس وڤِرجيليوس من جديد - كيف أصبحت أحوالهما - كيف والى ڤِرجيليوس قيصر أُكتاڤيوس - «هطل المطر طوال الليل» - «إذن، لَيسا لك» - «إلى ڤِرجيليوس مفاوضاً» - مواصفات ڤِرجيليوس - بُخله - عشقه - أمَرلّيس - منِلكاس - ألِكسِس - عودة أنطونيوس - كلِيوپَترا - نهر سِدنوس - تسلية أنطونيوس وكلِيوپَترا في أوقات فراغهما في الإسكندريّة - أيّ نوع من السمك كان أنطونيوس يصطاد بالسنّارة - مؤتمر رأس ميسينُم بين الحُكّام الثلاثة وسِكستُس پُمپِيوس - اقتراح مينجا ورفض سِكستُس پُمپِيوس.

أطلقت صيحة فرح، إذ أنّي كنت أجهل أنّهما في روما، بل كنت أجهل أيضاً كيف أصبحا.

قعدنا في غرفتي الفقيرة، وسألتهما عن تأثير الأحداث المنصرمة على حياتهما، بما أنّنا لم نلتقِ منذ ثمانية أعوام أو تسعة.

مرّت الأحداث دون أن تلامس ڤاريوس؛ ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لڤِرجيليوس.

Twitter: @ketab_n

بعد سفري، ذهب إلى أثينا ليتثقّف في الأدب اليوناني ويغرق في الرياضيّات ويدرس الطبّ؛ وسرعان ما تخلّى عن الرياضيّات والطبّ لينغمس كليّاً في الشعر.

ثمّ رجع إلى مَنتُوا، أو بالأحرى أَنديس، مسقط رأسه، عندما قام قيصر بحملته على پِروزا التي، إثرها، وزّع أراضي أهل ڤِنيزيا على جنوده. بسبب هذا القرار، وكما حصل لي، صودر حقل ڤِرجيليوس، وهو إرثه الزهيد. حاول أن يقاوم، غير أنّ محارباً من المحاربين القدامى استلّ سيفه وهدّده بالموت؛ ولم ينجُ ڤِرجيليوس من الموت إلّا بارتمائه في نهر مَنسيوس الذي عبره عوماً.

قدِم إلى روما، حيث التقى بصديقه ڤاريوس الذي كان على صلة بپُلّيون، نائب أنطونيوس الذي توسّط بين أُكتاڤيوس وأنطونيوس، كما أسلفنا.

قدّم ڤاريوس ڤِرجيليوس لپُلّيون. وكان پُلّيون قد رأى هذا الشاعر الشابّ في مَنتوڤا، وعلى استعداد للتقرّب منه على قدر الإمكان. حدّث مِسينَس بشأنه، ومِسينَس حدّث بدوره أُكتاڤيوس؛ فاستعاد ڤِرجيليوس حقله.

هكذا أصبح ڤِرجيليوس من المُشيدين بأُكتاڤيوس.

ولكنّه لاقى من العناء، في سبيل انتزاع الاعتراف بشعره، أكثر ممّا لاقاه لاسترداد حقله.

إليك المناسبة التي نظم فيها أولى قصائده بقيصر.

هطل المطر طوال الليلة التي سبقت الألعاب التي أزمع أُكتاڤيوس أن يجريها، ثمّ شعّت الشمس في مطلع النهار، فجرت الألعاب في جوّ رائع، على عكس ما كان متوقّعاً.

Twitter: @ketab_n

فنظم ڤِرجيليوس هذين البيتين، أثبتهما بمسمار على باب أُكتاڤيوس، بدون توقيع أو إشارة تحيل إليه:

«هطل المطر طوال الليل، فأُعيدت لنا الألعاب في الصباح

فها أُكتاڤيوس يقاسم جوپتير سلطانه».

نقلوا البيتين إلى أُكتاڤيوس، فسعى لمعرفة الناظم.

لم يجرؤ ڤِرجيليوس، من شدّة حيائه، على الإعلان عن نفسه. فانتحلها بَتِلّوس وتلقّى عنها مكافأة، مع أنّه شاعر رديء، لما كان للتاريخ أن يذكره لولا الحدث الذي أنا الآن بصدده.

استُثير ڤِرجيليوس فأعاد كتابة البيتين، وأردفهما بهذه الكلمة:

«أنا الذي نظم هذين البيتَين، فتشرّف آخر بهما.

إذن ليسا لك ...

إذن ليسا لك ...

إذن ليسا لك ...

إذن ليسا لك ...»

وأرسلها إلى قيصر.

اعتقد قيصر أنّ بَتِلّوس هو الذي أرسلها، فاستدعاه وطلب منه أن يستكمل الأبيات الأربعة المبتورة الشطر لتصبح ذا معنى.

استنفذ بَتِلّوس كلّ قواه ولم ينجح في مسعاه.

عندها كتب ڤِرجيليوس لأُكتاڤيوس هذه الكلمة:

«رغبتَ، يا قيصر، من بَتِلّوس أن يضفي معنى على هذه الأبيات المبتورة الشطر، وأنا من أرسلها لك، واعتقدتَ أنّه ناظمها وناظم البيتين السابقين.

فلا البيتان ولا الأبيات المشطورة من نظمه؛

Twitter: @ketab_n

إنّها من نظمي.

أمّا الأبيات المبتورة الشطر، فإليك أشطرها الناقصة:

«... أيّتها الطيور التي تبني عشّها،

... أيّتها النعاج التي تحمل جزّة،

... أيّتها النحلات اللواتي تصنعن عسلاً،

... أيّتها الثيران التي تجرّ المحراث.»

وجمع الأشطر لتصبح على هذا الشكل:

«إذن لَيسا لكِ، أيّتها الطيور التي تبني عشّها

إذن ليسا لكِ، أيّتها النعاج التي تحمل جزّة

إذن ليسا لكِ، أيّتها النحلات اللواتي تصنعن عسلاً

إذن ليسا لكِ، أيّتها الثيران التي تجرّ المحراث.»

ووقّعها هذه المرّة.

كان ڤِرجيليوس قد نظم في تلك الفترة أولى أناشيده الرعوية الثلاثة أو الأربعة، ولم يقرأها إلّا أمام بعض أصدقائه. نجم جهلي عن هذا الصمت.

ثمّ قرأها لي.

بالرغم من أنّها تتغنّى بشخص كنت أحاربه، لم أتمالك من الإعجاب برقّتها وموسيقيّتها. والواقع أنّ أحداً من الشعراء اللّاتين لم يتصرّف بالبحر الإسكندريّ كما فعل ڤِرجيليوس.

هل مِسينَس هو الذي بعث إليّ بڤاريوس وڤِرجيليوس، أم أنّهما وافاني من ذاتهما؛ لا أدري. ما أدريه هو أنّهما كليهما أصرّا عليّ إصراراً شديداً لأقلع عن المسلك الذي سلكته، وأعود إلى حزب أُكتاڤيوس.

رفضت.

Twitter: @ketab_n

أشاد ڤِرجيليوس بسخاء قيصر، الذي كان قد أغدق عليه الهبات، مؤكدّاً أن قيصر سيقدّم لي مثل ما قدّمه له.

بقيت على موقفي، وذهب ڤِرجيليوس دون أن يثنيني، مع أنّ نفس الإصرار صدر عن ڤاريوس.

في هذا السياق نظمت غنائيّتي لڤِرجيليوس المفاوض: **إلى ڤِرجيليوس مفاوضاً.**

كانت سخريّتي تشير إلى الفائدة التي جناها من شعره.

إن أُتيح لهذه الغنائيّة أن تُشرح يوماً، فإنّي متيقّن أنّها ستُربك الشرّاح فيوغلون في تفسير كلمة **مفاوض.**

دعوته للعشاء عندي، بقولي:

«أتودّ أن ترتوي من عصير أراقه باخوس من سفوح كَليس؛ عليك إذن أن تعطيني شيئاً من الناردين بدل خمرتي.

فإنّ أصغر قارورة من هذا العطر الثمين تستجلب لي واحداً من تلك البراميل التي ترقد الآن في أقبية سُلپيسيوس، وتحتوي في أحشائها على كنوز أمل ومفاتن تطيح بكلّ الهموم المُرّة.

أسرِع، طِر، ولكن لا تنسَ ما أشترطه. فأنا لا أسعى إلى أن أجعلك تنتشي من براميلي دون مقابل، كما لو كنت أملك قصراً مترفاً.

إيّاك والتباطؤ، دع عنك شهوة التملّك، وفكّر قبل فوات الأوان باللهيب الأسود المنبعث من المحرقة القاضية. فليُخالط شيء من الجنون أشغالك. كم هو لذيذ، صدّقني، أن تفقد الرشد من آن لآخر!».

فأتى ڤِرجيليوس يحمل إليّ ما طلبته من العطور.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر (تابع)

حتّى يفهم من يأتي بعدنا جيّداً اشتراطي على ڤِرجيليوس أن يجلب لي العطور، لا بدّ له أن يعرف أنْ لا مأدبة حقيقيّة عندنا، نحن الرّومان، بدون عطور. والحال أنّ هذه العطور كانت مُكلفة للغاية، وأنا لا أزال إذّاك فقير الحال. على كلّ حال، لم أُصبح يوماً ذا ثروة؛ إنّ هذا الرخاء الذهبيّ الذي أتحدّث عنه هو ذروة ثروتي.

لنَعد إلى ڤِرجيليوس.

لنستثنِ ذلك البخل البسيط الذي ساد حياته كلّها، فهذا الشاعر العظيم ترك بعد وفاته بيتاً في روما، وأملاكاً واسعةً في كَمپانيا ومائة ألف سِسترس خالص نقداً؛ فباستثناء هذا البخل اليسير، إذن، كان لڤِرجيليوس الممتاز قلب خالص ساطع البياض.

لقد سخرت منه بعض الشيء في هجائيّتي الثالثة، فعنه قلت:

«سريع السخط، لا يتقبّل مزاح الساخرين. يمكنك أن تضحك من شَعره المقصوص على الطريقة الريفيّة، من جبّته الطويلة، من حذائه المرخيّ الرباط بحيث أنّه لا يكاد يثبُت في قدمه. إلّا أنّه طيّب؛ إلّا أنّه أفضل الناس».

إنّ ڤِرجيليوس الطيّب هذا، وهو على عكس ما أنا عليه، إذ أنّي عند الناس عامّة متهتّك وسكّير بما أنّي تغنّيت بالخمرة والغانيات؛ أقول إنّ ڤِرجيليوس الطيّب هذا ظلّ في اعتقاد الناس عفيفاً طوال حياته. فقد

Twitter: @ketab_n

سمّوه ڤِرجيليوس العفيف، وسمّوا مُلهمته عذراء پَرتِنوپيوس.

خلال الفترة التي أتحدّث عنها، كان ڤِرجيليوس هائماً بزوجة صديقه، أو بالأحرى بزوجة صديقنا ڤاريوس، وقد عرّفني عليها ڤاريوس نفسه فيما بعد. كانت حقيقةً امرأة جذّابة ذات ثقافة رفيعة. ألسنة السوء في روما تقول إنّ ڤاريوس كان يتعامى؛ وكانت تضيف أنّ ڤِرجيليوس كافأ مراعاة صديقه له بأن تنازل له عن تراجيديّته تِيِست؛ وكلّ ذلك من الترّهات. فلم يكن لڤِرجيليوس عبقريّة الفنّ المسرحيّ، ولم تتميّز تراجيديّة ڤاريوس إلّا بتصويرها الجيّد للمواقف.

كانت أخت ڤاريوس تدعى پْلوسيا، وهي أخت پلوكيوس تونا الذي عُيّن مع ڤاريوس منفّذاً لوصية ڤِرجيليوس.

وإنّي لذاكرٌ لك الآن ما سمعته من فمها. قالت لي بعد وفاة الشاعر الشهير إنّ ڤاريوس عرَض بالفعل على ڤِرجيليوس أن يتنازل له عن حقوقه الزوجيّة بالطلاق، غير أنّ ڤِرجيليوس رفض عرضه.

من المؤكّد أنّ له عشيقة اسمها پْلوسيا هيِرا، امرأة جذّابة أعتقها پْلوكيوس تونا. وإليها يشير في حديثه عن أَمَرِلّيس.

كان رقيق المزاج، بالرغم من احتياطاته الصحّيّة الكثيرة، فتوفّي في الثالثة والخمسين من عمره. ولذا كان أقلّ سكراً وأقلّ عشقاً منّي، أنا صاحب المعدة الصلبة والصدر المنيع. فلو عاش ڤِرجيليوس في غير حقبة، مائة وخمسين سنة قبل عهد القياصرة، لاعتُبر إنساناً حسّاساً، وشهوانيّاً عذباً، وربّما متهتّكاً؛ أمّا في بلاط أُغسطُس، أو بالأحرى أُكتاڤيوس، فكان يُعتبر إنساناً رزيناً.

وأثناء هذا العشاء بالذات، الذي حضره صديقنا ڤاريوس، اقترح عليّ ڤِرجيليوس وڤاريوس لأوّل مرّة أن يعرّفاني على مِسينَس.

Twitter: @ketab_n

رفضت للمرّة الثانية.

لندع الآن شخصي الهزيل، وَلنولِ اهتمامنا ما كان يتهيّأ من أحداث كبرى.

عنيتُ غرام أنطونيوس وكلِيوپَترا الذي أصبح موضع اهتمام روما أكثر من أمورها الخاصّة.

أوّل ما شغل بال أنطونيوس حين بلغ الشرق: أن يرسل إلى كلِيوپَترا رسولاً يبّلغها أمره بأن تمثل أمامه كي تشرح تصرّفاتها؛ إذ أنّ كلِيوپَترا كانت قد قدّمت المساعدة لبروتُس وكَسّيوس.

الرسول اسمه دِلّيوس.

كان امرءاً حذقاً. ما إن رأى كلِيوپَترا، ما إن تحدّث معها، حتّى أدرك أنّ أنطونيوس مهزوم قبل أن يدخل المعركة.

حسم دِلّيوس أمره في أن يصبح صديق ملكة مصر.

فرجاها أن تنصاع لأوامر أنطونيوس. فتح **الإلياذة** وقرأ لكلِيوپَترا، بتلك اللغة اليونانيّة الجميلة التي هي لغتها الأمّ (كانت كلِيوپَترا تتكلّم سبعاً من اللغات أو ثمانيَ)، قرأ لكلِيوپَترا أبيات النشيد الرابع عشر، حيث تذهب جونون إلى ڤينوس لتستعير زنّارها قبل أن تقوم بتنويم جوپِتير.

أدركت كلِيوپَترا مغزى النصيحة وتقبّلتها بابتسامة. كانت قد امتحنت فعل جمالها على قيصر وعلى أحد أبناء پُمپيوس. وقيل على الاثنين معاً. كانت تعرف أنطونيوس وغرائزه الفظّة وأهواءه المستشيطة: عمرها ثمانٍ وعشرون سنة، أي سنّ المرأة حين تكون في بهاء جمالها وفي عنفوان فكرها. حملت معها هدايا ثمينة ومبالغ هائلة من المال؛ حملت معها على الأخصّ جمالها المتخاصم فيه وظرفها الذي لا خصام حوله.

كانت أوامر أنطونيوس دقيقة: عليها الحضور دون أن تتأخّر دقيقة

Twitter: @ketab_n

واحدة. ضربت بأوامر أنطونيوس عرض الحائط. يقول لها أصدقاؤها: «العجلة، العجلة! إنك لهالكة إن بقيت هنا». ولكنّها بقيت.

فكأنّها الساحرة سِرسيه، الواثقة من قدرة فنّها.

كان يلزمها الوقت لتحضّر مشهدها المسرحيّ، لتهيّيء الإخراج الفنيّ، كما يقال في أيّامنا.

قرّاؤنا يعرفون كلِيوپَترا. المرأة التي ولجت قصر الإسكندريّة، فوضعها أپُلّدورِس على قدمَي قيصر ملفوفةً في سجّادة، كانت قصيرة القامة. كانت حوريّة أكثر منها إلهة.

المطلوب هو مفاجأة أنطونيوس ثمّ التغلّب عليه.

وأخيراً أُخبر أنطونيوس أنّ كلِيوپَترا تصعد نهر سِدنوس وتقترب من تَرسُس.

نصب أنطونيوس عرشه، أي محكمته، على ضفّة النهر، بغية استجوابها على الملأ والاقتصاص من جسارتها.

كان يقيم العدل، وإذا بلغط شديد يثار حوله فجأة.

ناس يتراكضون لاهثين من ضفاف النهر ويرفقون كلامهم بتلك الإيماءات الكثيرة المعهودة عند الشرقيّين، مشيرين إلى الأفق وكأنّهم مشغولون بأمر عجيب.

استفهم أنطونيوس عمّا يجري، فقيل له:

- ڤينوس عشتار آتية لزيارة باخوس لما فيه سعادة آسيا.

لم يفقه أنطونيوس شيئاً من ذلك.

غير أنّ أمراً غريباً عظيم الشأن انتشر في جمهور المستمعين لأنطونيوس فتفرّقوا عنه، وراح كلّ منهم يركض إمّا إلى بيته ليخبر أسرته، وإمّا إلى المكان الذي كان يشار إليه.

Twitter: @ketab_n

وجد أنطونيوس نفسه وحده في محكمته.

فمن عساه يخلق هذه العزلة حول القنصل الأسبق الكليّ القدرة؟

ذاك ما سيعرفه أنطونيوس عمّا قريب.

وسط الأناشيد، وفي سحابة من العطور، كانت تتهادى سفينة ملكيّة بمؤخّرتها المصنوعة من الذهب وأشرعتها الأرجوانيّة ومجاذيفها الفضيّة. وتحت مظلّة منسوجة من خيوط الذهب، كانت كلِيوپَترا-ڤينوس مستلقية بثياب غاية في الروعة؛ وحولها أولاد نصف عراة، يشبهون **عرائس الحبّ** كما يرسمها الفنّانون، يُرطّبون جوّ سريرها بمراوح طويلة من ريش الطاووس والنعام. وراحت مائة امرأة، كلهنّ غاية في الجمال، بعضهن بزيّ النيريِدِس[1] وبعضهن الآخر بزيّ وصيفات ڤينوس[2] يقفن عند دفّة السفينة وعند الحبال.

فاحت ضفّتا النهر بشذا العطور الملتهبة على السفينة الملكيّة، وغصّتا بحشد هائل يواكب الملكة، لا انصياعاً لأوامرها، بل رغبةً في مشاهدتها وتعبيراً عن الإعجاب بها.

كان أنطونيوس، وهو واقف على منبر محكمته، يشمل بنظره كاملَ المشهد، ولكن دون أن يتبيّنه. وشيئاً فشيئاً توضّحت له الأوجه، فعلقت عيناه بالسفينة الملكية، مركز كلّ التحرّكات الواسعة الجارية أمامه.

ما إن علق نظر أنطونيوس بكلِيوپَترا حتّى استحال عليه أن ينفلت منها.

شأن جميع البرابرة - وأنطونيوس نمط من أنماطهم - كان أنطونيوس يُمسَك من عينيه.

(1) هنّ، عند الإغريق، بنات نيريس ودورِس، ويعتبرن حوريّات البحر (المترجم).

(2) كان لڤينوس عند الإغريق ثلاث إلهات وصيفات رائعات الجمال، يُلقّبن گرَسيلِس باليونانية وLes trois Grâces بالفرنسية (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قبل أن تكلّمه كلِيوپَترا، استحوذت عليه.

دلّوها على أنطونيوس، فنظرت إليه ثمّ استأنفت حديثها مع شَرميون، مستودع أسرارها.

ألقوا جسراً مُغطّى بسجادة رائعة للعبور من السفينة إلى الضفّة.

نهضت كلِيوپَترا بتثاقل وسارت بخطو خفيف، كما لو أنّ المشي يسبّب لها تعباً شديداً، وبلغت الشاطئ مستندة إلى ذراع إحدى نسوتها.

وجدت على الشاطئ رسولاً من قبل أنطونيوس يدعوها للغداء مع سيّده. رفضت وقالت إنّها تؤْثر أن تستقبله في القصر الذي أعدّته لذلك الغرض.

واستأنفت سيرها دون أن تستعلم أكثر عن مجيء أنطونيوس أو عدم مجيئه.

وجاء أنطونيوس.

ذُهل أنطونيوس.

كانت كلِيوپَترا تحسن أن تخلق ممّا حولها إطاراً مُدهشاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر (تابع)

كانت القاعة التي استقبلت كِليوپَترا فيها القنصل الأسبق من الفخامة بحيث لم تسمع بمثلها أذُن، ولا أذُن هذا الرجل الذي كان يعتقد أنّه شاهد كلّ ما هو فخم في الشرق.

ثمّ ذهبا من تلك القاعة إلى قاعة المأدبة.

أضواء نثرتها يد سحريّة في كلّ الأرجاء، ينطلق لهيبها على شكل أرقام سرّية وصور غريبة. حُلم شاعرٍ شرقيّ أصبح واقعاً.

لزم أنطونيوس سريره على المائدة حتّى نهاية النهار، مستمتعاً بتذوّق خمور لم يعهدها، ومآكل لا يعرف حتّى اسمها.

غادرها كِليوپَترا، بعد أن دعاها إلى العشاء معه؛ وقبلت هذه المرّة دعوته.

أرسل أنطونيوس في أثر جميع المستشارين الضالعين في مثل هذه الأمور: مُحاكون بالإيماء، مهرّجون، طبّاخون، ومزيّنون؛ وسرعان ما أدرك أنّه لن يبلغ مستواها.

في المساء، أقرّ بذلك هازئاً من شحّ مأدبته وفجاجتها، فركع أمام كِليوپَترا ليتلقّى قيوده من يد الظافر به.

خلال هذين اللقاءين، تمعّنت كِليوپَترا في شخصيّة أنطونيوس: رأت فيه ذلك الجنديّ المرسيّ[1]، فنزلت عن عرشها الإلهيّ لتضع نفسها في

(1) المرسيّون من شعوب إيطاليا القديمة، كانوا يعيشون في جبال الأپنينو (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

مستوى إدراك عابدها.

قفل أنطونيوس راجعاً وقد جُنّ من فرط عشقه.

نسي عندئذ روما وأكتافيا وفُلفيا وحرب البَرثيّين، نسي كلّ شيء في سبيل الحبّ؛ فتبع كلِيوپَترا حتّى مصر.

دخلت الإسكندريّة ممسكةً بزمام أسد.

تلك كانت طريقتها الشخصيّة في الظفر.

وباشرت تلك **الحياة العصيّة على التقليد** التي أخبر عنها پْلوتَركُس.

انصاع لسلطان ساحرته التي، حين كان من سبقه من الملوك لا يكادون يُلمّون بالمصريّة، كانت تتكلّم الإثيوپيّة والترُكلوديّة، العبريّة والعربيّة والسريانيّة، اليونانيّة واللاتينيّة. استعاد شبابه لدى عشيقته الشابّة، واستحالت هي، في سبيل قائدها المظفّر، كاهنة من كاهنات باخوس. فراح يقضي نهاره في نشوة جنونيّة، يمارس القنص، واللعب، والشرب. وعند المساء، يرتدي القنصل الأسبق والملكة ثياب عبيد ويروحان يتجوّلان في الإسكندريّة، فيطرقان الأبواب ويشتمان البورجوازيّين، يضربان ويُضربان، ثمّ يقفلان ضاحكَين وأكثر هياماً - أقلّه في ما يخصّ أنطونيوس.

نهاراً، يجولان البحيرة: يذهبان إلى كَنوپِكُم، يمارسان الرمي الذي يتقنه أنطونيوس، أو الصيد بالسنّارة، وما كان أنطونيوس يتقنه بنفس القدر.

ذات يوم، عيل صبره من عجزه عن صيد حتّى سمكة واحدة، فأمر أحد الغوّاصين أن يأتي بسمكة أو سمكتين حيّتَين، ثمّ يذهب تحت الماء يعلّقهما في سنّارته.

ولثلاث مرّات متوالية، أصاب الفلّين الهدف، فانتشل أنطونيوس من

Twitter: @ketab_n

الماء سمكة رائعة.

هنّأته كلِيوپَترا دون أن تنطلي عليها الحيلة.

فهمست خفيةً لأحدهم بأمر، فإذا بفلّين أنطونيوس يصيب هدفه مجدّداً؛ سحب أنطونيوس سنّارته وانتزع منها سمكة من نوع الهارَنـگ المتميّز.

هذه المرّة سبق غوّاص كلِيوپَترا غوّاص أنطونيوس.

أراد أنطونيوس أن يظهر استياءه.

غير أنّ كلِيوپَترا، بصوتها العذب بعذوبة النشيد والشجيّ الإيقاع كالعود، قالت له:

- أيّها القائد الظافر، دع سنّارتك هذه لنا، نحن الذين نسود ما بين **المنارة**[1] **وكَنوپِكُم**؛ أمّا صيدك أنت فبالسيطرة على المدن والملوك والممالك.

وهو في غمرة تلك الملذّات، استفاق أنطونيوس على وقع صاعقتين.

علم بأنّ لَبيانُس، نائب قيصر سابقاً، وممثّل أُكتاڤيوس لدى الپرثيّين، قهر بجيشه كلّ الأقاليم من الفرات وسوريا حتّى ليديا وإيونيا.

كمثْلِ نائمٍ يصحو من نوم طويل، وشرّيب يصحو من سكر عميق، استعاد أَنطونيَوس قيادة جيشه وتقدّم حتّى فينيقيا.

هناك، علم بأحوال روما وثورة فُلڤيا وبموت سيسون فيها بعد.

فكّ هذا الموت كلّ الاستعصاءات، فسهُل التصالح بين أنطونيوس وأُكتاڤيوس.

قصد أنطونيوس إيطاليا، ووراءه أسطول من مائتي سفينة.

ونزل في بْرُنديزيوم.

حسم أنطونيوس أمره بخوض المعركة، إن لزم الأمر؛ غير أنّ الجنود

---

(1) تقصد منارة الإسكندريّة الشهيرة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لم يكونوا يتوقّعون حرباً جدّية، إذ كانوا قد عقدوا زواج أُكتافيوس بكلوديا، بنت فُلڤيا؛ ومع أنّ الزواج فشل، قرّروا أن يحلّوا قضيّة هذه المعركة، على نفس النحو.

فزوّجوا، هذه المرّة، أنطونيوس بأُكتاڤيا أُخت أُكتافيوس.

نقول «أخت» من باب التجاوز، فأُكتاڤيا أخته غير الشقيقة، أخته بالدم فقط.

تكبر أُكتافيوس بخمس أو ستّ سنوات، وهي ابنة زوجة أُكتافيوس أنكاريا الأولى. تزوّجت مَرسِلّوس ورُزقت منه صبيّاً، قبل أن يُتوفّى.

وهذا الصبيّ هو الذي يحيل إليه شطر بيت ڤِرجيليوس:

«أنت، يا مَرسِلّوس، ستصبح...»

رضي الاثنان، أُكتافيوس وأنطونيوس، بالتسوية، إذ كان عاتق كلّ منهما مرهقاً بقضيّة يودّ أن يتخلّص منها.

لأُكتافيوس قضيّة القراصنة، ولأنطونيوس قضيّة الحرب على البرثيّين.

غير أنّ الشعب الروماني شعب متفرّد، مفعم بالنزوات والتصوّرات. سِكتُس پُمپِيوس يُجوّعه، فيحبّ سِكتُس پُمپِيوس.

هل كان لهذا الشعب من الروح الفنّية ما يكفي ليُأخذ بطرافة هذا الشكل البلاغيّ؟

والحال أنّه بعد أن صالح أُكتافيوس وأنطونيوس، أراد أن يصالح أُكتافيوس وأنطونيوس مع سِكستُس.

كان سِكستُس قد صار صاحب سلطان، كما ذكرنا. فالرقّة التي عامل بها پُمپِيوس القراصنة خدمت مصلحة ابنه في السيطرة على البحار؛ فأصبحت مدينة القراصنة الرئيسيّة، سولِس في صقلّية، تُدعى

Twitter: @ketab_n

پُمپِيپُولِس. وكان پُمپِيوس أثناء الحرب الأهلية مديناً لهم بتفوّق أسطوله البحريّ. غير أنّه اقترف خطأً بوضع الأسطول تحت إمرة قائدين برّيَّين، هما دُميسيوس وبيبلُّس، اللّذين لم يجنيا منه أيّة ثمرة.

لم يكن ذلك شأن سِكستُس الابن. ذكرنا كيف انتحل بنوّته لنِپتونِس، فأصبح بذلك ملك البحر. وذكرنا كذلك كيف أنّه، بصفته سيّد صقلّية وسردينيا، راح يجوب البحر المتوسّط بألفَي سفينة. وذكرنا أخيراً كيف جوّع روما.

لكنّه كان قبل كلّ شيء قلباً رحباً، مثيراً للشفقة ومغامراً. حين فرّت فُلڤيا مع والدة أنطونيوس من پروزيا، استقبلهما أنطونيوس، وهو المستعدّ دائماً لاستقبال المنبوذين أيّاً كانَ ولاؤهم، استقبالاً رائعاً.

لم يصعب إطلاقاً على أنطونيوس أن يتعامل معه.

أمّا التعامل مع أُكتاڤيوس فكان من باب المصلحة.

نُظِّم مؤتمر في طرف رأس ميسينُم، في النقطة التي يندفع فيها البرّ نحو البحر وكأنّه رأس حربة.

كان أسطول أنطونيوس راسياً في أحد جانبي الرأس،

ورسا أسطول سِكستُس في الجانب الآخر.

كان جيش أُكتاڤيوس على حال أهبة في البرّ.

وهنا اتّفقا على تقاسم جديد.

أُكتاڤيوس يحتفظ بالغرب،

وأنطونيوس بالشرق.

لِپِدُس يحتفظ بأفريقيا مؤقّتاً، أي بانتظار أن تُنتزع منه.

وأُعطي سِكستُس سردينيا وصقلّية، بشرط أن يكفّ عن استقبال المنبوذين ويطهّر البحر من القراصنة.

Twitter: @ketab_n

شرط يؤدّي في النهاية إلى انتحاره.

وبالمقابل، يعيد أُكتاڤيوس وأنطونيوس پُللمنبوذين ربع أملاكهم.

تلك شروط غير قابلة للتنفيد، بكلّ بساطة، لأنّهم اقتسموا الأملاك المنقولة.

أمّا المال فلم يُقتسم وحسب بل أُنفق أيضاً، ربّما ليس من قبَل أُكتاڤيوس ولكن بالتأكيد من قبَل أنطونيوس ولِپِيدوس.

في هذا الموضوع، كان سِكستُس صلباً لا ينثني؛ لأنّه لا يستطيع، إلّا بهذا المخرج الوحيد، أن يتملّص بشكل مشرّف من تعهّداته السابقة.

كان قد التزم أيضاً بإرسال القمح إلى إيطاليا وبكميّة كافية ليلبّي حاجتها من الغذاء.

اتّفق أسياد العالم الثلاثة على الشروط ووقّعوا عليها، ثمّ تداعوا للعشاء.

بما أنّ كلّاً منهم كان يريد أن يتشرّف بأوّل دعوة، رموا القرعة.

أتت القرعة لصالح سِكستُس، فسأله أنطونيوس:

- أين سنتعشّى؟

- هناك؛ أجاب سِكستُس وهو يشير إلى سفينة القيادة ذات الستّة صفوف من المجاذيف، والتي كانت البيت الأبويّ الوحيد الذي تُرك له.

عضّ أنطونيوس على شفتيه: لطمته السخريّة في وجهه، هو الذي يقطن بيت پُمپيوس العظيم في روما.

قُبلت الدعوة، فأمر سِكستُس أن تُثبّت السفينة على مرساتها، ورمى جسراً من رأس ميزن إلى متنها.

كان المدعوّون في معمعة العشاء، وقد لفحهم لهيب الخمرة، يسخرون

Twitter: @ketab_n

من أنطونيوس وعشقه لكلِيوپَترا، حين اقترب القرصان ميناس - وهو المُعتَق الذي هجوته وسنعود إليه لاحقاً- من سِكستُس وانحنى على أذنه قائلاً:

- هل تريد أن أبتر حبال المرساة، وأن أعطيك ليس فقط صقلّية وسردينيا، بل الإمبراطوريّة الرومانيّة بكاملها؟

شحب سِكستُس وأجاب:

- كان عليك أن تفعل دون سؤال.

- والآن؟

فأجاب سِكستُس متنهّداً:

- الآن، فات الأوان. فلنكتفِ بالحظّ المتوافر، ولا نحنثنّ بعهدنا.

ثمّ بعد أن احتفل به أنطونيوس وأُكتاڤيوس بدورهما عاد إلى صقلّية.

فرضاً أن سِكستُس قبل باقتراح ميناس بدل أن يرفضه:

فها أُكتاڤيوس وأنطونيوس في قبضة سِكستُس، وسِكستُس سيّد العالم، فما الذي يحصل للعالم؟

إنّ هاوية الشكّ منفغرة تحت هذه الكلمات القليلة.

فلِمَ لا يُصاب التاريخ بالدّوار؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

*ڤاريوس وڤِرجيليوس يحصلان على موافقتي بأن يقدّماني إلى مِسينَس - **جلّاد، انهض!** - تواضع مِسينَس أو بالأحرى كبرياؤه - يقدّموني له - تنقضي تسعة أشهر قبل أن أسمع بسليل ملوك إترووريا؛ أراه مرّة أخرى لا بصفته حامياً لي بل صديقاً - أسباب تأخّر تقديمي لقيصر أُكتاڤيوس - آلام أسرة المنتصر في معركة فلِبّي - يُجبر على احترام تحالفه مع أنطونيوس - يأخذني معه - السفر إلى بْرُنديزيوم.*

بعد حملة أُكتاڤيوس، حصل ڤاريوس وڤِرجيليوس منّي، بعد إصرار شديد، على أن أقبل بتقديمي إلى مِسينَس.

على كلّ حال، كنت، منذ عودتي إلى روما، ألاحق صاحب الحظوة بناظريّ فتمكّنت من اكتشاف كلّ محاسنه.

في كلّ يوم، كان يكسب موالين جدداً لقيصر أُكتاڤيوس، وكان محظيّاً لديه دون أن يستغلّ هذه الحظوة لمصلحته الشخصيّة، احتقاراً منه لاستدرار النِّعم. لم يطلب من قيصر أُكتاڤيوس سوى صداقته. فلم ينسَ حتّى المنبوذون أنفسهم غضبة مِسينَس التقيّة يوم لم يستطع الوصول إلى

Twitter: @ketab_n

محكمة أُكتاڤيوس فرماه بلوائح النبذ وهو يقول له هاتين الكلمتين على اقتضابهما الرهيب والجريء:

- **جلّاد، انهض!**

أمّا مع أصحاب الأدب، فكان مِسينَس عذباً عطوفاً للغاية. عطف على ڤِرجيليوس وڤاريوس ووظّف تأثيره على هذين الشاعرين لخدمة أمجاد أُكتاڤيوس؛ ولم يكن الأمر من الصعوبة بمكان. فقد نظم ڤاريوس قصيدة يمدح فيها يوليوس قيصر، وقبل أن يعرف أن أُكتاڤيوس سيخْلفه، تأسّى على موت قاهر پُمپِيوس بأبيات رائعة.

رأينا كيف وصل ڤِرجيليوس إلى روما وبأيّ أسلوب ماهر وموفّق في التملّق ارتقى إلى أُكتاڤيوس.

أمّا مِسينَس - ولا بدّ لي الآن من الاهتمام به بما أنّه أثّر لاحقاً على حياتي في تلك الفترة- فكان من درجة الفرسان. ترقى أصول أسرته إلى أوائل ملوك إترورِيا؛ لهذا قلت في حديثي عنه:

«مِسينَس الذي يعتدّ بأنّ من أسلافه ملوكاً...»

وُلد فارساً ولم يشأ أن يكون إلّا فارساً، رافضاً باستمرارٍ الانضمام إلى مجلس الشيوخ.

الأمر بسيط، وستفهمون جميعاً حساب مِسينَس.

لرغبة مِسينَس في أن يبقى فارساً، فيما عدا فلسفته الإپِقورية، سببان نافذان وواقعيّان.

أوّلهما الكبرياء، ففي دخول مِسينَس مجلس الشيوخ انتقاص لما هو. عندما سعى يوليوس قيصر للحصول على الأغلبية في مجلس الشيوخ، حشاه بأشخاص من أتباعه المخلصين. وقد رأينا ماذا جنا من هؤلاء الأتباع جميعاً. فأكثرهم لم يكن من الأرستقراطيّين؛ بل إنّ بعضهم كان

Twitter: @ketab_n

من أبناء المُعتَقين.

ذلك هو مصدر بغض قدامى الشيوخ، المنتمين إلى الأرستقراطية، لقاهر بلاد الغال؛ وذا أيضاً من الأسباب الرئيسيّة للمؤامرة التي أطاحت به.

فلو دخل مِسينَس مجلس الشيوخ لوُضع في مرتبة تأتي، وفق الترتيب الزمنيّ للمنتخَبين، بعد مرتبة أناس يكنّ لهم من الاحتقار ما يمنعه أن يقبل حتّى باعتبارهم مساوين له.

خارج مجلس الشيوخ، مِسينَس هو الأوّل بين الفرسان.

داخل مجلس الشيوخ، مِسينَس آخر الشيوخ.

أمّا السبب الثاني، الذي يخالطه الكثير من تغليب المصلحة، فهو الأهميّة السياسيّة والنفوذ اللذان تتمتّع بهما المرتبة الاجتماعية التي يقوم مِسينَس في أعلى درجاتها: فمنها يُختار الشيوخ، ومنها يُنتقى المحاسبون المكلّفون بالأموال العامّة؛ لا بل منها تتكوّن الخيّالة في الجيوش.

إنّ مِسينَس هذا، الإبِقوريّ ذا الزنّار المتراخي الذي يجلس في محكمته برداء فضفاض، الذي يرتدي الطيلسان، الذي يخشى أن يسير عاري الرأس تجنّباً للشمس، الذي لا يمشي إلّا مستنداً إلى خصيَّين، الذي يطلّق زوجته الغنوج الكثيرة النزوات الموله بها ثمّ يستعيدها كلّ مرّة؛ مِسينَس الذي تزوّج مائة مرّة ولم تكن له سوى زوجة واحدة؛ إنّ مِسينَس هذا أدرك أنّه المقصود في مقطع من هجائيّاتي. لكنّ تهجّمي لم يكن بتلك الشراسة في واقع الأمر، وقد غفره لي بسبب قدحي في تِجلّيوس. ذلك أنّ تِجلّيوس، الذي لقي ترحيباً خاصّاً لدى قيصر أُكتافيوس، كان يبدو متعالياً تجاه مِسينَس، فكان من الصعب على مِسينَس أن يغفر له كما غفر لي هجائيّتي.

Twitter: @ketab_n

كان مِسينَس إذن صديق قيصر، ولم يكن من متملّقيه. تقوم عبارته « جلّاد، انهض!» مقام ترس يدفع هذه التهمة عن ذكراه. يفتقر إلى أيّ من تلك الصفات التي تصنع الأبطال، وترتقي بالعباقرة إلى أسمى المراتب؛ غير أنّه يتميّز بكلّ الصفات التي تبقي الحاذقين في المرتبة الثانية. بفضل فكر مُرهف قويّ الملاحظة، وروح صلبة رصينة، وعقل نشِط متستّر تحت خمول ظاهريّ، وإحساس مُكتمل باللياقات، ومعرفة عظيمة بطبيعة البشر، كان قادراً على النفوذ إلى حقيقة عاطفتهم، تحت أيّ قناع تستّروا. حاذق في الرشوة، ماهر في الإغراء، يتدخّل في كلّ دسائس مجلس الشيوخ والقصر الإمبراطوريّ وتجمّعات العامّة، ليستنبط منها ما يفيد به قيصر أُكتافيوس. كان شاعراً غير مجيد حين ينظم الشعر، لكنّه كان يبدع في الحكم على شعر الآخرين، دون أن يتأثّر حكمه برغبة التفوّق الذي يعتبر أنّه هو أهْلٌ له.

ثمّ إنّه كان رجل الأفكار المبتكرة. لم يكن جمهوريّاً، غير أنّ آراءه في المجتمع تبدو وكأنّها مقتبسة من گرَكُّس وكتيلينا وقيصر. «أعلِنْ وحدة العالم، يقول مِسينَس لأُكتافيوس؛ امنح الناس الأحرار كافّةً حقوق المواطن؛ ادعُ أعيان الأقاليم كافّةً للانتساب إلى درجة الفرسان وإلى مجلس الشيوخ؛ ألغِ الفروق اليسيرة وغير المنطقية بين القوانين والعادات والحكومات المحليّة، وضَعْها جميعها على نفس المستوى. اجعل من تلك الجمهوريّات الصغيرة الضعيفة مملكةً قديرة متماسكة؛ أعلِن وحدة المقادير والعملات والموازين؛ افرض ضريبة واحدة تُطبّق على الجميع ويتساوى أمامها الجميع؛ بِع كلّ تلك الأملاك الضئيلة الريع التي تملكها الدولة في الأقاليم؛ وأسِّس مصرفاً يدعم، بفائدة معقولة، الصناعة والزراعة».

ذلك ما كان يجهر به مِسينَس عالياً، فتُصفّق له العقول النيّرة من

Twitter: @ketab_n

الملكيّين والجمهوريّين.

ذلكم هو الرجل الذي كان ڤاريوس وڤِرجيليوس يصرّان أشدّ إصرار على أن يعرّفاني عليه.

مانعت طويلاً؛ ولكن بما أنّي، على كوني جمهوريّاً صلباً، وجدت هذه الآراء شديدة الصواب في الشأن السياسيّ، وأنّي لا آخذ عليه سوى بلاغته الثقيلة المنحلّة، وأسلوبه المتحذلق بحيث أنّ جملته تعسر على الفهم، غلب عليّ إصرارهما فقبلتُ.

أخبرت أنا بذاتي في هجائيّتي السادسة كيف جرت الأمور.

فما عليّ سوى أن أُثبت هنا مقطعاً من هذه الهجائيّة ذا صلة بمقابلتي مع مِسينَس. وإليك المقطع:

«لنعُد في الحديث إلى نفسي، أنا المولود لأب مُعتَق والمُعاب أبداً بذلك المولد؛ بما أنّي الآن ضيفك، يا مِسينَس! وبما أنّي قدت، سابقاً بوصفي مدافعاً عن الجند، فيلقاً رومانياً. أمّا ألقابي العسكرية فقد يحقّ للحاسدين أن يجادلوني فيها؛ وليس الأمر كذلك فيما يخصّ لقب صديقك: فلست من ينعم عليّ بهذا اللقاء، يا مِسينَس، كما هو معروف، بل منحَتني إيّاه الجدارة لا الدسائس. لا أدين بتلك السعادة الثمينة للصدفة؛ ليست الصدفة هي التي جعلني أقوم الآن في حضرتك. فقد حدّثك عني أوّلاً أعزّ أصدقائي، ڤِرجيليوس، ثمّ ڤاريوس.

«رضيتَ بلقائي بفضل رعايتهما، فتأتأتُ بحياءٍ ببضع كلمات، لأنّ الهيبة أسكَتتني. لم أفخر أمامك لا بأصولي العريقة ولا بفَرسي الذي كنت أجوب على صهوته أملاكي الشاسعة؛ لا، قدّمت نفسي ببساطة كما أنا. وأتى جوابك مقتضباً ملتبساً كعادتك، ثمّ انسحبتُ. استدعيتني بعد تسعة أشهر، وها أنا، بأمر صريح منك، أجلس في عداد أصدقائك.

Twitter: @ketab_n

فما أسعدَني بأنّي حظيت برضاك، يا مِسينَس، أنت من يُحسن التمييز بين الإنسان الخلوق ومجرّد الوغد، ومن يقدّر الجدارة لا بالنسبة إلى شرف الأصول الباطل، بل نسبةً لنبل العاطفة الحقيقيّ!».

كما ترون، بين لقائي الأوّل بمِسينَس ويوم قابلته من جديد، انقضت تسعة أشهر.

سهوت عن مِسينَس كليّاً وظننت أنّه نسيني تماماً، وإذا بڤِرجيليوس ذات صباح يأتيني موفداً من قبله ليصحبني إلى بيته مرّة أخرى. وهذه المرّة لم يستقبلني ببرودة الراعي، بل بعطف الصديق، الذي يمكنني أن أموت فداءه.

استقبلني مِسينَس مراراً قبل أن يقدّمني إلى أُكتاڤيوس. أُقرّ أنّي كنت أكنّ لقاهر عزيزي بروتُس بعض النفور لم يقوَ عليه أقلُّ من معركة أكسيوم. لم أكن أصدّق تلك البساطة التي كانوا يمتدحونها فيه، ولا أثق بتلك اليد التي وقّعت مراسيم النبذ الصادرة عن حكومة الثلاثة، ولا بذلك الرجل الذي طلّق ثلاث نساء بسبب طموحه.

صحيح أنّه كان قد تزوّج لتوّه بامرأة رابعة عن حبّ.

أمّا زوجاته الثلاث فهنّ:

سِرڤيليا التي تزوّجها وهي في الثامنة عشرة؛

ثمّ كلوديا، ابنة أنطونيوس وفُلڤيا؛

وأخيراً سْكريبونيا، التي رُزق منها جوليا التي طالما اشتهرت بعشقها المخزيّ والتي زوّجها، بالتتالي، لمَرسِلُّس الابن، ثمّ لأَگرِپّا وبعده لتِبيريوس، وانتهى به الأمر إلى نفيها إلى جزيرة پَنداتَريا.

المرأة الرابعة التي تزوّجها أخيراً اسمها ليڤيا، ابنة لوكيوس دْروزُس، وكانت قبلذاك زوجة تِبيريوس كلاوديوس نيرون ولها منه ابن اسمه

Twitter: @ketab_n

تِبيريوس. وحين طلّقت لتتزوّج أُكتاڤيوس كانت حاملاً بصبيّ، وضعته بعد ثلاثة أشهر. فابن من كان دْروزُس هذا؟ ابن كلاوديوس نيرون؟ ابن أُكتاڤيوس؟ ومهما يكن من أمر فإن أُكتاڤيوس تبنّاه.

والحال أنّ أُكتاڤيوس كان مشغولاً في تلك الفترة بهمّ عائليّ آخر.

استشاطت فُلڤيا غضباً من عشق أنطونيوس لكلِيوپَترا، فغادرت إيطاليا بعد الشِجار الذي حصل في پيروزيا، لتلتحق بزوجها في أثينا. استقبلها باحتقار شديد حملها على السفر إلى سِسيونا، وهي أكثر سخطاً منها حين وصلت إلى أثينا؛ ثمّ ماتت هناك بسبب أزمة سخط حادّة.

بفضل موتها، تحرّر أنطونيوس فاستطاع أن ينزل عند طلب جنده فيتزوّج أُكتاڤيا.

بنفس الاحتقار الذي عامل به أنطونيوس تلك المرأة الشبيهة بالإلهة **نِمِزيس**[1] المسماة فُلڤيا، عامل أُكتاڤيا البالغة النقاء. هجرها زوجها، فلم يمنعها ذلك من الانشغال كليّاً بشؤون ذلك الجاحد للجميل؛ إذ استمرّت بتربية أولاده من فُلڤيا، واستغلّت نفوذها الواسع لدى أخيها لتمنعه من الانتقام لتلك الإهانة.

---

(1) إنها ابنة جوپِتِر *Nemesis* وهي الإلهة التي تنتقم من المجرمين (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر (تابع)

كان الأمر متوقّعاً.

دامت حالة السلم مع سِكستُس پُمپيوس ثلاثة أشهر، وكان بالإمكان توقّع الأمر منذ توقيع المعاهدة: أُكتاڤيوس يريد أن يستمرّ في منطقه، أي كونه ابن نِپتونُس كما كان يزعم؛ فقهره منطقه. وإلى ذلك شتّتت العاصفة أسطوله، ولولا خيانة ميناس، الذي أدرك ربّما أنْ لا فائدة تُجنى من رجل بنزاهة سِكستُس پُمپيوس، لما بقيت له سفينة واحدة.

لا سبيل إذن إلى مخاصمة أنطونيوس، بالرغم من سوء معاملته لأكتاڤيا: فلأنطونيوس أسطوله، ولم يعد لأُكتاڤيوس أسطول.

أنطونيوس مقيم في أثنيا، فبعث له قيصر بمِسينَس ليفاوضه.

أجرى مِسينَس المفاوضات بكفاءة، كعادته؛ فكان الاتّفاق أن يُعير أنطونيوس أسطولَه لشقيق زوجته.

وتزامنت عودة مِسينَس من اليونان مع عودة أگرِپّا من بلاد الغال.

بعد أن قهر شعوب أكيتانيا[1]، عبر نهر الراين، فقهر الجرمان. بعد عودته إلى إيطاليا، استطاع بما يتميّز به من سرعة التصرّف أن يبني أسطولاً جديداً في ميناء شاسع أنشأه على عجل، اسمه ميناء يوليوس، مُكوّن من بحيرة لُكرينُس وبنحيرة أڤِرنا مجتمعتين.

ثمّ أنشأ قناة تصل الميناء بالبحر، تتّسع لسفينتين تتقدّمان معاً.

---

(1) *Aquitaine* منطقة تقع جنوبيّ غربيّ فرنسا (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان قيصر يعرف أنّ بوسعه الاعتماد على أگرِبّا، ذراعه الأيمن، كما على مِسينَس، ذراعه الأيسر.

مررنا على ذكر أگرِبّا بكلمتين بمناسبة الكلام عن موت قيصر. وُلد لأبوين مغمورين، فأصبح بالصدفة رفيق أُكتاڤيوس الذي اصطحبه معه من أپّلّونيا؛ وقد ساهم مساهمة فعّالة، بفضل قدرته على التحرّك بسرعة، في نجاح معركة فِلِپّي، فكان نجاحه مزدوجاً: أنجزه بغياب أنطونيوس، وكذلك بغياب أُكتاڤيوس. ماهر في إدارة النصر بعد الحرب، وفي تنظيم الإدارة العليا أثناء السِّلم، يعرف أن يطيع لأنّه يعرف أن يأمر، فنّان مع كونه جنديّاً، سخيّ دون أن يكون مُبذّراً، وكان من عادته أن ينظمّ ألعاباً لشعب روما؛ ذلك الشعب يقتضي معاملة كريمة، فلا بدّ أن يؤمّن له الطعام، ويؤمّن الشراب، ويؤمّن ماء الاغتسال. وكان أگرِبّا يؤمّن له، طوال فترة الألعاب، من يحفو له لحيته مجّاناً.

أمّن بالمجّان لهذا الشعب خمسمائة سبيل ماء، مائة وثلاثين قصراً، ومائتين وسبعين حمّاماً. وكلّ ذلك لم يكفِه: راح يرمي له بأوراق يانصيب تدرّ عليه مبالغ، وأنسجة وأثاثاً ثميناً؛ بل تركه ينهب الحوانيت المملوءة بالبضائع، حتّى لا يفقد كفاءته على إنجاز المآثر كما في عهد كلوديوس.

لكلّ تلك الأسباب، كان قيصر يثق بأگرِبّا ثقة مطلقة. فبدون أگرِبّا وبدون مِسينَس، يفقد مُلك قيصر عنصرين: بهاء النصر، وبهاء الشعر. فلعلّه مُلك أُكتاڤيوس، ولكنّه ليس مُلك أغُسطُس. حين استشار أگرِبّا ومِسينَس عمّا يجب فعله، أشار عليه أگرِبّا بالعودة إلى الجمهوريّة، ومِسينَس بتأسيس إمبراطوريّة. بفضل عبقريّته العجيبة في تمثّل الأمور، استبقى من كلا المشورتين ما يصلح له. نعم، كان أُكتاڤيوس بصدد تأسيس إمبراطوريّة، ولكن من كان يتنبّه إلى أنّ الجمهورية لم تعد قائمة؟

Twitter: @ketab_n

الأمر الرائع في هذا النمط من حكومة الثلاثة، المكوّن من أُكتافيوس وأگرِپّا ومِسينَس: أنّ اثنين من الثلاثة وقفا نفسيهما باستمرار على خدمة عظمة الثالث. ومع ذلك، كم كانت محزنة تلك الهديّة التي أهداها أغُسطُس لأگرِپّا، حين أمره بأن يطلّق زوجته مَرسِلّا ليزوّجه ابنته جوليا؛ ثمّ حين عهد إليه، خلال سنتي زيارته لآسيا واليونان، بإدارة الإمبراطوريّة. أُوفد إلى بلاد الغال ثمّ إلى جرمانيا، وانتصر في كليهما، ثمّ عند عودته إلى روما رفض مراسيم الظفر؛ وفيما كان يؤمّن لروما ثلثَي مياه الشرب، تسلّى بتشييد تلك **الرُتُندا** الجذّابة المسمّاة **پَنثيون أگرِپّا**.

ندرك، والحالة هذه، لماذا فضّل أُكتافيوس رفيقه الشديد الإخلاص هذا لدى رجوعه، على زميله المرتاب هو في أمره. صرف أنطونيوس ورفض العون الذي التمسه منه من قبل. لم يكترث أنطونيوس لرفض أُكتافيوس، وبغية التأكّد ممّا يخفيه، غادر أثينا مع ثلاثمائة سفينة محمّلة بالجند. من الواضح أنّه لعجزه عن أن يكون شريكاً في الأحداث، أصرّ على أن يبقى من مشاهديها، مشاهداً خطيراً بالنسبة إلى أُكتافيوس، سينقضّ عليه حتماً إذا ما مني بهزيمة.

أعلن أنطونيوس أنّه مبحر باتجاه ميناء بْرُنديزيوم، حيث سيضع نفسه تحت تصرّف أُكتافيوس. لعلّ أُكتافيوس أراد، ولأوّل مرّة، أن يخاصم أنطونيوس؛ غير أنّ أُكتافيا المهجورة المسكينة لم تألُ جهداً واستطاعت أن تحمل أخاها على إيفاد مِسينَس إلى أنطونيوس ثانيةً، أملاً منها بأنّه لا بدّ لهذا الفارس الحاذق أن ينجح في مهمّته الثانية كما نجح في الأولى. رضي مِسينَس بالمهمّة واصطحب معه موكباً كبيراً يسبغ به على سفارته صفة العظمة. ضمّ هذا الموكب عالماً يونانيّاً في فنّ البلاغة اسمه هِليُدورِس، وپلوكيوس تُكّا، شاعر كانت شهرته تضارع شهرة أعظم الشعراء آنذاك،

Twitter: @ketab_n

والمتطفّل سَرمينيوس، والمهرّج مِنّيوس سِسركُس وأنا.

وكان على ڤاريوس وڤِرجيليوس أن يلتحقا بنا أثناء المسير، في سِنوِسّا.

تمّت إعدادات السفر بسرعة، ولكنّا لم نستطع أن نسافر كلّنا في نفس الوقت، فكان على المتأخّر أن يحثّ الخطى ليلحق بالآخرين. سافرت في العربة مع عالم البلاغة هِليُدورِس، ولعلّه أعلم الناس باللغة اليونانيّة. نزلنا أوّل يوم في نزل قبيح في آريوس، يبُعد عن روما ستّة أميال لا أكثر.

تبعنا طريق أپّيوس التي منها قدُمت إلى روما قبل ثلاث عشر سنة.

لم نستعجل أكثر في يومنا الثاني، إذ توقّفنا في سوق أپّيوس، المُسمّى باسم أپّيوس كلاوديوس سيكُس الذي شقّ طريق أپّيوس. فلمَ العجلة بما أنّ آخرين آتون بعدنا.

كانت هذه المحطّة أسوأ من الأولى: وجدنا تلك الساحة البائسة مليئة بأصحاب الزوارق والحانات من اللصوص؛ وكان الماء سيّئاً لدرجة أنّي استغنيت عن العشاء. ولا داعي لذكر الخمر: كانت سُمّاً ناقعاً، مع أنّ سفوح سِزّيه، الواقعة على بعد أقلّ من ميل، تنتج نبيذاً كان أُكتاڤيوس يؤثره على أفضل محاصيل نبيذ ضواحي روما، يُسمّى النبيذ السيلينيّ.

انتظرت، وأنا على الريق وفي حرب ضدّ معدتي، أن يفرغ رفاقي من طعامهم.

إنّ ركوب العربة على طريق أپّيوس مُنهك، لا سيّما حين تجري الأحصنة خبباً، بسبب الفرجات التي بين بلاطاته. لذلك قرّرنا أن نستفيد من القناة، فتابعنا سفرنا على متن زورق.

يمدّ القناةَ بالماء نهران مترافدان: نهر نِـمفالِس الذي ينبع من أسفل الجبل التي تقوم في أعلاه أسوار نوربا في عهد الپِلاسجيّين، ونهر أُلْفَنس. تحاذي القناة طريق أپّيوس حتّى الجنوب، وحين يبلغ المسافرون ساحة

Twitter: @ketab_n

أپّيوس يستقلّونه ليلاً.

كانت الزوارق مشدودة إلى بغال تجرّها، وعند الصباح، بعد ليلة تريحك من تعب الطريق، تستأنف السير على طريق أپّيوس.

أدّينا لصاحب النُزل حسابه، وساعة راح الليل يبسط ظلاله على الأرض وينثر النجوم في السماء، انطلقنا.

كنت مخطئاً بتوقّعي ليلة مريحة. صحيح أنّنا التفنا جيّداً بألحفتنا وتقوقعنا على بعضنا البعض، لكنّ لسعات المتطفّلين وصوت الملّاح المنتشي الذي كان يتغنّى بعشيقته لم يتركا لنا مجالاً لإغماض أعيننا. ثمّ غفوت بعض الشيء وإذا بي أستفيق عند توقّف الحركة من حولي. كان زورقنا مثبّتاً في مكانه، وبمجرّد النظر حواليّ فهمت سبب ثباته. فقد شدّ الملّاح حبل زورقه إلى مربط على الضفّة، وراحت البغلة ترعى العشب بكلّ سكينة، وهو يشخر مسلتقياً على ظهره.

قفز أحدنا، ولا أجرؤ على ذكر اسمه، خارج الزورق وقطع غصن صفصاف، وداعب بعنف ظهر الملّاح والدابّة. استعاد الاثنان حركتهما بفعل هذا القصاص. غسلنا أيدينا، وتمضمضنا بالماء حين وصلنا إلى نبع فِرونيا، الذي بدا لنا بمنتهى الصفاء والعذوبة بعد تلك المياه البغيضة المالحة التي شربنا في العشيّة.

تغنّى فِرجيليوس، في الكتاب السابع من **الإنيادة**، بظلال الغابات التي تحتمي بها عروس الغاب، التي أكنّ لها احتراماً خاصّاً، ليس بسبب نضارتها وعذوبة مائها فحسب، بل لأنّها إلهة المُعتَقين؛ فكان من واجبي، وأنا ابن مُعتَق، أن أرفع إليها دعائي.

بعد أن اغتسلت وأدّيت واجبي، سرنا على وقع بغلتنا حتّى وقت الغداء.

Twitter: @ketab_n

بعد الغداء، استأنفنا المسير: قطعنا طريقاً صعوديّة أدّت بنا إلى أَنْكسور البيضاء، حيث كان من المقرّر أن يلتحق بنا مِسينَس وكُكسِيوس نِرڤا، وهو قانونيّ شهير عُيّن قنصلاً في السنة التالية.

عاد وجع العينين يلازمني لا سيّما وأنّ الطريق مغبرّ، فاستفدت من هذه المحطّة لأغسلهما بقطرة كنت قد أتيت بها من روما.

وصل مِسينَس مع كُكسِيوس نِرڤا، وهو من أصدقاء أنطونيوس الحميمين والرجل المناسب بكلّ دقّة.

توقّفنا في فُندق للغداء وللتمتّع بتفاهات المشرف فيها على العدالة، أوفيديس لوكُس؛ ثمّ بعد أن قمنا بالأمرين كما يقتضيه ضميرنا، غادرنا ذلك المسؤول الجليل.

وصلنا فورميس، المدينة الرئيسية في مَمّورا وقد قصفنا التعب. تذكّرتُ قصيدة كَتُلُس الساخرة في مُقاوِل قيصر هذا، الذي يملك في روما أجمل منزل لا يذكره إلّا باسم **مَنتُلا**.

«لا شكّ إطلاقاً أنّ مَنتُلا غنيّة بالغابات والحقول المترعة بأشياء ممتازة، بالطيور من كلّ الأجناس، بالسمك، والمروج، والأرض البور وأراضي صيد. لا شيء ينقصها، ولكن ما الفائدة منها؟ مصاريفها تفوق ريعها؛ ليكُن غنيّاً شرط أن يعوزه كلّ شيء؛ ولنمتدح ثرواته، لا ضرر فيها، بما أنّه مُعوز».

نزلنا في فُرمِيس في بيت لِسينيوس ڤَرّو مُرينا. أستأذن القارئ باستطراد عن اسم مضيفي.

اسم العائلة هو لِسينيوس. أمّا **مُرينا** فليس سوى لقب أُطلق عليه بسبب حبّه لسمك المورين؛ كما أنّ سِرجيوس سُمّي **أُراتا** بسبب حبّه لسمك الدنيس. بينما كان مُرينا يخترع الأحواض المملوءة بماء البحر،

Twitter: @ketab_n

كان سِرجيوس **أُراتا** يبحث عن طريقة تربية المحار في دارته في بايا. وكان النقاش قائماً بين النهِمين في أمر تفوُّق محار بحيرة لُكرينُس على محار بْرُنديزيوم. كان سِرجيوس **أُراتا** يعتنق هذا الرأي؛ لكنّه، مراعاةً لمعارضيه الكثيرين، كان يأخذ المحار من بْرُنديزيوم وينقله إلى بحيرة لُكرينُس، حيث كان ينزله في الماء ثمّ يُقيته، بعد أن يكون قد منع القوت عنه طوال الطريق، لذلك كان يسمن بسرعة.

كان هِرّيوس من كبار مربّي سمك المورين، وكان ينتج كميّات كبيرة منه في أحواضه، بحيث أنّه تمكّن من أن يبيع ستّة آلاف سمكة دفعة واحدة ليوليوس قيصر بمناسبة الوليمة التي قدّمها للشعب: والأصحّ أن أقول «يعير» لا «يبيع»؛ إذ أنّه وزن ستّة آلاف سمكة وتعهّد قيصر أن يعيد له نفس العدد من المورين الحيّ.

شُغف كْرَسُّس، وهو الرجل الوقور السريع الانتقاد، بإحدى تلك الأسماك شغفاً عظيماً جعله يعلّق في أذنَيها حلَقاً ويضع في رقبتها عقداً؛ واعتادت أن تأتي لتقتات من يده. ماتت، فبكاها ولبس عليها الحداد. أثار حزنه هذا ضجّة شديدة بحيث أنّ دُميسيوس، زميل كرَسُّس، لامه وعاب عليه تصرّفه. لم ينفِ كرَسُّس حزنه، بل اعترف به بصراحة، قائلاً إنّ ذلك دليل على أمر واحد: أنّه تقيّ ومرهف الإحساس.

كانت مهمّة فُنتِيوس كَپتو أن يقوم بأَوَدنا عند مَـمّورا، وقد أنجزها بتمامها. ولنقل بالمناسبة إنّ لِسينيوس فَرّو، المُلقّب مُرينا، كان شقيق الجميلة تِرِنسيا التي عشقها مِسينَس؛ ولم يحُل ذلك دون الحكم بالموت على لِسينيوس حين تآمر على أُغسطُس بعد خمس عشرة سنةً أو ستّ عشرة.

في اليوم الخامس من سفرنا، استأنفنا السير وبلغنا فورمِيس، التي

Twitter: @ketab_n

تحدّثت عنها عند ذكر دخولي إلى روما. وهناك التحق بنا، حسب ما اتفقّنا عليه، ڤاريوس وڤِرجيليوس فسعدتُ بذلك. ڤاريوس وڤِرجيليوس، يا لهما من قلبين صافيين بريئين لا يمكنني البقاء بعيداً عنهما، فغيابهما يحزنني وحضورهما يفرحني. آه! يا للعناق! يا للسعادة! لا، لا شيء على الإطلاق، طالما أبقت لي الآلهة عقلي، لا شيء عندي يقوم مقام الصديق!

ثمّ قطعنا في نفس النهار مسافة تسعة أميال ونمنا عند جسر كَمپانيا. وفي اليوم التالي أنزلنا حمولة بغالنا في كَبُوا. هكذا قطعنا في ستّة أيّام مسافة مائة واثنين وثلاثين ميلاً رومانيّاً. وصلنا، فلعب مِسينَس لُعبة المضرب، أمّا ڤِرجيليوس وأنا فقد ذهبنا للنوم، ڤِرجيليوس بسبب ألم في صدره وأنا بسبب وجع عينيّ.

بلغنا ثاني يوم مزرعة كُكِّيوس الرائعة، وهو رفيق مِسينَس. كانت دارته تقع فوق فنادق كلَوديوم.

قلت إنّ سَرمَنتوس ومِنّيوس سِسِرّوس كانا معنا، ووصفت الأوّل بالمتطفّل والثاني بالمهرّج.

أضيف كلمة عنهما.

سَرمَنتوس مُعتَق بسيط، بعد أن كان عبداً لسيّدة رومانيّة، وكان كاتب ديوان، بل من الأفضل أن نقول إنّه عُيّن مسؤولاً عن فرع من فروع الإدارة العامّة.

كيف بلغ وهو في الرابعة والعشرين هذه المرتبة الرفيعة، فيما أمثاله يجهلون ساعةً قبل العشاء في أيّ بيت سيجدون مقعداً شاغراً وصحناً جاهزاً؟

أمّا مِنّيوس سِسِرّوس فكان مجرّد مهرّج، ليس إلّا، ومن أحطّ منشأ ممكن.

Twitter: @ketab_n

كان هذان الضيفان مُكلّفين بإضفاء البهجة على وجباتنا بالتهاجي شعراً.

مساءَ توقّفنا عند نِرڤا، تجابَها بقريحة فيّاضة غير معهودة لديهما فقضينا سهرة ممتازة.

بعد هذا العشاء البهيج، استأنفنا السير حتّى بنِڤانت، حيث أضرم ضيفنا النار في بيته من شدّة تعجّله في قلي طيور السّمانى، فانهار الفرن وانتشر اللهيب في المطبخ وسرى من المطبخ إلى السطح؛ ولحسن الحظّ أنّ الخدم أخمدوا الحريق ولم يخسر الضيوف عشاءهم.

عند مخرج بنِڤانت، طريقان يُطالعان المسافرَ القاصد بْرُنديزيوم عبر الجبال: أحدهما يمرّ بإكْووس مَـگنوس وسِڤِتاس سِردونِس، والآخر مروراً بسِلانو أكّويلونيا وڤِنْزيا، موطني.

لم نسلك أيّاً منهما بل سرنا في درب مختصر. حرقتنا الريح الأفريقية نهاراً، فكنّا عرضةً لخطر الموت برداً، لو لم نشعل النار ببعض الحطب الرطب والأوراق المبلّلة.

في اليوم التالي، نقلتنا عربات سريعة إلى مسافة أربعة وعشرين ميلاً من القرية. توقّفنا في مدينة لم أذكرها مرّة في أشعاري، ولعلّي ذكرتها في كتاباتي النثريّة.

إنّها بكلّ بساطة مدينة أَسْكولُم.

من الأمور اللافتة في هذه المدينة ندرة الماء، فكان على الناس أن ينقلوه على ظهور البغال، وجودة الخبز، فاعتاد المسافر وإن كان مترجّلاً أن يحمل منه ما استطاع حمله؛ ذلك أنّ الخبز في المحطّة السابقة، أي في كَنوزيُم، هو أسوأ ما يكون على وجه الأرض.

غادرنا ڤاريوس في كَنوزيُم، فكان الوداع مؤلماً ومؤسفاً للغاية. ثمّ

Twitter: @ketab_n

بلغنا روبُس مُنهكين، ليس فقط لأنّ الطريق لم يكن ينتهي، بل كذلك لأنّ الأمطار كانت قد جرّفته فتبلّلنا حتّى النخاع.

كان نهار اليوم التالي أفضل حالاً، غير أنّ الطريق كان أسوأ. وصلنا بالي، مدينة الصيّادين، المدينة الغنيّة بكلّ أنواع السمك. ومنها ذهبنا إلى إگناليس، التي لم تُراعَ في بنائها مسارب المياه؛ وهناك حاول الناس إقناعنا بأنّ البخور الموضوع على عتبة المعبد يحترق من ذاته بدون نار.

أن يؤمن بذلك اليهوديّ أپّلا، فلا بأس؛ أمّا أنا فقد تعلّمت من إپِقورُس أنْ لا شيء ينغّص راحة الآلهة، وأنّنا حين نُدهش ببعض عجائب الطبيعة فهذه العجائب لم تأتِ من جبل الأُلمپ بفعل آلهة رضيت أن تزعج نفسها بالتدخّل في القضيّة.

ووصلنا أخيراً إلى بْرُنديزيوم، نهاية رحلتنا.

عند وصولنا إلى بْرُنديزيوم، وجدنا الميناء مقفلاً بأمر صادر عن أُكتاڤيوس. كان ذلك تدبيراً وقائيّاً اتّخذه تفادياً لنزوات أنطونيوس ورغبته في السيطرة، إذا ما استبدّت به رغبة الاستيلاء على الميناء لإشغال سفنه الثلاثمائة.

وقد تعزّز أسطول أنطونيوس حين انضمّ إليه دُميسيوس إينُبَربُس، الذي منح الجمهوريّين حقّ اللجوء على أسطوله بعد هزيمة فِلِپّي. وأظنّ أنّي ذكرت سابقاً أنّني لم أحكم بضرورة الاقتداء بصديقي پُمپِيوس في تلك الحقبة، فاخترت لنفسي ملجأً آخر.

كان دوميسيوس ينوي في بداية الأمر أن يلتحق بسِكستُس پُمپِيوس؛ غير أنّ پُلّيون حمله بإصراره الشديد على التعامل مع أنطونيوس. حضر إذن معه قبالة بْرُنديزيوم مُستعدّاً لدعمه بطيب خاطر، في أغلب الظنّ، في كلّ المبادرات التي قد تبدو له مناسبة. لا شكّ أنّه عندما رأى المدينة

Twitter: @ketab_n

محصّنة على هذا النحو ومدعومة بحامية كبيرة، عزف عن نيّته؛ فلبّى دعوة مِسينَس إلى تَرَنتُم، حيث كانت زوجته وأخوها ينتظرانه.

يكفي يوم واحد للذهاب مشياً من بْرُنديزيوم إلى تَرَنتُم، فتبعت مِسينَس إليها، وفيها لاقيت صديقي سِپتيميُس الذي كان يملك، إضافة إلى منزل جميل جدّاً في المدينة نفسها، أملاكاً عظيمة في الضواحي. وعنده تسلّيت بقصّ رحلتي إلى بْرُنديزيوم نظماً. وفيه أيضاً كتبت الحوار بين الملّاح وشبح أركِتاس التَرَنتيّ.

كنت أنظم بينما كان مِسينَس مشغولاً بالدبلوماسيّة، يحاول أن يقارب، بل أن يصلح بإخلاص ما بين أكتاڤيا وزوجها، وأن يصل إلى هدنة وحتّى إلى سلْم حقيقيّ بين قيصر وأنطونيوس.

وعلى كلّ حال، في ما عدا عشق أنطونيوس الجنونيّ لكلِيوپَترا، كانت التهدئة سهلة المنال، بما أنّ كلّاً منهما راضٍ بقسمته.

كان أُكتاڤيوس يعمل بجهد وبنجاحٍ في سبيل إعادة السلم إلى ذلك الغرب الذي تُرك له باعتباره الحصّة الأسوأ، فاستعاد كلّ صقلّية تقريباً من سِكستُس پُمپيوس، وطهّر إيطاليا من اللصوص الذين كانوا يعيثون فيها فساداً. وكان أُكتاڤيوس ينزع عن نفسه كلّ يوم ثوباً من أثوابه الدمويّة ليرتدي جبّة قيصر البيضاء. راح يدخل في المرحلة الثانية من حياته، ويدشّن سياسة ناعمة تصالحيّة ومعتدلة. راح ينتظر بصبر، وقد أصبح سيّد نصف العالم وهو في الثامنة والعشرين من عمره، أن تسلّمه أخطاء أنطونيوس النصف الثاني منه.

أمّا أنطونيوس، فالشرق حصّته الحقيقيّة. الشرق وحده بمناجمه وكنوزه قادر أن يكفي مطامعه المرعبة. عندما وصلنا، كانت الإشاعة تُؤكدّ أنّ الشرق دفع له مائتي ألف وزنة. مرزبان حقيقيّ، باذخ لدرجة

Twitter: @ketab_n

الجنون. كم يليق بأرض المعجزات تلك، حيث الرغبات تتضخّم لتصبح أهواء! أمّا في الغرب، فكان الأمر بالنسبة لأُكتاڤيوس على عكس ذلك: نتيجةَ هزائمه أمام الپرثيّين، وعشقه الجنونيّ لكلِيوپَترا، فقد أنطونيوس ثلاثة أرباع شعبيّته. أنطونيوس الذي أصبح وجوده في إيطاليا غير ممكن، لم يعُد وجوده ممكناً إلّا في الشرق.

هذه المفاوضات، مهما اعتورها النقص، أرضت أُكتاڤيوس، لأنّها وهبته الوقت الكافي ليُقلّص من شأن سِكستُس پُمپيوس ويلغيَ لِپدُس. فعاد إلى روما وكأنّه، حتّى في نظر أفضل أصدقائه، حصل على كلّ ما كان يشتهيه.

نهاية الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

روما تتوسّع - أشتري وظيفة كاتب في الخزينة - وضع المرأة في روما - الفتيات وربّات البيت؛ أسلوب تكريمهنّ - الجواري - المُعتَقات - فلورا وپُمپيوس- هجائياتي لأخلاق العصر - أخلاق ڤِرجيليوس - أخلاقي - إنكيا وليسيانُس- ما هي وظيفة كاتب الخزينة - أشتري دارتي في تيبور - قصيدتي في سِپتيمُس - قصيدتي في پُلّيون - أُكتاڤيا ترجع إلى أثينا - تتلقّى من أنطونيوس أمراً بعدم التمادي - سفارة نِجير غير المثمرة - أُكتاڤيا تعود إلى روما - ما يقال عن أنطونيوس في روما.

راحت روما تتوسّع وتتجمّل، وسيذكر التاريخ مستقبلاً قول أغُسطُس: «استلمتها وهي من آجرّ، وأُسلّمها وهي من رخام».

فيما كان الرّومان يغزون بلاد الغال واليونان، إسبانيا وتراسيا، الپونتس وآسيا، كانت روما تغزو إيطاليا. الپوميريوم، ذلك الحيّز الذي اختصّته الآلهة ورسمه سرڤيوس تُلّوس ويتّسع نطاقه الداخليّ لمائتي وستّين ألف مواطن، كانَ قد تفسّخ أو أقلّه أفسح المجال للمدينة كي

Twitter: @ketab_n

تقفز من فوقه؛ وراح القيّمون اللّاتين على المدينة يشكون عام 575 من عدم قدرتهم على توفير الرواتب للجند من كثرة الريفيّين القادمين إلى روما. وقد أُجبرت روما منذ عام 565 على أن تطرد من داخلها اثني عشر ألف عائلة لاتينية قطنتها وتسجّلت أثناء إحصاء عام 550، ثمّ أن تُهجِّر عام 581 ستّة عشر ألف نفسٍ خارج أسوارها.

كان الجميع يفدون إلى روما بحثاً عن الثروة، وإن تعذّرت الثروة، فعلى الخبز الذي يطمئنّون إلى الحصول عليه، بفضل توزيع القمح. فها روما، التي طالما تردّدت في التوسّع خوفاً من غضب الآلهة، ترتفع، وتُراكب طابقاً فوق طابق، بحيث أنّ أغُسطُس أُجبر على إصدار مرسوم يقضي بعدم رفع البناء أكثر من اثنتين وسبعين قدماً.

وسرعان ما أصبحت الطوابق المتراكمة غير كافية للسكن؛ فتسلّقت روما الهضاب السبع الشهيرة الواحدة تلو الأخرى، كما هبطت إلى السهل. ثمّ تعدّت بمكرٍ محيطَ اليوميريوم فرمت الجسور فوق نهر التيبَريس؛ ثمّ تطاولت نحو البحر من جهة أُستيا، ونحو الجبل من جهة تيبور وأريسيا. في ذلك قال شيشرون: «روما لم تعد مدينة الرّومان، أصبحت عاصمة مُكوّنة من تجمّع الشعوب كافّة».

نوى قيصر، بسبب حرجه من تزايد السكّان، أن يحوّل مجرى التيبَريس، ويغطّي بالبيوت حقول مارس، ويُزيح حرم اليوميريوم إلى ما بعد جسر مِلفيوس، بُغيةَ مُضاعفة مساحة روما القانونية.

تلك هي روما التي عدنا إليها، حيث كنت آمل أن أستعيد، بفضل سخاء مِسينَس، ثروتي التي كنت قد فقدتها كلّها سواءً من كثرة المصاريف الشخصيّة أو بسبب تجريد والدي من ملكه اليسير. فاشتريت وظيفة كاتب في الخزينة.

Twitter: @ketab_n

أهّلتني لهذه الوظيفة، على كوني ابن مُعتَق، مهمّةُ مدافع عن الجند شغلتها في عهد بروتُس. فخوّلني مردودها أن أحيا حياة أكثر رفاهاً، وأن أشاطر من هم في سنّي وفي عصري مِتع حياتهم.

قبل أن أندفع جدّياً في سرد قصّة عشقي الجنونيّة، اسمحوا لي بقول بعض الكلمات عن النساء الرومانيّات وعن موقعهنّ في المجتمع.

نعرف كيف حصل أجدادنا على أولى نسائهنّ: بنات أهل سَبينا الخشنات وربّات المنزل الماهرات، رضي أهلهنّ بتزويجهنّ للرّومان، شرط ألّا يفرض عليهنّ أزواجهنّ القيام بأشغال العبيد بأيّ شكل كان، وأن يشغّلوهنّ فقط بغزل الصوف. ذلك هو أصل أشرف عبارة تُنقش على ضريح زوجة رومانيّة في العهود الأولى: «مكثَت في منزلها وغزلت الصوف».

والحال أنّ شغلهنّ الرئيسيّ في القرون الأولى من العهد الجمهوريّ كان حياكة ثياب أزواجهنّ؛ فتتولّى أفقرهنّ حالاً أمر خياطته بنفسها، وتكتفي أيسرهنّ حالاً بالإشراف على الجواري اللواتي يخِطنها وهنّ رهن الإقامة في جناح من البيت، نسمّيه باللغة اليونانيّة جينِسّيه[1].

أُكتافيوس الذي تحوّل إلى أُغسطُس قيصر، ومن أُغسطُس قيصر إلى إمبراطور، أصرّ بعناد أن يعطي القدوة في العودة إلى الأعراف القديمة، فلم يلبس إلّا من غزل زوجته وأخته وبنات إخوته.

من نافل القول أنّ هذه الأعراف البدائية بادت منذ زمن طويل. فنساؤنا اليوم يتركن هذه الأشغال لجواريهنّ، باعتبارها غير لائقة بمرتبتهنّ، أو يجلبن الأنسجة الجاهزة من پَدوڤا.

لم يكن ذلك هو التغيّر الوحيد الذي طرأ على وضع النسوة بفضل

---

(1) تقابل «الحريم» في السّراي العثمانيّ (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

عنادهنّ الرقيق الذي لا يكلّ. فعلى عكس جاراتنا نساء بلاد الغال، اللواتي يشاركن في شؤون الدولة، ويرافقن أزواجهنّ في الحروب تشجيعاً لهم على القتال بالتحريض والصراخ، فإنّ النساء الرومانيات أبعد ما يكُنّ عن التدخّل في الشؤون العامّة، بل لا يملكن حتّى حقّ القيام بشؤونهنّ الخاصّة. فهناك أبٌ، زوج أو وصيّ يدير أملاكهن الخاصّة. والواقع أنّ النساء، في نظر القانون عندنا، **يخضعن أو يجب أن يخضعن** لسلطة وصيّ.

فبقدر ما تتسع حقوق ربّ العائلة، بما فيه حقّ التصرّف بأولادهم حياةً وموتاً، تضيق حقوق المرأة. إنّ حياتها، في نظر القانون، حياة خضوع دائم: إن بقيت حين زواجها تحت سلطة الأب بمتقتضى شروط الزواج، يحقّ للأب الذي يعقد الزواج أن يحلّه متى شاء. أمّا إن اشتراها زوجها من أبيها (هناك أنماط زواج متعدّدة، ستحين لي الفرصة للحديث عنها، ربّما في سياق الطلاق)، أقول إن اشتراها زوجها من أبيها، فإنّ حقوق الأب تصير إلى الزوج؛ فإذا بها إذّاك ليست زوجته وحسب بل ابنته أيضاً؛ تصبح أخت أولاده وتخضع مثلهم للمحكمة المنزليّة، وهي أرهب المحاكم إن لم تكن أرقّها، نظراً إلى أنّ حكمها نهائيّ لا استئناف فيه. وإذا ما ترمّلت خضعت من جديدٍ لسلطة أبيها؛ وإذا ما مات أبوها وقعت تحت سلطة الوصيّ. إن بقيت في العائلة، يحقّ لها أن ترث أباها أو أخاها؛ وإن اشتراها زوجها وتبنّاها، يحقّ لها أن ترثه لا لكونها زوجة بل ابنةً له، أحد أولاده؛ لا لكونها أمّاً بل أختاً. أثناء حياته، لا يستطيع زوجها أن يعطيها شيئاً؛ وعندما توافيه المنيّة، لا يحقّ له أن يورثها شيئاً في حال ما إذا تجاوزت ثروته مائة ألف سِستَرس. فلا بدّ أنّ القانون اعتبر أنّ للمرأة ما يكفي من قدرة على الإغراء، فعفا نفسه منحها المزيد.

فلماذا إذن يحقّر القانون المرأة إلى هذا الحدّ؟ إليكم السبب.

Twitter: @ketab_n

إنّ القانون الذي يستعبدها، يحميها ويعظّم قدرها فيها هو يستعبدها. تعيش تحت سقف المنزل الأبويّ تحيك فيه الصوف ولا تغادره إلّا لتركب عربة، في الأعياد الكبرى، وتسير في التطواف حتّى الكَپتوليوم؛ بذا تحافظ على نقاء الدم الروماني. وتُسلَّم لزوجها في أبهى نقائها، فتبقى ربّة بيت نقيّة، تعطي الجمهوريّة مواطنين يسري في عروقهم دم روماني خالص النقاء.

ها هي زوجة، ها هي أمّ، ها هي ربّة منزل. بتزوّجها مواطناً رومانيّاً، تحصل على لقب أمّ العائلة، تماماً كما أنّ زوجها والد عائلة. يُسمّى **ربّ المنزل**، فتسمّى **ربّة المنزل**، فتصبح بمقتضى ذلك موضع احترام الجميع. إذا ما سارت في الشارع متّشحة **بجلباب العفّة**، تخلّى لها الجميع عن الممرّ المعبّد، فلا يجرؤ أوضع الناس منشأً ولا أقلّ المستهترين حياءً أن يتلفّظ أمامها بكلمة غير لائقة. وإذا ما استُدعيت إلى المحكمة، لا يحقّ لأيّ عامل من عمّال السلطة أن يمسّها ليجبرها على المثول. أمّا المواطن الجالس في العربة جنب ربّة المنزل فلا شيء يجبره على النزول من العربة حتّى بغرض تحيّة القنصل، وحتّى حين يتقدّمه حامل الحزمة[1].

إنّ نساء روما، إذ يحطّ القانون من قدرهنّ، ترفع الأعراف من شأنهنّ. فالجمهورية نفسها، وهي موضع إجلال الجميع، تجلّ الفتيات وربّات المنازل. تقول لهنّ أيّام الخطر: «قدّمنَ لنا الدعاء. فإنّ دعاء العذراء ودعاء ربّة المنزل النقيّة هو أطهر بخور يُرفع للآلهة». حين يُتوفّى رجل عظيم، تلبس ربّات المنازل الحداد عليه، فيكون ذلك آخر نصر يفوز به، وأمجد تكريم يُقدّم لرفاته.

---

(1) سبق تعريفها: هي الحزمة التي يحملها المرافق السائر أمام كلّ رجل سلطة رومانيّ، وتتضمّن عدداً من القضبان وفأساً، إشارة إلى السلطة والعدل والتأديب (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

لذلك تخصّها الآلهة المنزليّة بِفناء البيت أو الأترِيوم، وتخصّها ڤِستا بالحرم. فإذا ما تدنّس سقف المنزل، وقع العار ليس على العائلة فحسب بل على الدولة أيضاً. وإن سكت الأب عن أمر ما، يقوم ناظر المدينة بالاستعلام، وفي حال ما إذا صمَت من يملك وحده الحقّ في رفع الشكوى، يوجّه الاتّهام إلى الفتاة أو الأمّ المذنبة ويقدَّم الغاوي إلى المحكمة.

كان قيصر يقول، حين طلّق زوجته بمناسبة دخول كلوديوس عليها أثناء الاحتفال بأسرار **الآلهة الطيّبة**: «إنّي موقن أنّ زوجتي ليست مذنبة، لكن لا يجوز لزوجة قيصر حتّى أن تكون موضع شكّ».

على كلّ حال، إن ناءت الزوجة بعبء الطهارة، إن ثقلت واجبات ربّة المنزل على الأمّ، إن تعبت من الارتقاء، فلا شيء يمنعها من الانحدار. يُعطى اسمها لناظر المدينة فيضعها في مرتبة الغانية اليونانية أو المُعتَقة المصريّة، ويجوز لها إذّاك أن تخلع جلبابها الأبيض لتلبس رداء الغانية.

تلمسون إذن النفوذ الذي تتمتّع به هاته النسوة من جرّاء هيبتهنّ الأخلاقيّة، وهنّ لا يملكن إدارة ممتلكاتهنّ، ويخضعن في أمورهنّ للأب أو الزوج أو الوصيّ، وتدركون تأثيرهنّ في الشأن العامّ! إنّ أقدم وَجْه امرأة نلمحه في ضباب العهود الغابرة هو وَجْه هِرسيليا المرتمية ما بين رومُلُس وتاتيوس، أي بين زوجها وأبيها، لتمنعهما من التناحر. هو أيضاً وَجه كْليليا التي أُعطيت رهينة لپُرسِنّا، فعبَرت التيبَريس سباحةً تحت وابل من النبال المتهاطلة عليها كالبرَد. وهو وَجْه لُكريسيا تطعن نفسها بالخنجر عند أقدام آلهة المنزل، فيطرد شبحها التَركينيّين من روما. وَجْه ڤِرجينيا التي دنّسها أَپّيوس فأطاحت **بمجلس العشرة**. وَجْه ڤِتوريا وهي تجرّد ابنها من سلاحه فتنقذ روما. وجه كُرنيليا تدرّب ابنيها على

Twitter: @ketab_n

الدفاع عن الجمهوريّة، فتدفع كَيوس باتّجاه الشعب وهو ما زال مُبتلاًّ بدم تِبيريوس. وجه مِتِلّا وقد بلغ تأثيرها على سِلّا مبلغاً حدا بروما إلى أن تتوجّه إليها لتنال منه أن يستدعي المنبوذين من أنصار مَريوس. وَجْه تِرِنسيا وهي تدفع شيشرون ليأمر بخنق لَنتولُس وسِتيگس ويشهد ضدّ أخي كلوديا. وَجْه فُلڤيا وهي تحدو بأنطونيوس ليثأر لكلوديوس الذي كان محرّك الحرب الأهليّة في روما مدّة خمس سنين. وَجْه پُرسيا وهي تشدّ من أزر بروتُس المتداعي لتثبت له أنّ بوسع النساء أيضاً أن يتحمّلن الألم. وأخيراً إنّه وَجْه ليڤيا وهي تتزوّج أُكتاڤيوس وتشارك أگرِپّا ومِسينَس حقّ تقديم المشورة لأغُسطُس.

لذا كان كاتون الأب يقول: «الرجال الآخرون يأمرون نساءهم، ونحن نأمر الرجال الآخرين كافّةً، ونساؤنا تأمرنا».

والآن وقد تحدّثنا عن هاته النساء، أي الابنة والأمّ، العذراء والمعلّمة، اللاتي منهنّ تتكوّن العائلة، لننظر في أمر الجارية والمُعتَقة والغانية.

الجارية ملك لسيّدها وليس لها أن تشكو مهما بلغت مطالب السيّد.

المُعتَقة تكاد تدين دائماً بإعتاقها لجمالها؛ تكون جارية فيعتقها سيّدها، وتصبح حرّة فتعيش من ذلك الجمال الذي تدين له بحريّتها.

كما أنّنا لا نعترف بالقرابة بين العبيد، كذلك لا نعترف بالزنى مع المُعتَقات؛ فهؤلاء، حين يعتقن، يتّخذن حوانيت وينغمسن في عبادة مركوريوس وڤينوس في آنٍ، بحثاً عن الإثراء السريع.

هؤلاء النسوة، إضافة إلى من ينضممن إليهنّ من بلاد لَيّيس وأَسپاسيا، يشكّلن تلك الطبقة من الغانيات اللواتي ينصبّ عليهنّ في روما التجريح والعبادة في آن.

قدّم بعضهنّ أدلّة على حبّهنّ قد لا تقدّمها جميع العظيمات بين سيّداتنا.

Twitter: @ketab_n

قبل ما يقرب من قرن ونصف، اقترح المدعوّ تيتُس سَمپرونيوس رُتِلوس على ابنه بالتبنّي، وكان وصيّاً عليه، أن يدرّبه على أسرار **الاحتفال بباخوس** الوافدة إلى روما من إترووريا وكَمپانيا. فحدّث الفتى بهذا الاقتراح غانية كانت عشيقته. ارتعبت الغانية ولا شكّ ممّا أسرّه لها، فتجرّأت وقالت له إنّ أباه بالتبنّي وأمّه يسعيان إلى التخلّص منه، خشيةً من اطّلاعه على نواياهم. فهلع الفتى بدوره والتجأ إلى إحدى عمّاته، التي أدلت بما عندها للقنصل.

أُستُدعيت الغانية عند القنصل، فأنكرت في بادئ الأمر، لأنّها خشيت خنجر **العارفين** بالطريقة. غير أنّ حبّها تغلّب على خوفها فاعترفت بكلّ شيء وأطلقت العدالة في أثر المذنبين. هذه الأسرار هي **احتفالات باخوس** الرهيبة التي تتضمّن طقوسها القتل. ففي روما وحدها، بلغ عدد المنتسبين إلى تلك الأسرار المرعبة سبعة آلاف شخص.

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل (تابع)

لم يكن فِرجيليوس لا مسرفاً ولا مُبذّراً. كان فِرجيليوس يحترم حرم العائلة ولم يسعَ يوماً إلى إغراء ربّات المنازل ولا الفتيات.

وكذلك كنت. ما أكثر ما لاموني على فسادي؛ ولكن هل من سبب؟ السبب أنّي كنت صريحاً في سرد غرامياّتي مع الجواري الفتيات ومع المُعتَقات الجميلات. تبعت في ذلك نصائح والدي، التي أثبتّها في **هجائيّتي الرابعة** من الكتاب الأوّل.

هكذا إذن عوّدني والدي على الهرب من الرذيلة ومثّل لي عليها ببعض الأمثلة. كان ينصحني بالاقتصاد وبالنظام وهو راضٍ بما اكتسبه فيقول: «انظر إلى ألبينُس، ما أحزن حياته! وبَركوس! يا لبؤسه!».

هل نسيتهم قصيدتي السادسة من الكتاب الثالث الموجّهة **إلى الرّومان**، حيث ثرتُ في وجه انحلال عصرنا؟

قد يعتقد البعض أنّني، بسبب قلّة تأثّري بالأحداث، تألّمت أقلّ من تيبُلّس أو پْروپِرسيوس؛ قد يعتقد البعض أنّني، إذ تغنّيت بالحبّ بكلّ الوجوه، لم أشعر بالحبّ بشكل جادّ؛ قد يعتقد البعض أنّ الهيام ساور قلبي دون أن ينفذ أبداً إليه.

كم يخطئ من يعتقد ذلك: ما عليهم إلّا أن يقرأوا **قصائدي** أو حتّى **غنائيّاتي المتوثّبة** ليقتنعوا بعكس ذلك. فليبحث القارى عن الغنائيّة المتوثّبة التي أهديتها إلى رفيق نضالي القديم، پِكسيوس، يجد أن الألم بلغ

Twitter: @ketab_n

منّي مبلغاً عجزت معه عن العمل، وهو الترياق ضدّ الألم.

آه منك أيّها الحبّ! ما أكثر الحماقات التي جررتني إليها!

على كلّ حال، لا يتصوّرنّ أحد أنّ وظيفة كاتب الخزينة بقيت في عهد أُكتافيوس على ما كانت عليه قبله، أي وسيلة سريعة للإثراء عن طريق النهب والرشوة.

إنّ الشطط الذي كان يقع فيه هؤلاء الموظّفون الحكوميّون بلغ قديماً حدّاً لم يجد كاتون معه، حين سعى للحدّ منه، أسلوباً أفضل من إلغاء الوظيفة نفسها. لكن ما إن ترك كاتون إدارة الشؤون المالية، حتّى عاد كتّاب الخزينة من جديد.

نوى أُكتافيوس منذ أمد طويل أن يحذو حذو كاتون، غير أنّه اعتبر أنّ الأوان لم يحن بعد، فوضع الكتّاب تحت رقابة مِسينَس مباشرةً. وفي هذا السياق اشتريت وظيفتي تلك.

طبعاً، حين صرت أتقاضى مرتّباً من الدولة، صار لزاماً عليّ وضع نفسي تحت رقابتها، أعني أنّي فقدت بذلك أغلى ما أملك في الدنيا: استقلالي.

في تلك الفترة تقريباً، توقّفت عن نظم الغنائيات المتوثّبة ومهاجمة الشخصيّات النافذة في هجائيّاتي.

من هنا أنّني، بحثاً عن بعض هنيهات من الراحة أجتزئها من وظيفتي، اشتريت بأوّل مال وفّرته من عملي بيتي الصغير الذي في تيبور. كان يقع، بل يقع، في منطقة رائقة قريبة من حرش منعش ظليل. صارت تيبور قبلة المترفّهين والشعراء. كان مِسينَس يملك فيها دارة وكَتُلُّس بويتاً صغيراً. ما إن انتقلت إليه وأنا لا أزال في ذروة الحماس من اشترائه، حتّى تلقّيت رسالة من صديقي سِپتيمُس، وسبق أن لقيته ثانية في تَرَنتم، يدعوني فيها

Twitter: @ketab_n

لقضاء بعض الوقت عنده.

بمناسبة تلك الرسالة، نظمت **قصيدتي السادسة** من كتابي الثاني.

وأنا منغمس بصفّ الأرقام نهاراً وبتقطيع الأبيات ليلاً، عاد سيّدا العالم إلى نزاعهما. راح الأفق يربدّ ورحنا نمشي على مهل نحو أرهب نزاع أهليّ رزحت روما تحت وطأته.

راحت الإشاعات تروج باقتراب زمن انخراط كلّ من أُكتاڤيوس وأنطونيوس في القتال، ليضمّ كلّ منهما إلى الجزء الذي يسيطر عليه من العالم الجزء الذي لا يزال خارج سيطرته.

تعرفون پُلّيون، حامي ڤِرجيليوس الذي سبق الحديث عنه، وحاميّ أنا أيضاً: شاعر، مؤرّخ، جنديّ وعلى الأخصّ رجل نزيه.

أجل! كان هذا الرجل النزيه يعتبر أُكتاڤيوس وأنطونيوس رجلين خاليين من النزاهة، فلم يوالِ أيّاً منهما. هجر تراجيديّاته التي باشر في نظمها، غادر مجلس الشيوخ واعتكف في بيته الريفيّ، لكي ينساه الناس، وباشر بكتابة تاريخ الحرب الأهليّة بين قيصر وپُمپيوس، تلك الحرب التي انتهت بوفاة كاتون.

قامت أكتاڤيا بمحاولة جديدة للمصالحة بينهما. رسائل مهينة كتبها أنطونيوس لأُكتاڤيوس، وأجوبة ليست أقلّ تجريحاً وجّهها أُكتاڤيوس إلى أنطونيوس. فغادر القنصلان المعيّنان لعام 722، كَنيوس دومِسيوس إينوبَربُس روما للانضمام إلى أنطونيوس، فيما كان پْلَنكُس وتيليُس، وهما صديقان لأنطونيوس، يهجران أنطونيوس لينضمّا إلى أُكتاڤيوس. وحصلت أُكتاڤيا من أخيها على الإذن بالعودة إلى أثينا، فأذن لها أُكتاڤيوس، لا نزولاً عند رغبة تلك الزوجة التعسة بقدر ما كان بداعي الأمل في أن يوفّر لها الاحتقار الذي سينصبّ عليها ذريعةً لقطيعة صريحة

Twitter: @ketab_n

ونهائية مع أنطونيوس: تلك كانت نصيحة مِسينَس.

ولم يخطئ أُكتافيوس. لدى وصولها إلى أثينا، تلقّت أُكتاڤيا رسالة من أنطونيوس تنهاها عن متابعة سفرها وتأمرها بأن تنتظره في مدينة مِنَرڤا.

يقول لها في هذه الرسالة إنّه استقبل لتوّه سفراء ملك الميديّين وقد أتوا ليشجّعوه على إعلان الحرب على الپرثيّين، انتقاماً لهزيمته السابقة. ووعده الملك، في حال قبوله، بأن يساعده بكلّ ما يملكه من قوّة. وتعني القوّة أنّه يقدّم له فرقة كبيرة من الخيّالة والنبّالة يضعها تحت تصرّف أنطونيوس. وبما أنّ هذين السلاحين كانا أكثر ما يعوز أنطونيوس لشنّ الحرب على الپرثيّين، فقد برّر أنطونيوس رفضه استقبال أُكتاڤيا بقراره الحاسم في الإفادة من عرض ملك الميديّين وعلى الذهاب إلى آسيا لخوض الحرب.

رفضت أُكتاڤيا، بخضوعها وتواضعها المعهودين، أن تلمح الإهانة المتضمّنة في أوامر زوجها. فاكتفت بجواب تطلب فيه أن يحدّد لها المكان الذي يجب أن ترسل إليه ما جلبته له، أي كميّة كبيرة من الثياب لجنوده وعدداً كبيراً من الدوابّ للنقل، وكذلك هدايا وافرة وأموالاً لضباطّه وأصدقائه.

كانت تصطحب معها أيضاً ألفَي رجل بسلاحهم وعُددَهم ليكونوا بمثابة حرس ملكيّ لأنطونيوس.

اختارت أحد أصدقائها، يدعى نِـجير، ليكون رسولها إلى أنطونيوس، وكانت تثق بإخلاصه لها.

انطلق نِـجير إلى أنطونيوس فوجده لدى كلِيوپَترا، التي لم يعد يغادرها أبداً. سلّمه الرسالة ولم يتردّد، بشكل صريح وجريء وبحضرة ملكة مصر، أن يشيد بأُكتاڤيا الإشادة الجديرة بها.

Twitter: @ketab_n

أدركت كلِيوپَترا، بغريزة المنافِسة، لا بل المنافِسة من موقع الأدنى، أنّ أُكتاڤيا أتت تطالب بقلب أنطونيوس. خشيت من نجاح مسعاها، فراحت تتظاهر بأنّها تكنّ لأنطونيوس، الذي طالما عاملته بخفّة شديدة، هياماً عنيفاً. ولم تكتفِ بذلك، فتذرّعت بعاهة جسديّة لتثير شفقة أنطونيوس: عزفت عن الطعام بحيث أنّها هزلت بوقت قصير وشحب لونها شحوباً واضحاً.

إضافة إلى ذلك، كان أنطونيوس كلّما دخل بيتها وجدها تبكي شاردة النظرات حزينة. صحيح أنّها كانت تمسح دموعها بخفّة، ولكن ليس بالخفّة الكافية لكي تخفى على أنطونيوس. تبدّل نظرتها الساهمة الحزينة بنظرة ملؤها الوهن. وحين يكلّمها عن الحرب ضدّ الپرثيّين بدعوة من ملك الميديّين، تتوسّل إليه ألّا يفكّر بخوض الحرب ضدّ ذلك الشعب البربريّ، الوحيد الذي تفشل تجاهه أقدار السلاح.

كان لكلِيوپَترا من جهة أخرى أصدقاء لدى أنطونيوس، كان هذا يظنّهم أصدقاءَ له، اشترتهم وحافظت على وفائهم بالهدايا الوافرة. كان شاغل هؤلاء الوحيد أن يبثّوا في أنطونيوس كراهية أُكتاڤيا، فيقولون له: «إنّ أُكتاڤيا، بالرغم من هجرك لها، أسعد من كلِيوپَترا بألف ضعف: تتمتّع بلقب الزوجة وبكلّ الامتيازات المرتبطة بهذا اللقب، بينما ليست كلِيوپَترا، وهي ملكة شعوب كثيرة، سوى عشيقة لأنطونيوس؛ وهو لقب لا تشعر منه بأيّ ذلّ، بل تتجمّل به إن تأكدّت أن أنطونيوس لن يهجرها. والحقّ أنّها في حال هجرها لن تقوى على العيش بعد هذه المصيبة».

وبما أنّ الإنسان ميّال دائماً لتصديق من يتملّق كبرياءه، فقد راح أنطونيوس يضاعف من عنايته بكلِيوپَترا.

هكذا تخلّى عن حملته في ميديا، مع أنّه علم بأنّ الظروف مؤاتية للقيام

Twitter: @ketab_n

بحملة ضدّ البرثيّين، بسبب الشقاق الضارب فيهم. فلم يغب إلّا لفترة قصيرة ليزوّج بابنة ملك الميديّين أحد أولاده من كلِيوپَترا.

ومن نافل القول إنّ أيّاً من الزوجين لم يبلغ بعد سنّ الزواج.

مكثت أُكتاڤيا في أثينا أطول وقت ممكن، لإدراكها أن عودتها إلى روما تعطي الدليل على قطيعة لا مردّ عنها بين زوجها وأخيها. واقتضى الأمر منها أن تعود وتعترف بكلّ شيء لأُكتاڤيوس.

استنكر أُكتاڤيوس تلك الإهانة التي تطاله أيضاً، فأمر أخته بهجر منزل أنطونيوس والاستقرار في منزل خاصّ. رفضت الانصياع وتوسّلت إلى قيصر ألّا يخاصم زوجها بسببها، وأن ينسى كلّ الإهانات الموجّهة إليه شخصيّاً. قالت لأخيها:

- أليس بغيضاً أن يدمّي سيّدا العالم الأرض بأكملها، أحدهما حبّاً بامرأة والآخر بدافع الحسد؟

فاستمرّت في السكن في منزل زوجها كما لو كان حاضراً، تقوم بتربية أولاد أنطونيوس من فُلڤيا بعناية الأمّ وروعتها.

تمادت في احترام واجباتها الزوجيّة: فكلّ صديق لأنطونيوس أو مرسَل من قبله يفد إلى روما لشؤونه الخاصّة أو لأمور تخصّ أنطونيوس، كانت تستقبله في منزل أنطونيوس وتذهب إلى أخيها تطلب عونه إذا اقتضى الأمر لتنال منه أن يلبّي ما جاء ضيفها في طلبه. لكنّ تلك المخلوقة المتميّزة لم تتنبّه لأمر واحد؛ وهو أنّها بتصرّفها هذا تلحق بأنطونيوس أكبر ضرر تقدر عليه. إذ كان الجميع يصابون بالدهشة من رجل غير أحمق يهجر مثل هذه المرأة ليتعلّق بكلِيوپَترا.

غير أنّ أنطونيوس كان حقيقةً أحمق، وسرعان ما اعتُبر كذلك من الأخبار الواردة إلى روما.

Twitter: @ketab_n

كان يشاع أنّ أنطونيوس قد تزوّج رسميّاً بكلِيوپَترا، دون أن يجرؤ على تطليق أكتاڤيا التي كان يظنّها جاسوساً وضعه أكتاڤيوس لديه؛ وأنّه نصب في وسط الـگـمنازيوم منبراً من فضّة وشيّد على هذا المنبر الفضّيّ عرشين من ذهب؛ وأنّه هو وكلِيوپَترا جلسا على هذين العرشين الذهبيّين، كلِيوپَترا وهي بزيّ إيزيس وأنطونيوس في زيّ أُزيريس؛ وأنّ أنطونيوس نصّبها ملكة على مصر وليبيا، وأعلن تبنّيه لابنها قيصرون. أمّا أبناؤه من كلِيوپَترا، فقد خلع على كلّ منهم لقب الملك، فأعطى بكرهم، ألكساندر، أرمينا وميديا ومملكة الپرثيّين التي لم يفتحها، وأعطى الثاني، بطليموس، فينيقيا وسوريا وقليقيا. وكانت الإشاعة تضيف أنّه قدّمهما كليهما إلى الشعب، ألكساندر وهو يرتدي ثوباً ميديّاً ويعتمر التاج والقبّعة المُروّسة المسمّاة سِدارِس وكلّها من زينة ملوك ميديا وأرمينيا؛ وبطليموس وهو يرتدي طيلساناً طويلاً ويحتذي نعالاً ويعتمر قبّعة مزنّرة بتاج، وذلك كلّه من لباس خلفاء ألكساندر؛ وأنّ كلا الأميرين حيّيا أباهما وأمّهما وتسلّما مرتبة ملكيّة، إحداهما أرمنيّة والأخرى مقدونيّة. أمّا كلِيوپَترا فقد اتّخذت لباس الإلهة المصريّة وراحت تُقيم جلسات الاستقبال الرسميّة تحت لقب إيزيس الجديدة.

وتزايد العجب، بالرغم من الشكّ المتبقّي، حين تقدّم أُكتاڤيوس إلى مجلس الشيوخ بتقرير رسميّ عن كلّ ما ذكرناه.

أتى ذلك بمثابة حجّة جليلة وشعبية لإعلان الحرب، فأصبحت قضيّة أُكتاڤيا، بفضل جنون أنطونيوس، قضيّة روما. كان الرّومان يكرهون منذ زمن بعيد مِترِداتِس الأنثويّة[1] تلك المسمّاة بهذا الاسم ربّما

---

(1) الأرجح أنه يشبّهها بمِترِداتِس الخامس، الذي كان ملك الپونتس (جنوبيّ البحر الأسود) بين 150 و120 ق. م.، وكان حليف روما في الحرب البونيّة الثالثة ضدّ قرطاج (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

بسبب تفوّقها على باقي النساء. إنّ الشعوب البربريّة، وكانت تُكلّم كلّاً منها بلغته، تكنّ لها إعجاباً لا يماثله إلّا حبّ المصريّين لها. وقد تمادى هذا الحبّ بحيث قيل إنّه، بعد موت أنطونيوس والإطاحة بتماثيله، قدّم أحد أهل الإسكندريّة خمسة وعشرين مليون سِستَرس للحيلولة دون الإطاحة بتمثال كلِيوپَترا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

مِنوسيوس ڤْلَنكوس يوجّه الاتّهامات - من هو ڤْلَنكوس - أشفقت عليه بسبب حزنه فنظمت له قصيدة - قوّة أنطونيوس - عالم البرابرة - أصدقاء أنطونيوس يوفدون إليه جِمينيوس - نُذُر شؤم - قصيدتي الى الرّومان.

راح أنطونيوس من جهته يبعث رسُله إلى روما للشكوى على أُكتاڤيوس. هذه هي التهم الرئيسيّة الموجّهة إلى زميله في حكومة الثلاثة: أوّلاً أنّ قيصر سلب صقلّية من سِكستُس پُمپيوس دون أن يعطي أنطونيوس حصّته من الأسلاب؛ ثمّ أنّ أُكتاڤيوس احتفظ بالسفن التي أعاره إيّاها لشنّ هذه الحرب؛ وكذلك أنّ أُكتاڤيوس، بعد أن استبعد لِپيدُس شيئاً فشيئاً من كلّ ولاياته، وهو ثالثهم في الحكومة، احتفظ لنفسه بجيش لِپيدُس ومداخيل لِپيدُس؛ وأخيراً أنّ أُكتاڤيوس وزّع إيطاليا بأكملها تقريباً على جنده، دون أن يترك شيئاً لجند أنطونيوس.

وكان ردّ أُكتاڤيوس على هذه الاتّهامات كالتالي:

أنّه، في ما يخصّ صقلّية، يقبل بأن يتقاسمها مع أنطونيوس حين يقاسمه أنطونيوس أرمينيا ويردّ له في نفس الوقت السفن التي استعارها منه.

Twitter: @ketab_n

أمّا لِپيدُس، فقد جُرِّد من ولاياته لأنّ لِپيدُس تعسّف في حكمه بشكل وقح.

وأمّا جند أنطونيوس، فلا يحقّ لهم أيّة حصّة في إيطاليا، بما أنّ لهم أرمينيا وقسماً من بلاد البرثيّين احتلّوه.

كانت أُكتاڤيا لا تزال مصرّة على رفضها مغادرة منزل زوجها، وبدا له أنّها، طالما بقيت فيه، لا يزال هناك أمل بالتصالح مع أنطونيوس. غير أنّ أنطونيوس أمرها صراحةً بمغادرة منزله، كما لو كان يسعى إلى تحمّل الأوزار كافّة.

لعلّ كلِيوپَترا كانت تحسد أُكتاڤيا على عزاء الإقامة في منزل زوجها. غير أنّ الشعب، وهو في ذروة إجماعه الكليّ على رثاء حال أُكتاڤيا ولعْن أنطونيوس، رأى ذات يوم أخت أُكتاڤيوس مطرودة من منزلها دون طلاق، دامعة العينين، آخذةً بأيدي أولادها من أنطونيوس ومعهم أولاد أنطونيوس من فُلڤيا.

عندئذ قدّم أُكتاڤيوس مذكّرة اتّهام رسميّة ضدّ أنطونيوس.

فأوّلاً، أقدَم أنطونيوس على الزواج من ملكة، وتلك جريمة لا تغتفر في نظر الرومان الذين قتلوا قيصر لأنّه، من باب النزوة، ترك أنطونيوس يطوّق رأسه بعصابة ملكيّة.

ثمّ أنّه أدخل قيصرون، وهو ابن غير شرعيّ لقيصر، في عداد العائلة، وذلك انتهاك للمحرّمات.

كما أنّه مشى وراء محمل كلِيوپَترا، وهو القائد الظافر وعضو حكومة الثلاثة.

كما أمر بأن يُنقش على تُروس جنود روما ليس اسم عشيقة وحسب - فذلك أمر يسير- بل اسم ملكة.

Twitter: @ketab_n

وكفّ عن إقامة العدل من على منبر المحكمة ليقرأ لوحات مصنوعة من البلّور والعقيق الأحمر، عليها رسائل حبّ من كلِيوپَترا.

تناسى هيبة الدولة الرومانية، حين اتّخذ اسم أُزيريس ولباسه.

وأخيرا، كما ذكر أُكتافيوس في نثره البليغ وڤِرجيليوس في أبياته الجميلة، «جرّ وراءه عصابة من وحوش النيل وأَنوبيس النابح ليواجه بهم نِپتونُس وڤينوس، ويواجه مِنِرڤا! بينما أُكتافيوس يتأهّب لقيادة إيطاليا ومجلس الشيوخ والشعب والآلهة العظام ليجابهوا الكتائب المجتمعة على صوت الشُّخشيخة المصرية، ليجابهوا الخصيّ مَردونيوس ومزيّني شعر كلِيوپَترا، وشعوب الضفّة التي منها تشرق مع الفجر أسلحة الشرق المُزوّقة».

دعم كَلڤيسيوس وپْلَنكوس هذه الاتّهامات.

لم يكن كَلڤيسيوس ذا شأن؛ أمّا پْلَنكوس، الذي عرفتُه جيّداً وإليه أهديت القصيدة التي سأوردها بعد قليل، فكان قنصلاً رفيع الشأن.

انفصلت عنه مدّة طويلة، غير أنّنا عاودنا اتّصالنا بعد عودته إلى روما.

كان في الفترة التي نتحدّث عنها رجلاً بسنّ الاثنين والأربعين تقريباً. تلميذ شيشرون في الفصاحة، وتلميذ قيصر في أمور الحرب؛ فأصبح حين توفّي قيصر خطيباً عظيماً ونقيباً كبيراً. إليه كتب شيشرون ليستميله، هو والجيش الذي تحت إمرته، إلى اعتناق قضيّة الجمهوريّة: «لقد بلغتَ أسمى ما تثمره الفضيلة حين يردفها الحظّ».

كان إذّاك في بلاد غاليا ينشئ مستوطنتين، تسمّى إحداهما لـُگدُنوم التي ازدهرت في أيّامنا هذه. لكنّ پْلَنكوس، المغرور بحظّه، لم يولِ رسالة شيشرون أيّ اهتمام؛ فانضمّ إلى حكومة الثلاثة وطالبَها، كما قيل، لقاء دعمه لها، بوضع اسم أخيه الشقيق، پْلوكيوس پْلَنكوس، على لائحة

Twitter: @ketab_n

المنبوذين.

كان پْلَنكوس وقتها قنصلاً مع لِپيدُس، العضو في حكومة الثلاثة، الذي قام هو الآخر بنبذ أخيه الشقيق؛ لذا أُطلقت عليهما هذه النكتة المرعبة: «لم ينتصر پْلَنكوس ولِپيدُس على الغاليّين بل على الجرمان[1].»

عندما حُلّت حكومة الثلاثة، تبيّن لپْلَنكوس وقتها أنّ كلّ الأمور السياسية العالقة، وفق تعبير المحامين، لن تُحسم إلّا بالسيف شأنها شأن العقدة المستحكمة؛ وبدا له أنّ سيف أنطونيوس أقطع من سيف أُكتاڤيوس، فانحاز پْلَنكوس إلى أنطونيوس. وعوقب على هذا بما حصل عليه في بلاط كلِيوپَترا من قليل الاعتبار. وبما أنّ پْلَنكوس هو في جوهره من هؤلاء الرجال الذين يحتاجون إلى حظوة العظماء حاجتهم إلى الهواء الذي يتنفّسونه، وأنّه لم يتمكّن من أن يصبح صديق أنطونيوس بسبب بعض الاشمئزار الذي يثيره لديه، أصبح من حاشية كلِيوپَترا. وتمادى في ذلك بحيث أُخذ عليه من ضمن أمور أخرى أنّه مثّل، أثناء حفلة قصف وعربدة، دور الإله السمكة، گلَوكُس، فارتدى ثوباً أخضر اخضرار ماء البحر، واعتمر تاجاً من القصب.

في هذه الأثناء، أدرك پْلَنكوس، وهو البعيد النظر، أنّ أنطونيوس أخطأ سواء السبيل. فغادر الإسكندريّة ذات صباح، وظهر بعد بضعة أيّام في روما، حيث أعلن ولاءه لأُكتاڤيوس. وسنرى بعد قليل كيف كشف سر وصيّة أنطونيوس، وكيف أفاد أُكتاڤيوس من ذلك.

بالرغم من الخدمة التي أسداها إيّاه، لم يكلّف أُكتاڤيوس پْلَنكوس بقيادة أيّة فرقة، ممّا رماه في حالة من الحزن أدّت به إلى الانعكاف في دارته

---

(1) هنا تورية قائمة على تعدّد معاني المفردة germain ، التي بدخولها صفةً على «الأخ» تعني «الأخ الشقيق»، كما تعني، باعتبارها صفةَ نسبة، أحد «الجرْمان» (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

في تيبور، المجاورة لبَيتي.

في تلك الفترة بالذات أهديته قصيدة لأدخل على قلبه بعض العزاء.

بقي پْلَنكوس في الظلّ، ولكنّ مجلس الشيوخ اعتمد على الاتّهام الذي وجّهه پْلَنكوس بالذات وعلى طلب أُكتاڤيوس ليسقط عن أنطونيوس شرف عضوية حكومة الثلاثة، ويعلن الحرب على ملكة مصر.

وصل أنطونيوس، وهو في أرمينيا، نبأُ ما يحدث في روما، وكان إذّاك بصحبة كلِيوپَترا، فذهبا معاً إلى أفسُس، في نفس الوقت الذي كان فيه كَنيديوس يقود ستّة عشر فيلقاً منحدراً بها باتّجاه البحر.

كان كَنيديوس قبل ذلك قد أدّى خدمة جليلة لكلِيوپَترا.

أوّل ما بدر إلى ذهن أنطونيوس: أن يرسلها إلى مصر لتنتظر هناك نتيجة الحرب. ولكن، بسبب خشيتها من أن تُصلح أُكتاڤيا في غيابها ما بين أنطونيوس وأُكتاڤيوس، استمالت كَنيديوس وجعلته يشرح لأنطونيوس أنّ من الظلم أن يبعد أمرأة تساهم في الحرب التي يُعدّ لها بمائتي سفينة وعشرين ألف وزنة من الفضّة وبمؤونة كافية لكلّ جيشه. فكفّ أنطونيوس عن الحديث عن إبعاد كلِيوپَترا إلى مصر؛ وكم كان يترقّب مثل هذا التشجيع ليحتفظ بها إلى جانبه.

استدعى أنطونيوس كلّ القوّات المتوافرة لديه: ثمانمائة سفينة، ومائتي ألف رجل على أهبة الاستعداد، واثني عشر ألف فارس. ووافاه شخصياً ملوك قليقية وكپادوكيا وپَفلَـگونيا وكُماجينا وتراسيا. ووردته مساعدات من ملوك الپونتس والعرب واليهود والغلاطيّين والميديّين.

فقد كانت قضية أنطونيوس قضيّة ملوك البرابرة.

جمع أنطونيوس كلّ هذه الفرق العسكرية وأبحر مع كلِيوپَترا باتّجاه سامُس، وكان قد استدعى إليها كلّ ما في الإمبراطوريّة من مغنّين

Twitter: @ketab_n

وممثّلين. فلاحظ الناس أنّه، فيما باقي العالم يعجّ بالشكوى والأنين، كانت هذه الجزيرة الصغيرة وحدها تصحو وتغفو في غمرة من ألعاب واحتفالات وأغانٍ على صوت المزمار والقيثارة. إذ كان الملوك الوافدون في حاشية أنطونيوس يقدّمون جميعهم المآدب الرائعة والمشاهد العظيمة طوال الليل وحتّى طلوع الصباح. وكان على كلّ مدينة أن ترسل كلّ يوم ثور التضحية.

في تلك الأثناء، غادر أنطونيوس صديقاه تيسيوس وپْلَنكوس إثر خلافهما مع كلِيوپَترا، وانضمّا إلى أُكتاڤيوس. كشفا له عن محتوى وصيّة أنطونيوس، التي اطّلعا عليها. كان من شأن التدابير المقرّرة في الوصيّة أن تطيح بما تبقّى لأنطونيوس من شعبيّة في روما. طلب أُكتاڤيوس الوصيّة من كاهنات ڤِستا المؤتمنات عليها، فرفضن طلبه؛ عندئذ أخذها أُكتاڤيوس عنوةً وقرأها بمفرده، وأخذ علماً بالنقاط القويّة الوقع على القارئ، ثمّ استدعى مجلس الشيوخ وقرأها على العلن.

بالرغم من غرابة الأمر الصادر عن أنطونيوس، القاضي بأن يُطاف بجثمانه في الفوروم بكلّ أبّهة ثمّ يُحمل إلى الإسكندرية ليوضع بين يدي كلِيوپَترا، فإنّ قراءة وصيّة رجل لا يزال على قيد الحياة أثارت بعض الحرج، على عكس توقّعات أُكتاڤيوس.

استغلّ أصدقاء أنطونيوس ردّة الفعل المؤيّدة له، ليوفدوا إليه رجلاً يعرفون أنّه يتمتّع بثقته بما أنّه بقي على الدوام من أنصاره. اسمه جِمينيوس، وعهدوا إليه بأن يناشد أنطونيوس بألّا يتمادى أكثر في طريق تدنيس المحرّمات هذا، وينبّهه إلى أنّه ما إن يُعتبر عدوّاً للشعب الروماني حتّى لا يبقى له أيّ نصير في إيطاليا.

انطلق جِمينيوس وبلغ سامُس. مذ رأته كلِيوپَترا، خامرها الشكّ في أنّه

Twitter: @ketab_n

آتٍ للدفاع عن مصالح أُكتاڤيوس؛ ففعلت ما بوسعها لمنعه من الحديث مع أنطونيوس، وجرحت كرامته بتصرّفات كثيرة تنمّ عن احتقار، فتجلسه في أقصى المائدة ولا توجّه له الكلام إلّا بالهزء. لكن لم يفتَّ من صبر جِمينيوس شيء؛ بل احتمل الإهانات والسخرية دون أن يشكو، أملاً منه بمحادثة أنطونيوس عاجلاً أم آجلاً. ذات يوم، وبتحريض من كلِيوپَترا، طلب منه أنطونيوس أثناء العشاء، وهما على الطرفين المتقابلين من المائدة، أن يصرّح علناً عن الغاية من مجيئه إلى سامُس. فأجاب:

- أتيت لأحدّثك، ولكنّ موضوع حديثنا يُناقش عادةً على الريق. يبقى أنّ ما أستطيع أن أقوله لك في هذه اللحظة بالذات، ودون إضاعة ثانية واحدة، هو أنّ الأحوال تصير إلى تحسّن إن أقامت كلِيوپَترا في مصر بدل أن تقيم هنا.

لم يتمكّن من الحديث مع أنطونيوس بمفردهما، كما شعر أنّ نفوذه لديه لن يتفوّق يوماً على نفوذ كلِيوپَترا، فتسرّب من البلاط بعد بضعة أيّام وعاد إلى روما؛ وسرعان ما لحقه مَركُس سِلانُس ودِلّيوس الذي أرّخ للحرب بين أنطونيوس والپرثيّين، وقد شهدها شخصيّاً.

ثمّ أعلن لمن حوله أنّ طبيب گلَكّوس حذّره من نيّة كلِيوپَترا تسميمه، لأنّه قال على العشاء ذات مساء:

- أليس من المستهجن، وأيم الحقّ، أن يسقونا نحن خلّاً بينما سَرمِنتُس يُسقى من نبيذ فَلِرنُم في روما؟

لاحظوا أنّ سَرمِنتُس هذا، الذي ثار دِلّيوس في وجهه، هو الذي سافرتُ معه من بْرُنديزيوم، ويدين لوجهه الوسيم بالحظوة التي نالها.

كانت الحرب إذن وشيكة. فتجاه هذه القوّات التي يجرّها أنطونيوس خلفه، لم يكن لأُكتاڤيوس إلّا مائتان وستّون سفينة، وثمانون ألف من

Twitter: @ketab_n

المشاة واثنا عشر ألف فارس.

غير أنّ جميع أمارات الفأل كانت مناوئة لأنطونيوس.

فمنذ زواج أُكتاڤيا، ومنذ اللقاء الذي جمع الرجلين في بْرُنديزيوم فيما بعد، كان أنطونيوس، حين يلعب مع أُكتاڤيوس، سواءً بالشطرنج أو بالزهر أو بأيّة لعبة أخرى، يخسر دائماً. حتّى أن أحد العرّافين، الوافد من مصر في حاشية كلِيوپَترا، قال له يوماً:

- إنّ عبقريّتك يا أنطونيوس تخشى عبقريّة قيصر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني (تابع)

وإلى هذه النُّذُر انضافت نُذُر أخرى ليست أقلّ شؤماً.

عندما كان أنطونيوس في پَتَرَس، سقطت الصاعقة على معبد هرقل فأحرقته. ففي هذا نذير شؤم بما أنّ أنطونيوس يدّعي الانحدار من هذا الإله.

وبينما كان في سامُس، انهارت پيزَنسيا، وهي المستوطنة التي أسّسها، بفعل الزلزال.

وفي أَلبا، نضح تمثال أنطونيوس المصنوع من الرخام بالعرق مدّة أيّام.

في أثينا، عصفت الريح أثناء ألعاب **صراع الجبابرة ضدّ الآلهة** بتمثال باخوس فأودت به إلى المسرح. والحال أنّ أنطونيوس الذي ينتسب إلى قاهر **أسد نِميوس وتنّين لِرْنا** كان يفخر بشبهه بقاهر الهند، ولذا كان يلقّب نفسه باخوس الجديد.

العاصفة نفسها أطاحت بتمثالَي أُمينُس وأَتَالُس، اللذين نُقش على قاعدتيهما اسم أنطونيوس؛ ولم تطح إلّا بهما دون التماثيل الأخرى المحيطة بهما.

وأخيراً ظهرت علامة من أرعب ما يكون على سفينة كلِيوپَترا الحربيّة، المُسمّاة **أنطونيادا**. انقضّ على عشّ، أقامته سنونو في مؤخّرة السفينة، سرب آخر من السنونو فطردها وقتل صغارها.

كنت أرى كلّ تلك الإعدادات الحربية، وأسمع كلّ ذلك الضجيج،

Twitter: @ketab_n

وأعترف أنّي، دون أن يخامرني شكّ في نجاح أُكتافيوس، كنت آسف للدم الذي سيُسفح؛ إذ أنّ الصراع ناشب مرّة أخرى، وكما في فرسالا وفي فِلِبّي، بين الرومان والرومان، إذا ما استثنينا أعوان أنطونيوس. ومن الصحيح أيضاً أنّها ستكون فعلاً نهاية الحروب الأهليّة.

بعد موت پُمپيوس، كان قد بقي يولويس قيصر وأنطونيوس وأُكتافيوس وبروتُس وكَسّيوس. وبعد موت بروتُس وكَسّيوس، بقي أنطونيوس وأُكتافيوس؛ فإذا ما قتَل أنطونيوس أُكتافيوس أو أُكتافيوس أنطونيوس، فالناجي يصبح وحيداً، ولن يعود أمامه حينئذ شخص آخر ينازعه السلطان على العالم.

في محاولة أخيرة منّي للمصالحة بينهما، نشرت قصيدتي السابعة:

«إلى أين تتراكضون، يا منتهكي المحرّمات؟ لماذا تلك السيوف في أيديكم؟ ألم يُعصفر الدم الروماني البرّ والبحر بما فيه الكفاية؟»

ولكن، كما تدركونه جيّداً، لم تكن بضع أبيات لشاعر مسكين سوى سدّ شديد الهشاشة في وجه السيل المندفع. طغى السيل على السدّ وتدفّق باتّجاه أكسيوم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

قصيدتان جديدتان - قصيدة ساخرة لِمِسِينَس - إعلان الحرب على كلِيوپَترا - انطلاق الأسطول الروماني - التسهيلات المقدّمة لأنطونيوس - أنطونيوس يقترح على أُكتافيوس أن يبارزه - مناوشات - دوميسيوس ينضمّ إلى معسكر أُكتافيوس- انشقاق أمِنتاس ودِجُتارُس عن أنطونيوس- نصيحة كَنديوس لأنطونيوس - الشرَك المنصوب لأنطونيوس - استعداداته للمعركة - طالع سعيد بالنسبة لأُكتافيوس -معركة أكسيوم - أنطونيوس يشنّ هجوماً - الأسطولان يتواقعان - مناورة أَكرِبّا - فرار كلِيوپَترا على حين غرّة - أنطونيوس يتخلّى عن أسطوله ليتبع ملكة مصر - أوزيكلِس.

في تلك الحقبة بالذات، أصدرت قصيدتيَّ: **أيّتها السفينة، سيذهب بكِ... وحين يقود الراعي...**؛ وكلاهما رمزيّتان استوحيتهما من الأحداث التي كانت تُلهب شعور الناس طرّاً.

الأولى ليست بحاجة لأيّ شرح.

موضوع الثانية نبوءة نيرِيوس حول عشق الزنى بين هيلين وپاريس.

Twitter: @ketab_n

من نافل القول أنّ عشق أنطونيوس لكلِيوپَترا كان ينذر روما بمصائب ليست أقلّ وطأة من تلك التي انصبّت على طروادة بعد خطف زروجة مِنِلاس.

إنّ صيت هيلين ذاع في العالم بحيث أنّها بقيت حيّة في ذاكرة معاصريها كافّةً، وأعتقد أنّ ذكراها لن تّمحي كليّاً من ذاكرة الأجيال اللاحقة.

استصدر أُكتاڤيوس مرسوماً بإعلان الحرب لا على أنطونيوس بل على كلِيوپَترا، فجعل من أنطونيوس بتلك المناورة السياسية الماهرة مجرّد قائد وضع نفسه في خدمة كلِيوپَترا؛ ثمّ غادر روما مصطحباً معه مِسينَس.

رأيته عشيّة سفره وتوسّلت إليه أن يأخذني معه؛ لكنّه رفض رفضاً باتّاً. وفي خضمّ ذلك الحزن الذي عانيته من جرّاء رفضه، نظمت له أولى قصائدي المتوثّبة.

أوّل من أطلقت عليه في قصائدي لقب صديق هو مِسينَس، الذي أجاز لي ذلك حين أهداني قصيدة ساخرة نعتني فيها بهذا اللقب.

انطلق أُكتاڤيوس ومِسينَس إذن، كما ذكرت في قصيدتي المتوثّبة، على متن إحدى السفن الليبُرنيّة الخفيفة، وهي أسرع من غيرها، ولكنّها أكثر عرضة للخطر من السفن الحربيّة، لأنّها أقلّ ثباتاً على الماء. ما همّ! أَلَمْ يجابه قيصرُ آخر نفس البحر وعلى متن زورق؟ أَلم تحمل السفينة الليبُرنية هي أيضاً قيصر وطالعه؟

كانت خشية أُكتاڤيوس - التي أطلعني عليها مِسينَس - أن يخوض أنطونيوس الحرب برّاً. غير أنّ كلِيوپَترا، التي كاد عدد سفنها يضاهي عدد جنودها نسبيّاً، أرادت أن يدين لها أنطونيوس بالنصر، فحملته على خوض الحرب بحراً.

يا له من تهوّر! فقد كان أسطوله يفتقر إلى الجذّافين، لا بل ربّما إلى

Twitter: @ketab_n

الملّاحين. في سبيل سدّ ذلك العجز، أُكره القباطنة على استعمال العنف فاختطفوا من اليونان المُكارين والحُصّاد وحتّى الفتيان ما بين سنّ الثانية عشرة والرابعة عشرة. وبالرغم من كلّ هذا العنف كان الطاقم البحريّ أبعد ما يكون عن الاكتمال.

تسهيلات كثيرة قُدّمت لأنطونيوس قبل ذلك. فقد أبلغه أُكتافيوس، وهو في سامُس، أن يكفّ عن هدر وقته الثمين ويحضر مع كلّ قواته البحريّة والبرّية. بل عرض عليه مكالئَ وموانئ لإنزال قوّاته البحريّة دون أن يعترضه أحد؛ أمّا قوّاته البريّة فقد وفّر لها من الفضاء ما يكفي جولة حصانٍ سباق، ووفّر له الوقت الكافي لإنزال قواته وإقامة معسكره.

وبدوره عرض أنطونيوس على أُكتافيوس إمّا أن يتبارزا وإمّا أن يتجابها في معركة منظّمة في سهل فَرسالا، في المكان ذاته الذي تجابه فيه قيصر وپُمبيوس.

وأبلغه أنّه في شناخ أكسيوم، ينتظر جوابه.

فعزم أُكتافيوس عندئذ أن يحمل له الجواب بنفسه. فعبر البحر اليونيّ على جناح السرعة وبادر إلى الاستيلاء على تورينا، وهي مدينة صغيرة في إپيرا.

انتاب أنطونيوس قلق شديد من جرّاء تسرّع أُكتافيوس بالتصرّف على هذا النحو. وحين رأى عدوّه في اليوم التالي قد بدأ يحرّك قوّاته، وخشي أن يفاجئه بهجوم سريع وجريء فيستولي على سفنه الخالية من المدافعين، جعل الجذّافين يقفون على ظهر السفن مسلّحين وكأنّهم جنود، ونصب المجاذيف بحيث تبرز من جانبي السفن الحربية دون أن يمسك بها أحد، وأدار مقدّمة السفن تجاه أُكتافيوس.

ظنّ أُكتافيوبس أنّ أنطونيوس مستعدّ للمعركة فانسحب. فقام

Twitter: @ketab_n

أنطونيوس بقطع الماء عنه بحفر خنادق حوّل إليها الأنهار التي كان يرتوي منها جيش أُكتاڤيوس.

أوّل من بدأ في هذه الظروف يشكّ في طالع أنطونيوس كان دوميسيوس. فقد أُصيب دوميسيوس بحمّى شديدة فركب قارباً متذرّعاً بحاجته إلى تنشّق هواء البحر بما أنّه منعش وصحّيّ أكثر من هواء البرّ وانضمّ إلى أُكتاڤيوس.

كان أنطونيوس يحبّ دوميسيوس حبّاً شديداً، ففُجع من هروبه، ولكنّه بالرغم من معارضة كلِيوپَترا قولاً وفعلاً، بعث له بطاقمه البحريّ وبخدمه وأصدقائه.

بعد يومين حذا ملكان حذوه، هما أمِنتاس ملك لِكاوُنيا ودِجُتارُس ملك الغلاطيّين، فتركا أنطونيوس واعتنقا قضيّة أُكتاڤيوس.

وبما أنّ باقي الأسطول المرتقب وصوله لم يصل، بادر كَنيديوس، الذي كان من رأي كلِيوپَترا في القتال بحراً، إلى تغيير موقفه فنصح أنطونيوس بأن يقطع مع كلِيوپَترا ويقاتل برّاً في تراسيا ومقدونيا. والفائدة المتوقّعة من ذلك، حسب قوله، هي أن يعضد ديكُمِس ملك الجيتيّين أنطونيوس بدعم عظيم، هذا إن وفى بوعده.

تخيّل أنطونيوس أنّ من العار عليه أن يترك البحر لأُكتاڤيوس، بما أنّه عرض عليه القتال بحراً؛ فردّ عليه كنيديوس:

- بوسعك أن تفعل ذلك وبدون خجل، لا سيّما وأنّ أُكتاڤيوس يتمرّن على القتال بحراً منذ خمس سنوات في معاركه ضدّ سِكستُس پُمپِيوس، وأنّك، فيما أنت القائد العظيم في المعارك البرّيّة، تستغني عن خبرتك وعن مهارة فيالقك لتنخرط في معركة بحريّة.

غير أنّ أنطونيوس كان عبداً لكلِيوپَترا، وكلِيوپَترا قرّرت القتال بحراً.

Twitter: @ketab_n

بينما كان الفريقان يتردّدان، دخل أحد خدم أُكتافيوس عليه ذات مساء وطلب أن يفاتحه بأمر. وكان أُكتافيوس سهل المتناول، فسمح له بالدخول. فقال له ذلك الخادم أنّه لحظ درباً ضيّقة وطويلة تصل معسكر أنطونيوس بالمكلأ الذي رست فيه سفنه، وأنّ أنطونيوس كان يسلك ذلك الدرب مرّتين كلّ يوم ليتفقّد أسطوله.

فمن السهل إذن، برأي ذلك الخادم، اختطاف أنطونيوس وهو سائر على تلك الدرب.

أمر أُكتافيوس بتفحّص الأماكن، واعتماداً على التقرير الذي رُفع إليه والمطابق لما نقله له خادمه، نصب كميناً للقبض على أنطونيوس. وكاد أنطونيوس يقع بين يدي أُكتافيوس؛ فقد قُبض على الجنديّ الذي كان يتقدّمه ليضيء له الدرب، أمّا أنطونيوس الذي كانت له خفّة قدمي آخيلوس فلاذ بالفرار ونجا بنفسه.

حسم أنطونيوس أمره بقبول خوض المعركة بحراً. ولكي يتخلّص من السفن التي كان من شأنها أن تعيق حركته، قرّر أنطونيوس أن يحرق السفن المصريّة كلّها، ولم يستبقِ منها سوى ستّين. هكذا ضحّى بمائة وأربعين عمارة مصريّة.

عندئذ صفّ على أكبر سفنه الحربيّة - المُجهّزة بصفوف من المجاذيف تتراوح بين ثلاثة وعشرة- وأجوَدها، عشرين ألف جنديّ من جنود الفيالق وألفَي نابل.

حين رآه أحد المدافعين عن المشاة، وكان قد التزم بمصير أنطونيوس منذ عشرين سنة وحفل جسمه بالنُدوب، ينفّذ مخطّطه ذاك، وقف وصرخ به بصوت موجَع وهو يشير بيد إلى سيفه وبالأخرى إلى صدره المحفور بالندوب:

Twitter: @ketab_n

- أيّها القائد الظافر! لماذا ترتاب بهذا السيف وبهذه الجروح لتضع آمالك في خشب عفن؟ اترك لجنود فينيقيا ومصر المعاركَ البحريّة، واترك لنا البرّ، نحن الذين اعتدنا أن نحارب ونموت فيه.

غير أنّ جوبيتر عزم على القضاء على أنطونيوس فأعمى بصيرته. فبدل أن يصغي أنطونيوس إلى هذه النصائح التي بدت منبثقة من فم مِنرڤا، اكتفى بأن أشار بيده إلى الجنديّ الأمين إشارة مصحوبة بابتسامة تبعث فيه أملاً لم يعد هو نفسه يطمئنّ إليه.

والحال أنّ أنطونيوس في فتراته الأخيرة لم يعد ذلك الرجل المتوقّد حماساً والمولع بالحرب والمفعم بالأفكار المبتكرة، كما عرفناه سابقاً.

على مدى ثلاثة أيّام هبّت ريح شديدة، وهاج البحر هياجا قويّاً بحيث لم يكن لأيّ من الطرفين أن يفكّر بخوض المعركة. في اليوم الرابع، سكنت الريح وهدأ البحر؛ وفي اليوم الخامس تمكن الأسطولان من الزحف أحدهما صوب الآخر.

تشكّلت قيادة أسطول العدوّ على هذا النحو: الميمنة تحت إمرة أنطونيوس وپُبلِكولا، والميسرة تحت إمرة سيليوس، والصدر تحت إمرة مَركُس أُكتاڤيوس ومَركُس إستيرُس.

أمّا أُكتاڤيوس فسلّم قيادة ميسرة جيشه لأَگرِپّا واحتفظ بميمنته، وأقام أرُّنسيوس على رأس صدر الجيش.

أمّا في ما يخصّ الجيوش البرّيّة، فقد كان جيش أنطونيوس بإمرة كَسّيدُس وجيش أُكتاڤيوس بإمرة تَورُس.

بقيا كلاهما مكانهما على الشاطئ في وضع قتاليّ بدون حراك، وهما مدركان تماماً أنّهما مجرد مشاهدَين للمعركة المزمعة أن تحسم مصير العالم.

وأتى طالع خير أخير ساهم في طمأنة أُكتاڤيوس: خرج صباحاً من

Twitter: @ketab_n

خيمته ليتفقّد أسطوله قبل طلوع النهار، فلقي رجلاً يقود حماره وسأله عن اسمه.

عرفه الرجل وأجابه بسرور بالغ:

- أيّها القيصر، اسمي أوتِكُس واسم حماري نيكُن.

والحال أنّ أوتِكُس تعني باليونانية **سعيد** ونيكُن تعني **منتصر**.

لهذا السبب، زيّن أُكتافيوس هذا المكان إثر انتصاره بأسنان حيازيم السفن الحربية التي استولى عليها ونصب فيه تمثالين لا يدرك معناهما من لا يطلّع على شرحي السابق: أحدهما يمثّل حماراً والثاني رجلاً، وكلاهما من البرونز.

ركب أُكتافيوس قارباً وأمره بأن ينقله إلى ميسرة جيشه، ومدّ نظره من هناك نحو المضيق فدُهش لرؤيته أسطول العدوّ لا يتحرّك أكثر منه عند رسوّه.

واستطاع كذلك أن يرى أنطونيوس عن بعد يجول بين خطوطه في قاربه ليشجّع جنوده على أن يصمدوا في القتال كما لو كانوا يحاربون برّاً - وذلك ممّا يتوفّر لهم بسبب ثقل سفنهم - ويأمر القباطنة بألّا يبادروا بأيّ حركة بسبب صعوبة التحرّك من الميناء خروجاً أو دخولاً، فمن الأفضل أن يتركوا للعدوّ المخاطرة بذلك.

في الساعة السادسة من النهار، هبّت من صوب البحر ريح رطبة، ويبدو أنّ أنطونيوس نسي وصيّته الحكيمة في الصباح، فراحت ميسرته تتحرّك.

قيل إنّه لم يكن لأنطونيوس أيّ شأن في هذا التحرّك، بل بدر عن جنوده وقباطنتهم الذين اعتراهم الخجل من انتظار هجوم العدوّ فبادروا إليه وكلّهم ثقة بعظمة سفنهم ومتانتها.

Twitter: @ketab_n

اغتبط أُكتافيوس لهذا التحرّك الذي لم يكن ليتوقّعه، فانسحب بميمنته إلى الوراء ليفسح لأنطونيوس المجال لشنّ الهجوم، فيما هو يتأهّب ليحاصر بسفنه الخفيفة الرشيقة الحركة قلاع أنطونيوس العائمة، التي يعجز عن تحريكها بمهارة بسبب ثقلها ونقص جذّافيها.

لم تبلغ الصدمة رهبة اصطدام أسطولين متجابِهَين مباشرة ومتماثلين قوّة. كان أسطول أنطونيوس يتقدّم ببطء، وكان أُكتافيوس يتجنّب أن يهاجم بمقدّمات سفنه مقدّمات سفن أنطونيوس، المسلّحة جميعها بحيازيم نحاسيّة مسنّنة صلبة. كما كان يتردّد في اقتحامها من خواصرها، لأنّ رؤوس سفنه تتحطّم بسهولة على أبدان تلك السفن، المصنوعة من عواميد خشبيّة مربّعة الشكل موثقة بعضها ببعضٍ بقضُب معدنيّة.

ترتّب على هذا الوضع أنّ القتال لم يتّخذ شكل معركة بل شكل حصارِ مدينة. ولم يحاول أُكتافيوس حتّى أن يترك جنوده يتسلّقون متون سفن أنطونيوس لتعذّر تسلّقها من جوانبها بسبب انتفاخها. فراحت ثلاث عمارات خفيفة، أو أربع، من أسطول أُكتافيوس تطوّق تلك السفن الجبّارة. وبدأوا يتراشقون بالحِراب وبالنبال الملتهبة ويترامون بالركائز وبالرماح.

لَحظ أَگرِپّا أنّ المعركة قد تطول، فبسط ميسرته ليطوّق بها أنطونيوس، فأجبر أنطونيوس بهدف تعطيل حركة أَگرِپّا على بسط ميمنته. فأحسّ صدر الجيش بالضغط الشديد الذي يمارسه أرُّنسيوس، فهلع من هذا التحرّك، وبدا عليه شيء من التردّد.

لم يكن شيء قد حُسم في المعركة، حين دبّت الفوضى في صفوف جيش أنطونيوس: كانت كلِيوپَترا تحطّم تلك الصفوف بسفنها الستّين مشرعةً أشرعتها لريح ملائمة، قاصدةً البِلوپُنيز لا تلوي على شيء.

Twitter: @ketab_n

أثار هذا المشهد استغرابنا، وأثار أكثر استغراب جند أنطونيوس. بل إنّ أنطونيوس نفسه بقي برهة مذهولاً، لا يدرك معنىً لهذا الفرار الذي لا تقتضيه أيّة ضرورة، بما أنّ المعركة لم تحسم بعد، وبقيت مستمرّة دون أن يتفوّق فيها طرف على آخر.

وكما حصل لـپُمبيوس في فَرسالا، أصيب أنطونيوس بدوار جنونيّ؛ فبدل أن يترك كلِيوپَترا تفرّ بسفنها الستّين التي لم تكن تنتقص شيئاً من قدراته بما أنّها غير معدّة للقتال؛ وبدل أن يواصل القتال ساعياً إلى انتزاع النصر، يئس على الفور من حسن طالعه، من عبقريّته، من نفسه فركب إحدى تلك السفن الحربيّة المُجهّزة بخمسة صفوف من المجاذيف، مع اثنين من أصدقائه لا غير، هما سيليوس وألكساندر السّوري، واندفع مقتفياً أثر عمارات كلِيوپَترا، بعد أن أمر بنشر كلّ الأشرعة وتفعيل كلّ المجاذيف.

رأته كلِيوپَترا آتياً إليها، وكما لو خشيت أن يعود للقتال، أمرت بنصب علامة فوق عمارتها؛ هكذا استطاع أنطونيوس أن يتّجه نحو السفينة الملكية، ويحاذيها ويصعد إلى متنها دون أن يرى الملكة أو تراه. ذهب إلى المقدّمة وجلس واضعاً رأسه بين يديه، مصغياً بصمتٍ إلى صوت انهيار طالعه.

فأتى من يقول له إنّ سفن أُكتاڤيوس الخفيفة التي تطارده لن تتأخّر عن بلوغه.

فاكتفى بقوله للقبطان:

- وجّهوا المقدّمة صوبهم.

والحال أنّه بمجرد تلك الحركة التي هدّدهم بها وأصابت بعضهم، استطاع إبعادهم على الفور.

Twitter: @ketab_n

رجل واحد أصرّ بعناد على مطاردة السفينة الملكية، راجل واقف على سطح السفينة يمسك بيده رمحاً طويلة، راح ينادي أنطونيوس ويتحدّاه بإصرار. سمع أنطونيوس اسمه يُنادى به وسط التهديد، فنهض وتقدّم نحو ذلك العدوّ العنيد وسأله:

– من هو إذن هذا الرجل الذي يصرّ بعناد على مطاردة أنطونيوس؟

– هذا أنا! أجاب الرجل ذو الرمح.

– أنت، من؟

– أنا أوزِكليس اللاسِدِموني، أنا من يستغلّ طالع أُكتاڤيوس ليثأر ما أمكنه لموت أبيه الذي حزّوا رأسه بأمر منك.

عندئذ تذكّر أنطونيوس أنّه أمر بقتل لَكاريِس، فلم يجب بشيء بل أمر الجذّافين بأن يضاعفوا من سرعتهم. انصاعوا للأوامر ولم يستطع أوزِكليس أن يدركهم.

لكنّه انتقم من سفينة أمير البحر، إذ صدمها صدمة جعلتها من شدّتها تدور على نفسها ثمّ تنقلب على جنبها، فاستولى عليها ونهب ما فيها.

في تلك الأثناء، عاد أنطونيوس يجلس في مقدّمة السفينة ثابتاً في مكانه صامتاً كما كان قبل.

مكث هكذا ثلاثة أيّام وثلاث ليال، لا يشرب ولا يأكل إلّا بما يبقيه على قيد الحياة، ولم يحسم أمره بالدخول إلى غرفة كلِيوپَترا إلّا حين بلغت السفينة رأس تينار وتعب من إصرار وصيفتي كلِيوپَترا، شَرميون وإيراس.

أجمل وصف لمعركة أكسيوم أتى بريشة عزيزي ڤِرجيليوس في نهاية كتابه الثامن من **الإنياذة**. وإليه أحيل عشّاق الشعر الجميل المعبّر عن الصور العظيمة.

Twitter: @ketab_n

لم يتوقّف أنطونيوس لينتظر أخبار المعركة إلّا في رأس تينار؛ ولم تتأخّر الأخبار، كما اجتمع حوله عدد كبير من السفن الناجية من الهزيمة.

أُبيد الأسطول بكامله، أمّا الجيش البرّي فسلِم بأكمله.

قاوم الأسطول مدّة طويلة، وبقي صامداً حتّى الساعة العاشرة؛ غير أنّه حوصر من كلّ الجهات وتعرّض لريح شديدة فأُجبر على الاستسلام. لم تكن الخسارة بين الجنود بقدر ما يُظَنّ: مات خمسة آلاف رجل فقط، مع أنّ أُكتافيوس أشار في تقريره الرسميّ إلى أنّه استولى على ثلاثمائة عمارة.

نجمت هذه المقاومة الطويلة عن جهل أغلبية الأسطول بفرار أنطونيوس، وحين أُعلمت به لم ترد أن تصدّقه بادى الأمر. فكيف يصدّقون أنّ قائداً، شاخ في غمرة الصُّدَف وتقلّبات الحرب، بوسعه أن يفرّ فرار الجبان منذ بداية المعركة البحريّة ولمّا يزل جيشه، المؤلّف من تسعة عشر فيلقاً واثني عشر ألف فارس، سليماً على حاله؟

ودليل قدرته الاعتماد على هذا الجيش هو أنّه، بانتظار ظهور قائده في أيّة لحظة، بقي سبعة أيّام بتمامها متلاحماً تحت قيادة كنيديوس، دون أن يفرّ منه رجل واحد، غير آبه بالرسائل التي بعثها له العدوّ ليطالبه بالانضمام إليه.

في نهاية اليوم السابع، لم يعد كَنيديوس يستوعب معنى غياب أنطونيوس، ظنّاً منه أن مردّ غيابه وصمته الموت لا غير. فاستغلّ كَنيديوس ظلام الليل ليختفي هو بدوره.

رأى الجنود أنفسهم بدون قائد ولا نائب عنه وقد تُركوا يتدبّرون أمرهم، فاستسلموا لأُكتافيوس.

فوجّه أُكتافيوس رسله يبشّرون روما بالنصر، وأبحر باتّجاه أثينا.

أحد رسله إلى روما كان يحمل لي رسالة من مِسينَس. فأجبته بتاسعة

Twitter: @ketab_n

قصائدي المتوثّبة: «**تلك الكأس[1] الموضوعة جانباً، متى إذن أحتسيها معك؟**».

ما إن وصل أُكتاڤيوس أثينا حتّى غفر لليونان فعلهم، باعتبار أنّهم لم يذنبوا في دعمهم أنطونيوس إلّا انصياعاً للقوّة؛ ولم يكتفِ بذلك، بل عند رؤيته أهالي مدن الأتّيك على تلك الحال من البؤس، مجرّدين من المال والعبيد والبهائم، وزّع عليهم مخزونه من القمح المعدّ للحرب.

أمّا أنطونيوس فنزل في أفريقيا. ومن هناك بعث بكلِيوپَترا إلى مصر، وبقي هو هائماً يتسكّع في الصحراء ليتسنّى له أن يجلي روحه في العزلة. بقي معه صديقان لا غير، أحدهما يوناني والآخر روماني. اليوناني هو الخطيب أرِستُقراطِس، وأمّا الروماني فهو سِمينِس لوسِليوس، الذي ذكرت تفانيه في معركة فِلِبّي، حيث عرّض نفسه للموت ليفسح المجال لبروتُس بالهرب. وكان أن أنقذه أنطونيوس وقتها، ومنذ ذلك الحين التزم نحوه، اعترافاً منه بالجميل، بوفاء نستغربه في أيّامنا هذه، وفاء لم يحنث به يوماً، بل حافظ عليه حتّى آخر يوم من حياته.

عندما علم أنطونيوس أنّ كنيديوس تخلّى عن الجيش البرّي، وأنّ هذا الجيش استسلم لأُكتاڤيوس، أراد أن يقتل نفسه. وكان أنّ هذين الصديقَين بالذات هما اللذان انتزعا من يديه السيف المصوّب إلى صدره.

أدرك أنطونيوس أنّ كلِيوپَترا أصبحت دون دفاع، بما أنّ جيشه انضمّ إلى أُكتاڤيوس، فعجّل في الذهاب إلى الإسكندريّة.

وجد الملكة منهمكة في مشروع عظيم.

برزخ بطول ثلاثمائة مرحلة يفصل، كما هو معروف، البحر الداخليّ عن بحر الهند، أو بالأحرى عن ذلك الذراع من بحر الهند الذي يغور داخل اليابسة ويسمّى البحر الأحمر.

(1) مُعدّة لمأدبة العيد (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وكان مشروع كلِيوپَترا أن تعبر بسفنها هذا البرزخ بعد أن تحمّلها كلّ ثرواتها وتقصد أرضاً نائية تؤسّس فيها مستوطنة جديدة، كما فعلت ديدون قديماً. كان أنطونيوس من جهته قد وزّع على أصدقائه، لدى بلوغه رأس تينار، كلّ ما يملك من ذهب ومجوهرات وآنية طعام. غير أنّ العرب المقيمين في أنحاء البتراء أحرقوا أولى العمارات التي اجتازت البرزخ ونهبتها، عندئذ تخلّت كلِيوپَترا عن مشروعها واكتفت بإقامة حرس عند الفُجوج الصخريّة المؤدّية إلى مصر.

أمّا أنطونيوس فقيل إنّه لم يعد يطيق عشرة الناس وحتّى عشرة تلك المرأة التي أحبّها حبّاً جمّاً. فأمر ببناء درب ترابيّ يتقدّم في عرض البحر، وبتشييد بيت له غير بعيد عن المنارة، ليقضي فيه ما تبقّي له من العمر.

هناك مثَل أمامه ذات يوم رجل أنهكه التعب مُلفّعاً بالغبار؛ لم يكد أنطون يعرفه، ولم يعرف المتحدّث إليه فعلاً إلّا بعد أن أفصح الرجل عن اسمه.

كان محدّثه قائد جيشه البرّي، الذي ترقّب مدّة سبعة أيّام أخباره ثمّ حين لم يره عائداً إليه اختفى هو نفسه ذات مساء.

عن طريق كنيديوس، علم بخيانة هيرودُس ملك اليهود وخيانة حلفائه الآخرين الذين والوا قيصر أُكتافيوس الواحد تلو الآخر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

*عندما علم أنطونيوس باستسلام جيشه حاول أن ينتحر - فكّر في أنّ كليوپَترا قد تحتاج إلى مساعدته، فرجع إليها - ملكة مصر تحاول إنقاذ أسطولها - أنطونيوس يعتزل في تِمونيوم - كنيديوس يقدِم إليه ليُعلمه بأنّه فقد آماله كافّةً - **المُتلازمان أمام الموت** - تفاني المصارعين في سبيل أنطونيوس - تجارب أنطونيوس وكلِيوپَترا لمعرفة مفعول أنواع السموم ولسعات الأفاعي - أُكتاڤيوس يستأنف زحفه على أنطونيوس - كلِيوپَترا تشيّد ضريحاً تعتكف فيه مع كلّ كنوزها - أنطونيوس، بعد أن خذله جميع أنصاره، يعزم على الانتحار - يطلب نقله إلى ضريح كلِيوپَترا - موته - أُكتاڤيوس يحاول أن يقبض على كلِيوپَترا حيّة - مقابلته معها - حين تعلم كلِيوپَترا أنّ أُكتاڤيوس يريد أن يعرضها في موكب نصره، تنتحر بلسعة صلّ أسود - تعدّد الأخبار حول موت كلِيوپَترا - ما جرى لأولاد كلِيوپَترا وأولاد أنطونيوس.*

بعد أن فقد أنطونيوس كلّ آماله، لم يستغرق في الذهول كما كان يُتوقّع

Twitter: @ketab_n

منه، بل بدا وكأنّه قد استعاد كامل طمأنينته، فترك على الفور معتزله، الذي سمّاه **تِمونيوم** تيمّناً باسم **تيمون كاره البشر**، وعاد إلى الإسكندريّة حيث باشر حياة جنونيّة لم تنتهِ إلّا بموته.

حلّت حينئذ، بدل جماعة **الحياة العصيّة على التقليد** التي أرساها أنطونيوس وكلِيوپَترا أثناء إقامة أنطونيوس الأولى في الإسكندريّة، حياة **المتلازمَين في الموت**.

والواقع أنّ أُكتاڤيوس ترك لهما ما يكفي من الوقت ليستعدّا للآتي؛ الأمر الوحيد الذي بدا له غير قابل للتأخير هو أن يجرّدهما من كلّ مواردهما. وله أن يمسك بهما حين يشاء: ألم يمتكل العالم بأكمله منذ انتصاره في أكسيوم؟

وذات يوم تلقّى أنطونيوس عوناً لم يكن في الحسبان. فبينما كان حلفاؤه من الملوك وأصدقاؤه ممّن غمرهم بالخيرات، من أمثال دوميسيوس، يخذلونه، وبينما راح الفيالق الأربعة الأخيرة التي استقدمها من بلاد برقة تستسلم بدورها، بقي مصارعوه على وفائهم له. فأولئك الذين كان في الماضي يرسلهم إلى حتفهم في سيزِكا، اجتازوا آسيا الصغرى بأكملها وسورية وفينيقيا والصحراء وقدموا إلى مصر ليموتوا فداءً عن سيّدهم.

بينما كان أنطونيوس منعزلاً في برجه في تِمونيوم، أرسلت كلِيوپَترا خِفيةً إلى أُكتاڤيوس التاج والصولجان الذهبيّين، مشيرةً بفعلها ذا إلى أنّها تعلن خضوعها له واستعدادها للتعامل معه. غير أنّها، منذ عودة أنطونيوس إلى الإسكندريّة ليسكن معها، ومنذ سجّل قيصرون في سجلّ الفتيان وألبس أنتيليوس، وهو بكر أولاده من فُلڤيا، جبّة الرجولة، بدت وكأنّها تريد تكريس حياتها لأنطونيوس، تُسكره بلذّاتها الجنائزيّة وتدغدغه بما يمثّل أقصى آماله: أن يرقدا كلاهما معاً وفي نفس اللحظة رقدة الموت.

Twitter: @ketab_n

بعد ليالٍ قضّياها بالولائم والاحتفالات، وبعد رقاد معطّر، راحا ينشغلان بأمور مترعة بالانفعالات السوداويّة والغرائب المرعبة:

راحا يجرّبان أصناف السموم.

كانا يجريان التجارب على الأسرى أو على المجرمين المحكومين بالإعدام.

استنتجا من كلّ هذه التجارب، التي كانا يحضَرانها متشابكَي الأيدي ومكلّلَين بالزهور، أنّ كلّ السموم السريعة المفعول مؤلمة لدرجة أنّ وجوه الموتى تبقى شاحبة متشنّجة؛ أمّا السموم الخفيفة فلا تقضي على الإنسان إلّا ببطء شديد، ممّا قد يعرّضهما للوقوع حيّين في قبضة من كانا يريدان الفرار منه إلى القبر.

عندئذ جمعا مختلف الزواحف المتوافرة في النيل وفي الصحراء وفي الدلتا ليجرّبا لسعاتها: وكانت النتيجة أنّ الصلّ الأسود[1] وحده لا يثير سمّه تشنّجاً ولا تمزّقاً، بل يرمي في عروق من يسري فيه نوعاً من النعاس مرفوقاً بنداوة عذبة في الوجه، يتبعه نعاس لا مردّ له لا يخلو من عذوبة، على ما يبدو، بما أنّ من تكون تلك حالته يتضرّع إلى منقذه ألّا يحاول إيقاظه.

لكنّهما في غمرة تلك التجارب، لم يفقدا الأمل بأن لا يحتاجاها يوماً؛ إذ أنّ كلِيوپَترا وأنطونيوس أوفدا معاً إلى أُكتاڤيوس يسألانه أن يضمن لأولاد كلِيوپَترا مُلك مصر، وأن يترك أنطونيوس يعيش في أثينا عيشة فردٍ عاديّ.

كان حامل تلك الرسالة هو أُفرونيوم، مربّي أولادهما.

تلقّت كلِيوپَترا جواباً بأنّ المنتصر يهبها كلّ ما ترغب به من تنازلات،

---

(1) أفعى صغيرة سمّها سريع القتل (المترجم).

Twitter: @ketab_n

إن رضيت بقتل أنطونيوس أو أقلّه بإبعاده من أقاليمها.

أمّا الردّ على أنطونيوس فتضمّنه جواب أُكتاڤيوس لكلِيوپَترا.

وعلى كلّ حال، قُيِّضت للمتلازمَين في الموت هذَين مهلةٌ جديدة. فبتأثير الرسائل المُلحّة التي تلقّاها قيصر من أَگرِپّا، عاد إلى روما، لأنّ قدامى المحاربين انتفضوا مطالبين بحصّتهم من أسلاب العالم.

إرضاءً لمطالبهم، أُجبر قيصر على بيع ممتلكاته وممتلكات أنصاره.

ما إن انقضى الشتاء حتّى غادر قيصر روما وزحف على أنطونيوس مروراً بسوريا، بينما كان نُوّابه يتقدّمون عن طريق أفريقيا لنفس الغرض.

ما إن اقترب قيصر من مصر حتّى سلّمته كلِيوپَترا پلوزيُم. بقي لها أمل أخير. فمن كانت بالتتالي عشيقة لسِكستُس پُمپيوس وقيصر وأنطونيوس، لم تفقد الأمل بتكبيل أُكتاڤيوس إلى نفس العربة التي كبّلت إليها الآخرين.

ولم يُعدم أملها هذا من المبرّرات.

بدافع الحرص على القبض على كلِيوپَترا حيّة، بعث أُكتاڤيوس لها عن طريق تيرسُس، أحد مُعتَقيه، رسائل توهمها، كما قيل لي، بأنّ الظافر لا يكنّ لها بغضاً لدوداً. ما دعم هذه الإشاعة أنّ أنطونيوس اعتبر أنّ مقابلة كلِيوپَترا مع رسول أُكتاڤيوس طالت أكثر ممّا تكرّسه عادةً لمن هم في مقامه، فأمر بجلده قبل أن يعيد إرساله إلى قيصر.

أثناء المهلة التي أتاحها للعشيقين سفر أُكتاڤيوس إلى روما، قامت كلِيوپَترا بتشييد أضرحة قرب معبد إيزيس لها ارتفاع أضرحة الملوك وبهاؤها.

نقلت إلى الأضرحة كلّ كنوزها وكلّ مجوهراتها، وكذلك أغراضها الثمينة كلّها. وكوّمت فيها اللؤلؤ والذهب والعاج والماس والزمرّد،

Twitter: @ketab_n

وكميّات من الأنسجة الرائعة والسجّاد المطرّز بالفضّة، والأثاث المصنوع من الأبنوس وصناديق مملوءة بالعطور. ثمّ وضعت بين شقوقها نِسالات الخيوط وموادّ ملتهبة ومشاعل؛ بحيث قام هذا النصب الرائع مقام ضريح ونافورة ومحرقة في آن.

كان أُكتافيوس يرى هذه الإعدادات ويرتعد خوفاً من أن تحرق كلِيوپَترا نفسها وكلّ ثرواتها، فراح يرسل لها رسولاً بعد رسول ليطمئنها على مصيرها.

كم كانت كلِيوپَترا تودّ أن تصدّق وعود قيصر، غير أنّها لم ترَ سبيلاً للتخلّص من أنطونيوس، وهو المصرّ بعناد على وضع ثقته بها، وعلى الموت فداءً لها أو معها.

حين ظهر قيصر على أبواب الإسكندريّة، استعاد أنطونيوس كامل شجاعته. شنّ هجوماً خارج المدينة وقاتل كما لم يقاتل قطّ يوماً. أجبر خيّالة قيصر على الفرار ودحرها إلى عقر تحصيناتها.

عاد إلى المدينة مزهوّاً بنجاحه، وهرع إلى القصر بكامل سلاحه ليقبّل كلِيوپَترا، وقدّم لها الجنديّ الذي فاق جميع المقاتلين بشجاعته، فأهدته الملكة درعاً وخوذة من ذهب.

عند هبوط الليل، فرّ الجنديّ من خدمة أنطونيوس وانضمّ إلى أُكتافيوس.

وأثناء الليل وقع فرار آخر ذو شأن.

فحين ساد السكون واشتدّت الظلمة، علا فجأةً صوت شبيه بعزف مجموعة عظيمة من الآلات الموسيقيّة، تخالطها أصوات بشريّة مبهمة، وصراخ صاخب وضحكات كاهنات باخوس.

أثار هذا الضجيج في المدينة صخباً عظيماً حتّى أنّه بلغ معسكر قيصر.

Twitter: @ketab_n

لم يشكّ أحد بأنّ إله الإسكندريّة وإله أنطونيوس، أي باخوس، راح يهجر مريده الشهير.

والحال أنّ خيّالة أنطونيوس خانته ومشاته سُحقوا، وأنّه شهد ما تبقّى من أسطوله ينضمّ إلى أسطول قيصر، في اليوم التالي.

دخل عندئذ الإسكندريّة فاقدَ العقل هائجاً يائساً، وهو يصرخ أنّ كلِيوپَترا خانته وأنّ تلك التي كان يذود عنها أسلمته إلى أعدائه.

عندما علمت كلِيوپَترا بغضبة أنطونيوس، خشيت على نفسها، فلجأت إلى ضريحها وأغلقت سياجه الحديديّ وأرسلت من يقول لأنطونيوس إنّها انتحرت.

تظاهر أنطونيوس بعدم تصديق الخبر، إلّا أنّه لم يعد يخامره الشكّ بوقوع الفادحة: مكث بضع دقائق في حالة من الاستغراب تنمّ عن ذهول.

وسرعان ما استفاق من هذه الحالة وهو يحدّث نفسه:

- إذن! أيّ شيء تنتظر بعد، يا أنطونيوس، وقد سلبَتك الأقدار الشخص الوحيد الذي يشدّك إلى الحياة؟

هرع إلى غرفته، وفكّ وثاق درعه، فبرز صدره عارياً من فتحته، وصرخ:

- يا كلِيوپَترا، لا أشكو هجرك لي، فإنّني للاحقٌ بكِ، حيث كنتِ، بعد لحظات؛ إنّي أشكو من أنّي، وأنا القائد القدير، تركت امرأة تهزمني بشجاعتها ومروءتها!

بعد تلك الكلمات، نادى أنطونيوس عبداً كان قد لزمه بكلّ وفاء، عبداً لا يشكّ أبداً بتفانيه، اسمه إيرُس، وقال له وهو يكشف عن صدره:

- ما أكثرَ ما وعدتني، يا إيرُس، بأنّك، يوم آمرك بطعني، ستطعنني

Twitter: @ketab_n

دون أن تتردّد يدك أو تهتزّ. لقد حان ذلك اليوم، اِطعن.

نهض إيرُس وأخذ سيفاً ودنا من أنطونيوس؛ وفيما كان أنطونيوس يقدّم له صدره وهو مغمض العينين لئلّا يرى الموت يدنو منه، سمع تنهدّةً وصوت جسد يرتمي عند قدمَيه. إنّه إيرُس: بدل أن يمتثل لأمر سيّده ويرفع عليه يداً مدنّسة، طعن نفسه وراح يلفظ أنفاسه.

نظر أنطونيوس لحظة إلى الجثّة، ثمّ قال لها وعيناه مبتلّتان بالدموع:

– ما أكرمَك يا إيرُس، لقد علّمتني أن أفعل بنفسي ما لم تقوَ على فعله بي.

وفيما هو يتلفّظ بتلك الكلمات، غرز سيفه في صدره وانهار على سريره.

لم يكن الجرح مُميتاً. توقّف الدم عن السيلان، واسترجع أنطونيوس وعيه بعد أن فقده فترة. لاحظ أنّ الطعنة لم تكن كافية لتجنّبه الوقوع حيّاً في يد قيصر، فتوسّل إلى المحيطين بسريره أن يقضوا عليه. إلّا أنّ أصدقاءه، بدل أن يسدوا له الخدمة التي سألهم إيّاها، هربوا جميعهم مرتعبين، وتركوه وحده وهو في حالة أقوى من أن يموت وَهناً وأوهن من أن يقدر على الانتحار.

عندها، دخل أمين سرّ كلِيوپَترا واسمه دْيُميدُس.

أتى يبشّر أنطونيوس بأنّ كلِيوپَترا لم تمت، بل هي معتكفة في ضريحها. فابتهج أنطونيوس وهو يرى نفسه يموت بقرب من أحبّها حبّاً شديداً، فتوسّل إلى عبيده أن يحملوه إلى ضريحها. حملوه على أذرعتهم ونقلوه إلى باب الضريح.

لكنّ كلِيوپَترا، من شدّة ريبتها، لم تفتح لهم الباب، بل أطلّت عليهم من النافذة؛ وحين عرفت أنّه أنطونيوس ألقت لهم بسلاسل وحبال أوثقوا بها الجريح. ثمّ استعانت بشَرميُن وإيرَس، وهما المرأتان الوحيدتان

Twitter: @ketab_n

اللتان سمحت لهما بمرافقتها، فقدرنَ على رفع أنطونيوس ثمّ على إنزاله إلى الضريح.

بعض من حضر المشهد أخبرني أنّه لم يرَ مشهداً أكثر منه إثارة للشفقة: أنطونيوس يحتضر، مدمّى، تجاهد ثلاث نساء لحمله، وهو يستقوي على نفسه ليمدّ لكلِيوپَترا ذراعَيه منادياً إيّاها باسمها بأسى شديد، وكلِيوپَترا بذراعَيها المتشنّجتَين ووجهها المغشّى بالدموع، تحاول أن تفتدي كلّ أخطائها، بل كلّ جرائمها، بما تقوم به في تلك اللحظة من عمل تقوى.

لمّا أُنزل أنطونيوس إلى الضريح، بفضل ما بذلته النسوة الثلاث من جهد جبّار، مدّدته كلِيوپَترا على سرير ومزّقت أوشحتها منتحبةً، وراحت تضرب صدرها وتجرّح جسدها وتمسح الدم الذي يدنّس وجه أنطونيوس، وهي تدعوه بسيّدها وزوجها ورئيسها الأعلى؛ حتّى أنّ أنطونيوس أعلن، عند رؤيته دلائل حبّها تلك، أنّه يموت مليئاً بالعزاء.

شأن جميع الجرحى، كان أنطونيوس يحسّ بعطش لهّاب. فأحضروا له كأساً من النبيذ كرعه جرعةً واحدة. استعاد بذلك الشراب بعض قواه، فاستنفدها في تعزية كلِيوپَترا.

قامت تعزيته على حضّها على اتّخاذ كلّ التدابير الضروريّة للنجاة، بقدر ما يقتضيه الحفاظ على كرامتها. إضافة إلى ذلك، أوصاها، إن هي اضطُرّت لوضع ثقتها بأحد أصدقاء قيصر، أن تثق أوّلاً بپروكليوس. ثمّ توسّل إليها ألّا تتفجّع عليه، نظراً لأنّ حياته حفلت بالعظمة والمجد وأنّ الموت الذي اختاره يتوّج حياته بما يليق بها.

ثمّ أضاف:

- أيّها الرّومان، أموت بمجدِ من انتصر دائماً على من حاربها من الشعوب الغريبة، ومن لم ينهزم إلّا على يد الرومان.

Twitter: @ketab_n

نبس بهذه الكلمة الأخيرة، ولفظ آخر رمقه.

مات وهو في سنّ قيصر: في الثالثة والخمسين من عمره حسب بعضهم، وفي السادسة والخمسين حسب آخرين.

وكان قيصر قد أُعلم إن لم يكن بموت أنطونيوس فبكونه مصاباً بجروح؛ فالسيف الذي طعن به نفسه سقط على الأرض، فالتقطه أحد حرّاسه، دِركتُس، لمعرفته كم ثمين النبأ الذي سيحمل بُشراه إلى أُكتاڤيوس، وهو ينقل له ما عاينه لتوّه.

فأوفد قيصر پروكليوس إلى أنطونيوس، إلّا أنّ أنطونيوس كان قد نُقل إلى ضريح كلِيوپَترا، فلحق به رسول قيصر. كانت أوامر قيصر لپروكليوس أن يبذل قصارى جهده ليقبض على كلِيوپَترا حيّةً. فقد كان يعتمد على كنوزها ليدفع أجور جيشه، ويعتمد على شخصها ليزيّن به موكب ظفره. غير أنّ كلِيوپَترا لم تشأ أبداً أن تسلّم پروكليوس نفسها، بالرغم من ثقة أنطونيوس به. بعد مقابلة طويلة على باب الضريح بين پروكليوس من جهة وكلِيوپَترا من جهة أخرى، طالبت كلِيوپَترا خلالها بأن يُعطى أبناؤها عرش مصر، فيما راح پروكليوس يدعوها، دون أن يلتزم بشيء، إلى الثقة بوعد قيصر، عاد پروكليوس إلى من أوفده.

خلال تلك المقابلة، استطاع پروكليوس أن يتفحّص الضريح ليرى سبل النفوذ إليه.

قدّم لقيصر تقريراً عمّا عاينه واقترح عليه مشروعاً نال موافقة قيصر.

بناء على ذلك، أوفد گلّوس بدوره إلى ملكة مصر.

وگلّوس هذا شاعر وجنديّ مولود في بلاد الغال، وهو صديقي وصديق ڤِرجيليوس، وهو الذي أهدى ڤِرجيليوس **قصيدته الرعويّة** العاشرة. وألّف أربعة كتبِ مَراثٍ. عيّنه أُكتاڤيوس بعد ذلك حاكماً على

Twitter: @ketab_n

مصر، ولكنّه اتُّهم بالإسراف في ممارسة حكمه، وحكم عليه الإمبراطور بالنفي، فقتل نفسه احتجاجاً على تلك التهمة التي اعتبرها باطلة.

لم تُفتح لـگلّوس أبواب الضريح، مثلما لم تُفتَح من قبلُ لپروكليوس. سوى أنّ پروكليوس، أثناء مفاوضاته عند الباب، نصب سُلّماً أسنده إلى النافذة التي بقيت مفتوحة، وقفز منها إلى داخل الضريح.

وهي النافذة ذاتها التي دخل منها أنطونيوس.

سمعت إيراس الضجّة التي أحدثها ارتطام پروكليوس بالأرض، فصرخت:

- ما أشقاكِ يا كلِيوپَترا، ها قد قبضوا عليك حيّةً.

التفتت كلِيوپَترا عند سماعها الصراخ، ورأت پروكليوس على بعد خطوات منها، فاستلّت من صدرها خنجراً وحاولت أن تطعن به نفسها؛ إلّا أنّ پروكليوس هرع إليها وأمسك بيدها، قائلاً:

- بالحقيقة، يا كلِيوپَترا، أنك تؤذين نفسك وتظلمين قيصر أيضاً.

- كيف أظلم قيصر؟ ردّت كلِيوپَترا وهو تحاول أن تنتزع ذراعها من اليد التي انقبضت عليها. أجاب پروكليوس:

- بحرمانه من مناسبة ملائمة للتعبير عن ألمه البالغ.

فيما هو يتفوّه بهذه الكلمات، انتزع الخنجر من يدها وهزّ ثوبها ليتحقّق أنّها لا تخفي بين طيّاتها حُقّاً من السمّ.

أخبر گلّوس قيصر بما حدث، فأوفد إليها أحد مُعتَقيه، إپَفرُديتِس، وأمره بألّا يدعها تختفي عن نظره لحظة واحدة، وأن يسهر على ألّا تقوم بأية محاولة للانتحار، وأن يقنعها بأنّ كلّ رغباتها ستُلبّى. لا بل إنّ مُعتَق قيصر تلقّى أمراً بأن يسبق رغباتها. كان أُكتافيوس في تلك الأثناء يدخل الإسكندريّة.

Twitter: @ketab_n

لشدّ ما دُهش المصريّون حين رأوا أنّه لا يدخل دخلة منتصر حانق، بل دخول صديق يعود إلى مدينته بعد غياب قصير.

كان يتقدّم ماشياً ممسكاً بيد الفيلسوف الإسكندري آريوس.

ونُصبت له محكمة.

قال من على المنبر بوجه ضحوك وصوت هادئ ورنّان بما فيه الكفاية حتّى يسمعه الجميع:

- إني أغفر لأهل الإسكندرية كلّ ما اقترفوه من أخطاء: أوّلاً من أجل الإسكندر، مؤسّس مدينتهم؛ ثانياً بسبب عظمة مدينتهم وجمالها؛ وثالثاً لأنّ الفيلسوف آريوس التمس لها الغفران.

كنّا نعلم أنّ حقد قيصر على أنطونيوس لن يدوم إلى ما بعد موته، فطالب عدّة نقباء، ومنهم من كان في جيش أُكتافيوس، أن يستردّوا الجثمان ليوفّروا له مدفناً لائقاً. فأجابهم قيصر بأنّ من حقّ كلِيوپَترا أن تتصرّف بجثمان أنطونيوس، مراعاةً لوصيّته الأخيرة، وأنّه لا يريد أن يحرمها من ذلك.

وأعلم كلِيوپَترا، من جهة أخرى، بأنّه يأذن لها بأن تأخذ من قصرها ما يلزمها لدفن أنطونيوس.

كلّ ما تحمّلته كلِيوپَترا من آلام معنوية، وكلّ اللطمات التي جرّحت بها صدرها ووجهها، وكلّ الأتعاب، وكلّ الأرق والدموع المسكوبة، ذلك كلّه سبّب لها حمّى عنيفة استنفدت ما تبقّى من قواها. فوجدت وسيلة للموت قد تكون أقلّ وطأة من السمّ أو من لسعة الأفعى: أن تنقطع عن الطعام لتموت جوعاً. استشارت طبيبها أُلمپوس. فأشار عليها أُلمپوس، الذي روى ما جرى في نصّ قرأتُه باليونانيّة، ببعض الأمور تخفّف ما أمكن من وطأة موتها. كانت عازمة أن تنهي حياتها بهذا الأسلوب، حين

Twitter: @ketab_n

هدّدها قيصر بعد اطّلاعه على مشروعها بقتل أولادها إن هي بادرت إلى الانتحار؛ أمّا إذا رضيت أن تبقى على قيد الحياة، فإنّه يتعهّد لها بأن يقبل إليها بنفسه ليفاوضها على الشروط الكفيلة بأن تؤمّن لها ما تبغيه من سلطان وحريّة.

إنّ رسالة قيصر هذه، بما فيها من وعد ووعيد، حملت كلِيوپَترا على الاستمرار في الحياة. فأبلغت قيصر أنّها ستقابله في الغد.

لعلّها كانت تسعى أن تُجرّب عليه غواية حزنها الرائع وتدلّ عليه بيأسها.

ولم يكن قيصر ممّن يقعون ضحيّة غواية امرأة، وهو الذي لم يكن يغوي النساء إلّا للاطّلاع على أسرار أزواجهنّ.

لذا انتظرت قدوم قيصر وهي متمدّدة على سرير استراحة، لابسةً رداءً بسيطاً. ما إن اجتاز عتبة الغرفة، حتّى قفزت من سريرها وارتمت على قدميه، مُشعّثة الشعر واهنة الصوت مُحمرّة العينين من الأرق والبكاء، مُثلّمة الصدر من الضربات التي سدّدتها لنفسها.

اعترف أُكتاڤيوس لِمسينَس أنّه أمام هذا المشهد، أو بالأحرى بالرغم من هذا المشهد، اقتضاه الأمر جهداً عظيماً ليبقى في موقع المنتصر ولا يصبح من المهزومين.

كان أُكتاڤيوس سيّد العالم، ولكنّه كان أكثر من ذلك: سيّدَ نفسه.

بكلّ برود، دعا كلِيوپَترا إلى النهوض.

وانقضى اللقاء في نقاش الأمور السياسيّة.

أثناء النقاش، جدّ أمرٌ يرسم على أفضل نحوٍ ملامحَ هذه المرأة، لا أستطيع مقاومة رغبتي في نقله.

ما إن انتهت كلِيوپَترا من تسليم أُكتاڤيوس جرداً عن ثرواتها كلّها،

Twitter: @ketab_n

حتّى أخذ عليها خازُنها سلوقيوس، رغبةً منه بالتودّد إلى أُكتاڤيوس، بأنّها تخفي قسماً من ثرواتها.

ما إن سمعت كلِيوپَترا مأخذه عليها، أو بالأحرى فضحه لها، حتّى قفزت من سريرها حانقةً وأمسكت بشعر سلوقيوس بإحدى يديها، ولطمته بقبضة يدها الأخرى على وجهه بضع لطمات.

لم يستطع أُكتاڤيوس أن يكتم ضحكه أمام ذلك الغضب وذلك لشدّة شبهه بالغضب الذي يصفه ڤرجيليوس مُنفجراً من صدور نحلاته، فأفلتت الخازن البائس ورجعت صوب قيصر وهي تلوي بيديها، وتصرخ:

- إضافة إلى ذلك، عليك يا قيصر أن تعترف، وها أنا قد فقدت كلّ شيء، مدني وقصوري، ولم يبقَ لي ملجأ أنزوي فيه إلّا هذا الضريح، أنّه أمر مرعب، أجل! إنّه لأمر مرعب أن يعتبر خدمي بالذات، فيما أنت قادم إليّ وأنا في هذا الضريح، أنّ خسائري ليست بكافية، وأن يُجرّموني بأنّني استبقيت بعض المجوهرات النسائية على أمل أن أهديها إلى أُكتاڤيا شقيقتك، وإلى ليڤيا زوجتك، عسى تدفعك شفقتُهما بي إلى أن تتصرّف تجاهي بما يليق من الرحمة.

فأجاب أُكتاڤيوس:

- إذن، قولي إنّك ترضين بالاستمرار في الحياة، لا غير، فتجري الأمور وفق رغباتك.

أجابته كلِيوپَترا بصوت لا أعذب ولا أشدّ إغراءً بهاتين الكلمتين لا غير:

- نعم، أرضى.

عندئذ استأذنها أُكتاڤيوس بالخروج.

Twitter: @ketab_n

لعلّ كلِيوپَترا كانت صادقة حين وعدت أُكتافيوس بالاستمرار في الحياة. غير أنّ شاباً رومانيّاً وسيماً غنيّاً وشريفاً اسمه دُلابِلّا كان من حاشية أُكتافيوس.

لم يكن لدُلابِلّا قلبُ سياسيٍّ، بل قلبٌ مليء بالتراحم والحبّ بعينيها الباكيتين ووجهها المجرّح وبدون أيّ ملاذ سوى ضريحها، أثارت كلِيوپَترا شفقته.

كان يعلم بحقيقة ما يكنّه لها أُكتافيوس، فأبلغها سرّاً بألّا تثق بأيّ وعد من الوعود التي قطعها الظافر لها، وبأنّ قيصر سيغادر الإسكندريّة بعد ثلاثة أيّام، متجّهاً صوب سوريا، وسيأخذها معه هي وأولادها لتكون في موكب ظفره.

كانت كلِيوپَترا تعتبر ذلك ذروة العار.

تظاهرت كلِيوپَترا، بالرغم من هول ذلك النبأ، بعدم الاكتراث، واستأذنت قيصر بالذهاب لإراقة الأضحيات الجنائرية في ضريح أنطونيوس.

أذِن لها قيصر.

طلبت بأن تُحمل إلى مدفن أنطونيوس، وهناك ارتمت على الضريح على مرأى من جميع نسائها، وهي تقول:

- أيّها العزيز أنطونيوس، عندما أضجعتُك في هذا الضريح، كنت لا أزال حرّة؛ أمّا الآن فأسكب هذه التقادم على رفاتك الحزين وأنا قيد الأسر والمراقبة، لخشيتهم أن أشوّه باللطمات وبالدموع هذا الجسد الكئيب الذي يُعدّونه لبهرجة موكب ذلك الذي ظفر به. ها أنت ترى، أيّها العزيز أنطونيوس، مبلغ بؤسي: فلا تترقّب من الآن فصاعداً من كلِيوپَترا أن تريق الأضحيات عنك من بَعد.

Twitter: @ketab_n

طالما حالفنا الظفر، لم يقوَ البشر ولا الآلهة، ولا الطالع الحسن أو السيّئ على أن يفرّقوا ما بيننا؛ وأمّا الآن، فالموت سيقصي كلاًّ منّا عن مسقط رأسه. رومانيّاً تبقى وأنت على أرض مصر هذه، أمّا أنا المولودة في الإسكندريّة، فمن المحتمل أنّ روما ستكون مدفني؛ ولن أشكو من ذلك بما أنّي سأرقد في تربة مسقط رأسك. فإن يكن لآلهة بلدك بعض القوّة وبعض السلطان - لن أتحدّث عن آلهتنا التي خانتنا- فلتمنحكَ، أنت الجالس الآن إلى مأدبتها، ألّا تتخلّى عن كلِيوپَترا وهي حيّة، وألّا ترضى بأن يظفروا بك بتسييرها في موكب النصر. خبّئني هنا معك، دعني أشاطرك قبرك: قسماً، أيّها العزيز أنطونيوس، أنّ أتعس أيّام حياتي، وأنا أترنّح تحت وطأة آلامي، هي التي قضيتها مؤخّراً بعيدة عنك!

فاحت شكواها ذلك الفوح، ثمّ غمرت الضريح بالأزهار، وقبّلته بحنانٍ مرّات متتالية. دخلت، بعد ذلك، ضريحها الخاصّ، وأمرت بإعداد الحمّام لها وبغداء رائع.

في منتصف الغداء، حضر إلى الضريح رجل من ساكني ضفاف النيل، فلّاحٌ، واستأذن بالدخول. فسأله الحرس عن مبتغاه.

أراهم سلّة كان يحملها على ذراعه؛ فسألوه:

- وماذا في هذه السلّة؟ أجاب:

- إنّها، كما ترون، ثمار أتيت أقدّمها للمكلة؛ هل تبغون بعضاً منها؟

لم يأنس الجند من أنفسهم الحقّ في أن يأكلوا من ثمار مُقدّمة إلى كلِيوپَترا، فأفسحوا الطريق للفلّاح.

أمرت كلِيوپَترا بإدخاله وأشارت له أن ينزوي في ركن من الغرفة، فلا شكّ أنّها كانت عارفة بما يحمله لها.

Twitter: @ketab_n

حين فرغت من الأكل، أمرت باللوائح التي سبق أن خطّت عليها رسالتها. فمهرتها وأرسلتها إلى قيصر.

ثمّ أمرت بإخراج الحاضرين كلّهم بما فيهم الفلاح، بعد أن دفعت له ثمن سلّته؛ ولم تحتفظ إلّا بإيراس وشرميون.

عندئذ قالت لشرميون، بعد أن ذهبت وأغلقت الباب وراء الخارجين، أن تجلب لها السلّة.

وضعت شرميون السلّة على الطاولة. أزاحت كلِيوپَترا الورقات التي تغطّي التين، وحين لمحت رأس الصلّ الأسود الكالح يبرز فجأةً من بين الثمار، قالت:

- ها هو إذن!

وعلى الفور عرضت ذراعها العاري للسعة الزاحف.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع (تابع)

مختلف الروايات حول موت كلِيوپَترا. مآل أبناء كلِيوپَترا وأبناء أنطونيوس.

هذه هي الصيغة المعتمدة غالباً في روما حول موت كلِيوپَترا. وهي ذاتها التي سمتعها من فم الإمبراطور.

غير أنّ بعضهم يقول إنّ كلِيوپَترا، في تلك اللحظة الحاسمة، كانت تحتفظ بصلّ أسود مخبّأً في وعاء، وإنّها بعد العشاء أثارت الحيوان بوشيعة من ذهب حتّى استشاط الحيوان غضباً، فقدّمت له عندئذ ذراعها ليلسعها.

سرت شائعة أخرى تقول إنّها خبّأت السمّ في إبرة ذهبيّة مجوّفة كانت تعقص بها شعرها. أمّا الذين شاهدوا كلِيوپَترا بعد موتها، فقد أكّدوا أنّ جسمها لم يظهر عليه أيّ أثر كالح يشير إلى وجود السمّ.

إنّ الصيغة التي شاعت من جرّاء أخذ أُكتاڤيوس بها، هي أنّ كلِيوپَترا ماتت بلسعة صلّ أسود. وقد أكّد أُكتاڤيوس تلك الإشاعة عندما أمر بأن يُحمل في موكب ظفره تمثال لكلِيوپَترا برز فيه صلّ أسود يلسعها في ذراعها.

مهما يكن من أمر، فإنّ أُكتاڤيوس ما إن قرأ اللوحات المرسلة من كلِيوپَترا، التي لم تتضمّن سوى توسّل أخير بأن تُدفن قرب أنطونيوس،

Twitter: @ketab_n

أدرك أنّ أسيرته مائتة حتماً، فهبّ واقفاً ليهرع لنجدتها.

لكنّه بعد أن فكّر لحظةً اكتفى بإرسال بعض حاشيته على وجه السرعة ليتقصّوا حقيقة ما جرى.

وجدوا كلّ شيء في الخارج على سكونه: فقد تمّ موت كلِيوپَترا على نحو كلّيّ السرعة والهدوء بحيث أنّ الحرس لم يخامرهم أيّ شكّ بما يجري. تلقّوا الأمر بفتح الباب، فترتّب عليهم أن يكسروه لأنّه كان مغلقاً عليه بالمزاليج.

أوّل ما وقع عليه نظر الحرّاس لدى دخولهم هو الملكة ميتةً، مضطعجةَ على سرير من ذهب، وقد ارتدت ألبستها الملكيّة. كانت إيراس، إحدى وصيفتيها، متمدّدةً ميتة إلى جانبها؛ أمّا شِرميون فعثروا عليه وهي لا تزال على قيد الحياة، ولكنّها متباطئة الحركةَ من تنامي الموت فيها، وهي تعيد التاج إلى وضعه على رأس سيّدتها.

– آه، ما أجمل هذا المشهد، يا شِرميون؛ صاح بها أحد رسُل أُكتاڤيوس.

فأجابت:

– نعم جميل جدّاً، ويليق بامرأة متحدّرة من سلسلة من الملوك.

كانت تلك آخر كلمات الخادمة الوفيّة؛ فما إن تلفّظت بها حتّى وقعت ميتة أسفل السرير.

ما تركه الموت من أثر عنيف على جثمان كلِيوپَترا شيء واحد لا غير: لسعتان على ساعدها لا تكاد تتبيّنهما، في منطقة العرْق الذي يفصده الأطبّاء عادةً.

ولنُشر فوراً إلى ما جرى لأولاد كلِيوپَترا وأولاد أنطونيوس.

قيل إنّ قيصرون، الابن البكر، والذي أشيع أنّه في الحقيقة ابن قيصر، أرسلته أمّه مع ثروات عظيمة إلى إثيوبيا، ومنها إلى الهند. غير أنّ مربّيه

Twitter: @ketab_n

رودون طلب من الشابّ بإصرار أن يعود إلى الإسكندريّة -وهو ما قام به الشابّ على مضض- نظراً لأنّ أُكتافيوس يستدعيه إليها، كما قال ذلك الخائن، ليسلّمه مملكة مصر.

أسِف أُكتافيوس لمرآه: لم يكن يبغي مقتل هذا الشابّ بل أن يُـترك يحيا مغموراً في مكان ناءٍ. فيما كان يجري المشاورات ليقرّر مصيره، أورد له آريُوس بيت هوميروس هذا: « ليس من الحسَن أن يكثر الزعماء: يلزم زعيم واحد، ملك واحد ».

غير أنّه أورده في هذه الصيغة: « ليس من الحسن أن يكثر القياصرة ».

أدرك أُكتافيوس مغزى النصيحة وأمر بقتل قيصرون.

أمّا أَنتِلّوس، بكر أنطونيوس وفُلڤيا، فقد سلّمه مربّيه تيودورُس إلى أُكتافيوس، فقُتل مثل قيصرون.

أمّا أولاد أنطونيوس الآخرون، ومنهم أولاده من نسائه الثلاث (وكانوا سبعة بما فيهم أَنتِلّوس)، فقد أخذتهم أُكتاڤيا تحت رعايتها ولم تسمح بأن يلحق بهم أيّ أذى، بل تكفّلت بتأمين مستقبلهم. فزوّجت كلِيوپَترا الشابّة لابن جوبا الذي قُتل في معركة تَپسُس. تربّى هذا الابن برعاية أُكتافيوس، ولقي عنده حظوة. حمل لقب جوبا الثاني، مع أنّه كتب أكثر ممّا حكم. أمّا أنطونيوس، ابن فلڤيا الثاني، فقد رفعته أُكتاڤيا إلى مقام رفيع لم يفقْه رفعةً إلّا أَگرِپّا وأبناء ليڤيا. لكنّه قُتل بعد ذلك بسبب زناه مع جوليا. كان عليه، وهو يعايش عائلة الإمبراطور عن كثب، أن يتنبّه إلى خطر مشاطرة ابنته العشق.

بقيت ابنتان أُخريان لأنطونيوس وأُكتاڤيا: تزوّجت إحداهما دومِسيوس إينوبَربُس والأخرى دْروسُس، ابن ليڤيا وربيب قيصر.

وكان لأُكتاڤيا من زوجها الأوّل مَرسِلُّس، ابنتان وصبيّ، هو مَرسِلُّس

Twitter: @ketab_n

المذكور في كتاب **الإنياذة** الذي تبنّاه أُكتافيوس ثمّ اختاره صهراً له. غير أنّ هذا الشابّ مَرسِلُّس ما لبث أن تُوفّي إثر زواجه، فراح أُكتاڤيوس يبحث عبثاً عن زوج لابنته جوليا. اقترحت عليه أخته أُكتاڤيا حينئذ أن يزوّج ابنته لأَگرِپّا، على أن يطلّق أَگرِپّا زوجته ليتزوّج أرملة مَرسِلُّس.

عندئذ استرجعت أُكتاڤيا ابنتها وزوّجتها لأنطونيوس، وتزوّج أَگرِپّا جوليا.

دُبّرت الأمور على هذا النحو، وقد أثبتت النتائج سوء هذا التدبير.

تماديت بعض الشيء في عرض مأساة أنطونيوس وكلِيوپَترا الرهيبة هذه، أوّلاً لاني اطّلعت على كلّ تفاصيلها اطّلاعاً جيّداً، وثانياً لاعتقادي بأنّه ما من كارثة بلغت في الماضي، وما من كارثة ستبلغ في المستقبل مبلغ الأحداث التي أتيت على ذكرها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

ما أثاره في روما نبأ موت أنطونيوس وكليوپترا - مِسينَس يأتي لزيارتي في تيبور - ابن الطالع السعيد - استضافة الشاعر - مزرعة أرتِكا - خمور إيطاليا وخمور اليونان - المفاجأة التي أعدّها لي مِسينَس - «تلك الأُمنية كانت من بين أمنياتي».

نظراً لأنّ روما لم تطّلع على أيّ من التفاصيل المؤلمة التي أوردتها هنا، فلم يبلغها إلّا نبأ موت أنطونيوس وكليوپترا، وأنّ موتهما وضع فجأةً حدّاً للاضطرابات الداخليّة الدائرة منذ أيّام گركوس[1]، فإنّ الشعور بالفرح وبعرفان الجميل تجاه الآلهة وتجاه أُكتاڤيوس، هو أوّل ما بدر عفويّاً لأهالي روما.

أعرف أنّي، في ما يخصّني، أحسست بحاجتي إلى الاحتفال بهذا الحدث العظيم وأنا رافعٌ كأسي، وأنّ القصيدة الغنائية التالية سقطت من ريشتي بدون أيّ تفكير تقريباً:

« والآن، علينا بالخمرة؛ الآن، علينا بخبط الأرض بقدم خفيفة؛ الآن، علينا بتزيين سرير الآلهة بأصناف الأطعمة الساليّة ... »

(1) هو سيپيون الأفريقي الذي هزم القرطاجيّين في الحرب البونية الثانية ثمّ قام بأوّل محاولة إصلاح في الإدارة الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وكان أن دعاني مِسينَس للعشاء عنده، بعد صدور هذه الغنائية بوقت قصير، وعند تناول التحلية أعلمني أنّه آتٍ في الغد للعشاء والنوم عندي في تيبور، ليُريني مزرعة اشتراها في سَبينا سمّاها أُرتِكا. فشكرت مِسينَس على الشرف الذي يولينيه، وسألته أن يحدّد لي أسماء من يودّ أن يلقاهم عندي من المدعوّين. غير أنّه أجاب بأنّ طلبه هو الاختلاء بي كليّاً، لأنّه تعِب من الضجيج ومن المجتمع والولائم.

ما إن طلع صباح الغد حتّى ذهبت لأعدّ البيت للاستقبال، ولأُحضر الأكاليل وأُخرج أفضل خموري.

أتاني في الساعة المتّفق عليها؛ وكان خادماي الشابّان في انتظاره على الباب، مرتديَين أجمل ثيابهما وموشّحين بالزهور. ما إن لمحاه حتّى نادياني، فقدمت لاستقباله على عتبة البيت.

وافاني مِسينَس في عربة ذات مقعدين، مع خادم واحد من خدمه، هو حوذيّ عربته، فأمرت بوضعها في فناء البيت بما أنّه لم يكن لديّ سقيفة ولا اصطبل. واعتذرت عن ذلك بقولي إنّي لا أملك عربة ولا أظنّني أبلغ يوماً ثروة كافية لامتلاك عربة، فلم أُعر مثل هذا الترف اهتمامي حين اشتريت تيبور. فقال:

- لحسن الحظّ أنّ الطقس جميل بما يكفي، فلا خشية من أن يلحق بعربتي ضرر وهي في العراء ليلاً؛ ستبقى إذن في فناء بيتك. وأمّا أنا فخُذ بي بسرعة إلى ظلّ صنوبرتك.

- تعالَ؛ أجبته.

- ألا تأمر أحد عبيدك بأن يوافينا بمقعدين؟

- كنت أعرف أن أوّل ما ستطلبه مني أن تذهب إلى المَطلّ لتستريح فيه، ولذلك فالمقاعد هناك بانتظارك منذ أكثر من ساعة. فقال

Twitter: @ketab_n

مِسينَس ضاحكاً وهو يشير برأسه إلى عبدَيّ:

- بالمناسبة، أيّاً من هذين الخبيثَين أوليت شرف إهدائه غنائيّتك: **أكرهُ، أيّها الغلام، الإثارة الفارسيّة؟** أجبت:

- أوليتُه عبداً ثالثاً انتزعه مني بِرّيوس: ولذا جلدته بتلك القساوة في هجائيّتي الأخيرة.

- يا لكَ من رجل لا يصطلح! أجابني مِسينَس.

- بل قل «رجل مُصطلح»؛ أجبت.

- أخبرني عن اصطلاحك ونحن نمشي، ودعني استند إلى ذراعك.

- لم أقل إنّي تحسّنت، قلت إنّي أُصلحت، أيّها العزيز مِسينَس. فالإصلاح ليس دائماً تحسّناً. الواقع أنّي اصطلحت من كلّ الفضائل الخطيرة: كنت صديقاً لبروتُس وكسّيوس، وها أنا الآن موالٍ لأُكتاڤيوس وصديق لك ولأَكرِبّا. والحصيلة أنّ الناس لم يعودوا ينادونني بابنِ مُعتَق، بل يسمّونني ابن الطالع السعيد. والحقّ أنّهم على خطأ؛ لست ابناً له بل عبداً وضحيّة من ضحاياه. لقد عيّنتُ كلّ العواطف التي قد تتهدّدني بحياة مضطربة فأصبحت، كما ذكرت شخصيّاً في رسالتي الرابعة من الكتاب الأوّل، إبقورياً حقيقيّاً. إنّ الحماس للفضيلة واستنكار الرذيلة، أيّها العزيز مِسينَس، يعكّران صفاء النفس. **لا تعجبنَ لأمرٍ**، ذلك هو شعاري؛ وكما كتبت في رسالتي السادسة إلى نُميسيوس: ألّا تعجب لأمرٍ هو الوسيلة الوحيدة التي تمنح السعادة وتضمنها؛ لذلك لم يعد لي عدوّ، بل أصبحت صديق الجميع، صديق سِكستُس، مدير الشؤون المالية سابقاً، وصديق بروتُس الذي لا أترك فرصة تسنح إلّا وأثني عليه، وصديق پُلَنكُس الذي تملّق على التوالي قيصر وشيشرون

Twitter: @ketab_n

وأنطونيوس وأُكتافيوس، نعم پلنكُس الذي فرغت من إهدائه قصيدة. فقاطعني مِسينَس:

– ولماذا أهديته قصيدة؟ تعرف تمام المعرفة أنّه فقد ثقة الجميع.

– صحيح، ولكنّه جار بيتي الريفيّ. هاك، تلك دارته أسفلَ دارتي. إنّه مُلكه ذلك الصعيد المفتوح الذي يُتيح لِمسينَس أن يتتبّع مجرى نهر أَنيو. وعليه، ففرضاً أنّه حلا له ذات صباح أن يغرس هذا الصعيد شجراً، فإنّه سيفسد عليّ هذا المنظر. لكنّه لن يفعل، نظراً لأنّي لا أحتقره كما يحتقره الجميع. وافترِض أنّه فعل، فإنّي أحمل قصيدتي بيدي وإذهب إليه راجياً منه قطع شجره، ولن يكون بوسعه إلّا الاستجابة لرجائي. إنّي مثل شيشرون: في البداية، اتّسع قلبي أيّما اتّساع، ولكنّه في نهاية الأمر ضمُر. فقال مِسينَس:

– دعْكَ، دعْكَ من هذا، تتظاهر بأنّك أسوأ ممّا أنت فعلاً؛ وتلك حيلة من حيل هجائيّاتك. في مطلعها، تبادر دائماً أو تكاد إلى التهجّم على ذاتك ليتسنّى لك حقّ التهجّم على الآخرين؛ هيّا، فلنتحدّث في غير أمر. ماذا تقدّم لي في العشاء؟

– آه! يا عزيزي مِسينَس، مسكين أنا، إن قدّمت لك عشاء شبيهاً بما يقدّمه، على سبيل المثال، پُلّيون، ترتّب عليّ صوم ثمانية أيّام للتعويض عن مصاريفي. تعلم أنّي لست ممّن يقرأون أعمالهم على الجمهور ثمّ يمدّون أيديهم سائلين. تعلم أنّ الشعر الذي أتعاطاه لا سوق له، وأنّه إن قُدّر لي أن أكسب من بائعي كتبي خمسة آلاف سِستِرس سنويّاً، أو ستّة آلاف، فذلك قُصارى ما يمكن. أمّا وظيفة كاتب في الخزينة التي أشغلها، فإنّنا، والحمد لله!، نعيش في زمن هو من النزاهة بمكان، ومندوبوكم يمارسون علينا درجة من الرقابة

Twitter: @ketab_n

بحيث أنّنا لا نحصل على أكثر من ماء للشرب. فليس لك إلّا أن تؤاخذ نفسك على معاملة السوء التي تلقاها. لقد قبلتَ الدعوة إلى بيت صعلوك مسكين، فستأكل أكل المساكين. ستتناول في بداية الوجبة خُضَراً مسلوقة في مرق مع فطائر مطبوخة في مرق مُفلفل وبعض سمك السلمون المُرقّط المصاد من نهر أنيو؛ وستتناول بعد ذلك قطعة من لحم العجل المشويّ. وألفت انتباهك إلى أنّ هذا جلّ عشائك. ولذلك يا عزيزي مِسينَس، اهجم على لحمة العجل. وأمّا في نهاية الوجبة فسيُقدّم لك بذر الخشخاش الأبيض مشويّاً ومُتبّلاً بالعسل، مع بعض الفواكه المقطوفة من بستاني وأطاييب ممّا أرسله لي ڤرجيليوس. فاحكم إن كان ذلك يناسبك.

- ولكن، يا شاعري العزيز، إنّه لعشاء باذخ مقارنةً بعشاء أُكتاڤيوس! هل سيتسنّى لي أن أتحمّم؟

- سيتوفّر لك حمّام مع سترة بيضاء بدون زنّار.

- إذن، لأنت، يا صديقي هُراسيوس، مضيف مسرفٌ في السخاء. إنّي أُدرك جيّداً أنّي إن امتنعتُ عن إضافة شيء ما إلى ناتج مبيعات كتبك، وإلى راتب وظيفتك ككاتبِ ديوان، فإنّ وضعك الماليّ إلى انهيار.

تفوّه مِسينَس بهذه الكلمات وجلس، ثمّ لاحظت بعد لحظة أنّه لا يزال منهمكاً في تأمّل المنظر الطبيعيّ، فقفلت عائداً إلى البيت لأتأكّد من أنّ العشاء الذي عرضتُ على مِسينَس لائحة أطباقه لن ينقصه شيء، وهو عشاء طفيف جداً بالنسبة إلى إبقوريّ مثله.

حين حان وقت الاستحمام، أرسلت له أحد عبيدي مع مزمار، وما كان لي أن أقدّم حتّى لعروس أفضل ممّا قدّمت لِمسينَس.

Twitter: @ketab_n

ومن كرم أخلاقه، استطاب مِسينَس كلّ ما قُدّم له: الحمّام والعشاء والموسيقى؛ وأشاد حتّى بالسرير المتّسع لفرد واحد؛ بل إنّه زعم في صباح اليوم التالي أنّه لم ينم مثل هذه النومة منذ زمن طويل.

بعد الغداء أتى من يخبره بأنّ عربته جاهزة، فركبناها وغُرنا في جبال سَبينا. تركنا إلى يسارنا جبل لُكريتِلِس بقممه المهيبة، وانحدرنا في وادٍ عميق يرويه نهر دِجَنسيا، فانتهينا إلى ما يشبه مزرعة اسمها أُترِكا. تستمدّ هذه المزرعة اسمها من اسم قرية صغيرة مبنيّة على منحدر جبل صخريّ، هي جزء منها. تُشرق الشمس فتُنير الجبل الواقع إلى اليمين. والهواء، تحسّ وأنت تتنشّقه كم هو صحيّ منعش. المرتفعات مغطّاة بغابات من الشجر الظليل المنعش. وعُلّيقات من شجيرات متشابكة دائمة الخضرة يتعلّق عليها الماعز عاشق شجيرات الأبنوس المُرّ، حسب تعبير صديقي فرجيليوس، فيضفي على المنظر مظهراً طريفاً يحلو للرسّام دون أن يصدّ الشاعر. ومقابل بوّابة المزرعة يقوم معبد فَكونا.

كان يعمل على استثمار هذه الملكيّة الصغيرة ثمانية عبيد.

دخلنا فناء الدار، فوجدنا هذه المرّة سقيفة تحتمي عربتنا تحتها واصطبلاً يأوي حصان مِسينَس. ولجنا الدار.

لا بدّ أنّهم كانوا متأهّبين لقدومنا، لأنّنا لقينا عند وصولنا وجبة خفيفة من الكستناء والعسل واللبن مع قطع حلوى وإلى جانبها حزازات خبز.

ولكي نرتوي أثناء هذا الغداء، أعدّوا لنا قنّينة من خمر ألبا.

طالما تحدّثت شعراً عن الخمور كنت أحتسيها وأُحسيها أصدقائي، فائذَنوا لي إذن أن أقول فيها بعض الكلمات نثراً.

أبدأ بخمور إيطاليا، أوّلاً لأنّي أدين لها بشرف كوني مواطناً لها، وثانياً لأني لا أكاد أتغنّى بغيرها بما أنّي في كلّ الأحوال أؤثرها على غيرها، حتّى

Twitter: @ketab_n

على الخمور اليونانيّة.

لدينا، في الأقاليم الأحد عشر التي منها تتكوّن إيطاليا أكثر من ثلاثين كرْماً من فصائل مختلفة. يقع أفضلها ما بين اللاسيوم وكَمپانيا، على المنحدرات الممتدّة من مستنقعات پُنتينُس إلى سُرّانتُم.

بدايةً، تجد ما بين تِرّاسينا وگَيتا نبيذ سِتِنُم ونبيذ سيكُبُم. تحدّثت عن الأوّل في معرض رحلتي إلى بْرُنديزيوم، وهو المفضّل لدى أُكتاڤيوس، وكلّما أوغلت في كَمپانيا، وجدت أصنافاً كثيرة من فصيلة فَلِرنُم. تصعد نحو المشرق فتجد نبيذ كالِس ثمّ نبيذ مَسِكُم الذي يُجنى عنبه ما فوق پِتِيولي على جبل گورُس، وأخيراً نبيذ سُرّانتُم الأثير لدى المُسنّين من الرّومان.

سنعود لاحقاً إلى خمور ألبا وفَلِرنُم. إنّ جودة نبيذ فَلِرنُم تبلغ ذروتها بعد تعتيقه مدّة تتراوح من عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة في جرار من الفخّار؛ في هذه السنّ، يكون شديد الفائدة للصحّة، أمّا إذا تجاوز العشرين سنة فإنّه يصدع الرأس ويُرهق الأعصاب. نبيذ فَلِرنُم صنفان: أسود وقِشّي اللون. الأوّل لطيف المذاق، بينما الثاني قاسي الطعم يلتهب عندما يسخُن أو يُقرّب بُخاره من عود كبريت أو من شمعة. ولا يتميّز غيره بهذه الصفة الغريبة.

أمّا خمور ألبا فهي على العكس مُهدّئة: تفيد الأعصاب السريعة الاستثارة.

خمور سُرّانتُم خفيفة، توصَف لمن يكون في فترة نقاهة لأنّها لا تثب إلى الرأس. إنّها، من هذا المنظور، تشبه خمور كالِس، بل تفضُلها بما لها من فضائل تُسهّل الهضم.

نبيذ سيكُبُم قاسٍ ولكنّه سخيّ. عليك أن تتركه يتعتّق، شأنه شأن خمر

Twitter: @ketab_n

فَلِرنا، مدّة عشر سنين أو خمس عشرة سنة، وربّما أكثر بكثير.

إنّ طرائق صنع هذه الخمور تكاد تتشابه. تُعصر ثمّ تجمع في براميل كبيرة يسمّونها دوليا، وتُخبط مرّتين يوميّاً بقضبان من شجر الدردار.

تُخبط الخمر بهذه الطريقة مدّة ثلاثين يوماً متتالية، فتترسّب الحُثالة تلقائيّاً، فتُسحب الخمرة رائقةً.

ومن أراد إعفاء نفسه من هذا العمل الطويل، يعمد إلى خبط بيض الحمام أو الدجاج -والأفضل بيض الحمام- في كأس من الخمر المُستلّة من البرميل الخشبيّ الذي يبغي معالجته. ينتج عن هذا الخليط صنف من الشراب يتساقط إلى أسفل البرميل ساحباً الحثالة معه.

إنّ الخمر المعدّة بهذه الطريقة قابلة للحفظ فترة تختلف مدّتها وفقاً لفصيلة عنبها. ثمّ تسكب في جرار من فخّار أو في أوانٍ يونانية صغيرة، ويُسدّ عليها بإحكام بقطعة فلّين مدهونة بالزفت، ويوضع على هذه الفلّينة، أو بالأحرى على قطعة الزفت هذه، ختمٌ محفور عليه اسم القنصل الذي تتمّ، أثناء ولايته، تعبئة هذه الخمرة في القناني. ذلك مصدر اسم نبيذ أُپيميوس، وهو نبيذ القنصل القديم أو النبيذ القنصليّ، الذي يُطلق على المشروب المصنوع سنة ستّمائة واثنين وثلاثين لتأسيس روما، المتميّزة بجودة خمورها، وهي سنة ولاية القنصل أُپيميوس.

والحقيقة أنّ نبيذ فَلِرنُم هذا لا يُعتبر اليوم نبيذاً بل عسل عنب، لأنّ مرارته شديدة بحيث أنّه لم يعد يُحتسى صرفاً بل ممزوجاً ببعض الخمور الأخرى، وعلى الأخصّ خمر شِيو.

كانت الخمور اليونانية، قبل أن تُتقن إيطاليا صناعة الخمور، تُعتبر الأفضل بين الخمور. وقد بلغ ثمنها أرقاماً خياليّة. يُخبر لوكُلُّس نفسه أنّه، في صباه، لم يرَ الخمر اليونانية تُقدّم، وفي أفخم المآدب، إلّا مرّة واحدة.

Twitter: @ketab_n

إنّ قيصر هو أوّل من قدّم، في ولايته القنصليّة الثالثة، أربعة أصناف من النبيذ أثناء الطعام.

ولنذكُر أنّ كلّ الخمور يُضاف إليها نكهات متنوّعة، إذا ما تبيّن أنّ نكهتها الذاتيّة غير كافية. أمّا الحصول اصطناعيّاً على المذاق والرائحة المذكورين، فيكون بمزج الخمر بالناردين والورود والمصطكى والأفسنتين والراتنج والعسل.

أفضل من هذا النبيذ نبيذ هيميتُس، وهو في الحقيقة صنف خاصّ من الشراب يُسمّونه **مُلسُم**.

شربنا حُقّنا من نبيذ ألبا وأكلنا الكستناء والتهمنا رفوف العسل؛ ثمّ دعاني مِسينَس لأزور مزرعته، فنهضت. عند مرورنا في فناء الدار، شاهدت عددا كبيراً من الدجاج يُعمل منقاره، ومن الإوَزّ والبطّ يتنازع في جورة ماء، ومن الحمام يتطاير راسماً دوائر واسعة فوق الأبنية قبل أن ينقضّ فجأةً على بُرَيج مُسنّن الرأس هو برج الحمام.

لم ير مِسينَس من المناسب أن يضعني من جديد أمام نفس المشهد، ففتح باباً خلفيّاً صغيراً يؤدّي إلى بستان، فإذا بنا وسط الزهور والخضار والفواكه. كان ذلك البستان بمثابة بستان خضار، وفيه ثماني خلايا أو أكثر، يأوي إليها النحل الذي أكلنا من عسله. يجني النحل عسله بيسر من مختلف أنواع الأزهار المحيطة بالخلايا. ومن هناك قطعنا صوب المروج والأراضي المزروعة.

تدرّ المزرعة مبلغاً سنويّاً صافياً يتراوح مُعدّله السنويّ بين خمسة وعشرين ألف سِستِرس وثلاثين ألفاً. فيما كان مِسينَس يشرّفني بزيارة مزرعته الخاصّة، لم يسعني إلّا أن أُسرّ إلى نفسي أنّ الآلهة، لو كلّفت نفسها إعادة الأمور إلى نصابها، لرأت أنّ هذه المزرعة أليَق بشاعر، يكفيه من

Twitter: @ketab_n

الثروة قسط ضئيل مضمون، ممّا بأرستقراطي ثريّ مثل مِسينَس، الذي يناسبه، بوصفه مُقرّباً من الإمبراطور، أن يقيم في روما على هضبة بَلَتينُس. وأُقرّ بأنّ تأمّلاتي هذه تلتها تنهيدة. كان مِسينَس يُريني ملكيّته هذه بكلّ تفاصيلها، وعليه أمارات المالك غير العابئ بشيء ممّا لديه، فيشتدّ حنقي وأقول في سرّي إنّ مثل هذه الثروات تهبط على من لا يستطيع تقديرها حقَّ قدرها.

عدنا أدراجنا فوجدنا الحمّام جاهزاً وستراتنا مُعدّة - بل من الخطأ قول ذلك عن السترات، لأنّها أُخرجت لتوّها من خزانة، فهمت من اختلاس النظر إليها أنّها ملأى بالثياب.

انطلقنا إلى غرفة الطعام: كانت بسيطة المظهر، ولكنّها مُعدّة بذوق رفيع ومُزيّنة على الطريقة اليونانيّة، إذ أنّ مِسينَس نوى أن يقدّم لي عشاءً لا يحطّ كثيراً من قيمة العشاء الذي دعوته إليه في العشيّة. استهلّها بقوائم إوزّ وكبد وبطّ وعُرف دجاج وضلع جحش، وكلّها مأكولات من ابتكار مِسينَس يؤثرها على غيرها، ومن سمك الوديان - أو بالأحرى سمك نهر دِجانسيا- وعشّ الغراب[1] وقنّبيط مُتبّل جيّداً بأعشاب كثيرة؛ فما كان ألذّ طعمها!

نبّهني مِسينَس عند التحلية إلى أنّ ما أكلناه من لحم وسمك وثمار وفواكه هو كلّه من نتاج مزرعته.

كنت، من جرّاء ذلك، أزداد أسفاً لرؤيتي هذه الأطايب في متناول رجل لا يبدي بها أيّ اهتمام.

ما كان أشدّ متعتي أن أجدني، وأنا ابن جبال، وسط الجبال؛ فأبوليا لا تبعد عن منطقة لاسيوم ما يكفي لينعدم الشبه بينهما، في ما يخصّ طبيعة

---

(1) نوع من الفطر شبيه شكله بالمظلّة (المُراجِع).

Twitter: @ketab_n

الموقع.

مكثنا في الهواء الطلق إلى أن أحسسنا ببرودة المساء، فولجنا إلى البيت. حمل العبيد عندئذ لكلّ منّا كأس نبيذ مغليّ، وقرأت لِمسينَس اثنتين أو ثلاثة من آخر قصائدي، لم يعتبرها، من فضل تساهله، شديدة السوء. ثمّ انسحب كلّ منّا إلى غرفته لينام.

في اليوم التالي، وبالرغم من كسلي المعهود، نهضت مع انشقاق النهار، وذهبت أتنزّه وسط حقول الكُتّان والزيتون والذرة والكروم حتّى بلغت معبد فَكونا.

رجعت فلقيت مِسينَس يخرج من سريره. سأل عنّي فقيل له إنّي خرجت مع انشقاق النهار بعد أن أمرت أحد العبيد بأن يُعلم مِسينَس بخروجي. وفور استيقاظه، بادروا إلى إعلامه بذلك قبل كلّ شيء آخر.

حين لمحني مِسينَس ابتسم وسألني إن كنت قمت بذلك بسبب سوء النوم، أم أنّي بكّرت في الخروج للشقاء الذي ألمّ بي من الحشرات، كما شقيت عند وصولي من روما. أجبته أنّ السرير ممتاز وغير مسكون، وأنّ ما جعلني أستيقظ باكراً جدّاً هو رغبتي في أن أرى مرّة أخرى المواقع الفاتنة التي زرتها يوم أمس. فقال:

- لسوء الحظ أنّ الإقامة في مكان بعيد عن مدينة كبرى، كما في هذه المزرعة، يحول دون حياة الرفاهيّة والتأنّق، فيترتّب على الإنسان في هذه الحالة أن يحيا حياة عاديّة قليلة الشأن.

فصحت قائلاً إنّي لم أتعشَّ يوماً كما تعشّيت البارحة، والبرهان على ذلك أنّي أوشكت أن أُصاب بسوء الهضم بسبب عشّ الغراب والقنّبيط. فأصرّ مِسينَس قائلاً:

- لكنّ أكبر ضرر ينجم عن ذلك لا يلحقني أنا، بما أنّي لا أزور هذه

Twitter: @ketab_n

المزرعة أكثر من مرّة أو مرّتين على الأكثر، بل يلحق، على سبيل المثال، رجلاً مثلك يشغل وظيفة عامّة: هذا الضرر هو بُعدها عن روما. إذ لا بدّ من يوم بأكمله لقطع تلك المسافة. فقلت:

- آه! لو كانت هذه المزرعة ملكي، فلن تعيقني المسافة التي ذكرتها، بل إنّي، فور توقيعي على عقد الشراء بعبارة **هُراسيوس سيّد أُترِكا**، سأبيع وظيفتي كاتباً في الخزينة. فقال مِسينَس:

- إذن! الأمور أتت في حينها، يا عزيزي هُراسيوس، لأنّ هذا البيت، الذي أهديك إيّاه بكلّ طيبة خاطر، ابتعته لي ولكن على اسمك، وقد وجدت من يشتري بمبلغ مائة وعشرين ألف سِسترِس وظيفتك كاتباً في الخزينة.

كدت أختنق من الفرح. لم أفرح بالهديّة، على كبر قيمتها، قدر فرحي بطريقة الإهداء التي فتنتني. انفجرت الدموع في عينيّ، غير أنّي تمكّنت من التلعثم ببعض كلمات الشكر تجاه صديق له هذه الطيبة. فقال:

- إذن! أترى أنّ قلبك لم يضمر على النحو الذي تعتقده، بما أنّه لا يزال في عينيك دموع.

أتى من يُعلم مِسينَس أنّ الحصان مقرون إلى العربة. فقال لي:

- وداعاً، أتركك في بيتك. الحرّ هو أنت، يا شاعري العزيز، والعبد أنا. طالما بقي أُكتافيوس غائباً فأنا من يُدير شؤون الإمبراطوريّة بالوكالة. وها ختمه في إصبعي، رمزاً للعبودية والسلطان في آن.

نظرت إلى الختم: إنّه أبو الهول الرهيب، السرّ الأخرس الذي يكتم، بصمته وثباته، سرّ المستقبل. فكرّر:

- وداعاً يا شاعري العزيز! هل أنت سعيد، هل أنت مسرور، وهل ستحصل، بدخل يبلغ ثلاثين ألف سِسترِس وبرأسمالك البالغ

Twitter: @ketab_n

مائة وعشرين ألف سِستِرس وبريع كتبك، على هذه الحياة المذهّبة القليلة الشأن التي تطمح إليها؟

فعانقت مِسينَس مرّة أخرى وأنا أتلو له الأبيات التي نظمتها فيه أثناء مرضه.

فعانقني مِسينَس وعيناه مغرورقتان بالدموع مثل عينيّ، ثمّ ركب عربته وانطلق، تاركاً لي مزرعتي في أُترِكا.

مزرعتي! ما أعذبها كلمةً على اللفظ، خاصّة بالنسبة إلى شاعر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

*في توزيع الأراضي على الجنود - الحرب على الداسّين - كَلاجيه - الوقوع على ذئب - جوليا ڤَرينا - غنائيّتي في بَرينا - صديقي تَلَيْركوس - حقل مارس وأنصابه - المُتنزّهون - الأروقة - المتأنقون في روما - عودة أُكتاڤيوس - الاحتفال بتكريمه - أصل احتفالات الظفر - من له حقّ بها - **قدِمتُ، شاهدت، ظفرت** - مجلس الشيوخ يمنح أُكتاڤيوس لقب أُغسطُس - تواضع الظافر.*

كنت، وأنا في غمرة تلك السعادة غير المتوقّعة التي أدين بها لِمسينَس، مشغول البال بأمرين: الأوّل، وهو ما أتناوله في كتابي **هكذا كان الأمر أوان الغضب** قضيّة الأراضي التي وُعد بها الجنود؛ والثاني عشقي للَلاجيه.

سبق أن تحدّثت باقتضاب عن قدامى المحاربين قبل الحرب المصريّة. في سبيل إرضائهم، عمد أُكتاڤيوس إلى بيع أملاكه الخاصّة كما أنّه استعان بمال أصدقائه. هذه المطالب أُثيرت من جديد، فراح الجميع يتساءلون، كما فعلت أنا في هجائيّتي: «أمن صقِلّية أم من إيطاليا ستُقتطع الأراضي لإعطائها للجنود؟».

Twitter: @ketab_n

والحقيقة أنّ الناس كانوا جميعهم معنيّين بهذا السؤال؛ إذ كيف يعطى الجند الأراضي التي يطالبون بها دون أن تُنتزع من مالكيها؟ ذلك أمر مُحال. لهذا السبب كان أُكتافيوس يؤجّل على الدوام توزيع الأراضي إلى وقت لاحق. لحسن الحظّ أنّ كلِيوپَترا ماتت مُخلّفة كنوزاً لا تقدّر. فأخرجت تلك الكنوز أُكتافيوس من موقفه الحرج، أقلّه إلى حين. فوزّع على جنده أموالاً بدل الأراضي، كما أنّه شغلهم بالحرب على الداسيّين، فصبروا عليه وأمهلوه بعض الوقت. ومن يُقتل منهم في الحرب فدَينه موفّى سلفاً.

منذ زمن طويل والداسيّون يثيرون القلق لدى الرومان وينهكونهم في حروب يجرّون إليها أُكتافيوس. سبق للوكُلُّس وكرسُّس أن شنّا عليهم حروباً، غير أنّهم استمرّوا في العصيان، بالرغم من الهزيمة التي لحقت بهم. استأنف أُكتافيوس المهمّة التي لم ينجزها لوكُلُّس وكرِسُّس. وكان أنّ السُواڤيّين[1] انضمّوا إليهم، أو أقلّه تفاهموا معهم، فعبروا نهر الراين كما عبروا هم أنفسهم نهر الدانوب، فترتّب على أُكتافيوس أن يواجه كلا الشعبين مجتمعَين. فأخذت أنباء معاركه تصل روما من خلال الأسرى الوافدين إليها.

أمّا الغرض من إرسال هؤلاء الأسرى إلى روما فهو أن يخوضوا نزالاتٍ أثناء الاحتفالات التي كان أُكتافيوس مزمعاً على إجرائها بمناسبة ظفره.

الأمر الثاني الذي شغلني هو، كما ذكرت آنفاً، حبّي لِلَلاجيه.

قبل أربعة أعوام من الحقبة التي نحن بصددها، أي عام 720، كانت لَلاجيه، وهي بعد صبيّة صغيرة السنّ لا تكاد تبلغ الثالثة عشرة، تثير

(1) أهل سواڤيا، منطقة من جرمانيا (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الحبّ في قلب گبينيوس، وهو ابن أخي گبينيوس المدافع عن الشعب وصديق أنطونيوس وبالتالي عدوّ شيشرون. وبسبب صغر سنّها، وجّهتُ لـگبينيوس قصيدتي إنّها غير قادرة بعد على حمل النير.

غير أنّ لَلاجيه كبرت في السنّ، لَلاجيه زاد في عمرها أربعة من فصول الربيع، لَلاجيه بلغت أخيراً السابعة عشرة. وقع الشقاق بينها وبين گبينيوس، فرُحت أفقد صوابي من هيامي بها. ذات يوم، فيما كنت أنظم فيها أشعاراً أدفع اسمها إلى الصدى ليردّده في كلّ الأرجاء، حصل أنّي مُنيت بلقاء قليل المتعة مع ذئب ضخم، وليس لديّ أيّ سلاح أدافع فيه عن نفسي، ولا أصغر سكين. فلو هاجمني الذئب لخنقني كما يخنق الخروف، دون أدنى شكّ. بسبب جهله مدى الخوف الذي أثاره فيّ، اعتراه الخوف أكثر ممّا اعتراني، ففرّ مسلّماً للريح قوائمه وهو يعوي عواء الشاكي. منذ ذلك الحين لم يعد ينتابني أيّ شكّ بأنّي في حماية الآلهة.

في الغد، رويت هذا اللقاء لأرِستِيوس فُسكوس في قصيدة غنائيّة.

لا أدري إذا كان مردّ الأمر إلى خوفي من هذا الذئب، غير أنّ هذه الغنائيّة هي في اعتقادي أفضل ما نظمت.

ممّا زاد من عشقي لِلَلاجيه أنّ مخلوقة لذيذة، أعتقها آل جوليا، اسمها جوليا ڤَرينا، كانت تعبث بي. أسمّيها باسمها في هذه المذكّرات التي لن يتاح لها رؤية النور إلّا وقد أصبحت عظامها وعظامي هباءً منثوراً منذ أمد طويل. في قصائدي أهاجمها باسم بَرينا، وإلى بَرينا أوجّه انتقادي.

لا أدري تماماً، وأنا أكتب فيها هذه الغنائية، أيّة عاطفة كانت تتولّاني تجاهها، الحبّ أم البغض:

Twitter: @ketab_n

«بَرينا، لصدّقتُك لو تكبّدتِ قصاص البِركات[1]، لو اسودّت إحدى أسنانك أو تشوّه أحد أظفارك بسبب البِركات.

« لكنّكِ، لخبثك، ما إن تصدّقين عاشقاً جديداً يُقسم لك بأنّه يحبّك، حتّى تزدادين جمالاً وتتيهين فيما يروح شبابنا يعبدك أيّما عبادة.

«تنجحين في حملنا على تصديق قسَمك الباطل بقبر أمّكِ وبكواكب الليل الصامتة وبالآلهة العظام المعصومين من برودة الموت. ستضحك ڤينوس من أعمالك المدنّسة وكذلك النَنفات، عرائس الطبيعة المتسامحات، وكوپدون الفظّ الذي لا يفتأ يبري سهامه وهو يضحك مثل ڤينوس.

«وأضيف أنّ جميع مراهقينا لا يكبرون إلّا ليوفّروا لك مزيداً من العبيد، وأنّ عشّاقك السابقين، وقد استبعدتهم ما شئتِ، لا يقبلون بهجر بيت عشيقة آثمة مثلك.

«تخشاك الأمّهات على أبنائهنّ الفتيان، ويرهبك الشيوخ الضانّون بأموالهم، وأمّا الفتاة العذراء المتزوّجة لتوّها فترتعد لرؤيتك خشيةً على زوجها من الهواء الذي تتنفّسينه».

انقضى فصل الصيف، وانقضى الخريف دون أن أذهب أكثر من عشر مرّات إلى تيبور وأكثر من مرّتين إلى روما، لشدّة عشقي لمنزلي الجديد. غير أنّي، حين أشرف شتاء عام 724–725 الرهيب، لم أستطع أن أقاوم إلحاح أحد أصدقائي، واسمه تيّارك[2]، على دعوتي. كان له منزل على جبل ماريو، يُطلّ منه على روما وسائر ضواحيها. منظر من أجمل المناظر التي أثارت إعجابي.

قضيت عنده أقسى شهر من شهور ذلك الشتاء القارس. كان مغتمّاً

(1) إلهات ثلاث ينسجن مصير البشر (المترجم).

(2) ومعناه في اليونانيّة «ملك الوليمة» (المترجم).

Twitter: @ketab_n

غمّاً شديداً من وطأة خيانة عشيقته التي حمل غدرَها على محمل الجدّ.

في غمرة ذلك البرد القارس، حاولت أن أسلّيه عن أحزانه فنظمت له الغنائيّة التالية:

«انظر إلى أين يرفع جبل سُراكته[1] العالي قمّته المجلّلة ببياض الثلج المتراكم؛ وها الغابات المُتعبة لم تعد تقوى على احتمال ثقل الضباب الكثيف والأنهار المتجمّدة الثابتة لا تريم.

«اطرد البرد، أيّها العزيز تيّاك، بسخائك بالحطب على موقدك الملتهب، وليسكب لك كوبُك السَبينيّ الصنع مزيداً من الخمر المعتّقة لأربع سنوات!... ودَع للآلهة كلّ ما تبقّى ... ما إن يحلو لها أن تقضي على الريح المتصارع فوق البحر المُزبد، حتّى يستعيد السرْو والدردار العتيق هدوءهما.

«بأمرِ ما سيكون غداً لا يساورنَّك أيّ قلق... وكلّ يوم تتكرّم به الآلهة عليك، تمتّعْ به. وطالما بعُد بك العمر عن الشيخوخة الكئيبة، لا تحتقر الرقص والعشق اللذيذ.

«تعالَ إلى الـگـمنازيوم، تعال إلى حقل مارس، تعال إلى تلك المنتزهات، حيث بوسعك أن تنصت في الأوقات المناسبة إلى وشوشة المناجيات السرّيّة».

قد يعترض النقّاد أنّي لم أصِب بدعوتي تيّاك للنزول إلى حقل مارس من أجل سماع وشوشات الحبّ، حين يتغطّى جبل سُرَكتُم بالثلوج وتتوقّف الأنهار متجمّدة في مجاريها. فأجيبهم أنّنا كنّا إذّاك في بداية شهر مارس، حيث كنّا نحسّ، بالرغم من البرد النافذ، بأوّل ابتسامة الربيع تتخلّل أشعّة الشمس؛ وأنّه بعد شهر من نظمي القصيدة، أخذت الأشجار

(1) مُكرّس لأپلّون (المترجم).

Twitter: @ketab_n

تورق والنباتات تزهر.

بما أنّي ذكرت حقل مارس، بما أنّني دعوت صديقي تيّاك أن ينزل لينصت في الأوقات المناسبة إلى طنين المناجيات السرّيّة، فدعوني أذكر لمن يأتون بعدنا لا لمن يعاصروننا، ما هو حقل مارس، وهو أمر لن يتبيّنوه حين سيتغطّى حقل مارس بالمنازل.

كان حقل مارس في الأصل عبارة عن مرج فيه تُربّى الخيل، وفيه تتمرّن شبيبة روما على الرماية والمصارعة والجري والعوم. من هنا أتت التسمية. على مدى أربعة قرون، بقي هذا الحقل على حاله. حوالى منتصف القرن الخامس، أقيمت فيه بعض الأنصاب، واستمرّ البناء طوال القرن السادس. وأصبح حقل مارس في أيّامنا حيّاً بديعاً ومنتزهاً رائعاً في آن.

اقتبست المنطقة اسمها من سِركُم فْلَمينيوس الذي منه دخلتُ روما عندما وصلتها لأوّل مرّة؛ فيما اقتبس هو اسمه من أرض بُني عليها، كانت ملكاً للقنصل فلَمينيوس.

يحتوي حقل مارس، إضافة إلى سِركُم فلَمينيوس، على مسرحين هما مسرح پُمپيوس ومسرح بَلبوس، وعلى معبدين أحدهما مُكرّس لإله النهار أپُلون والثاني لإلهة الحرب بِلّونا، وعلى رواق هو قيد البناء حاليّاً يسمّى رواق أُكتاڤيوس، وعلى بيت كبير فخم يُسمّى **الدارة العموميّة** المشتملة على عدّة أفنية محاطة بمساكن ينزل فيها النوّاب وسفراء الأمم التي في حالة حرب مع روما ممّن يتعذّر إقامتهم في المدينة، وأخيراً على رواق **المائة عمود** والرواق الكورنثي و**الجوليات السبع**.

عزم أَگرِپّا، في حال تعيينه قنصلاً لولاية ثالثة، أن يبني معبداً رائعاً يطلق عليه اسم **پَنتِيون** (وقد عُيّن في الواقع قنصلاً للمرّة الثالثة عام 727 فوفق بوعده).

Twitter: @ketab_n

في هذا الزمن، يتزاحم الناس حول مسلّة رائعة من الصوّان الورديّ وصلت مؤخرّاً من مصر وأُعدّت لتصبح مِزولة، طولها ثلاث وسبعون قدماً وتسع بوصات.

وفيه مُقام قيد البناء هو **الموزِليوم**.

و**الموزِليوم**، كما يوحي به اسمه، ضريح عظيم؛ وهذا الضريح بناه أُكتافيوس له ولعائلته. هيأته على شكل برج ضخم مستدير، يبلغ قطره حوالى ثلاثمائة وأربعين قدماً، وفيه ثلاثة طوابق تحتوي على خمس وأربعين غرفة دائرية الشكل.

يحوي حقل مارس، إضافة إلى المقام، ضريح سِلّا وضريح والد سيپيون الأفريقي الأخير مع ضريح عمّه؛ كما يحوي الضريح رفات جوليا ابنة يوليوس قيصر وهي زوجة پُمپِيوس، التي تحدّثت عن شعبيّتها العظيمة وعن موتها المبكر.

وبالمحصّلة، يضمّ حقل مارس حاليّاً، أي حوالى منتصف القرن الثامن حيث أخطّ هذه الأسطر، سركُم وثلاثة مسارح ومسرحاً دائريّاً وتسعة أروقة واثنين وعشرين معبداً.

عند المساء، عندما تنقضي فترة الحرّ، ينزل الناس إلى حقل مارس، أو بالأحرى إلى **الحقل**، كما يقال اختصاراً. ينقسم رُوّاد الحقل إلى صنفين متميّزين تماماً: الشباب المُعدّون للقتال يتدرّبون فيه على كلّ التمارين الجسديّة من سباحة وفروسيّة ومصارعة وجري ورماية وقذف مقاليع. ومنهم من يبلغ مستوى من المهارة في التمرينين المذكورين آخِراً، بحيث يستطيع أن يُسدّد سهمه أو حجره في رزمة قشّ.

ومن الفرسان الشديدي الحذق مَن يزُجّ بحصانه عارياً بدون رسن ولا لجام، يقوده برُكبتيه ويقفز على صهوته ويترجّل مستعيناً بلبدته لا

Twitter: @ketab_n

غير، وفي يده أكثر الأحيان سيف أو رمح.

ومنهم كذلك من يرفع الأثقال ويرمي القرص وينازل عموداً بالسيف.

يفرغون من تمارينهم فيقفزون في نهر التيبَريس، وهم مبلّلون عرقاً وأجسادهم مفروكة بالزيت مُغبرّة وهم غالباً بأرديتهم، فيقطعونه عوماً ثمّ، بعد استراحة قصيرة على الضفّة الأخرى، يغطسون في الماء عائدين إلى الضفّة اليسرى.

أمّا الصنف الآخر من الروّاد فهم المتنزّهون: يضربون مواعيدهم عادةً في الأروقة، حيث يتسنّى لهم المشي في الظلّ. في زمننا الراهن، تجد في حقل مارس ثمانية أروقة: رواق أُكتافيوس، رواق فِلِپُّوس، رواق مِنوسيوس، الرواق الكورنثي، رواق پُمپيوس، رواق **الحدث السعيد**، رواق الأرگونوت[1] والهِكَتونستيلُن أو رواق **المائة عمود**.

إنّ الأروقة تلعب دوراً مهمّاً في حياة أهل روما. فالنساء يؤثرن بعض الأروقة وفق مرتبتهنّ الاجتماعيّة ونزواتهنّ، فأوّل سؤال يُطرح عن امرأة ما هو: «أيّ رواق ترتاد؟».

فإن شاء عاشقان أن يتحادثا، التقيا في الرواق.

في الرواق، يُستدلّ على مرتبة النساء الاجتماعيّة وعلى أخلاقهنّ من لباسهنّ وتصرّفاتهنّ.

فربّات المنازل الآتيات إلى الرواق لمجرّد التسلية والتنزّه يتوشّحنَ كليّاً بجُببهنّ الطويلة ومعاطفهنّ: الجبّة تكاد تستر الوجه كلّه، ثمّ تروح تغطّي الجسم حتّى القدمين؛ والمعطف يستر القامة بكاملها. ويكون معهنّ نسوة وإماء يسرن خلفهنّ أو بالأحرى يحطن بهنّ. يمررن بين الحشد بوقار

(1) هم رفاق البطل الأسطوريّ جازون على سفينة أرگو (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وصمت كأنهنّ تماثيل.

هناك فئة أخرى من النساء لا يبلغن تلك الدرجة من الصرامة في حركاتهنّ؛ لا ينحدرن إلى مستوى الغانيات، غير أنّهنّ لسنَ من فئة ربّات المنازل ذوات المشي الصارم الوقور. هذه الفئة من النساء تتّشح بالخمار، وفاءً لقانون قديم يحرّم على الرومانيات الخروج سافرات الوجوه؛ غير أنّ هذا الخمار ينمّ عن ذكاء في الدلال يكشف، وفق هوى الساعة، تارةً الوجهَ، وطوراً ذراعاً تروق للنظر.

بعد هذه الفئة من النساء، اللواتي يجوز تسميتهنّ بأنصاف الفاضلات، تأتي فئة لا تستحقّ حتّى ما يستبقيه ذلك اللقب المنتقص من كرامة: عنيت الغانيات. أولاء أيضاً يلبسن الخمار، ولكنّه خمار مصنوع من شاش على درجة من الرقّة يبدو الوجه من خلاله كما من خلال بخار رقيق. يتكلّمن بصوت عالٍ ويضحكن بِهرَج ويُلقين السلام على المارّة من شبّان يبادلونهنّ مداعبات توحي بعلاقة حميمة، غير قائمة دائماً في واقع الحال، مداعبات تجعل الطرفين يتظاهران بسهولة الوصل؛ وفي ذلك دليل على مدى ما بلغته الأخلاق عندنا من تحرّر كريه.

تجلس هؤلاء النساء غالباً على مقاعد يدفعن لقاءها للمتعهّد أجراً يسيراً، أو على كراسي تُطوى تحملها الإماء اللواتي يتبعنهنّ. يتحلّقن ويتجاذبن أطراف الأحاديث في ما بينهنّ، أو مع الشبّان المارّين بهنّ. وخلال الحديث، يتقاذفن، من يد إلى أخرى، كرات من البلّور أو العنبر يترطّبن بها. ومنهنّ من يبلغ بهنّ التجمّل أن يتّخذن من أفاعٍ غير مؤذية عقوداً يطوّقن بها رقابهنّ أو أسورة تطوّق أذرعتهنّ، ويستمددنَ من جلدها الجليديّ بعض الرطوبة. وقد راجت هذه الموضة على الأخصّ في السنة التي علمَ فيها الناس بوفاة كلِيوپَترا.

Twitter: @ketab_n

إنّ أكثر رواق رواجاً وارتياداً لدى الغانيات، ومن يُطلق عليهم لقب **المتجمّلين والترُسّولي**، هو رواق پُمپِيوس. **فالمتجمّلون والترُسّولي** هم أنيقو روما.

كان قيصر من المتجمّلين وكان مِسينَس من الترُسّولي.

لا حاجة لشرح كلمة **متجمّل**، فالمعنى واضح بذاته. أمّا كلمة ترُسّول[1] فمُشتّق من كلمة **ترُسَولا**، وهي من مدن إرتوريا انتزعتها الخيّالة الرومانية أثناء هجوم قامت به بدون دعم من المشاة. استُعملت هذه الصفة أوّلاً بمثابة لقب ثمّ أصبحت اسماً مستعاراً.

أتدرك إذن ما الذي يبرّر دعوتي لتيّارك أن ينزل إلى حقل مارس، وأملي بأن يجد فيه بعض التسلية عن همومه الكثيرة؟

في مطالع عام 725، تلقّينا نبأ عودة أُكتافيوس.

أثار هذا النبأ انفعالاً أستدلّ على شدّة وقعه بواقعة واحدة. فعندما علمنا بأنّه انتصر وأسر ملك اليونتس وغلاسيا، وضمّ مصر إلى الإمبراطوريّة، وروّض سكّان كَنتابريا[2] والفكّيّين[3] وأهل تريڤيرا[4] وأستوريا وسُويڤيا - أي أنّه ظفر ببلدان تمتدّ من النيل إلى البوسفور، ومن البوسفور إلى الدانوب، ومن الدانوب إلى إيبيروس؛ عندئذ هبط سعر الفضّة من اثني عشر بالمائة إلى أربعة بالمائة.

ومن جهة أخرى، أصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بتقديم الأضاحي للآلهة شكراً لها على هذا الحدث السعيد. ودُعيت كاهنات ڤيستا، فيما كانت ترفع الدُّعاء من أجل سعادة مجلس الشيوخ والشعب

(1) أي ترُسّولي في صيغة الجمع (المترجم).

(2) منطقة جبال الپيرينيس المطلّة على المحيط الأطلسي (المترجم).

(3) مقاطعة في إسبانيا (المترجم).

(4) هي اليوم بلجيكا (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الروماني، إلى أن تستكمله بدعاء من أجل أُكتاڤيوس قيصر. وأُمر بإغلاق معبد جانوس لأوّل مرّة منذ مائتين وستّ سنين. ثمّ خُلع على المنتصر ثلاثة ألقاب ظفر.

كلمة عن ألقاب الظفر.

باخوس هو الذي ابتكرها.

يزعم كثيرون أنّ اعتماد لقب الظفر عندنا يرقى إلى رومُلُس، وأنّ أوّل احتفال روماني بالظفر قام في روما عندما حمل رومُلُس إلى روما أسلاب أَكرون ملك السينيّين.

غير أنّ هذا الزعم موضع اعتراض، لأنّ احتفال الظفر يقتضي أوّلاً وجود العربة والأحصنة البيض الأربعة المُخصّصة لجوپتير وحده، بينما دخل رومُلُس روما مشياً. فلم يكن ذلك إذن احتفالاً حقيقيّاً، بل كان مجرّد عاصفة من التصفيق.

يقول بعضهم، ومنهم مؤرّخنا الشابّ تيتيوس-ليڤيوس إنّ تَركينيوس الكبير هو أوّل من أُقيم له احتفال ظفر بعد حربه على السَبينيّين. غير أنّ آخرين يقولون إنّه يرقى إلى أبعد من ذلك الزمن، وإنّ أوّل من احتفل بظفره هو ڤَليريوس پُبلِكولا بعد عودته من حربه على الإترورييّن، وذلك إثر خلع الملوك.

لكي تتحقّق شروط الظفر، لا بدّ من انتزاع مدينة مُحصّنة، والانتصار في معركة يتجابه فيها جيشان، وقتل خمسة آلاف جنديّ من الأعداء، وأسر ثلاثة آلاف أسير، وتوسيع رقعة الجمهوريّة، ووضع حدّ للحروب وعدم الانهزام في أيّة معركة. ويقتضي أيضاً أن يكون عمر الظافر ثلاثين سنة على الأقلّ، وأن يكون هو نفسه قائداً أو قنصلاً أو نائب قنصل أو حاكماً مطلق الصلاحيّات.

Twitter: @ketab_n

والصفة الضروريّة في الظافر أن يكون مواطناً رومانيّاً بالمولد.

پُمپيوس هو أوّل من جرؤ على إقامة احتفال ظفر بعد انتصاره في حرب أهليّة؛ وعقاباً له على انتهاكه المحرّمات، احتفل قيصر بالظفر لدى انتصاره على أبناء پُمپيوس.

أوّل ظفر أثّر تأثيراً عميقاً في ذاكرة الشعب الروماني هو ظفر پَولُس إميليوس.

كان المهزوم فيه پِرسيوس المقدوني.

أبرز ظفر حصل بعده كان ظفر پُمپِيوس للمرّة الثالثة، حيث لا نزال في أيّامنا هذه نشاهد ما نُقش على معبد مِركوريوس الذي يزيّن ساحة الجوليات السبع:

- «إنّ القائد العظيم المظفّر پُمپِيوس، بعد أن وضع حدّاً لحرب دامت ثلاثين سنة، ودحر أو قتل أو أرغم على الاستسلام اثني عشر مليون ومائة وثمانين إنساناً؛ وبعد أن أغرق أو استولى على ثمانمائة وستّ وأربعين سفينة، وتلقّى ولاء ألف وخمسمائة وثمانٍ وثلاثين مدينة أو قلعة؛ وبعد أن أخضع كلّ البلاد الواقعة ما بين بحيرة نيوتِس والبحر الأحمر، يقوم اليوم بتوفية النَّذْر الذي قطعه أمام مينِرڤا».

لا يزال الكثيرون منّا في روما يذكرون حتّى اليوم ما شاهدوه أثناء احتفالات يوليوس قيصر بظفره.

فقد ظفر ثلاث مرّات، شأنه شأن ابن أخيه، أُكتاڤيوس: أوّل مرّة ببلاد الغال، وثاني مرّة بمصر، وثالث مرّة ببلاد الپونتس.

وبمناسبة ظفره الأخير نُقشت هذه العبارة التي تفوق في إيجازها عبارة پُمپِيوس: **قدِمتُ، شاهدتُ، ظفرتُ!**

Twitter: @ketab_n

وأُكتافيوس قيصر ظفر أيضاً ثلاث مرّات، غير أنّ الظفرين الأولين لم يكونا في الواقع إلّا تمهيداً للثالث.

فالظفر الثالث يتمثّل في انتصاره على مصر. سار في موكب ظفره ذاك اثنان من أولاد كلِيوپَترا مقيّدَين بالسلاسل، وعُرض فيه أيضاً تمثال الملكة المهزومة مضّجعة على سريرها فيما تلتفّ أفعى النيل حول ذراعها.

في شهر يناير من عام 727 لتأسيس روما، منح مجلس الشيوخ قيصر أُكتافيوس، بناءً على اقتراح مُناسيوس پلَنكوس، لقب أغُسطُس، وهذه صفة يخصّ بها الرّومان آلهة المنزل.

أصبح قيصر أُكتافيوس إذن إله الإمبراطوريّة المنزليّ.

في اليوم التالي لمنحه لقبَ «ظافر» بالإجماع، انفجرت عاصفة تضخّم من جرّائها مجرى النيل تضخّماً شديداً بحيث غمرت المياه المناطق الواطئة من روما. بدل أن تكون تلك العلامة نذير شؤم، اعتُبرت بشارة بالسلطة الشاسعة التي ستؤول إلى الظافر.

لم يُبدِ أُكتافيوس أيّ طمع بمظاهر التكريم والسلطة، بل طلب، على عكس ذلك، أن يُرفع عنه عبء الحُكم. ولم يقوَ مجلس الشيوخ على إقناعه بقبول مسؤولية إعادة تنظيم شؤون الجمهوريّة لمدّة عشر سنوات، إلّا بعد توسّلات كثيرة.

بقي أُكتافيوس الإنسان ذاته الذي كانه حتّى ذلك الحين، ربّما بموجب حسابات شخصيّة وربّما عن طبع: لم يكن في ثيابه ما يميّزه عن سائر المواطنين؛ بردته كانت بردة أيّ عضو في مجلس الشيوخ، يرتديها منذ الصباح استعداداً لكلّ حادث طارئ. كان يلبس، مثل فابيوس، معطفاً من صوف من غزل بناته، يذهب فيه إلى مجالس الشعب العامّة للانتخاب شأن أبسط سكّان الضاحية، أو يقصد المحكمة ليكفل أحد أصدقائه، أو

Twitter: @ketab_n

يخرج للاحتفال بمولدٍ أو خطوبة عند أي شخص عاديّ قبلَ هو أن يلبّي دعوته للمشاركة في الاحتفال.

وبعد ذلك، يعود إلى بيته مشياً.

كان يسكن بيتاً صغيراً على هضبة پَلَتينُس: بوّابته من حجر ألبا، ليس فيه رخام أو بلاط ثمين، تقلّ فيه اللّوحات وتندر التماثيل. ليس إلّا بعض الأسلحة الغريبة الشكل بسبب عتقها، عظام هيكل إنسان جبّار، وأثاث لا يرضى به أكثر الفرسان. لا أواني سُفرة من ذهب، لأنّ كلّ ما استولى عليه من ذهب ذوّبه ليدفع رواتب قدامى جنوده، ولم يحتفظ من كلّ أسلاب آل بطليموس سوى بزهريّة فاخرة. لم يكن ينتظر دائماً، لكي يتناول طعامه، أن تحين ساعته، بل يطلب بعض الخبز المُحمّص، مع بضع تينات وسُميكات. ترى في غرفة نومه، وهي التي سكنها صيفاً وشتاءً مدّة أربعين عاماً، تمثالاً من الذهب الخالص موضوعاً على منضدة سرير منخفض مغطّى بسجّادة زهيدة الثمن.

ذلك التمثال هو تمثال طالع الإمبراطوريّة.

إن كان لي أن أستكمل هذه **المذكّرات** في جزءٍ ثانٍ[1]، فسأنشر عن هذا الرجل الفذّ تفاصيل لا تتسنّى إلّا لي ولِمِسينَس وأَگرِپّا، بما أنّنا عشنا في علاقة حميمة معه مدّة تسع عشرة سنة.

ألكساندر دوما[2].

(1) هذا الجزء الثاني لم يرَ النور يوماً (الناشر الفرنسي).

(2) هكذا يختتم المؤلّف هذا النصّ المسلسل بتوقيعه. وبدا لنا أن نحتفظ به (الناشر الفرنسي).

Twitter: @ketab_n

كشّاف الأسماء الرومانيّة

(مرتّبة حسب حروف الهجاء)

أبناء الأُسَر العريقة Patriciens: تشير إلى العائلات الأصليّة المتبقّية من روما القديمة، والتي ساهمت في إنشاء الدولة والإمبراطوريّة فأصبح لها نفوذ واسع. وهي غير طبقة الفرسان والأعيان.

أبيات نوما السَليوسيّة: أغانٍ باللّغة اللّاتينية القديمة ينشدها كهنة الإله مارس.

إتروتريا: الاسم القديم للمنطقة الممتدّة في وسط شبه الجزيرة الإيطالية، وتشمل اليوم توسكانيا ومحيط روما.

أحبار: الكهنة الذين يقضون في الشؤون الدينية وكان عددهم خمسة عشر (pontifes).

الأرگونات: رفاق البطل الأسطوريّ جازون على سفينة أرگو.

الأَرگونوت: قصيدة مطوّلة نظمها في القرن الثالث قبل الميلاد أَپّلّيِنُس عن مغامرة البحّارة الذين، حسب الإلياذة، أبحروا على سفينة أَرگو لينتزعوا 'الجزّة الذهبيّة'.

الأسرار المقدّسة: تُطلق التسمية على أعياد وشعائر احتفالية كان اليونان والرومان القدامى يقيمونها للآلهة، من أشهرها «أسرار إلوزيس» عند اليونان، انتقلت منهم إلى الرومان وبقيت تُمارَس حتى نهاية القرن الرابع الميلاديّ.

Twitter: @ketab_n

أكَديميا: Academia: تقع قرب أثينا، وهي أوّل مدرسة لتعليم الفلسفة منظّمة على شكل جامعة، أقامها أفلاطون لدى عودته من سيراكوزا بإيطاليا في 387 ق. م. ومن تسميتها جاءت المفردة «أكاديميّة» بمعناها المدرسيّ العامّ.

أگورا: مفردة يونانية تدلّ على الساحة الشعبيّة أو الميدان العامّ.

الأناشيد السّبينيّة: أغانٍ رعَويّة من أغاني منطقة sabina الريفيّة الواقعة قرب روما إلى شمالها الشرقيّ.

البَزِليكُم: بناء مربّع بثلاثة أروقة وقبّة في مقدّمته، يستعمله الرومان بمثابة محكمة وبيت للبورصة التجاريّة ومنتزه. اقتبست الكاتدرائية المسيحيّة شكله المعماريّ.

الـپومِريوم: هو في المدن الرومانية سور مقدّس يفصل مركز المدينة، حيث المعابد والمؤسّسات القضائية، عن محيطها، ويُمنَع دخول العسكر فيه.

ترُسّولِيّ: من اللاتينية trossuli أي الشبيبة الأرستقراطية الوافدة من مدينة ترُسُّلُم.

جانوس: من آلهة الميثولوجيا الرومانيّة، يُصوّره أوڤيديوس برأسين، دلالة على سلطانه على السماء والبحار والأرض. كان إله البدايات والمواسم والمفاتيح والأبواب، تُفتَح وتُغلَق بمشيئته.

حاكم مطلق الصلاحيّات: ترجمة للكلمة اللّاتينية dictator التي تُستعمل الآن بمعنى آخر. أمّا في الأصل فتعني الحاكم المطلق الصلاحيّات المُنتخب لمدة ستّة أشهر فقط.

حامل الحزمة: تتضمّن الحزمة التي يحملها المرافق السائر أمام كلّ رجل سلطة رومانيّ عدداً من القضُب وفأساً، إشارة إلى السلطة والعدل

Twitter: @ketab_n

والتأديب. الملك كان يتقدّمه اثنا عشر من حاملي الحِزَم هؤلاء.

حدائق أكَديمُس: حدائق تتخلّلها أروقة، أقامها الإغريق القدامى تخليداً لذِكر البطل الأثينيّ أكَديموس. وفي المحلّ ذاته أنشأ أفلاطون مدرسته الشهيرة للفلسفة وسمّاها «أكَديميا» (سبق ذِكرها).

الحزب الديماغوجيّ: حزب شعبويّ، كما يدلّ عليه اسمه، كان مناوئاً للحزب السيناتوريّ، حزب أعضاء مجلس الشيوخ.

حقول مارس: سُمّيت كذلك باسم مارس، إله الحرب في الميثولوجيا الرومانيّة، وهي عبارة عن سهل يمتدّ بين قلب مدينة روما ونهر التيبَريس، حيث كان يتدرّب الجند الرّومان وتقوم تظاهرات سياسيّة. وهو يشكّل الآن الوسط التاريخيّ لروما. وتحمل هذا الاسم اليوم ساحات عديدة، في باريس ولِيل ومونتريال مثلاً.

رُسترِس: تشير إلى المنابر التي تُلقى من عليها الخطب في الاجتماعات العامّة.

الساليّون («القفّازون»): اسمهم آتٍ من المفردة اللاتينية:salire (ومنها أتت الفرنسيّة: sauter)، وتعني فعل القفز، وذلك بباعث من الوثبات التي كان يقوم عليها رقصهم الطقوسيّ.

السّبينيّات: بنات منطقة سَبينا في وسط إيطاليا، يروى أنّ رومُلُس، مؤسّس روما، اختطفهنّ بعد إقامة المدينة بفترة، لنقص النساء فيها. وفيما بعد ساهمت نساء سَبينا في إيقاف الحرب بين الرومان والسَّبينيّين، ممّا قاد إلى توحّد الشعبين المتجاورين.

السـپينا: تسمّي في النصّ جداراً يتوسّط المبنى فهو بمثابة عموده الفقريّ. وبالأصل، تعني المفردة اللاتينية spina حرفيّاً «شوكة»، ومنها أتت الفرنسيّة épine، وهي تدخل خصوصاً في تسمية «العمود

Twitter: @ketab_n

الفقريّ» (باللاتينية: spina dorsualis، وبالفرنسية: épine dorsale، ما يعني حرفيّاً: شوكة الظهر أو سلسلته).

سِركُس: هذا المصطلح يشير عند الرومان إلى الملعب الكبير الذي تجري فيه جميع الألعاب والعروض، وهو غير ما يسمّى اليوم بالسيرك الخاصّ بالألعاب البهلوانية وعروض الحيوانات المُروَّضة.

سُفرة: مائدة واطئة كان الرومان يأكلون عليها وهم مضّجعون.

صخرة تَرپييوس: هي صخرة عالية قائمة فوق هضبة من هضاب روما، تَرپييوم، كانوا يرمون من أعلاها المجرمين المحكومين بالإعدام.

طريق الظفر: الطريق الذي كان يسلكه القوّاد العائدون من معركة ظافرة وحاسمة ليلقوا استقبالاً شعبيّاً احتفاليّاً.

غاليا أو بلاد الغال: الاسم القديم لفرنسا الحاليّة.

فلامين: كاهن عضو في الهيئة الكهنوتية العليا المؤلّفة من ١٥ شخصاً كلّهم من عِلية القوم، من أرستقراطية الأشراف.

فوروم: هو ساحة السوق حيث يجتمع الشعب، وكان يشكّل مركز الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة لروما القديمة.

القائد الظّافر: لقب يطلقه الرومان على القوّاد الذين أحرزوا نصراً حاسماً على الأعداء.

قصبة السلطان: حزمة من أغصان حول مقبض بلطة مشدودة بأوتار جلدية دلالة على السلطان.

قصيدة متوثّبة: قصيدة مؤلّفة من بيت طويل يليه بيت قصير، وهذا التناوب يستعمل عادةً في الهجائيّة بسبب اندفاعه المتوثّب ويُطلق عليه بالفرنسيّة اسم épode (باللاتينية: ĕpōdos).

قنصل: لا تتمتّع المفردة «قنصل» ووظيفته («القنصليّة») في السياق

Twitter: @ketab_n

الرومانيّ القديم بمعنى التمثيل الدبلوماسيّ المتعارف عليه في أيّامنا. فالقناصل الرّومان هم قضاة نشأت وظيفتهم في القرن الخامس قبل الميلاد، مع بداية الجمهوريّة، واستمرّت طيلة أكثر من ألف عام. كان الشعب ينتخب كلّ عام قنصلين يضطلعان بالسلطتين المدنية والعسكرية، لا بصورة مطّلقة بل يخضعان في ذلك إلى مراقبة مجلس الشيوخ والمُدافعين عن الشعب.

قنصل أسبق: كان لقب pronconsul يُعطى للقنصل المنتهية ولايته والمُكلّف بمهمّة عسكريّة أو بإدارة أحد الأقاليم.

لارس: من الإترووريّة Lars، وهو في المثيولوجيا الرومانية إله يحمي المنزل العائليّ ويمثل أرواح الأجداد. يوضع تمثاله بقرب الموقد. وهناك أيضاً اللّارات، مجموعة إلهات حاميات للمنزل.

ليسيوم: مدرسة أو معهد.

مباشر قضائيّ: الشخص المُكلّف بإبلاغ العقود والأحكام القضائية والقيام بتنفيذها.

مدافع عن الشعب: هو، حسب العرف الروماني، رجل من عامّة الشعب يعيّنه القنصل ثمّ ينتخبه الشعب.

المرسيّون: من شعوب إيطاليا القديمة، كانوا يعيشون في جبال الأپنينو.

ناظر عامّ للمدينة: مسؤول عن صيانة الأبنية العامّة والطرقات، وعن الشرطة والتموين وتنظيم الألعاب (édile).

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

ألكساندر دُوما (1802-1870) روائيّ فرنسيّ معروف بغزارة إنتاجه وبكونه رائد الرّواية التاريخيّة. كان أبوه أفريقيّاً من جهة والدته، خدم في جيش فرنسا إبّان الثورة وفي عهد نابليون بونابرت. فقدَ دُوما والده وهو في سنّ الرابعة فعنيت أمّه بتنشئته. تقرّب من أدباء التيّار الرومنطيقيّ، وبدأ بكتابة مسرحيّات هزليّة ثمّ اتّجه إلى القصص التاريخيّ وروايات مغامرات الفرسان، مستعيناً في بعض أعماله بكتّاب مُساعدين كانوا يساهمون في التحضير لها. من أشهر رواياته «الكونت دو مونت كريستو» و«الفرسان الثّلاثة» و«المكلة مارغو». نُقل رفاته إلى مدفن العظماء (البانتيون) بباريس بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لولادته، في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2002. يُدعى أحياناً «ألكساندر دوما الأب» تمييزاً له عن نجله «ألكساندر دوما الابن»، وهو أيضاً روائيّ غزير الإنتاج، عمله الأشهر هو «غادة الكاميليا». وقد أصدر مشروع «كلمة» ترجمات للعديد من مؤلّفات ألكساندر دُوما الأب.

نبذة عن المترجم:

بطرس الحلاق حامل لشهادات عديدة منها دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة السوربون). أستاذ كرسيَ الأدب العربي الحديث في جامعة السوربون -باريس الثالثة، ورئيس رابطة أخصائيَي الأدب العربيّ الحديث في الجامعات الأوروبية. من مؤلّفاته بالفرنسيّة «جبران وتأسيس الأدب العربيّ»، منشورات آكت سود، آرل، فرنسا، 2008، صدر بالعربية بعنوان «جبران: حداثة عربية، ذات تتكوّن وأدب يتجدّد»، ترجمه إياس الحسن وجمال شحيّد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2013. أشرف بالتعاون مع المستعربة هيدي توليه على «تاريخ الأدب العربي الحديث»، وقد وضعه بالفرنسية لفيف من الباحثين والأساتذة، صدر منه جزءان في منشورات آكت سود، وتَرجم إلى العربية مؤلّفات عديدة منها «الذاكرة الموشومة» (عن الفرنسيَة) لعبد الكبير الخطيبي، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1984. كما وضع عدداً من المناهج لتدريس العربيّة للناطقين بالفرنسية، وكتب بالفرنسية والعربية عشرات الدراسات والمقالات المخصّصة لإبداعات وقضايا عربيّة.

مذكَرات هُراسيُوس

أمَا أعـزَ النزهات على قلبي فكانت إلى تلك العين الجميلة بَندوزيا، التي أهديتُها أبيات شعر تنوَه بالسعادة التي غمرتني حين عدت إليها بعد غياب طويل. ولعلَ سبب انشدادي القويَ إليها هو أنَي حظيت على ضفَتيها، لأوَل مرَة، بما جعلني أتفاءل بحظوتي لدى ربَة الشعر. فذات يوم - وهذا جلَ ما أستطيع تذكَره، إذ كنت لا أزال صبيًا يافعاً- غفوت على سفوح الڤلتور المنحدرة باتَجاه لُكانيا، بعد أن أرهقني اللَعب. وأثناء نومي جاءت حمائم تغطَيني بأوراق الشجر، بحيث أنَ الفلاحين المارَين دهشوا لرؤيتي نائماً في مكانٍ تغشاه الدببة ويعجَ بأفاعٍ سوداء، لا يحميني من شراسة تلك وسمَ هاته إلَا بعض أغصان من الآس والغَار.

في غمرة تلك النزهات الصبيانية والعبث الطفولَي، بلغت الثامنة من عمري، ففكَر والدي بالرغم من فقر حاله بتربيتي. إذ أنَ ذلك الأب الطيَب، حين رُزق صبيًا، لم يفكَر إلَا بأمر واحد: أن يجعل من ابنه رجلاً.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY
9 789948 173953